سمير نقّاش

شلومو الكردي وأنا والزمن

رواية

@ketab_n
Follow Me
ketab.me
Best Books
18.9.2012

منشورات الجمل

سمير نقاش

شلومو الكردي وأنا والزمن

رواية

منشورات الجمل

Twitter: @ketab_n

سمير نقّاش: شلومو الكردي وانا والزمن، رواية

Twitter: @ketab_n

ولد سمير نقّاش عام ١٩٣٨ ببغداد / البتاويّين – العراق. هجّر عام ١٩٥١ من العراق. تنقّل بين اسرائيل، الهند وايران. يقيم اليوم في بريطانيا. صدرت له روايات وقصص ومسرحيات، منها: **أنا وهؤلاء والفصام**، قصص عراقية، ١٩٧٨؛ **نزولة وخيط الشيطان**، رواية عراقية، ١٩٨٦؛ **فوة يادم**، نوفيلا عراقية، ١٩٨٧؛ **الرجس**، رواية، ١٩٨٧؛ **المقرورون**، مسرحية، ١٩٩٠. صدر له عن منشورات الجمل: **عورة الملائكة**، رواية، ١٩٩١.

سمير نقّاش: شلومو الكردي وانا والزمن، رواية

جميع حقوق الطبع محفوظة لمنشورات الجمل، كولونيا – ألمانيا ٢٠٠٤

© Al-Kamel Verlag 2004

Postfach 210149
50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982
Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

Twitter: @ketab_n

الاهداء

شمعتان دائمتا الاتقاد

لأمي نعيمة

وخالتي رحمة

اللتين عاشتا معاً وماتتا معاً.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ما بعد صبلاخ

١٩٨١ ـ ١٩٨٥

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

رمات كان، ١٩٨٥

حلوة كلمة «دواسة السيارة» هذه! أجل، إنها تمتُّ لعصرك لكنها من أيام شبابي الأول براء. بيد أنني ضحكت لها ضحكة ارتج لها سريري وكادت أن تجمد أعضائي وتنتزع بقايا رمقي، فداريتها بحمحمة توسمتَ فيها بالأرجح إصراري الغابر، ثم بيد مرتعشة ناولتك موزة من صحن بجواري، يحوي مع الموز برتقالا وبضع تفاحات.

لم تنس، فجئت تدعوني إلى عرسك، ورمقتك بنظري هذا الذي لم تبلِه الأعوام، فرأيتك تحدق بي، أنا المجذاف الذي فج الأهوال وساط الزمن، أنا، كومة قوامها مئة عام ممددة على سرير، وتنكمش الآن إلى لحظة ذهول، ذهولك أنت. أما أنا فابتسمت ابتسامتي الهادئة الملازمة لوجهي منذ سالف الأيام، وصمت. أنت، سمعت ردي في صمتي هذا وابتسامتي الشاحبة، فتساءلت

- أحقا قررت أن ترفع قدمك عن دواسة السيارة؟!

فضحكت حتى كدت أبر بوعيدي لهذا الزمن، وأموت، لكني تداركت تنفيذ هذا الوعيد. فاللحظة غير ملائمة، ومن واجبي أن أصحح له ألفاظه العصرية فقاطعته.

- بل قل، أمسكت بلجام جوادك يا أبا سلمان.

جوادي! توقفتُ به هنا، وقد حملتني في حياتي كل وسائط النقل، لكنني لم أسق يوما سيارة، فأنا مازلت شلومو الكردي يا زمن! لم أبك طوال عمري غير مرتين. مرة يوم ذبحوا أسمر أم البنين، ومرة يوم قتلوا أستير الصغيرة وأستير وناحوم.

وهمهمت أحرق الأرم على ألد أعدائي. كم عركت أذني يازمن لكنك لم تقهر عزيمتي، وشحنت هذه الأعوام المئة بالأهوال، وكان دأبك أن تسرق مني همتي فأبقيتُ همتي بيدي وأعدتك، يا زمن، خاوي الوفاض.

مازلت حتى هذه اللحظة شلومو الكردي كما عهدته، وسأنتقم منك، إذ

Twitter: @ketab_n

سأسلم لبارئي أمانته التي أودعها بي. سأقدمها له مع خالص الحمد والأمتنان، في وقت لا يبدو ببعيد!

خاتمة مطافي هنا في رامات كان! تذكر يافتاي، تذكر! وكل موزة أخرى أو تفاحة. هذه، مازالت بلد البرتقال. في صبلاخ لم يكن بهذه الكثرة. صبلاخ، جبال ووديان. وتنبت اللوز والبلوط والصنوبر. لن أنسى صبلاخ الحبيبة الملعونة، كلا، رغم بغداد العز وبومباي مصدر النعمة وطهران المأوى. هنا، توقف الحصان عن المسيرة، ولاح شفق المغيب، وتهادى وئيدا انتقامي العذب الجبار.

والآن، الآن تقطب حاجبيك، وتحاول أن تقارن بين حكميات النبي سليمان وفلسفة شلومو الكردي؟! رويدك، لا تفزع! إذ تسقط بيننا كرة رصاص. إنها الدنيا برمّتها. حملتني على ظهرها وحملتها على ظهري فلم ينقصم. إني أنا ذلك الثور الهائل. ونقلتها من على قرني هذا إلى قرني ذاك، فاهتزت الدنيا وارتج القرنان. ومال المجذاف إلى جانبه. ارتعد ولم ينقصف، بل عاد منتصبا يفج غمار الهول ويمضي في طريقه.

هل لك أن تصفح عني، أو لعلك قد صفحت فعلا يا ولدي.

أعرف أني في طهران، كنت أحيانا أُسيء إليك، في أيام السبت شتمتك. تعرف أني كردي غيور على ديني، وأنت كنت تضرم غضبي كلما أضرمت يوم السبت نارا. ولكن هل مات أحد يوما من شتيمة! تلك كلمات طفحت في فورة السخط مجرد فقاعات ليس بداخلها سوى الهواء. أبدا لم يقذفها القلب من باطن سويدائه. القلب كان ومازال منتفخا بكلمات أخرى، حقيقية، هي وهذه الدنيا المنتفخة المتمدنة الساقطة الآن بيننا، سواء. إنها مئة عام بأسرها، عصارة عمر. كأس تطفح بالقطرات، بالكلمات. قوية وتصيب الأبدان بالقشعريرة. في جلساتنا الطويلة هناك، أجهضها لساني، في ذاكرتك سقطت. وعن ذاكرتي لم تبرح، الكلمات... غير قابلة للأمحاء، بل ويُنتج منها ألف صدى، لكن الأصل يبقى الأصل دائما، وما من شاهد كمن سمع، ولا من روى كمن رأى ووعى!

Twitter: @ketab_n

أفتذكر؟! أأذكرك أنا؟! أم نتذكرها معا، يرافقنا الزمن؟!

* * *

أجل! خاطبني بعربيتك اللكناء كعهدك. هذه المتميزة الذربة، رغم اللكنة، كنت تترجم بها أحداث القرن الكبرى. تهوي كلماتك على رأسي، كقذائف مدافع كل الأطراف، تاريخ سطرته مع الدنيا، بأرامية الجبل. والفارسية، والروسية، والأذرية، وبعبرانيتك التوراتية، وبهذه العربية، ما عتمت بها تجاهر باعتداد أهل النسب وبأصالتك الكردية، يوما، قلت لي كأنك تعزف على قيثارة النشوة حتى يستخف بك طرب الدنيا. كانت أحرف «شلومو الكردي» الذهبية تتلألأ على باب حجرتي في السوق ببغداد. كانت مثل وهج النور وأغفلت «كتاني» اسم عائلتي، إذ كنت أريد، أن يعرف القاصي والداني، أن الكردي اللاجيء المهاجر، هو أول من أدخل بالات الثياب المستعملة إلى العراق «عجبا! أفكان الناس سيجهلون هذا، لو أنك كتبت على لافتتك» «شلومو كتاني الكردي»؟!

لكنك «كردي!» كردي يا أبا سلمان!

وضعت يدي على كفه الكبيرة المعروقة. ثمة إذْن فيل تتدلى من رقبة زرافة، في قديم الزمان، كانوا يقولون أن من الصفات المشروطة في رئيس الجالوت، أن تصل يديه إلى ركبتيه، كنت أعتقد أن ذراعا بهذا الطول هو ضرب من المستحيل، حتى رأيت ذراعي شلومو الكردي. اختلجت الكف العملاقة الذابلة بين راحة ناعمة صغيرة. اجتاحني تيار اشتمل على عناصر حملت كلها اعتصارات من نوع ما، انطلق من ذبذبات الخلجة، خيبة، أسف، حنين، خوف، روعة، قوة، موت وبعث، ثم يأتي العدم الجبار، فكانت الأشياء كلها تتفكك، وتتفسخ وتسقط هباء في فضائه. وكان اللاشيء يلاشي الشيء برمته، ولا يلبث بذاته أن يصبح أشياء كثيرة صلبة. كل ما هو كائن! وهنا، كانت تعود وتتبأور الأطياف، والأصوات المندثرة تُسمَع مجلجلة، ورمم تعود وتصبح، رفاتها بشرا ينعمون بالحياة. وازمان غابرة تخرج من مخبئها في أثير الوجود، مستودع لا تضيع فيه ولا حتى ذرة من رماد سيجارة.

أفأنا أتذكر؟ أم تذكرني أنت أم نتذكر معًا؟!

أجل. لنتذكر معًا،.الزمن، وأنت وأنا، وليعد الماضي العدم، ذكرى حاضرة ممتلئة بالأشياء.

Twitter: @ketab_n

بغداد - بومباي، ١٩٢٤

«أسمر» يا أم البنين! كيف أبوح لك بسرّي هذا الأخر؟!

من قبل، حين أسراري ككلاب متضورة وتنهش في وجداني وأحشائي، وأنا اكتمها عنك، خوفا منها ومني عليك. كنت تجيئين إلي، كعرافة مطلعة على الغيب، أو كقارئة بوجهي وعيني، وقد صيرهما حبك الطاهر كتابا مفتوحا أمامك. قرأت في سحنتي، ما كنت أُشفق أن أصعق به جنانك الرقيق كعصفور فكنت أنت التي تسرد لي أسراري، ثم تشرق عيناك بدموع متوهجة كالماس، تمسحين على شعري، تضمينني إليك كطفلك، ويلتم أوجاعي، ألمك، تتعالين على ذاتك، لا أنانية فيك. تزجرين عن قلبي الكلاب النهاشة، وتمرخين جروحه بالمرهم الشافي.

أم البنين! حبي وعمادي وركيزتي. كعين الله الساهرة علي في هذه الأرض. عوني على الأحداث وملاذي. شريكتي طوال عقود، المر والحلو والسراء والضراء، أقسمت حين انتقلت بجوار خالقها أن أختتم ببكائي عليها عبرات عيني، والا أجود بقطرة دمع من بعدها على شيء. استبدلت الطيب بالخبيث فتزوجت «أم عزيزة» من بعد أسمر، رمادا من بعد جمر. العانس السليطة المهذارة. جئت بها إلى بيتي لتخدمني، لم أهب قلبي لأم عزيزة يوما قط. كنت كلما جمعنا فراش أركع أمام روح أم البنين، اضرع إليها لكي تأتي وتتلبس هذه السليطة التي ترقد تحتي، لكني ويا للخيبة، كنت أضيع في ثنايا وهمي، يتناهى الذفر إلى أنفي. لقد ضاع العنبر، ضاع! وأنا ما كنتُ ملاكا. إني بشر. شلومو الكردي! يتأجج غضبي وتتأجج شجوني. لقد خنت أسمر أم البنين، وبعتها بأبخس الأثمان... بيد أنني أبدا لم أُحسِّني من بعدها راقدا في فراش الزوجية. كنت أضاجع أم عزيزة وكأني أضاجع عاهرة في ماخور.

العجوز السليطة المهذارة الحسودة، فقدت صفاتها هذه إذ شل نزف بدماغها، لسانها، وكف بصرها عن الرؤية، وهي ذي ملقاة بالغرفة الأخرى كنفايات متراكمة منتنة.

Twitter: @ketab_n

كلا، لم أخش أم عزيزة لحظة، قل إني كنت أتحاشى سطوة لسانها، ولا حاجة بي لأن أذكرك بذلك اللسان – السوط الذي كان كلما اهتز، أطلق صلية من لعنات وشتائم. هل تذكر السمكة «البنية» التي اشتريتها بأربعة تومانات بسوق «لالا زارنو» بطهران؟ كنت معي، وأنا كذبت عليها. قلت لها بتومانين ولم تصدق فسألتك بغيابي، وبحسن نية رددت عليها بالصدق وقلت «بأربعة تومانات» وسرعان ما هلعتَ وذعرت وفررت إلى غرفتك حين اهتز السوط ولعلع لسانها مبتدئا «بـ أحلال عليه أن ينفق أربعة تومانات على سمكة؟! فليأكلها لوحده، وعساها تغدو سما يهري بدنه ويقضي عليه»!

وجئت إلى أم البنين، في رأسي الفكرة مختمرة، وكيسي ممتلىء ويرن بصليل الليرات الذهبية لكن قلبي واجف، وعقلي متردد. كان يوم صعودي حبل المشنقة أهون. لا أخشاها، بل هي اعتصارة الحب الجبار وإشفاقته. هل سأضيف لمواجعها آلاما أخرى؟ وكيف سيكون وقع قراري عليها؟ قرار يعني المجازفة والمجهول والفراق. إن دمعها المصفى الرقراق سيعود ويتوهج في عينيها الدعجاوين الوادعتين. ستقول، لا ريب ستقول، «ألا يكفي كل هذا الذي جابهناه؟!» ستقول «أستتركني في الغربة، بلا نور شمعتك المضيئة؟!» لا! إني إنما أتكهن وألصق أنانيتي هذه بها وهي التي لم تقحم يوما الشكوى إلى معاناتها. ستقول «أتتركني؟!» كلا بل ستقول «قلبي عليك! أفمن غربة إلى غربة؟! ألا تكفي أهوال الأمس؟! قلبي لن يكف عن التمرغ على حاجز المجهول متسائلا عن أخبارك؟!»

إنها في المحو ستعجز عن رؤيتي. لن تعلم ماذا سيحل بي. ستظل تقول، وتظل تبكي، وهذا هو الخوف الماحق، خوفي على أسمر أم البنين!

لكني أنا شلومو الكردي، عنيد قاس. بيد أن لها، رغم هذا، وللأولاد، ضلعا في قراري، إنهم شركاء مغامرتي الجديدة. مقامرتي... ولو واتاني حظي، ويقينا سيؤاتيني كعشرات المرات من قبل، كما عند اعتاب ميتات شتى كادت أن تغيبني في أحشائها كتمساح فاغر الشدقين، ولو واتاني الحظ في هذه المحاولة الأخيرة، فسأعود وألتقي بوجودي وأحقق لهم الآمال وآتيهم بالعز الغابر، ولكني

Twitter: @ketab_n

جبنتُ - وقد تستغرب هذا - وترددت. قررت مفاتحتها في فرصة، أتوسم فيها بأم البنين قوة تشحنها بالاستعداد لتلقي الخبر أو تخفف من وقعه على روحها الرقيقة، إني متردد. وترددي يعني الصراع. ووجهي في عينيها مرآة. وجهي وعيناها. وليست عيناها ووجوه الآخرين. ولا عيون سواها وهذه السحنة. هذه أعجوبة الحب الخارق العراف الصادق.

والصراع يحتدم هناك. ورغبتي جبل من جبال كردستان، وتجبجبي وهدة من وهاده، وهي تقرأ وتقرأ، بيد أن الكلمات هذه المرة كانت عسيرة على فهمها، أدركت أسمر أن الكلمات تبطن السر، إلا أنها لم تكتشف فحوى هذا السر. كنت مستلقيا بجوارها على السرير صامتا أفكر. لا شيء إلا الفكرة ذاتها. واللسان يهمّ ثم يعود ويبتلع الكلمات. الآن... بعد ساعة، بل حين تسنح الفرصة. لكنها تنهض فجأة جالسة على السرير، خطوط وجهها تحيد عن أماكنها وترسم صورة تعبر عن دهشة، عن قلق، عن خوف، عن أشياء كثيرة لم أستقصها، إذ عدت إلى نفسي أسائلها كاللائم، أندت عنك آهة؟! افكرت بصوت عال؟! صوت استغل سهوتك وطار إليها؟! غافلك الضيق وانطلق يصرخ؟! أهي الفكرة ذاتها؟! ترددك؟

إنها تحنو علي وتعود تجردني من أنانياتي. وتنغرس معاناتها في سحنتي. «ماذا يا أم البنين؟» بل التساؤلة سرعان ما يستوعبها ضميرها فتقفز إلى لسانها وتنعكس. إنها دائما تحيل «الأنا» إلى «أنت» تتساءل، صوتها معزوفة فارسية حزينة، تهز الصخر. أما المشاعر المولهة، فتصاب بجنون أخرس عذب، يتفتق بالحنايا في صمته، عيوناً جياشة بأشياء من ضروب الإحساس، تهدم تهديما معشوقا عذبا، يتمنى المرء أن يموت في أحضانه وهو مطمئن.

- ماذا يا أبا سلمان؟!

جلست بدوري على السرير وأخذت بيدها، ضممتها بين راحتي، لدنة رخوة كحرير، رقيقة لم يغلظها العمل الدؤوب، وصغيرة تضيع داخل يديَّ المطبقتين عليها. خفت أن تختنق بين راحتي. فأرخيت عنها ضمة الحب والأعجاب. اعتلج عقلي وضميري، لكن لساني أصيب بسكتة.

- قل يا أبا سلمان، فما عهدتك تخفي عن أسمر شيئا.

Twitter: @ketab_n

سهمت في الضوء الخافت، حدقت عيناي بالجدران الكالحة.

بيت صغير في زقاق ضيق، تهرب الشمس منه ويقطنه العطن والعفونة، النسيم يبتعد عنه، يختار أحياء أكثر إنسانية، فتتبجح هنا روائح المجاري ونتن البلاليع. زقاق نساه الله وعباده، وغمره أمثالنا من المهاجرين المنبوذين.

- أيرضيك هذا الحال يا أسمر؟

فهمست

- مرت بنا أيام أسوأ، وقد بدأ الله سبحانه يتذكر نعمه السالفة علينا من جديد.

وفجأة تلاشت سكتة لساني وانتقل إليه حريق العقل والوجدان.

- قررت أن أجد الحل الحاسم.

- نحن في الطريق إليه، فإذا قنعت وصبرت فلن يطول انتظارنا.

- بين ما نحن فيه وعزنا القديم بون عميق.

- نويت على أمر إذن.

- سأسافر، ففي الحركة بركة. وقد أعود إليكم بالفرج.

هلعت، متسائلة.

- إلى أين يا أبا سلمان؟!

- سأركب القطار إلى البصرة، وأستقل من هناك باخرة تحملني إلى بومباي، يقولون أن الأنكليز زرعوا بالهند إمكانيات كثيرة، وسأجرب حظي هناك.

فقالت.

- ولم يقصروا هنا في بغداد كذلك.

- أنسيت ما نابني منهم هنا؟!

- وكيف أنسى؟ فلو لم أكتشف السر، لكنت حتى الآن تعمل في أقذر الأعمال.

- وهذا ما يحدوني إلى السفر.

- لكن الرب فتحها علينا... فلنصبر.

فقلت:

- لو لم يفتحها علينا، لرضيت بحكمه صاغرا وسكت، ومادام قد ألقى إلينا بطرف الحبل فعلينا أن نتسلقه حتى النهاية. إن مصاريف السفر، مصرورة في

Twitter: @ketab_n

كيس تحت الوسادة ومعها الليرات الذهبية.

فقالت،

– تفديك الليرات الذهبية، فما كل مرة تسلم الجرة، ولو مس السوء شعرة في رأسك فاعلم بأن في ذلك ستكون نهايتي ونهاية أولادك.

مرة فدتني بمشاعرها، ومرة بحليها، وهي تفيض علي بروحها وتريد أن تفدي شعر رأسي بحياتها ولكن هل أعدل عن قراري؟! هل أن شلومو الكردي ارتدع يوما عن خوض المخاطر، وفج غمار المجهول؟! كلا، وأعدك يا أم البنين بأن مكروها لن يعرض لأبي سلمان. ولقد تركنا الأهوال وراءنا بعد مصرعها، في قبر الماضي. ومستقبلنا أمل وكفاح.. وأقصى ما يمكن أن يحدث، هو أن أفقد صرتي فأعود، لأجدد المحاولة، إني أعرف الوصول إلى مناجم الذهب، وعزيمتي تبلغ معاين الكنوز الدفينة. فارفقي برغبتي يا أم البنين.

– لا جدوى، أعرف أنك لم تتراجع يوما عن شيء أزمعت عليه.

– إني تاجر يا أسمر، وقد شفع لنا المال في تلك الأيام السوداء.

– إذن تاجر بما عندك في بغداد، فهي مليئة بالتجارة والتجار وقد حان الوقت لأن تضع عصا ترحالك وترتاح.

فقلت بإصرار.

– لن يهدأ بالي حتى أُقيم أيام العز السالف من قبرها، وحتى يشار إلي ثانية بالبنان.

فتنهدت وقالت على مضض.

– سافر إذن مصحوبا بالسلامة

* * *

ثياب مقطعة وحقيرة وخرج حمار يضم غيارا وبعض طعام وصرتي. لم أتنكر إلى أفاق، فزمني قد صيّرني أفّاقا بالفعل. ولست ببخيل. في الماضي كان بيتي في صبلاخ يستضيف القريب والبعيد، أنفقت بل أفنيت ثروتي في إغاثة إخواني وأهل بلدتي إبان سنوات الحرب. الآن، ماعدت أملك غير صرتي هذه، من «الغوائط»، وبتضحية أسمر، وبالأعجوبة، جمعتها. عرق جبيني تفجره ذلتي،

Twitter: @ketab_n

وتجففه عنه كرامتي. إنها إذن روحي مادمت لا أطيق العيش إلا كريما، من هنا سأبدأ بجمع أشلاء كبريائي المهشمة. منها سأبدأ بلحم الكسور والصدوع. إني اعقد على صرتي بألف عقدة، أفاقا مشعث المظهر أمضي. كلا لن ادلل نفسي فأتربع مثل ملك على حساب صرتي هذه. فحتى الدرجة الثانية لا تليق بمظهري. إني أرتمي هناك على «الديك»، على سطح المركب، مع الفقراء وشذاذ الآفاق، ومن باع ما تحته وما فوقه ليأتي للعراق حاجا إلى النجف وكربلاء وضريح الشيخ الكيلاني في بغداد، هنود يرطنون، وبلوج رعاة وأعاريب ورطوبة وعطن وفئران وصراصير وأنا تاجر مدسوس في جحر كبير وراءه ذكرى لتاجر... وأمامه مشروع لتاجر وأفكاري التي لا تعرف الصمت تساوم وتقايظ. وهنا قد بدأت الغربة فهل صدقت أسمر الصدوق؟ هنا، أسمعني وحدي في زاوية قذرة عفنة ظلماء. في أعلاي مستودع أو مربض ذكريات مخزونة بكميات تضاهي هذا البحر الساعون نحن إليه. شط العرب ومصبه، ثم ها نحن في الخليج وإثر ضربة خفيفة بعصاي السحرية تتفجر العين بقوة إلى أعلى. نتف ذكريات وأحداث غير منظمة، إلا ما يناسب حالي هذا ويلتصق هنا وهناك. غارق في الوحشة، الزنزانة في طهران ما قبل الحرب الملعونة يوم ألقاني بها الشاه القجاري، وأنا مهتريء الظهر ومعي صرتي وإغمائي وعظامي المهشمة، وتبريح الألم بعد رجوع وعيي. وتجن المواجع مع كل حركة.. رماني بها وسافر ثم نساني. وهناك الصمت وهنا الصخب. وأنا أنطق العربية بصعوبة. وعلي أن أقوقيء أحيانا لأقول كلمة ذات مغزى، من هذا الكلام المبربق من حولي كتفقؤ، فقاعات قلية السمن الحر على النار. كلام غليظ حام كأنه متبل بالكاري والبهارات. بهارات! أتراني فيك سأعود وأعثر على كرامتي الضائعة؟! بهارات! والغربة من هنا بدأت. فهل صدقت أسمر أم البنين؟!

هنا، مع هؤلاء الهنود إنقطع لساني، ولكن حتى متى؟! قالوا إن الدرب إلى بومباي، لو حالفنا الحظ أسبوعان أفسأصوم أسبوعين عن الكلام؟ أنت لها يا أبا سلمان أنت لها!

أجل! هناك، في الفيافي والقفار، وعلى رؤوس الجبال في ليالي المحنة الطويلة

Twitter: @ketab_n

وأيامها وحدك حين نضب الكلام في قيظ جنون الانسان، وتراكم الجليد فكسا الدروب وجمد الألسن، مكثت الأخطار تعربد.. كان الصوم يشمل كل الأشياء. ولكن... ماذا؟ فهل عرف إنسان ذاته كما عرفت ذاتك أنت؟! متضادات ونقائض. دم بشري شديد الحمرة على التراكمات الثلجية أفتذكر؟! بل هل نسيت شيئا من كل دقائق حياتك؟ الصمت في الصمت، في الحزن، في الإفحام، والضجة من حولك والأمل كفرخ حمامة داخل بيضة يجب أن تفقس، وأنت لست مريدا «هنديا» معتزلا في صومعته عن الدنيا. معرضا عن الأشياء «ابحث يا شلومو! إبحث! فتش عمن يفهمك» الكلام هنا أهم من الماء والزاد. الكلام صلة والصلة معرفة والمعرفة هداية وإذا اهتديت بلغت الضالة وحققت المرام، فقم وتجول بين الناس... عن كردي؟ هذا محال! افسمعت بكردي يركب البحر من البصرة قاصدا بومباي؟! إلا أنا. جبيلي على هذا المركب. كأني ابحث عن هندي يعتمر كوفية وعقالا؟! وهؤلاء أعاريب الخليج، يرمقونني بعداء وريبة وأحدقهم بتحفظ. ولو فتحت فمي فإن الأمور قد تتعقد. ألكن ومخنون وهجين وكردي يهودي وفارسي إذربيجاني وبغدادي ومسافر إلى الهند. أنا! كل هذا أنا. ومهاجر وأفاق ومتاجر ومغامر. أنا وحدي السندباد في مطلع القرن العشرين. أفحقا إنقطع لساني وأصبح كل ما أعرف من لغات مجرد لعلعات قرد عجماء على ظهر هذا المركب؟!

نتف الذكريات وشظايا اللغات المعطلة، تأتي كهبات رياح هذا المحيط، وكلججه الشبيهة بالجبال. «أخاف عليك!» قالت أسمر. «سأزوجك إستير» قالت أسمر. «ماتت إستير ومات الطفلان» تفجعت وأنا أقول هذا لأسمر. الجبيلية آرامية الجبل؟ «هذه لغة اليهود منذ سبانا الآثوريون» قال أبي «والعبرية؟» «لغة توراتنا ولن تغادر المدراش مالم تختمها» «شالوم عليخم حاخام ناحوم!» كان مضطجعا هناك، لحيته والجليد الهاطل سواء. أين اللحية وأين الجليد؟ العبرية يومها طُعنت في قلبها وتجندلت. لم أتلق ردا وقلت لمير علي بالكردية في جولة مبكرة من جولات الحرب في صبلاخ «اطمئن! قد نقلت البيت كله إليك ولم ينقص منه شيء!، ولم يسرقوا من بيتك حذوة حصان!» وكان الجنود قرابة عشرة

Twitter: @ketab_n

يقاومون الصقيع برشفات صغيرة من زجاجة فودكا وقلت لهم بلغتهم «أتريدون زجاجات كثيرة من نبيذ معتق؟! ساعدوني إذن في نقل محتويات هذا البيت!» وهبوا جميعا غير مصدقين، وقال لي القجاري وهو محاط بحاشيته ويكترع الخمر من كأس ذهبية «اختر بين خمسين جلدة بعصا مرنة أو ضعفها بعصا جافة» وكان يكلمني بالفارسية ويريد أن أختار بين ميتتين فرددت على تبجحه بالفارسية وعاقبني بالخيارين معا لكنني ظللت ثابت العزيمة والجنان، وأنقذتني الصرة، بل هي الصرة التي ستعيد لي الآن كرامتي المسفوحة، وستنقذني في بومباي لأعود إليك يا أم البنين كما كنت أعود إليك بالحب والكرامة في سالف الأيام. ويومئذ لم يرتعد جناني. كان ثابتا كالطود الشامخ المعتمر طاقية ناصعة البياض، حين صرخت بالأذرية على مقربة من تبريز «اخرجا يا جعفر ويا حسين أكبر... ولنتفاهم» فخرجا متوجسين من خلف صخرة وكل منهما يحمل بندقيته... ورأيت الطيور الجارحة تحوم فوقنا بيد أن قلبي ظل راسخا كجبال أذربيجان. كانت الجوارح تحل حيثما حل الإخوان. وقلت لهما «لن تفعلا هذا، فأنتما مدينان لأبي بهاتين الرقبتين» أو لعلهما بادرا إلى الاعتراف بفضل أبي عليهما. وقال لي بغدادي يهودي كريم، بعد أن فررنا مرغمين من صبلاخ «الإنكليز عندهم شغل بلاكت، تقبل تشتغل بالخرا؟!» فأجبته «يشتغل! يشتغل بالخرا ولا يعتاز على خرا إبن خرا» والآن أقوقيء «نا» «نا» وأدفع الصحن من أمامي. أقوقيء كدجاجة أمام نادل المركب الهندي وأضع يدي على دبري وأعيدها مكورة وأبرز له إصبعين... أريد بيضتين! وأشير إلى الخبز.. وخبزا «لن أتناول لحما» ولن آكل بهذه الصحون فأنا متدين آكل الكاشير فقط ولا ألمس ماعونا احتوى على الدهن واللحوم معا، ففي ديننا يفصلون بين أواني اللحم وأواني الحليب ومشتقاته «أقولها لنفسي فكيف يفهمني الهندي؟ لا بل هو ذكي فطن، قد أدرك فهز رأسه، وضحك، وأسرع ليأتيني بالبيض والرغيف...» وأريد أيضا سمكا مشويا، وهاته على ورقة، أو داخل رغيف خبز... والعمبة كذلك! بإشارات الخرسان وضحكات الطرشان، وإشارات القرود وقوقأة الدجاج. وأنتحي ركنا، القذارة أنظف منه، أفاق مشبوه وأثير ريبة الناس، وأثير

Twitter: @ketab_n

الإشمئزاز. آكل وأمسح فمي بأكمام ثيابي ثم أشرع بدمدمة طويلة «بركَة الطعام» شفتاي تختلجان. والهمس المكتوم يطول. ويعدي الجمع من حولي فأراهم يتسارون «غريب هذا الرجل... غريب!» بالطبع لا أفهم هذا، لكني أقرؤه على وجوههم. والسحنات داهشة وترمقني بعلامات السؤال. وأقسم أنها في الأرجع كانت تتساءل «من هذا؟ وبماذا يتمتم؟!» كانوا يحدقون في خرجي بدهشة ويتابعون في الصباح يدي المندسة فيه، الخارجة منه بهذا الخرج الآخر الصغير. افتحه وأنشر «صصيثا» كالشراع ثم أتلفع به كوشاح وأشمر عن ردني الأيسر، إلى ما أعلى الذراع، ثم الف حولها هذا السير الأسود، وإذاك، لا أرى بعد أحدا. إذ أغوص في صلاتي وأتلاشى في ذات قوة عليا مع دعائي «اللهم، يامن حباني برعايته في أحرج الساعات وشملني برحمته في أقسى الأوقات سدد خطاي ووفقني، واحفظ لي أسمر والبنين!»

فرغت. النظرات من حولي شبكة صياد وتسحبني إلى الغربة ثانية. إلى هذا اللوح من الخشب العطن المتآكل الرطب. يتهامسون من جديد. فاشعر بانحكام الشبكة على بدني، ويكتم روحي هذا «الغيب» الواقع قدامي. واقع مجهول. واقعهم. إما أنا فيعود ويلح علي السؤال «أحقا صَدَقَتْ أسمر أم البنين؟!»

مهلا. إنه يقصدني، هذا الرجل الأسمر البدين، الساتر عورته بوزرة الهنود، العاري حتى سرته، رغم أن في الجو مازالت تسري برودة وتترجم التفكير بالتعري إلى قشعريرة. هذا الرجل الأكثرهم فضولا، الملازمني بنظراته منذ انتحيت هذا الركن، قبل ثلاثة أيام، فلم أغادره إلا عند الحاجة القصوى. يقصدني الآن، يقرفص بجواري ثم.. «شالوم عليخيم!»

مرحى! سيماؤنا بوجوهنا وبعوراتنا. نعرف بعضنا في الحياة والممات.

– بغدادي؟

– بل كردي أيراني قذفت به الظروف قبل سنوات إلى بغداد.

كلانا مخنون العربية البغدادية، وخنتي أعرف كنهها، لكن لكنته من أين؟

– غادر أهلي بغداد إلى بومباي قبل عقود، وأنا ولدت هناك وأسكن هناك لكننا مهما بعدنا عن بغداد نبقى بغاددة، وأهلي، أعني أقاربي، مازالوا بالعراق.

Twitter: @ketab_n

- أجئت زائرا؟
- زائرا وحاجا. النبي حزقيل، عزرا السوفير، يهوشواع الكاهن، النبي يونا.. .نعم. نحن نحيا هناك لكن قلوبنا أبدا في العراق.

رغم اللكنتين، تحقق الاتصال. تقيأتني أحشاء الغربة في أحضان يهودا بحر. قال.

- باسم هذا البحر بالذات لقبنا، إذ قطعه جدي لأول مرة سالكا هذا الطريق إلى الهند.

إن يهودا «بحر» يختلف عن هذا البحر. إنه هادىء رقيق ورزين. أما هذا، فكانت أبعاده اللامتناهية تمسخني ذرة رمل، كنت أتقلص حذو هذا المجهول وأصاب بروعة غامضة المصدر، إزاء اللجج المتعالية كاطواد إيران وكردستان، وكان يهودا يضحك من جهلي بالبحار ويقول.

- بل قد اخترت الوقت المناسب. نحن في أوائل الربيع، والبحر هادىء نسبيا، أفلم تسمع بأيام «البرصات» في الصيف؟!

تلك هي قيامة البحر وثورته الكبرى في هذه الأطراف من العالم، هادىء؟ يجوز. فيوم كان يقتل بصبلاخ عشرة من الأطفال والنساء اعتادوا القول، إن الوضع ليس وخيما. كان عزرائيل يجند كل أعوانه ويحصدون معا الأرواح، إبان تلك الحرب اللعينة، بلا حساب. إلا أن النسبية تأتي لتوضح حقائق الأمور وظواهر الطبيعة. وكان التقتيل والتدمير أصدق الحقائق، وكان ظاهرة ثابتة في الليل والنهار وفي البرد والحر والخريف والربيع.

هادىء هو البحر يقول! والاتصال تحقق. اتسعت من خلاله مداركي، فعرفت أشياء كثيرة وأنا ملازم يهودا بحر كخفقات قلبه. فجأة، أصبحت هذا الطفل الكبير المتعلق بأذيال «أبيه» يلاحقه إلى حيث يمضي، ويمضي معه حتى إلى المرحاض. إني معه، ومعي أسمر والأولاد، وخرجي وصرتي ومعي الأمل الكبير. أسعفني يهودا بمعلومات كثيرة لكنه لم يعلقني بهذا الأمل. لقد أخفيت عنه أمر الصرة وكبحت جماح أحلامي وأنا أحدّثه عن سر ركوبي البحر إلى بومباي، إني مجرد أفّاق يبحث عن رزقه في أرجاء دنيا الله الواسعة. هذا فقط. ومن الخير أن

Twitter: @ketab_n

أحدثه عن الماضي – الحقيقة، من أن أحدثه عن المستقبل المكنون في علم الله وحده. أفاق يحدث رجلا «فقيرا» عن أشياء تسمر له حتى شعر صدره وبطنه العاريين... بالقنطار أحدثه وآخذ منه بالمثقال. اسدد اسئلتي في الوقت المناسب وأصوغها بيد خبرتي الطويلة. لا أقذف به إلى أبواب الشك ولا أحرجه بأمور يجهلها في الأرجح، هذا الذي يقطن مع زوجته وأولاده الستة، في غرفة بمنزل مشترك، لا تدخله الشمس وتغمر المياه القذرة صحنه على مدار العام. لقد وصف لي «نكبارا» مأوى الفقراء في بومباي من المهاجرين من يهود العراق، ولا ريب أنها تشبه زقاقنا، وحي المهاجرين الأكراد في بغداد. ولربما تفوقه ضعة وحقارة.

قال لي بعد يومين من «اتصالنا»

– كم كنت أتمنى أن أضيفك عندي ولكن...

عرفت كل شيء بعد «لكن» هذه، ثم بعد هذه الجرعة من المعلومات، جاءت «لكن» أخرى، تحمل جرعة، أكثر إشراقا.

– ولكن ثمة «آل ساسون» ذرية داود ساسون المحسن المعروف، إنهم يقيمون أود كل غريب، ولم يخب من يلجأ إليهم ولن يجوع أو يتشرد.

ها قد ضمنت نفقاتي في بومباي. من قبل كنت أنا من يطعم الضيف ويقريه، لكنها الضرورة، وللضرورة أحكام. ولقد ضمنت الزاد ولن أنام على رصيف مع آلاف المتشردين والمتسولين، كل هذا دون أن أمس صرتي بسوء. فلن أفقد الهدف الذي من أجله ركبت البحر، إن هذه الصرة قد رصدت لتعيد المجد وتحقق الحلم، وسأفعل هذا، وحق عينيك يا أم البنين!؟

هابي قد اكتسبت صديقا ودليلا وأنا بعد في عرض البحر وحين سيرسو المركب في ساسون دوك...

لا، لا. إن أشباح الماضي تنبعث فجأة. شياطينه ترقص على أشلاء ملائكته الصريعة. رادع، مفاجآت كانت تتولد في كل لحظة، ترى كيف ستكون اللحظة القادمة؟ مفاجأة. اللعنة على ذاك الماضي والذكريات!

مفاجأة... رادع! لا تستبق الأحداث يا شلومو! ترى ماذا سيحدث بعد أن

Twitter: @ketab_n

أخطو خطوتي الأولى على رصيف ساسون دوك؟! ووضعت اتكالي على من لم يخذلني في أحرج اللحظات... ربي ملاذي ومقدر الأرزاق.

* * *

.. ساسون دوك! كلانا شاهَد «ساسون دوك.» الرصيف. أنت وأنا شاهدناه بفارق أربعين عاما. "أنا عائد من بومباي قبل شهر. والعام، ١٩٦٤، ونحن هنا في طهران، وتحدثني عن ساسون دوك من قبل أربعين سنة، ونحن في أمسية سبت داخل غرفتي المدثرة بالبسط والستائر وبمدفأة «علاء الدين» ذات اللهب الأزرق. أنا، أرتعش بردا، وأنت، تحتضن صوبة «علاء الدين» بساقيك وتبسط فوق لهبها راحتيك في ليلة سبت، وفي الخارج وفر تذرفه السماء، حليبي اللون صاقع، والليلة، ليلة سبت ومازالت عزيزة وأمها في الخارج، تستحمان، وتغسلان الثياب، وتسرحان الشعر في صالون حلاقة وأنت تحتضن النار وتدعو علي بالموت، لأني أرتشف الدخان من النار، في ليلة سبت، يحيا فيها مرفأ «ساسون دوك.»

«ساسون دوك» رصيف ميناء مهجور قبل شهر، ينزوي في أقصى «بايكلا» بمدينة بومباي. حديد صدء وألواح خشب متآكلة مسودة وهشة. قذارة، وعفن وجرذان، أثر دارس، حتى مياه المرفأ ماتت. أسنت. طحلبت. وساد الموت كل ما كان يوما رصيفا يعج بالحياة.

وأنت، قبل أربعين عاما، هبطت على الرصيف المزدحم الصاخب. والصرة في الخرج. والخرج فلذة كبد، محمولة لصق قلبك، والقلب واجف. أفي هذا البحر الزاخر من الثياب البيضاء والرؤوس السوداء ستعثر على ضالتك؟ في هذا الصخب الأعجم المحموم؟ في هذا الرعب؟ هذه هي القيامة قد قامت. لا أول للناس ولا آخر، والإنسان يصغر، يتضاءل. ثم ينصهر في الزحمة ويضيع.

أين أنت يا يهودا بحر؟ «أبي!» أمسك بيدي فقد تهت! إني لم أشعر بخوف كهذا في أشد لحظات الخطر بصبلاخ، لكن هذا الزحام مخيف. قد ضعت في بحر الناس الخانق فأعدني إلى البحر الآخر. «الآخر؟ أيهما الأصل هنا ولماذا يهودا بحر يغدو بمثابة أبي وأنا من كنت والد الهلعين والمفجوعين وكل من ساور قلبه

Twitter: @ketab_n

رهبة؟!» أنت الآن تبحث عن دفء يشبه دفء الروث بزريبتك، يوم لجأت إليه لتنقذ قدميك المتجمدتين، في بيت عزك في صبلاخ. يومئذ لم تعوزك الخبرة ولا الثقة الكبرى بالنفس وهنا في «ساسون دوك»، في أحضان خرس الكلمات وصمم الأحرف يرفع البحر رأسه بشموخ ومباهاة. خوف يحتل مشاعر الغرباء في هذا البحر من الناس المتحرك بتؤدة جنائزية مهيبة ولا ينجيك منه يا شلومو غير يهودا بحر العارض كالقشة لك في غرقك هذا. «يهودا بحر! يهودا» بأعلى صوتك، تُبتلع في أحشاء الضوضاء الكبرى. مصادرها شلالات صوتية تترامى من كل الأنحاء. شلالات صوتية بعشرات لهجات ولغات ترطن بالهندية بالأردية، بالمهراتية، بالإنجليزية بـ... وفجأة

- أبا سلمان! أبا سلمان!

أذناك شفعتا لضياعك. كنت بجبال كردستان وفيافي روسيا ومفازات اذربيجان، تعلمت تحديد وجهات الأصوات، الان فججت هذا الحائط البشري المتراص، وأنت تحنو على خرجك، والناس تضغط صدرك، فترجّع أنفاسك بصعوبة، وبصعوبة لا تزهق روحك، بل هي ترد إلى جسمك، إذ ها أنت تقتحم أمواج ضياعك، ببطء ولكن قدماً نحو أمانك وعثورك على ذاتك المفقودة.

وها هو ذا يهودا بحر، يقف عند عربة «گاري» في الطرف الآخر من الشارع، يلوح لك، يدعوك! لم تعد بومباي الوثنية غريبة على الكردي المؤمن، فها به يعود ويجد الله. هنا في بلد الأصنام عثر على يهودا بحر... يهودا المنقذ... ويد الله المبعوثة.

* * *

رويدك أنت فأنها حكايتي الجميلة. حقنتها في أذنيك على تلك الجرعات المتفاوتة من الزمن والمكان، في لياليا الباردة المكسوة بجليد طهران، ليالي ألف ليلة إيران، في عهد الشاه محمد رضا بهلوي، وزعيم بغداد الأوحد. «وأنا أهفو للعودة لعاصمة الرشيد. مازلت أذكر كيف طردت من بغداد في غرة من أمري مع باقي اليهود الإيرانيين. فصلوني عن مكتبي وأموالي. وكنت أريد المال والتجارة، لكننا الآن في مستهل الحكاية، وأنا أجتاز رصيف «ساسون دوك» في

Twitter: @ketab_n

بومباي بلد العجائب والزحام، والجذام والمليون متسول، اجتاز الشارع إلى الصدفة المجهولة، بعد سنيّ العز والذل والأهوال، رويدك! يحلو لي أن أعيد حكايتي، ألف مرة قبل أن يطويها معي، الموت والنسيان.»

لم تمت في رأسي الذاكرة. ماعتمت زاخرة ممتلئة تشع بألق الأحاديث. تتنافر في ألف رأس، ولكل رأس لسان، يريد أن ينطلق ويلعلع، لكنه الأعياء وداء الشيخوخة قد أنهكا لساني، ويخفتان صوتي. وتظل الألسنة الألف تثرثر في آذان لا تلتقط حفيف الهمس، وعندئذ تتطوع أنت، وتنوب عني لتمضي في سرد الرواية.

قد التقطت أنفاسي وأرحت حنجرتي وعدت وبعثت حيا، بعد أن أفلت من الضياع إلى نور دنيا جديدة. اسمع صوته وأراه بين أمواج الرؤوس الملتحمة، عيناي تريان أشياء غير معهودة وتسمع أذناي أصواتا غير مألوفة... أُهرول بين عشرات عربات «الكاري» وبعض السيارات وبين لحى وعمائم وطرر حمراء تستدير على الجباه. بين وزر الرجال وسواري النساء، نحو يهودا بحر، والحوذي يجمع بين أصابعه الخمس، إذ يحدثه صاحبي بأصوات كأصوات القرود، ويطبق شفتيه ويزمهما ومن خلال فتحة بينهما ألتقط كلاما يخيل لي أني سمعته من هنود الجيش البريطاني ببغداد «بنج بيسه!» عندئذ يشير يهودا إلي بالركوب، فأحمل خرجي واعتلي العربة، ويرفع يهودا حاجياته، ثيابا وهدايا وتمرا من العراق «أم المغتربين.» يجلس بجواري والحوذي يلهب حصانه فتنطلق العربة بنا في رحاب حلم طويل وغريب. صنوف لا تحصى من الصور. سحنات أشخاص مختلفة لا تعد، وقلنسوات وقبعات وطاقيات وعمائم وسدائر وكلاوات. هنا تختلف الدنيا ودهشتي تخرس أفكاري، استغرابي يخدر خوفي وآمالي، هذه فترة الانبهار، تنحي عني كل الأشياء، حتى يهودا بحر الجالس بجواري، إلا صرتي. يدي تزداد أطباقا عليها كلما زاد انبهاري. إن شيئا خفيا يحثني على صيانة النقود. لن أنسى ماحييت، أني اضطررت يوما إلى أن أتعامل مع قذارة الإنسان، وإني حملت غوائط الأنكليز والكوركا لاعول أهلي، أنا شلومو كتاني من أغاث الناس في صبلاخ وآواهم ببيته وأنقذ من الجوع والموت من استطاع.

Twitter: @ketab_n

بومباي مصدر عزي الثاني بعد زوال العز الأول، هاهنا في جوف الحلم، أشاهد أنصاف العرايا يغسلن الثياب في الشوارع، ينظفنها بالضرب بالعصي، وأرى بائعات الموز الطاعنات سنًا وأصحاب مقالى الأرز والفول السوداني المتنقلين وأشم رائحة الكاري والأفاويه، وتتسلق عيوني نخيل النارجيل، كما تسلقت ببغداد نخيل التمر وتمرق بسكان الشوارع والشحاذين والدراويش والمشعوذين، لا أول لهذه المدينة ولا آخر، حتى موسكو الفارهة تضيع بين حارات بومباي وميادينها. يهودا يا أخي. ها أنذا أستفيق من حلمي الشارد وأسألك.

– متى نصل نكبارا أيها الصديق؟

فيرثي تعجلي ويقول.

– تمهل، أمضيت أسبوعين بالمركب، ولا تستطيع هنا أن تصبر بعض الوقت؟

ويدركني فجأة عفريت الدعابة فأضحك لنفسي وأقول.

– أخاف أن تقوم القيامة ونحن لم نزل نقطع الطريق.

عجول، أجل، لكن العجلة ليست دائما من الشيطان. طويت الدنيا وخضت الأهوال، واجتزتُ، مجازا، بحار الدنيا السبعة، وشربت من كؤوس الدنيا، من مرها وحلوها، جرعا، فعلمت أن العمر لا يرحم لاهيا أو غافلا وأن الحزم في أن نغتنم اللحظة فيما يجدي وينفع... والا أُضيّع وقتا فاقطف الفوز سريعا وأعود إلى أم البنين، ثم بعد رحيلي عن الدنيا، ستنشر دفاتري يوم الحساب، فتشفع لي همتي وفعالي وأحظى بغفران الله.

أسهاني حساب القبر هنيهة، وإذ استفقت وجدتنا، يهودا بحر والحوذي وأنا، في أحشاء حارات نكبارا اسمع فيها أصوات بغداد وأشم روائح طبيخها، وأراني أنتقل من حي يهود بغدادي إلى حي يهود بغدادي. حيان بغداديان يهوديان يقطنهما البؤس وتفصل بينهما الاف الأميال، لكنهما في الروح والجسد متراصان كالبنيان.

أحسن يهودا بحر استقبالي، ورغم اعتذاره في المركب عن عجزه عن ضيافتي، فقد أفرغ لي حجيرة صغيرة، لصق غرفته، كان أولاده ينحشرون بها، فأقمت عندهم ثلاثة أيام كلما مر منها ساعة كنت أثقل بعين نفسي وأحس بأني

Twitter: @ketab_n

جبل من رصاص يقبع على هذا الإنسان الطيب وأهله، وقرأت في عيني الرجل صراعاً بين الواجب والعجز، فحاولت أن أشجع فيه الجرأة على مساعدتي في الانتقال من بيته المتواضع – غرفته، وعن أسرته فقال بصوت يسبق الحياء فيه الكلام.

– أنْ تنزل في «مسافر خانة»، ذاك أمر لا يعجبني وأنت بحاجة لكل بيسه... لكنني سأكلم «حاي» خادم الكنيس فلعله يعطيك مفتاح كنيسه، لتقيم في بيت الله، حتى تتيسّر أمورك وترى ماذا أمامك، وسيُحضر لك أحد أولادي الطعامَ في مواعيده، أما أنا فلن أتخلى عنك مادمت في ضيافتنا، طالما أنا حي أرزق.

نِعم الرجل ونعم أخلاقه. اكتفيت بالشكر ولم أدهش، فهذه شيمنا مذ فتحنا أعيننا على الدنيا. كان الخير في صبلاخ عادة وطبعا حتى عربدت الدنيا. وحتى بعد أن جُن العالم، لم ينل شر الغرباء من خيرنا نحن. يومها تكاتفنا في وجه شرهم، ولعناه. كانت الغرابة إذن في الا يفعل يهودا بحر ما كان يراه واجبا عليه. أما الكنيس فلم يكن يوما بالملاذ الغريب علي. كان بيتي منذ نعومة أظفاري حتى أستقر رأي الجماعة في صبلاخ على تعييني عليه، فكان مفتاحه في جيبي، أقصده قبل قيام الطير، لا أتخلف عنه يوما، حتى حين فاقت حلكة الأحداث حلكة الليالي الدامسة، كنت أفج الجليد المتراكم الملطخ بالدم وأمطار القذائف... آويا إلى بيت الله منتظرا المصلين، وكان عددهم يتناقص مع أيام المحنة، حتى اضطررنا، قبل الرحيل، إلى أن نصلي صلاة الفرد عوض صلاة الجماعة.

الآن، فاجأت بومباي لأنعم بضيافة يهودا بحر والأقامة بكنيس نكبارا. قد جئت أبحث عن الفرص. أعلم بيقين بأن الفرص لن تبحث عني في جحور هذه الأزقة المنسية وفي بيوت الله. لامناص إذن من أن أعتمد على نفسي فأخرج مستطلعا مجاهل هذه المدينة الغريبة. إن ثلاثة أيام أو أربعة من الراحة والاستفسار تكفي وقد حان يا أسمر، المنتظرة في بغداد البعيدة أن أبدأ العمل! مشيت ومشيت. الله في خاطري وهي والبنين. وأنا بالتجارة خبير وعندي أصابعي، تنوب عند الحاجة عن لساني، وما دمت أعرف كلمتيْ «ماركيت» و«نكبارا» فلن أضيع في متاهات المدينة ذات الألفِ وجه. إبشري يا أسمر فالفرج قريب! إني أرى هنا من

Twitter: @ketab_n

الأشياء ما لم تره عيني في روسيا وإيران وبغداد وألهج بذكر ربي تارة، ثم تنتابني الدهشة فأتوقف عند سلعة غريبة، فاغر فمي محملقة عيناي. هاهنا الأفاويه والعطور، إني في بلد العطور والأفاويه، هذا هو الهيل والفلفل والزنجبيل والعنبر والصندل والكافور والعود والند، وأعواد البخور الجاوي. هاهنا القهوة والشاي وجوز الهند والعمبة. قد سبقني تجار بغداد إليها، منذ مائة عام والبغاددة هنا، مئة عام والتجارة بين الهند وبغداد تزداد وتتعدد وتتشكل وتنمو حتى «صابون الرقي»، صابون شماش يأتي من هنا إلى بغداد، فهل أخطأت إذ جئت أبحث هنا عن رزقي؟! ولم أحسب الأمر حساب التجار المحترفين؟ أنا شلومو الكردي التاجر المحترف فأين التاجر إذن؟ هل أنستني الأهوال والعمل بمراحيض الإنكليز ببغداد عملي النبيل الأول؟ وهل ضللت الدرب إذ يممتُ شطر بومباي، بلد الفرص والاحتمالات؟

ربي! هذا يوم أول أقضيه في الأسواق. أرى نسخة طبق الأصل مما أراه بأسواق بغداد وأعود خائر القوى خائبا إلى نكبارا. يتفرس خادم الكنيس في غيمة عيني ووجهي وبحركة كف دائرية يسألني.

– خير؟!

أرفع رأسي إليه وأسأله بعتاب.

– أما أبقيتم في بومباي شيئا إلا ونقلتموه لبغداد؟

فقال يعزيني.

– رغم أني مجرد خادم كنيس بائس، فإني أعرف أن قلب التجارة رحب واسع، ومثلما أتسع لآلاف غيرك فسيتسع لك أيضا.

– أحقا تعتقد هذا يا أخي حاي؟

فقال بإصرار

– أنا متأكد، فالتجار البغاددة في بومباي، هم إخوة للتجار في بغداد، وشعار تجارنا وبقالينا وعطارينا وخبازينا وحتى قصابينا هو «عيش وخلّي غيرك يعيش!»

– لكني أكره العيش عالة على أحد. أو الاعتماد على الصدقات.

Twitter: @ketab_n

فقال

- التعاون ليس صدقة ولا فضلا بل هو البركة، تعود بالخير العميم على الجميع.

مساعيكم مشكورة يا تجار بغداد وبومباي، لكني ما جئت إلى هنا لأكون فضلة. إني لَفي ميدان التجارة جواد أصيل سباق، ويوم هبطت من عليائي لمرحاض جندي بريطاني، فقد هبطت لكي تأكل أسمر والأولاد، لكني ما كنت أساوم مهنة نشأت عليها. اللعنة على كل بين بين ووسط! فأواسط الأشياء محذوفة بمفاهيمي. فأما حضيض وأما ذروة طود. وإما أن أكون أنا «شلومو الكردي!» وأما الا أكون شيئا على الإطلاق!

في الأيام التالية، اتسعت رقعة تجوالي، انكشفت أبعاد أخرى للأسواق، وأنا أمشي وأمشي. أمشي وأتوقف. في كل خطوة حيرة وفي عشر خطوات أفكار. سوق التحف يبهر أنفاس الإنسان سحرا، تماثيل العاج والأبنوس، بكامل أبهتها. موائد وكراسيٍّ محمولة على فيلة سوداء من الأبنوس. سيوف ورماح وسكاكين. أوثان عاجية وراقصات، إحمل من هذه الطرف إلى بغداد. «لا. لا. لا.» ماذا دهاك يا شلومو؟! أفيليق «المعلاق» بـ«أبي سيفين؟!» وهل يأكل من لا يجد القوت ويلبس من لا يعثر على الثوب، تحفا وتماثيل؟! في سوق الطيور شاهدت ببغاوات خضراء. فكرت بالببغاوات ثم ضحكت. هذه تجارة بائرة أخرى. يمتلك الببغاوات من كان أرستقراطيا وهذا طير يشكل عبئا على الفقراء، ثم إن هذا الطير الناطق ليس بحاجة استهلاكية، وهو طير يعمر كالإنسان، وهذا يعني أن الاقبال عليه سيتوقف بعد عام.

ومع ذلك فلن ترجع بالصرة لبغداد وبالاخفاق إلى اسمر. إنك يا شلومو، مازلت بمدينة تكمن في كل شبر منها فرصة. أجل قد تعبت ساقاك وحفيت قدماك مشيا ولكن فرصك لأشك، ماعتمت كامنة في ركن من أركان بومباي.

إمش يا شلومو! امض بطريقك. شاهد وتفرج. استعرض وتفحص. فهذه مدينة تضيع بين شوارعها موسكو وفي أسواقها يمكن أن تتربع بغداد وضواحيها.

بالات قطن في وسط السوق؟ ولماذا يزدحمون حول البالات وبفضول ينظرون

Twitter: @ketab_n

إليها وينتظرون؟! هل للقطن استعمال بطقوس الهندوس الدينية؟ مثلا كفتائل القناديل لدينا والقرايات؟ هذا جمهور وليس رهط فضوليين. لو كان الشاه القجاري هنا لقال «هذا تجمهر يمهد لثورة أو عصيان!» لكنك في بومباي يمكنك أن تجمع من حولك ألف رجل لو وقفت في الشارع وأومأت بأصبعك إلى عصفور أو شجرة أو حتى إلى شيء وهمي لا موجود. بيد أن الناس هنا تلتف حول بالة أو «لنكة» قطن وتتحفز وكأن بداخل البالة عفريتا يحمل معه كنوز سليمان! تريث يا شلومو حتى يظهر العفريت من داخل اللنكة فما أنا الا أطرش في زفة بالات القطن، أما الهمس المتعالي فيخترق أذني كضوضاء ممسوحة القسمات. لا معنى للكلمات. وماذا تعنيني أنا الكلمات؟ ليبارك الله العينين في رأسي، فهما تريان مقصا يعانق طرفاه، طرفي سيْر حديد يلتف بأحكام حول البالة. يتمزق السير ثم يسقط والسير الثاني يبدي مقاومة أكبر. الأصرار أقوى لكن اليد المعروقة السمراء تظل تعالج بمقصها مشاكسة السير، أخيرا يرضخ مرتميا بجوار أخيه، الآن، جاء دور المشرط. لماذا ضجيج الناس يتعالى وحرارة اللهفة تبلغ مرحلة الحمى الملتهبة؟ فلتأت أسمر وترى ما ظنه زوجها قطنا... ولتبشر أم بنيني وتزغرد!

* * *

أتتوقف في لحظة المصير لتلتقط أنفاسك؟! بل أنت متعب فهون عليك. الجواد الأصيل يلهث، ويومئذ صهل صهيل البهجة الفياضة. فالقطن في البالة لم يكن قطنا بل ألوان قوس قزح بزغت من داخلها إشعاعات تحتل قلبك، إذ ترى المزدحمين ينقضّون على البالة ويتناهبون ما بداخلها. ثياب ومعاطف وبذلات. قمصان وفساتين.. ملابس من كل الألوان. والكل ينبش ويتفحص ويختار، وأنت ذاهل. تتخيل إمارات غموض واستفهام على وجهك، أطرش في زفة الصخب الأعجم. الكلمات من حولك تتلاطم وتتصادم كأمواج المحيط والناس تأخذ وتدفع النقود، الناس تتناهب ما في البالة، وإذا بالبالة ينفد ما فيها في طرفة عين. ما هذا؟ تستوقف ذاك وهذا. بأصابع يديك تسأل. وإذا بمقاطع من حديث مبهم ينصبّ في أذنيك. بيه... كيه... هيه! أهكذا يتفوهون أم أنك واهم؟ لا. لا. فما من فائدة. هاقد عرفت المكان فأسرع إلى اللسان الذي وهبه الله لك، حين انقطع

Twitter: @ketab_n

لسانك وكفت أذناك عن التميز بين الأصوات

- إسعفني يا أخي ويا صديقي يهودا بحر! رأيت اليوم لنكات بها ثياب يتخاطفها الناس كالخبز الطازج الخارج توأ من التنور

فتساءل

- أتعني الثياب المستعملة؟

- تبدو كالجديدة لكنها مكدسة بلا ترتيب وبفظاظة.

- هي الثياب المستعملة إذن، في بلاد الغرب يرتدون الثوب حتى يتسخ فلا يعودون إلى غسله وارتدائه بل يبعثون به إلينا بأبخس الأثمان.

* * *

استعدت رمقي ولهفتي وهمتي. ثمة ساعات نحياها أكثر من مرة، وفي حياتي مالا يحصى من هذه الساعات. تلك، كانت لحظة من هذا القبيل، أحد منعطفات حياتي، كان يهودا بحر يتكلم وأنا أبتعد شاردا لألتقي بقدري وأناقشه في الأمر، ليس التحف ولا الببغاوات ما يحتاجه أهل بغداد، وأنا، لن أدخل منافسة غير مضمونة مع مستورد شاي أو قهوة أو هيل أو فلفل. إني إلى فقراء بغداد سأتوجه: إلى أصحاب الهلاهل والخلقان، إذ هذا ما يحتاجونه، ثيابا محتشمة بأسعار بمتناول أيديهم. إني سأنفع أهالي بغداد وأنتفع منهم وسأغمر دار السلام ببضاعة لم تعهدها من قبل وسأغدو بتاريخ تجارتها علامة وسيشيرون إلى شلومو الكردي ويقولون «هذا رائد تجار الثياب المستعملة في بغداد وهو أول من أدخلها إلى الأسواق.»

وقلت ليهودا بحر.

- أكمل حسنتك مع الغريب من أبناء جلدتك.

رمقني وعلى سحنته استغراب متسائل، فأردفت.

- أنت أخي، فكن لي بمثابة هارون لموسى، وكلمهم بلساني.

وفي الحال أدركت أن قلب يهودا ينطق قبل لسانه ويقول.

- وإني لك كهارون لموسى في كل ما تحتاج

وتردد. فقلت بلهفي واستعجالي المعهودين.

- هيا بنا إذن.

Twitter: @ketab_n

وتداول يهودا بحر مع تاجر لنكات الثياب قرابة ساعة، ثم قال

- فلنسرع للمرفأ!

فسألته.

- ولماذا المرفأ؟!

- هذا تاجر يبيع بالمفرد وأخبرني بأن شحنة من بريطانيا ستصل اليوم وسيستلمها مستوردها في الميناء.

- هذا حق! علينا أن نمسك الخيط من أوله وليس من آخره. ولكن مادام الأمر كذلك فيجب إذن، أن نتوجه لبداية هذا الخيط في بريطانيا.

كلامي ظريف، يستحسنه، لكن يهودا بحر من انصار التأني، يضحك ويقول.

- رويدك! فلكل شيء أوان ولا تنس أن هناك شيئا يدعى احتكارًا ثم أن أسعار الكلفة في الهند، أقل من أسعارها بأماكن أخرى، فالمصدر يحدد السعر للبلد المستورد وفق ظروف أسواقه ومقدرة الناس الشرائية ولا تنس أيضا أن الهند جزء من بريطانيا وهذا يعفيها من كل الرسوم المفروضة على السلع البريطانية.

الرياح مواتية، والموسم ربيع ويهودا بحر يكلم التاجر بالهندية وقلبي يناجي الله بكل لغات الدنيا. بالأفكار، بالإحساس، لكني ما كنت أسترضي ربي أو أغويه، وجداني لا يحمل لالهي إلا الشكر والاستعطاف. إني وأنا أتهيأ لملاقاة وجهه الكريم، أراني مغمورا ببحار مننه وحسناته وهو لم يتخل عني وأنا أغمض عيني وأشهد بوحدانيته، وأنا أشرف على الموت في صبلاخ، وفي بومباي إذ هلت طلعة يهودا بحر في وجهي كالبدر الأسمر، وهو يبشرني.

- الرجل مستعد أن يبيعك الشحنة كلها قبل نقلها من الميناء!

قفز بي سعر الصفقة وأنا ألتقطه من فم يهودا إلى السماء استغرابا وفرحة. لم أصدق فالسلعة برخص تراب الدنيا، وحتى لو بعت بضعف التكلفة لما أرهقت جيوب مساكين بغداد، ولكن المال؟! فالسلعة كثيرة... وثمنها، على رخصه أكبر من حجمك ومما تحويه الصرة، كانت لحظة خيبة لكن الشمس لم تلبث أن قشعت الغيمة السوداء عن وجهي. ما أغرب هذا البلد وأهله! لكنا كلنا بغداديون وأخوة... ولهذا فالصرة مقابل نصف السلعة والنصف الآخر يضمنه أخي وصديقي يهودا

Twitter: @ketab_n

بحر. غريب معدم يكفل غريبا مجهولا. كيف؟! تاجر هندي- بغدادي يأتمن فقيرا يهوديا من نكبارا، وفقير يهودي من نكبارا يأتمن كرديا «مهاجرا» أفاقا، ترك تجارته وسمعته الحسنة بعيدا في صبلاخ العز المذبوحة. إن عناقي ليهودا اعتصارة جبارة تحوي كل الشكر والعرفان وتكاد تُزهق روحه. إني هنا في بلد الإعجوبة والأسطورة! ومشاعري لو كتبت لملأتْ في الحال كتابا كلماته من نور، وتشدو بأغنية تمجيد للخير. مذ حلت الحرب في صبلاخ غدت الدنيا سعلاة مخيفة لا تفتأ عن شحذ أسنانها ومخالبها، والآن في بومباي، على ساحل المحيط، ترتفع الدنيا هذه من بين مياهه حورية، عروسا من عرائسه الحسناوات، وهمست ليهودا.

- لم يبق بجيبي آنة أُنفقها على نفسي. لقد دفنت كل نقودي في هذه البالات، وسأشحنها على أول مركب يقصد البصرة وأُرافقها على ظهره حاملا معي إحسانك وعهدًا بأن أفيَ الرجل حقه بأسرع وقت لأحلك من هذا القيد الذي كبلتَ به يديك من أجلي.

هتف مستنكرا.

- وهل تقضي عيد الفطر على ظهر مركب هندي؟!

عيد الفصح! كيف نسيت؟ ها به يقترب حثيثا، وأنت ياربي «كما خلقتني» فكيف سأفي فروضك، وقد ضيعت مالي على ما في الدنيا، ولم أُبقِ لي حتى ما أسد به رمقي؟ كان الطقس يتقلب في روحي وعلى وجهي. سحباً تقشعها الشمس فما تلبث أن تلبد السحنة وتغلّف النفس، وأنا، الموت أهون عليَ من أن أكسر لإلهي فريضة. ويطول افحامي وشرودي فيعجب يهودا بحر من أمري ويطمئنني.

- ماذا يقلقك وعائلة ساسون هنا؟!

قلت في الحال.

- حاشا أن أطلب صدقة من أحد، حتى لو كان ذلك من آل ساسون.

- أنت غريب ويهودي وقادم من بغداد، وعيد الفصح على الأبواب.

- كل هذا صحيح لكني محال أن أتسول!

Twitter: @ketab_n

وضحك أخي وصديقي يهودا بحر.

- لآل ساسون عادة لن يتخلوا عنها في كل عيد فطر! إنهم يزودون من يحل علينا ضيفا من اليهود العراقيين في هذه الأيام، بكل متطلبات العيد.

- ليس لمن جاء يتاجر وانفق كل ماله على صفقة كبيرة تدر ضعف ثمنها.

ضحك ثانية.

- الضيف عندنا هو الضيف. وآل ساسون لا يفرقون بين ضيف ميسور وضيف معدم، أنت ضيف جئت من بغداد وإن لم تذهب إليهم يأتيك رفدهم إليك، شئت ذلك أو أبيت.

وكيف أأبى؟ وأنا خير من يعرف إقراء الضيف؟! أفلا تشهد صبلاخ علي؟! حين دعت الحاجة حل مير وأهله نزلاء في بيتي وإذ تركته مكثوا فيه... وما دمت اعرف حق الضيافة فلأمض إليهم بنفسي. ويحك يا شلومو! لا وقت الآن لتظاهرة الكرامة النفّاجة. لن أُشهرها كسيفي المرصع بالياقوت المعلق الان بغرفتي في صبلاخ منتظرا أن يأتي مضيفي إلي، أو لعلهم سيضلّون طريقي، فيضيع مع كرامتي هذه ماء الوجه.

هكذا فتحت يدي باسم الضيافة أمام أكرم الناس. حمدت ربي على أني ضعت بين طوابير «الضيوف» المصطفين أمام مخازن مضافة آل ساسون،ثم لم ألبث أن استأجرت عربة بحصان تنقل لي إلى مأواي بكنيس نكبارا، الزيت والدبس وصناديق الجرادق وأكياس الرز والجوز وكل مؤونة عيد الفصح. كما انتفخ جيبي الخالي، بعشر روبيات، جعلت هامتي ترتفع كنخل النارجيل، وعبثت برأسي صور الهدايا لأسمر والأولاد، إني سأصطحب لبغداد معي، كثيرا من خيرات آل ساسون هذه وسأُتحف أسمر والأولاد بأجمل ما في بومباي من أشياء، وها قد سبقتني تجارتي وسألحق بها إلى المدينة التي آوتني بمجرد أن تنقضي أيام العيد. وسأبدأ في بغداد رحلتي السوقية المفضية إلى الثروة والعز والسمعة الطيبة.

أما أنت يا يهودا بحر، وأنتم يا أهالي بومباي يا من أسبغتم عليَّ بدفء الإنسانية والمحبة ما ظل يُلازمني، حتى وأنا أرقد هرما في فراشي، انتظر بقناعة ورضوخ خصمي اللدود، من رواغته مِن قبل ألف مرة فأفلت من براثنه وأنا أطلق بوجهه قهقهات النصر المؤزر، فجازاكم ربي عني خير الجزاء.

Twitter: @ketab_n

بغداد ١٩١٩

الضحك في وجدانك قيثارة، تعبث بأوتارها أصابع ذكرياتك، هذه المنبعثة من أعماق رأسك، في ألف لون.

أحيانا، يتسمّر شعر السامع وأنت تروي قصص الأهوال وتضحك. يحدث أن تتفتق بعيون سامعك العبرات، أما أنت فتضحك. أعرف أن هذا ضحك المستشرف للأحداث. ضحك يأتي من بُعد، هو بُعد ما بين التجربة والذكرى. وهذا البُعد هو فجوة كفاح وتحقيق وجود. ثم قهر القدر «كلا لن يصنع لي قدري، الانسان!»

هذا صحيح. كان التيار عرما أهوج والجرح في الأعماق مفتوحا ينزف، جرحتني الدنيا - السعلاة، حليفة الإنسان - الغول في حلبة الشر المستشري طول أربعة أعوام. رجحت كفة هذا الشر. كان الأبناء صغارا وأسمر في ريعان العمر، وأنا رجل منهمك بصراعاته مسحوق بيد السعلاة الغول، لا أسأل عن سنوات عمري، إذ احترقتْ بلهيب الاحداث النارية وضاع مفهوم الأيام، بل هي ذاتها اضحت هذا المعلوم - المجهول، لا ندري كيف ستأتي ولو جاءت كيف ستكون، وكيف سنقضّيها، إني أضحك اليوم، إذ اجتزت حندس بحر الظلمات، وتسلقت هذه القمة من محصول كفاح حياتي المكللة أخيرا بالنصر. يومها لم أبك رغم كلم الروح وجراح النفس. قلت لك! لم أبك بحياتي غير مرة ومرة... وأنت تقول «رويدكَ يا شيخي...» ثم تقول «إن قلبك قاس أحيانا وفيك أحياناً أطياف عجرفة وغرور...» لا بل صلابة روح تميزني وشموخ جبال ولدت من حولها ونشأت، وزادتني أحداث صبلاخ البشعة مناعة، حتى تصاغرت المحن الطارئة في عيني من بعد أن عانقت الموت مرارا، فأيقنتُ إني سأتوارى فيه لأمضي للقاء ربي، إلا أن ربي نجاني وأبقاني في الدنيا أُحقق فيها الفوز وأجني أثمار كفاحي. كلا لم يتصلب قلبي عبثا، وما تشربت بما تدعوه أنت غرورا، وأراه إعتدادا بصمودي ثم حصادي الأكبر إذ في بلدَ الملجأ أصبحت محسوبا كما كنت معدودا ببلادي...

Twitter: @ketab_n

بل أكثر.

ويومئذ ضاقت بنا صبلاخ وظلت تطالبنا بالأرواح، لم تكف سنوات الحرب والتقتيل والجوع والقحط، وفتن الأخوة.. فكان الموت يتربص بنا... يرسله إلينا شاه طهران كالسهم يحمل عنوانا لا يخطيء، ويتوعدنا به الغرباء بسفك دمائنا. فتركنا البيت وما أثر فيه، والأصحاب وصبلاخ. نحن بقايا الحرب المفترسة. بقايا الأهوال، هربنا من الموت القاصدنا لننجو بأنفسنا والأطفال، إذ مات حتى ظل الانسان. كنا نسعى لحياة لم نسأل حتى عن مضمونها أو فحواها. فحتى خيارنا ضاع من أيدينا. لم يخيرنا أحد بين الموت أو الذل. كانوا يريدون لنا الموت وحده، فهربنا منه نلتقط أنفاسنا اللاهثة المكدودة همنا أن تبقى هذه الأنفاس تتردد مع خفقات القلب. لكن أسمر لم تنس أن تحمل مع صيون ومريم صرة الحلي والجوهر. وأنا حملت مع سلمان، ليرتين ذهب. كانت الثروة قد ضاعت في انقاذ حيوات وقشنك الخادمة معنا. قرش أبيض ويوم أسود وحقائق انقلبت. مسخت. صار الضد ضدا والنقيض نقيضاً. التاجر مسكين والعز مذلّة. والثروة أفلاس والسيد في بلده لاجيء في بلد آخر. نتعلم هذا لا بدّ. نحياه. نعتاده. الزمن يتحرك فلا تجعل قدميك تتحجران في موضع منه قد فاتك. وإياك أن تبقى حيا في عصر قد مات ودُفن في لحد الذكرى..

بيد أن ثمة من يعتاد بشبابه شيئا، فيصر إلا أن يشيب عليه مهما تغيرت الأحوال. أسمر والأولاد. كيف تقنعهم بأننا ما عدنا في نظر الناس غير حثالة. وأن العز قد زال، وأننا أصبحنا مجرد لاجئين شبه معدمين؟ كان الواقع يؤكد هذا لنا في كل لحظة. المرأة تدرك لكن التصديق بعيد، والرفض، رد قاطع، أما الأولاد فكان سلمان أكبرهم، قد بلغ سنا رصينة، فأخذ عقله يعابثه، بأمال اللعب بالأموال. وأنا؟ كانت الثروة لدي وسيلة لإنجاب الأولاد، وبحبوحة العيش، وتقريب الأصحاب، بيد أن الواقع أحيانا أعمى ويرغمك على أن تفقأ عيني عقلك لترى بعيون عواطفك الجياشة، وما أكثرها. وأنا داخل مظروف الأقدار. رسالة، مرفق طيها وثائق أربع تشير إلي برمتها وتقول «أنت المسؤول عنا فأطعمنا!» وتتهمني بتبعة جنون الدنيا وعواقبه المحتوية على صنوف عذابات لنا ومعاناة. انفق

Twitter: @ketab_n

الليرتين يا شلومو! انفق القرش الأبيض! انفقه فهذا هو اليوم الأسود! انفق ما في الجيب يأتيك ما في الغيب، وها قد طال اليوم الأسود وضاع ما في الجيب، والغيب لم يأت بشيء، وأنا تاجر أُتقن أن أحسب الحِسْبَة.. أما الأمثال السائرة، فقد تصيب وتخطيء. وقد كان خطؤها مؤكدًا هذه المَرة.

أجل. هم لا يدرون! وقطرات المال النزرة سقطت مع قطرات الزمن في دن الأيام. أكلوا وأنا أمضي حثيثا في درب الفقر المجدبة الوعرة. وأخيرا، كما هبط أعيان صبلاخ من العلياء والتصقوا بالدقعاء، أخرج بدروب مدينة احتضنتنا ولا أعرفها، أهل أسمر هنا، لكنهم ذابوا أو ضاعوا... أولعلهم تشتتوا، يعمل كل منهم خادما في بيت ثري. وخرجت أبحث عن عمل، ولساني مقطوع، أحاول أن أعيد زرعه داخل فمي بصمغ من كلمات عربية أتعلمها. صعب! صعب! والعمل أصعب بدون لسان ولا أذنين!

لابد أن أُفهِم وأن أُفهَم! والوقت كفيل بمداواة خرسي الوقتي وصممي القابل للشفاء! والحاجة خير حافز... والضرورة تدفعك بقفزات قد تبدو مستحيلة في بعض الأحيان. وسرعان ما جعلتني الحاجة أرطن، وبها فهمت أن العمل متوفر بمعسكرات الجيش البريطاني،

- «تشتغل بالخرا؟!»

سألني هذا يهودي بغدادي فاضل. فاضل لأنه سألني ولم يأمرني ويقول «غوح اشتغل بالخغا!» فكثيرون اعتادوا مخاطبة الكردي اللاجئ بالأمر، ويظنون أنه لا يصلح إلا للعمل بالقاذورات.. وللخدمة ببيوت الناس! هذا الرجل الفاضل كان يشك بما يعتقدون، فسألني واستحييت الرد عليه بالإيجاب، فلعلي سأعزز ما يعتقده أولاء. تركته ورحت أردد مثلا بغداديا لنفسي «اشتغل بالخرا ولا تحتاج لخرا ابن خرا!» وكان مثلي كثير من يهود صبلاخ، قد ألغوا ماضيهم وكرامتهم ومضوا يصطفون كل صباح مع جملة من أهل بغداد المحتاجين، حتى يأتي الميجر الانكليزي، أو البابو الهندي بسيارة جيب تتبعها شاحنة، فيختار العمال، ويصنفهم في أحقر الأعمال. وحتى الحاخام ميخائيل شقيق حاخام ناحوم، شهيد صبلاخ، كان هناك يحمل لحيته الموخوطة بالشيب مع الفضلات الدنسة

Twitter: @ketab_n

للاجلاف البريطانيين والكركا والسيخ، وإذ كان يشاهدني أتردد، كان يشجعني ويقول:

– العمل يا أبا سلمان عبادة. فأنا حين أنزح مرحاضا انكليزيا، وأقاوم اشمئزازي وغثياني بجلَد وصلابة وبالتفكير بأني حصلت مقابل هذا على روبيات سيقتات منها أولادي، أُوقن بأن الله سبحانه سيحتسب لي تضحيتي هذه حسنة تنضم لحسناتي ويعتبر هذا لي تكفيرا عن آثام ارتكبتها بالسهوة أو لكوني إنسانًا غير معصوم عن الهفوة والزلة.

في البدء ترددت، لكني رددت تلك الحكمة المأثورة لنفسي كما رددتها على اسماع البغدادي الفاضل ورأيت من كانوا أعيانا في بلدي يضمخون لحاهم وأجسامهم بالرجس، فلنت وهالني خطر الاملاق والجوع الداب نحو أسمر والأولاد. كلا، فترددي ضعف، وأنا لم اعرف مثل هذا الضعف من قبل. فأقدمت أخيرا لكنني عند حافة البالوعة، عدت وترددت، قاومت القيء. قاومت طلوع روحي. أنفت من رفع غوائط أناس مثلي، قد خلقنا الله سواسية. أحسست بروحي ترف في أسفل حلقي، وفي أنفي. سددت فمي ومنخاري كي لا تفر روحي منّي. من ذا سيعول أسمر والأولاد لو زهقت روحي؟ وهل آنا في التقوى والورع أفوق الحاخام ميخائيل الذي يعظني ويحضني على العمل؟ عدت وأقدمت. استحضرت الذكرى كي لا أضعف. عشت أهوال الماضي. فاجعتي بفلذات أكبادي بالبستان، تجمد أقدامي. نومي تحت وفوق روث الحيوانات. استحضرت أمثالا وحكايات. قال التاجر البغدادي، الذي أفلس مثلي، ووضعه الزمن في هذا الموقف بالذات «إنزلي كي لا أنزلك إلى ماهو أسوأ» وكان يكلم نفسه. وسمعه نزاح محترف بجواره فضحك منه واستغرب «وهل ثمة أسوأ من هذا؟!» أجل يا صاحبي. مد اليد للتسول أسوأ من هذا، رحم الله ذاك التاجر الذي أنزله الدهر وبارك في حاخام ميخائيل، فاتخذ منهما قدوة، وأنزل الحفرة ليأكل أولادك وأسمر أما أن تمد يدك طالبا الصدقة، وأنت الباذل المعطاء من قبل، فبينك وبين هذا الموت بذاته!

* * *

Twitter: @ketab_n

يحسدني بعض الناس ويراني بعضهم الآخر بعين التقدير والإعجاب، حقا! إني أرى النور قبل العتمة والوردة قبل الشوك، لكني لست كمن يتخيل هزيمته نصرا، فيشيد بجرأته ويتشدق بالفوز المزعوم، حين اقتحمت «أدبا» انكليزيا، قهرت غروري وسموت بنفسي، هكذا اقنعت نفسي لأنال صمودي.

لقد كان، سبحانه، قد شاء اختباري بتجارب من شتى الأصناف وأنا اجتاز امتحاناته بجدارة من حيث خانت البعض همته وآل به خذلانه إلى هاوية الفشل والاحباط، كان من حقي إذن أن اعتد بنفسي، إذ أثبت للدنيا أني كُفء لأن احياها كيف شاءت، وبنزاهة وشرف وبلا غش أو تدنيس يدي بحرام. افحقا يحلو لي أن أمتدح نفسي؟! لا بل إني أفعل ما يمليه علي ضميري، ومن فضل ربي علي، أن ضميري لم يرهقني يوما بعتاب أو شكوى! قهرت غروري، وتغاضيت عن ماضيّ ونظفت مراحيض أناس وثنيين لا يعبدون الخالق، لأخفف عن محنة أولادي وأسمر، وكتمت ماهية عملي عنها مضطرا، ولجأت إلى الكذب الأبيض فزعمت لها أني أعمل وكيلا لأحد تجار يهود بغداد في «خان دلّة» وانطلت الكذبة عليها عاما ونصف العام، ثم في أحد الأيام عدت لبيتي لأرى فيه مناحة، ولتذكرني دموع أسمر المنهمرة بفجيعتي بأستير وولديها، رأيت في إشراقة عينيها نظرة لوم وعتاب. تتكوًر وتغدو رصاصة فولاذية تخترق لحمي وتستقر في قلبي. وبفراستي أدركت أني المقصود بحزنها، وان طوفان الدمع يشير إلى فداحة ذنبي وجسامة إثمي. استفتيت ضميري قبل أن أسأل أسمر. لم يقرصني ضميري ولا حتى وخزني. لجأت مرة أخرى لفراستي وأدركت. نعم لقد عرفت أسمر! عرفت أني أعول هذا البيت من عملي بالقاذورات.

غمست ثريد الخبز في المقلاة الطافحة بالسمن الحر الذائب في النار، وغمغمت.

– كيف عرفت؟ كيف عرفت ياأسمر؟!

أعرف بكاءها هذا المنهمرة دموعه كمزاريب بغداد في ليل ماطر. أعرفه في كل فاجعة يتراءى فيها شبح الموت، في كل محنة كأداء. عندما أنهار العالم في صبلاخ. أفكل هذا يكمن في عملي الذي روضته حتى غدا عندي كحيوان أليف لا يؤذي؟

– كيف عرفت؟

Twitter: @ketab_n

ليس لسانها ما أخبرني بحقيقة الأمر، هو نحيبها الذي نطق باسم الحاخام ميخائيل، ذهلت برهة، ثم ناجيت الرجل الطيب الصديق أُعاتبه، ليس على وشايته بي، إذ علمت بأني ائتمنت أحد الورعين على سري، لكني أُعاتب فيه زلة لسان قلبت بيتي إلى مأتم، ولكن هل عملي هذا، بنظرها، والموت سواء؟ قالت:

– كان لي أفضل أن أموت قبل أن أراك تحمل قاذورات الناس.

أفحمت. برأسي خطرت ألف فكرة وذكرى، لكني حاولت أن أواسيها.

– لسنا أفضل من الحاخام ميخائيل والمئات غيره ممن عاشوا بصبلاخ وغيرها كملوك.

لا. لا. إني أعرفها. أعرف أني لن آتيها بعزاء مهما ذكرت من أعيان القوم، المنهمكين معي بتلويث أنفسهم بالرجس الانكليزي، وجعل مراحيضهم أنظف من بطونهم المحشوة بأشياء أرجس من الرجس نفسه. لقد انكشف السر وبانت السوءة ولن تتوقف أسمر عن مأتمها ما لم أعلن عن التوبة، وأقول لذوي الوجوه الحمراء، والسمراء «سوري! نو مور وورك.. نو مور، دبليوسي.»

– وكيف يعيش الأولاد يا أسمر؟

قليلا هدأت عاصفة الدمع، وقالت أسمر، مسحوقة، مجهشة ما عتمت.

– يفديك الذهب والماس يا أبا سلمان، خذ كل حليّي! بعه ففيه كفاية «صرماية» صغيرة تجعلك سيد نفسك، وتحفظ لك كرامتك، وهي كرامتنا، التي تذبحها كل يوم...

قاطعتها في إصرار.

– كلا. لن اضحي بحليك!

– أنت تضحي بكرامتك وبنفسك، بينما الذهب مجرد نصب للماضي لا مأرب فيه فهو مصرور ومدفون داخل خزانة.

– سيأتي اليوم، فيخرج من لحده وتعودين إلى تقلده يا أسمر!

فقالت متوسلة، تلوذ مرة أخرى إلى بحر من العبرات.

– رحماك لاتقتلني، خذه! خذه وانقذ بثمنه العز الغارق في أحواض الرجس، إني وحليّي فداك يا أغلى الأزواج!

Twitter: @ketab_n

عندئذ أوجسْتُ بالوخزة. كنت أبحث عن وخزة ضميري ولا أجدها.

الآن أدركت أني بعملي هذا، كنت أشحن قلب أسمر ومشاعرها بجروح موجعة. إني أعرف أسمر، أفلم تأتني يوما بضرّتها بيديها؟!

ألم تأت باستير وقالت لي «تزوجها!» اليوم تأتيني بالذهب والماس، ولن يهدأ لها بال إلا إذا بعت هذا الذهب والماس!

سأطاوعها، مادامت تلك إرادتها... ولعل الله يفتح رزقي فأعوضها بأضعاف ما سأبيعه.

يارب!

Twitter: @ketab_n

بغداد، ١٩٣٠

خمس رحلات أو ست منذ أول رحلة، وحين عدت بالبالات في الرحلة الأولى، كنت عرافا بحدسي التجاري الصادق. أدركت، أن هذه البالات تستعيد العز الآفل لأبي سلمان، شلومو كتاني الكردي، فما أن فتحت أول بالة في السوق حتى ازدحم علي البائع والشاري، وحاول بعض التجار إغرائي، بصفقة شبيهة بالصفقة المعقودة بيني وبين التاجر البغدادي - الهندي في بومباي.

قالوا لي:

- لماذا ترهق نفسك بالبيع قطعة إثر قطعة، أو بالة بعد بالة؟ خذ السهم سهمين مقابل السلعة برمتها، ودع الباقي علينا.

رفضت. وازددت إصرارًا على رفضي بعد مشورة أسمر. هي صاحبة الفضل وهي التي أعود إليها كلما احترت أو أعيتني الحيلة.

هي تلك «المرأة الفاضلة» التي نلهج بصفاتها كل أمسية سبت.

أجل، النساء الفاضلات كثيرات، لكنك يا أسمر فقتهن جميعا! كان قلبها ينبض نبلاً وطيبة ولم يقتصر حنانها على ابناء البيت بل كانت ترفده على كل محتاج، قالت لي.

- بع الثياب قطعة قطعة للفقراء. أكس من يرتجف في البرد ويستحيي من ارتداء الأسمال. لقد تجرعنا الكأس المرة، فليشربها التعساء، وهي بفضلك محلاة بالسكر.

قالت أيضا،

- لا تدع التجار يغرونك بصفقة قد تخسر بها حريتك في أن تفعل بسلعتك ما تشاء، ولا تنس أن سلعتك هذه لا يوجد لها ببغداد مثيل، دع أهل بغداد يرتدون هذه الثياب بأسعار رخيصة، فستكسب الأجر والسمعة وتكسب الدنيا والآخرة على حد سواء!

صدقت أسمر. وتوالت الرحلات إلى بومباي، ولم أعد بذاك الأفاق المنزوي مع

Twitter: @ketab_n

الأجلاف وذوي الجلاليب. ولا الأخرس المتحدث بإشارات قرود وقوقأة دجاج، بل بالبذلة الأوربية والقبعة الإفرنجية أدخل قمرتي الفخمة مصطحبا معي الذباح والطاهي وصندوقاً يحوي كل أدوات المطبخ، كي لا أتناول البيض المسلوق على مدى أسبوعي الرحلة. ودرج لساني، فضلا عن الأرامية والكردية والفارسية والروسية، على اللغات المنطوقة بين بغداد وبومباي، ما بين عربية وهندية وانكليزية. في البحر، كنت التاجر المعدود. وببغداد اطلقت على نفسي «شلومو الكردي» وبعنادي الكردي جعلت الناس تخاطبني بهذا الإسم وجعلته «ماركة مسجلة» لي وبخُرتُهُ بطيب السمعة الحسنة، لم أخلف وعدًا ولم أغش أحداً وعاملت الناس بالحسنى فجمعت بين سماحة التجار من يهود بغداد ولباقة التاجر الإيراني وصبره وحسن سياسته، أثريت بسرعة، وبسرعة غمر اسمي السوق. عادت الضحكة إليَّ، فضحكتُ كما الآن، ولماذا لا أضحك، وقد اعطيت كل ذي حق حقه، إستعادت أسمر حليها أضعافاً وحققت حلم ولدي الأكبر سلمان، فأرسلته إلى ما وراء البحر، فوصل أمريكا وهو مسلح بالمال والخبرة، فلم يخيِّب لي ظنًا، وبعد سفر سلمان أنزلت صيون إلى السوق، يتعلم ويساعدني، وعينت يهودا بحر وكيلا لي في بومباي واشتريت بيتا في الكرادة الشرقية، وزوجت مريم واستبدلت «حجرتي» في خان دلة بأحسن منها واخترت لها أثاثا يوحي بالاطمئنان وفرشتها ببسط وسجاجيد إيرانية، وغيرت اللافتة على باب الحجرة، فكانت «شلومو الكردي!» تتوهج فيها بحروف ذهبية. أجل. شلومو الكردي! وليس كتاني. بعناد الكردي أصررت. بعقدة «الكردي» المعتدة، وليس بعقدته المرادفة للمهاجر واللاجيء، وللفقر والمذلة وكل صفات السلب.

شلومو الكردي! لهج الناس بهذا الاسم وأشاروا إليه بالإعجاب، إذ كان يوحي بأشياء يسعون إليها كمثال وكقدوة، كفاحي وإصراري ونجاحي، وطيب السمعة، ونزاهة وشرف، وكل هذا يحيط «الكردي» بهالة تمحو مفاهيم مبتسرة سلبية تراكمت عن الأكراد بعقول الناس، وتنفض عن شخصية الكردي ما علق بها من أتربة الزيف والبهتان.

أفأدركت سبب إصراري؟ أجل. عقدة ما كنا نعاني منها في صبلاخ بل وُلِدتْ في حي مهاجرين قذر في بغداد، وترعرعت بمراحيض بمعسكرات انكليزية، وبالخدمة ببيوت الناس... وروتها كلمات كنا نسمعها في كل مكان «خدم

Twitter: @ketab_n

أكراد..!» نحن من كنا مشتملين ببردة العز حتى تمزقت بيد الحرب الضارية المأفونة، أرأيت إذن سر هذا الإصرار على «شلومو الكردي» بالأحرف الوهاجة الذهبية على باب «الحجرة» في الخان؟

أرأيت لماذا؟

Twitter: @ketab_n

بغداد، مطلع حزيران ١٩٤١

... وتبكي السكينة. تندب الأرواح البريئة التي أزهقت، ويلي على الدماء الزكية المسفوحة! ويلي على الشيوخ والنساء والأطفال! ويلي عليك يا أسمر، يا أم البنين!

وهن القلب الصامد، ولان الحجر الصلد، وانحنت النخلة الشامخة الشماء. وهناك من الذكرى صور كالأطياف، ومنها ما امتزج بالروح، فهو تكرار لحياة.. تبدو وكأن الماضي طواها لكنها تبعث في الحاضر وستظل تبعث في المستقبل وسنحملها، من ثم، معنا إلى الأجداث.

وفاجعة الأول والثاني من حزيران، فاجعة يهود بغداد في يومي العيد. فاجعة المولى بمئات ضحايا. فاجعتي أنا، المضاعفة، المثلثة، المربعة، المفرخة دون هوادة في كل حياتي المتصلة منذ الآن، ورجوعا بثواني العمر، حتى تلك الساعة المشؤومة. حياة ما عاد بوسع القلب الواهن أن يتحملها. أفأعود الآن إليها لأعيشها بالصوت والصورة ثم أذرف بقايا أنفاسي، مصطحبا إياها معي لمثواي وربي؟! أأعود لأبعث أسمر للمرة المضاهية لدقات قلبي، ولكل اللحظات الفاصلة بيني وبين لحظة خمدت فيها النفس وماتت الأشياء، فدفنتها، ويقيني أني سأعود وأدفنها مع هذه الشيبة في قبر، لا نعود هي وأنا نخرج منه؟

كلا رحماك! ارأف، بالله عليك بما أثر منك، من «شلومو الكردي» هذا الممدد قدامي كتلة ضامرة جافة من جلد وعظام. قد جابهت الأهوال طول مائة عام، فهل في ساعات الحسم تستسلم دون قيد أو شرط؟ لا. فهذه نقطة قوتك الانسانية، نقطة ضعفك في مواجهة القدر الظالم. حبك ووفاؤك، وحزنك عليها الذي لم يبهت سواده رغم توالي أربعة عقود ويزيد، القلب ما عاد يحتمل حجم الفاجعة الملعونة، فلا أنت تعود ترويها، ولا أرددها أنا على أسماعك ولندع الزمن الراوي - الشاهد يرويها في صمت وخشوع، إذ هو أدرى منك ومني بتفاصيل الأحداث. بصبيحة أول أيام العيد، في مطلع حزيران من ذاك العام المشؤوم من عقد في

Twitter: @ketab_n

القرن العشرين، نزف دما يهوديا قد طفحت منه دنان العالم، دعه، في صمت يرويها ولا تصخ سمعك فالقصة متشربة في أنفاسك، وتعانقها عبراتك، إذ ضمختها بها للمرة الثانية بحياتك ثم جف الدمع ولم يتفجر بعد، يوم لاقت أسمر مصرعها في جملة من داهمهم الموت الغادر، في ريعان الأحلام، وربيع آمال العمر، كانوا بدورهم يمضون.. ببيوتهم «الآمنة» يجلسون ثم فجأة كانوا بالعيد يموتون..

تحدث أيها الزمن الراوي الشاهد بالقصة. اروها بامانتك المعصومة من كذب أو نسيان الانسان، ومن تشويهه للأحداث أو سهوته عنها.

أفترويها بصمت وأمانة يا دهر؟!

وأنت رويدك يا ابن المائة عام، يكفيك أنك عشت فجيعة أسمر نحو نصف قرن. قو جنانك واستدع بطولاتك من بين ركام الماضي، ومآثرك، من مستودعها وهي، ظلالها تلقيها باستمرار في نفسك بل هي بالنور هناك تشع، بالقوة، وبعزيمة روح لا يقهرها جسد مهما أعيته الشيخوخة، إستحضر هذا، وليرو الزمن القصة!

* * *

- رائحة شواظ تعبّق جو بغداد،

همسة سرت كالنار عشية العيد، دارت بين يهود بغداد. مر شهر والدنيا حبلى بالرعب، يتقدم هتلر، وببغداد وعيد «لن يبقى يهودي على وجه الأرض!» ستذبحون كشياه تحت أقدام البطل المظفر، هتلر! وفي بيت العائلة المهاجرة المجدودة، بالكرادة الشرقية، كانت تتناهى أصوات قنابل، تسمع بوضوح، وهي تلقى في دجلة من طائرة بريطانية، كانت تنتفض مخاوف مكتومة مع أصوات التفجير، وهمس الشائعات الدائرة ويبتسم شلومو، ويقول لأسمر.

- صبلاخ تتكرر في بغداد؟ الانكليزي يرحل ويقول للنازي تفضل؟!

هيهات! لن يحدث هذا حتى يجري الدم في دجلة عوض الماء.

عشية العيد، رغم التوجس والخوف، انفرجت قليلا الأزمة، فر النازيون. الانكليز يستعيدون مكانتهم. عاد شلومو يقول لأسمر.

- أما قلت لك يا أسمر؟! ما كنت لأتخلى عن «ختمة» ليلة العيد، حتى لو أمطرت

Twitter: @ketab_n

السماء طلقات نارية، لكن هذا لم يحدث، فمع العيد تماماً جاءت معجزة الرب وانفرجت الأوضاع!

بيد أن الشيخ مردخاي حاي الكردي، خادم مرقد النبي «ناحوم» في «القوش» النائية بأقصى شمال العراق احتار عشية ليلة العيد في ظاهرة غريبة عجز عن تفسيرها عجزا تاما. سرج مردخاي القناديل، وسكب فيها الماء ثم الزيت، وفعل هذا أيضا بالقرايات الخاصة بالعيد، وأمعن كعادته تدقيقا بها، ثم أوقدها كلها مكرساً إياها لروح النبي الطاهرة وتلا أدعية العيد، وأعقب هذا بطلب الشفاعة من النبي ثم مضى يرتب الحضرة ويزينها، وبعد دقائق، عاد الشيخ مردخاي حاي إلى موضع القناديل والقرايات، فوجدها مطفأة برمتها. صحيح أن مرقد النبي القوشي يشمخ فوق جبل شاهق كالجدار وأن الجو رغم إشراف الربيع على نهايته ما انفك يميل إلى البرودة،إلا أن الهواء كان ساكنا ولا أثر في الخارج لهبوب رياح، ورغم هذا ألقى خادم المرقد نظرة إلى نوافذ الحضرة فألفى نافذة نصف مفتوحة. مضى إليها وأغلقها، وهو يردد وقد ملأت الرهبة قلبه، «اعف عني يا نبي ناحوم إذ تركت للهواء أن يلفح قناديلك ويطفئها» وعاد مردخاي حاي وأوقد القناديل والقرايات وتمدد قريبا منها على سجادة فارسية، بمواجهة ضريح النبي المكسو بالمخمل والحرير، وبعد لحظات، التفت مردخاي إلى القناديل والقرايات. تعسر عقل الرجل وتحجر داخل رأسه، حملق ببلاهة وبخوف غيبي بفضاء الحضرة. لم يحدث ان انطفأ قنديل من قبل فكيف تنطفيء القرايات وكل قناديل المرقد، مرتين في ليلة العيد بالذات؟! أفغاضب أنت عني يا نبي ناحوم؟ هل أخطأت بحقك يا قوشي؟! لعلي نقضت طهارتي في سهوة، أو لعلني إنسان رجس لا أصلح لخدمتك يا نبي الله؟!

حالا! حالا! سأتطهر. سأغتسل بالماء الساخن والصابون! من قمة رأسي حتى أخمص قدمي، رغم اني فعلت هذا عند خروج السبت، بيد أن العيد داخل مع خروج السبت. أفأخطأت؟! لا.. لا.. لابد أن أتطهر وأنا أخدم بمكان قدسي كهذا، وسآتيك فورا يا نبي الله، يا ناحوم القوشي! وللمرة الثالثة أوقد مردخاي قرايات وقناديل المرقد، ولحيته الجليدية الناصعة تقطر ماء وتفوح منها رائحة

Twitter: @ketab_n

العنبر. أوقدها ثم تريث لديها.. الحمد لله! إنها كلها تشتعل بهدوء كالعادة، إطمأن، وعاد وتمدد بجوار ضريح النبي، ثم بعد لحظات، عن له أن يلقي نظرة على القرايات ليتأكد.. ولما سقطت نظرته عليها تسمر بمكانه وهزت بدنه رعشة هلع مشبوبة. كانت كل القناديل والقرايات تتوهج، لكن لون الماء والزيت فيها جميعاً تحول إلى لون أحمر قان.. كالدم المحض.. وتحولت عينا مردخاي حاي إلى قمة رأسه، واتسعت مغارة فمه وانحرفت ليمين، ولسانه نشب في وحل ذهول مغرق، وشبُتْ داخل رأسه زوبعة مجنونة وأطاحت بمزق أفكاره فتناثرت في كل الأرجاء، وإذ أفلح الشيخ مردخاي حاي بأن يحل عقدة لسانه وينطق، غمغم بين لجج محيط جنونه «الدم بقناديل النبي ناحوم والقرايات! هلكت يا مردخاي! بحق قدس الأقداس هلكت!» ثم غاص في غيبوبة عميقة، وكل ما لحق بعينيه ولسانه وبعقله، صاحبه في هذه الغيبوبة، لكن الشيخ مردخاي حاي كان يسمع الأشياء ويراها ويعيها، ولم يكن قد غادر موضعه بجوار المرقد، لكن شيخاً آخر، مهيباً وجليلا وبهيّ الطلعة، ظهر فجأة أمام مردخاي حاي.. علم خادم المرقد بأن النبي ناحوم قطع المسافة من السماء وجاء إليه. كان يعرف هذه الطلعة فقد سبق أن تجلى النبي لخادمه في أحلامه في ساعات لا يعرفها الناس، أحيانا يمسح على لحية خادمه ورأسه فيستيقظ الخادم وقد غادرت بدنه أوجاع الشيخوخة وسرت في أعطافه عافية يتذكرها من أيام ريعان شبابه. الآن يأتيه نبي الله في ساعة غضب مشبوبة والخادم يبذل مجهودا كي يكتم هبات جنونه في حضرة من جاءه من جنات الرب. لا جدوى! تصك الرعشة أعطافه ماعتمت وتجمد عضلة مسكينة داخل فمه الفاغر، والدم مازال في القنديل والقراية. يشير إليها مردخاي حاي وأسنانه السفلى تضرب أسنانه العليا بتتابع إيقاعي معتوه لا يملك ضبطه. وأخيرا ينتزع الشيخ الهلع الذاهل لسانه من قبضة بعبع الهلع والدهشة ويقول بنبرات تفصل بين كل منها مسافات بعيدة،

- فديتك يانبي ناحوم، هل قصرت بحقك؟ وهل اقترفت إثما يحيل الزيت الطاهر إلى هذا الدم؟

قال هذا ومضى ينتظر الحكم من النبي ناحوم! ايقن أن فناءه او خلاصه

Twitter: @ketab_n

يكمنان في هذا الحكم...

لكن وقتا مر في الصمت. نبي الله كان حزينًا، فرك مردخاي حاي عينيه ليتأكد. رأى النبي ناحوم يبكي. سقط الشيخ الخادم في شدق جنون آخر. النبي ناحوم يبكي! القوشي الصديق ساكن الجنات يذرف العبرات؟! يجتاز السماوات ويأتيه حزينا؟! والدم بقناديله وقراياته وهي تشتعل بالدم، وتنير المرقد! بالدم لا بالزيت تنير؟!

- فديتك ياسيدي ومولاي! قد كف عقلي عن فهم ما يحدث. أفيعقل أن يبكي نبي الله ويغدو الزيت دما بالقرايات؟

في غيبوبته، رأى الشيخ مردخاي حاي، سيده ناحوم القوشي، يجهش بمرارة وسمع صوته الحزين، يجلجل في أعماق الحلم - اليقظة.

- كل النبيين والصديقين حزانى ويبكون على ما قضى به ربي وربك على يهود مدينة بغداد.

تساءل مردخاي برهفة الهلع الجبار.

- أهو إذن هذا الدم؟ اسيقتل أهلنا في بغداد بهذا الدم ياسيدي ومولاي؟!

فأمره النبي بصوت أجش مختنق بدمع العينين.

- وجه انظارك ياخادمي الوفي، يا مردخاي الى بغداد وأنظر!

رنا الخادم بعينيه إلى ناحية بغداد وقال.

- قد فعلت ياسيدي ومولاي!

فقال النبي.

- ستطوي عيناك الآن كل الأبعاد وستقترب بغداد منك فتراها وكأنها على كفيك. ستشهد يا مردخاي كل ما يجري فيها. فانظر!

- إني أنظر يا مولاي!

- وماذا ترى يا مردخاي حاي؟

- أرى النساء والرجال والشيوخ والأطفال يُذبحون ذبح السوام وأرى البيوت تُنهب والدكاكين تُفرغ من سلعها والحرائر تغتصب، والدماء تسيل أنهارا، والرعاع يرقصون جذلين على جثث الضحايا ملوحين بالخناجر والسيوف

Twitter: @ketab_n

المضرجة بالدماء.

فقال النبي ناحوم:

- هذا ما سيحدث لأهلنا في بغداد خلال يومي العيد!

أعوَل خادم المرقد وتوسل،

- إذن فليقف سيدي ومولاي مع صحبه وليتشفعوا لهؤلاء المساكين الأبرياء لدى ربهم، فقد يرأف بهم ويدفع عنهم البلية.

فقال النبي بصوت كسير لكنه قاطع.

- لا جدوى يا مردخاي! تشفعنا وتوسلنا لكن قضاءه قد نفذ، ولا مرد لقضائه، جل جلاله.

فقال مردخاي حاي مرتعدا، يتساءل.

- أوسيفني يهود بغداد يا سيدي ومولاي؟

- كما قلت لك! سيتدفق دمهم طول يومي العيد، ثم يفتدي أهلي وأهلك رجل وامرأة من الأتقياء الورعين، أنظر يا خادمي الوفي!

ونظر الشيخ مردخاي حاي، فرأى شيخًا بغداديًا ناصع اللحية يجلس على كرسيه منهمكاً في تلاوة مزامير داود، وإذا بأزيز رصاص يقطع التمتمة المنغمة العذبة. شرارة نار وفرقعة يعقبهما خيط من دم يتدفق من الجبهة المغضّنة ويتطاول حتى يسقط طرفه على كتاب المزامير ويغدو بسرعة بركة حمراء. ويهوي رأس الشيخ اليهودي البغدادي على صفحة زبوره وتنغمس لحيته في بركة دمه.

وقال النبي القوشي لخادم مرقده الشيخ مردخاي حاي، الغارق في أشجانه وذهوله وجنونه.

- أُنظر أيضا يا مردخاي حاي!

وامتثل أيضا فرأى امرأة كهلة، ملفعة بعباءة سوداء، تمرق في شارع، وهي تتلفت يمنة ويسرة كالمجنونة، خائفة وجلة، تصرخ بأشياء تتناهى إلى سمعه، لكنه لا يفهمها. والمرأة تلطم خديها وتخمش وجهها، وإذا بجمع يحيط بها. جمع يلوح بمدىً وخناجر وسيوف. جمع هائج يهتف هو الآخر بأشياء، الجمع يصرخ؛ والمرأة تصرخ. والجمع يحيط بالمرأة، ثم ينهال عليها طعنا بسكاكينه، وتسقط

Twitter: @ketab_n

المرأة وسط الشارع غارقة في بحر من دمها.

القويش. والمرقد مرة أخرى، ومردخاي حاي يعود من رحلة الرعب والأهوال... المصبوغة بالدم... يعرق رغم برودة الجبل الشاهق، يلهث مصعوقًا.. وناحوم القوشي بمواجهته ويقول له.

- هذان الورعان. الشيخ الصالح والمرأة الفاضلة، سيختتمان قوافل ضحايا يهود بغداد، وسيفتديان بروحيهما المذبحة الكبرى!

وأفاق مردخاي حاي. جسمه يمطر عرقا... يرتجف رهبة. وفي اعطافه حزن عملاق مارد والقناديل انطفات مرة أخرى. والدم فيها عوض الزيت والماء، لكن الكارثة كانت أكبر مما تخيلها. إنه بالبدن الضامر هذا، المسحوق تحت وطأة الأعوام سينجو. وأكثر من هذا، يسمو الخادم الشيخ إلى مرتبة مولاه فيعرف مالا يعرفه يهود بغداد بعد، ويبكيهم من قبل أن يبكوا أنفسهم. وقال الشيخ مردخاي وهو يبلل لحيته البيضاء بدموع مشرقة كلالىء. «بيني وبين بغداد مئات كثيرة من الفراسخ، وبيني وبينها أيضا قضاء الله المحتوم» وتمنى، رغم هذا، أن يغدو طيرًا يطوي الأبعاد في لحظة ليصل بغداد ويحوم حول بيوت ستطرقها النكبة، وينادي بلسان القدر الآتي «فروا من حمامات الدم! احترسوا من المذبحة الكبرى!» ولكن، هل يتحدى مشيئة ربه ولم تنفع بردها شفاعة النبيين والصديقين؟! ناجى ضريح نبيه كمعاتب «لماذا تعاقبني يا سيدي ومولاي بمعرفة الغيب المشؤوم المفعم بالأهوال؟!» وتمنى الشيخ، خادم النبي القوشي ما كان يخافه قبل قليل ويخشاه. فجأة غدا موته في عينيه، أليفا وودودا، ورقيقا يرغب في أن يضع يده على كتفه ثم يمضي وأياه نحو غياهب المجهول.

في تلك الساعة كانت قبضة الهلع المتشبثة بخناق يهود بغداد منذ أيام طويلة تتراخى، وتخلي مكانها لليلة عيد تأتي بالفرحة. فالأزمة في بغداد قد انفرجت أو كادت، والعيد ضيف يأتي للناس بالبهجة، ولم يكن من بين يهود بغداد شخص واحد يتنبأ بما تنبأ به خادم ناحوم القوشي، كان مردخاي حاي وحده من يعرف. وكان «أبو سلمان» شلومو كتاني الكردي، يتكلم بنفس لغة مردخاي حاي الآرامية، لكنه يجهل ما يعرفه الآخر، عن مظاهرة ستمضي قريبا قاصدة يهود بغداد، ويتقدمها ملك الموت المتأهب لحصد أرواح كثيرة وبريئة. كان شلومو

Twitter: @ketab_n

رائق البال معتدا كالعادة بنفسه، وكانت أحداث صبلاخ المنصرمة، لا تعدو في عينيه كابوسا دفنه في لحد أعوام الخير المتعاقبة فتولى إلى غير رجعة، كان شلومو يؤمن بأن للكارثة حدًا، وإن الأزمة قد اشتدت فانفرجت، وإن المنطق لا يرضى بتواصل أعوام الأهوال والنكبات. عاد من كنيس «عزرا داود» في البتاويين، بعد صلاة «خروج السبت» وصلاة عيد الزيارة، هذا عيد يعقب سبتا وأياما مقدسة تأتي بعد يوم قدسي. حمل فرع الآس كعادته لأم أولاده أسمر ولم يحتج إلى استبدال ثيابه، فثياب السبت الفاخرة صالحة للعيد كذلك، وكان الوقت يستعجله، فالليلة لن ينام يهودي، بل يسهر مع رهط تقاة حتى الصبح، متّحِدين في صلوات متعاقبة تكرس لأرواح الموتى، وشموع توقد بخشوع لتنير لتلك الأرواح صراطها إلى الجنة، كان ثمة في أعطاف شلومو الكردي، نغم قدسي عذب يعزف على أوتار رضاه ويفوح منه عبير الشكر للخالق. «قلعتي وحصني الذي نجاني، كما نجى الصالحين من قبلي، أقال عثراتي، وعاد ورفعني من بعد سقوطي وها بحسناته ما انفكت تترى علي وتغمرني، ومعي أسمر أم أولادي، تشاطرني نعم الله، وهي بذاتها سبب من أسبابها وسبلها الفذة»، كل شيء يدعو إلى الاطمئنان. هنا في بغداد، بعيدا عن ألقوش الباردة، المنحشرة في أقصى شمال جبلي. هناك أفضى النبي القوشي لخادمه المخلص بالسر، هناك شخص واحد يعرف مالا يعرفه يهود بغداد عما يخبئه لهم يوم العيد الميمون.

وتعشّى شلومو كتاني بتأن ثم قال لأسمر.

– إني ذاهب.

لم يشرح. كان يعرف أنها تعلم، لكنها سألته

– أإلى منزل التاجر مئير بيرص هنا بالكرادة؟!

لاح ظل كآبة غير متوقعة على سحنة أبي سلمان وقال

– بل سأنزل لبغداد «للمهاجرين» من إخواني في منزل الحاخام ميخائيل.

رمقته متسائلة فأردف.

– جاءني المرحوم الحاخام ناحوم البارحة في الحلم وعاتبني بقوله «نسيت أهلك يا شلومو!»

Twitter: @ketab_n

سكت. غام وجهه أكثر... رغم فرحة العيد والأشياء الأخرى. وأضاف أخيرا.

- تذكرته في تلك الليلة المشؤومة في صبلاخ وهو مستلق مضرج بدمائه على بساط الجليد الناصع في وسط الدرب.

رمقته أسمر بحنان ثم مسحت برفق صامت على كتفه، رفق مفعم بأحاسيس وبأفكار لا تستوعبها الكلمات، وإذ فرغت من بثه مشاعرها المفرغة في هذا الصمت، قالت.

- حافظ على نفسك يا أبا سلمان، إذ لا أمان في هذه الأيام.

لا أمان! وكل ما كان من حياتهم المنصرمة انقضى في اللا أمان لكنه موقن بأنه حيثما مضى فإنه يمضي بطريق يرافقه فيها «أمان الله» وما قيمة احتراس الإنسان لو تخلى عنه «أمان الله» هذا؟!

ودعها وخرج، وبغداد مرتدية حلة عيد، مزكومة الأنف، فما عادت تشم رائحة الشواظ الخانقة المنتشرة في كل ذرة هواء، ورغم فرار رشيد عالي، فإن العالم كان يقتتل بضراوة في الغرب وفي الشرق، وكانت أفران الغاز تفتك بيهود أوربا دون حساب، وجيوش يهود، عراة وعجاف، وانتزع منهم كل أثر للظل البشري، ظل الله على الأرض كما زعموا، يُدفعون لمعسكرات التعذيب النازية ينتظرون إبادتهم في عجز فاضح. لكن بغداد كانت تحيي العيد، وشلومو الكردي، وكثيرون معه يلهجون بشكر وحمد الله بقلوب راضية مرضية، وفي مرقد النبي ناحوم، في القوش البعيدة ينضمّ الشيخ الصالح مردخاي، بعد نبوءته الهولية، لسيده ومولاه نبي الله، فيبكي كارثة الغفلة المقتربة المحتومة.. ووصل شلومو كتاني بعد مسيرة حثيثة ودؤوبة إلى بيت الحاخام ميخائيل الواقع بزقاق خرب وعتم داخل أحشاء أحياء بائسة مندسة بحوارٍ ممتدة على طول «شارع غازي.» وكان الجمع هناك مكتملا. صحبة من أيام العز وريعان العمر، في مسقط الرأس صبلاخ. صحبة شاركها الأهوال وشاب معها رأسه قبل أوان، وأصبح معها «مهاجرًا» و«لاجئًا» حين لم يبق هناك وسيلة لمراوغة الموت. عانقهم فرداً فردًا وجلس، وامتزجت الذكرى بقدسية العيد وشابت البهجة أشجان، أحزان غابرة دست أظافرها في لحم العيد اليانع، ثم بدأت الصلوات، في كل مكان الصلوات. وتُحيى

Twitter: @ketab_n

فرائض بمحبة. والله يتوعد سرا عباده ومريديه. لم يبق على المذبحة غير قليل! هنا، يتقدس اسمه ويتعلى ويمجد وهناك في سماواته، تكتمل خيوط جريمة صغيرة لتنضم إلى جرائم أوربا المتحضرة العظمى! والمأساة - العيد تمضي غافلة جاهلة، لا تعرف عن ذاتها شيئا، سوى شيخ كردي آرامي في القوش البعيدة فلديه قد عاش المستقبل وانكشف قدامه وجه المسخ البارز الأنياب.

وغار الليل في جوف الماضي، ويهود بغداد ما عتموا يقظين يلهجون بذكر «الرحمن» العالي، وكانوا رجالا وشبانا وشيوخا، أما النساء فقد نمن يهدهدن ظهر الاطمئنان. وأشرق يوم العيد، ورويدا رويدا بدأ السر المكتوم يفضح نفسه لضحاياه.

قطرات دم أولى سالت، حارة لزجة قانية، قرب «باب الشيخ.» سقطت على الاسفلت الأسود. زهقت أول روح. صبغ منظر الدم مُقَل الوحش الكاسر، عبقت رائحة الدم أنوف القتلة، فتفاقمت شهوة البعبع للسائل البشري الأحمر. لدم بشر مختونين يحيون عيدا في هذا اليوم ويغدقون على خالقهم بالحمد والشكر، لكن الخالق ظل ينفث في أرواح حشود مكتظة، الرغبة العرمة في ازهاق الأرواح اللاهجة بتمجيده. من عليائه كان يحدق وهو يكشف عن أنياب صفراء وهو يستمتع بمشهادة الدم المسفوح ويتمتم «لقد اخترتك يا «شعبي» لتموت وليحيا جنودي القتلة!»

وسار موكبهم في درب الله المرسومة! إذبح! دمر! إنهب! إسرق! اغتصب العذراوات! نساء «شعبي» المزعوم! جلجلت في آفاق بغداد. وانتشرت مثل فيضان النهر. وكان شلومو ورهط من أصحابه تتهالك السنتهم في ذكر الرب، ثم يغفون في الفجر متهالكين من سهر الليل. ولكي يجددوا طاقتهم لسهر الليلة الثانية من العيد وتكرار تمجيد قاتلهم - الرب! وأفاقوا على الطلقات. وأفاقت أسمر أيضا، بلا أصوات الطلقات في الكرادة. لم يصل الخبر بعد. ولم تفتح مذياعاً ولم تستخدم الهاتف. فذاك من محظورات العيد. وسلمان الابن الأكبر في أمريكا وصيون ومريم ببيوت الزوجية. صيون في السعدون، ومريم في البتاويين، أما رجل البيت المحبوب، هل كانت أسمر تعلم بأن أبا سلمان ينسى نفسه مع

Twitter: @ketab_n

أصحابه؟! الرجل العاشق للأصحاب وللذكرى النائم الآن، بلاشك، بعد سهر الليل، أتراه سيصل الليلة الأولى بالأخرى؟ ألن يأتيها في أول أيام العيد؟ خُيِّلَ لأسمر أنها تسمع أصداء طلقات تأتي من بُعد. أرهفت الأسماع، لكن الأمر لم يزعجها فقد كثر الشغب ببغداد أخيرا، حتى لتكاد تغدو كصبلاخ إبان الحرب الأولى، ليكن. فماذا يعنيها انقلاب آخر، أو ثورة أخرى على الأنكليزي؟! إن عليها إعداد «الكاهي» كما جرت العادة في هذا العيد. لم يبح السرّ بنفسه لها بعد. كان يعرفه خادم ناحوم القوشي ويتضح بأماكن من بغداد، بعيدة عنها. كان هذا السر بنواحي بغداد الأخرى، وبأزقتها المتداعية المسكينة وأسواقها ومراكز تجارتها يعلن هناك، عن ذاته في ضجة ويتفشى كوباء يحصد أرواحا ملوثة بيهوديتها ويغضب الله عليها!

وكان شلومو قريبا جداً من طوفان الدم والشر، لكن الروح والقلب والفكر تهيم بعيدا في الكرادة والسعدون والبتاويين، أسمر! ماذا تراك تفعلين الآن يا أم البنين؟! لا. أفيتركها وحيدة في أحضان الهول والوسواس؟ ودار جدل بين الأصحاب.

- تلك الأنحاء آمنة مازالت.

- وستأتي إليها مريم، وقد يأتي صيون.

- ستجن لو عرفت إننا في مركز الأحداث!

- ولكن لو ركبت رأسك وخرجت وحل بك مكروه، فستقتل الفاجعة أسمر. ما في ذلك شك!

في الليل، تفاقمت الأحداث، بيد أن أسمر لم تعرف، وكانت تستغرب أن أحداً لم يأت إليها طوال اليوم الأول للعيد، لا الزوج ولا الأولاد! كان السر المهتوك ما انفك يضرب ستاراً على وعي أسمر ولعلها وحدها ظلت تجهل ما يحدث. الا أن مخاوف طفلة، أخذت تولد في رأسها ومشاعرها، ثم تنمو بسرعة مع الليلة الثانية للعيد. أرقت، وأصوات الضرب تتصادى، والدم يسيل غير بعيد عنها. تزهق أرواح لكن رهط أبي سلمان عاد يلهج بذكر الله ويتوسل طلبا للرحمة والافلات من الموت القادم. إن القتلة يمرون بالكوجة. أصوات صراخ وعيارات نارية. أصوات

Twitter: @ketab_n

هوسة. أصوات الموت يعربد. ضحايا وجلادون على قاب قوسين. الفقر والإدقاع شفيعان لبيوت مهاجرين أكراد. تبتعد أصوات الشر والطلقات النارية. الليل يرجّع أصوات ثكالى وأصداء فزعة. أسمر! إني أُحاول ان اخترق الغيب اليك، وأطوي مسافات كانت بالأمس طريقي المعهود فأمست في لحظة، طريقا مزروعا بالموت. ليتني آتيك في قفزة لأراك. أعرف أنك مازلت والأولاد في مأمن، ولكن هل روحك أيضا ما انفكت في مأمن؟ العجز شيطان لكن الجهل ملاك. أفما زلت جاهلة بما يحدث؟ هيهات فأنت لا ريب الآن فاقدة العقل... وأنا من بعد إقدامي في صبلاخ أقر الآن بعجزي، وأقر بأن الشر على أنواع. كان عملاقا في صبلاخ لكنه هنا مجنون مندفع أعمى. وأنا كبرت وجبنت. ما عاد بي ذاك الإقدام. أفتسمعين يا أسمر؟ ما عدت مقداما وأنا من أجلك والأولاد أتحامى الموت المتجول قريبا مني. كان يناجيها وهي لا تسمع غير همسات الوسواس المتعاظم، أرقت «لا أدري لماذا قلبي يأكلني.. وبمجرد ان يطلع الصبح سأمضي إلى مريم!» لكن ذاك الصبح أنجب الرعب. في تلك الليلة لم يغمض لأسمر جفن وعند الفجر أنهكها القلق والوسواس فأخذتها سنة من نوم. نامت ساعة ثم هبت على أصوات طرق مجنون على الباب. كانت هذه مريم، هلعة فاقدة العقل. ارتبكت أسمر. أحست باعتصارة روح مبهمة. الابنة كانت أول من استفسر.

– أين أبي؟

أوجس قلب أسمر بالشر. ببلاهة حملقت بابنتها، وقالت

– ما الأمر؟! قد أوقعت قلبي فقولي ماذا حدث؟

لم تر مريم أباها ولم تسمع صوته، فعادت تتساءل بفزع.

– أين أبي؟ أين أبي؟

– في بيت الحاخام ميخائيل منذ أول أمس.

تداعت مريم ساقطة على كرسي، لهثت. قرأت أمها على سحنتها آيات مشؤومة. صرخت مرة أخرى.

– ما الأمر؟ لقد أوقعت لي قلبي يا مريم!

– بغداد مقلوبة. يهودها يذبحون كخراف المسلخ، وأنت لا تعرفين شيئا حتى

Twitter: @ketab_n

الآن؟

فرقع ريق اسمر في حلقومها، في رأسها بدأ محراث أهوج يحرث العقل. ذهلت جزءا من لحظة ثم صاحت كالمفجوعة.

- شلومو! ذهبت فداءك يا أبا سلمان!

وهرعت بثياب النوم إلى الباب. لحقت بها مريم. جذبتها وهي تولول.

- إلى أين؟ إلى الموت بقدميك؟

* * *

ومع الساعات، تعاظم حجم ركب الموت واتسعت رقعة الهدم والتدمير وانكشف السر لأسمر، وانتفخ في مخيلتها حتى أصبح أكبر من حجمه، فرّخت الإشاعات في كل مكان. وتوالدت حكايات الماساة واختلط الواقع بخيال الناس المغذى بالخوف الجبار. ونجا الرهط المحبوس في منزل حاخام ميخائيل بأعجوبة، وكانت الصرخات تطبق على هذا المنزل من كل جانب. وكان شلومو جسدا أخرس يحوم كل وجوده حول الكرادة الشرقية ويناجي أسمر. وكان جنون أسمر يحيل ثاني أيام العيد إلى مأتم وتتحصن برجل واحد عشقته من سالف الأيام. كانت تعرف كل ما جابهه زوجها في صبلاخ، من أحداث يشيب لها الولدان، كان كتوما، لكنها شاركته بمشاعرها في كل ما مر به. وكان الله معه ونجاه من كل تلك الأهوال، وانهزم الموت مرارا وانتصر شلومو، لكن هذا كله لم يشفع لجزعها الحالي الجبار. داهمها إحساس بأن المرة هذه تختلف عن كل المرات. ووسوس لها الشيطان فرأت بعين مخيلتها كومة جثث مقطعة الأوصال في بيت الحاخام ميخائيل، ولمحت أشلاء رجلها مبعثرة بين الأشلاء. كان الظهر قد ولى، وجاء في أعقابه العصر. ومريم تجاهد في نزع عته أمها الطاريء ولم تكن هي بأقل جزعا منها، إلا أنها علمت بأن ما يحدث في أعماق بغداد لا يمكن درؤه إلا بمشيئة الله، وبأن الوحشية كانت عاصفة تلفح بطريقها كل الأشياء، ويهود بغداد كالأشجار المتساقطة بمهب الزوبعة المجنونة، كانوا ضعفاء بالمعنى المطلق، مغلوبين على أمرهم. يحتمون بعجزهم الشامل بإله قد تخلى عنهم. وكان، كما عرف الشيخ القوشي، مردخاي حاي، هذا الله الذي أباح بذاته دمهم

Twitter: @ketab_n

للسفاحين وممتلكاتهم للنهب والحرق والتدمير، لكن أسمر لم تخضع للمنطق. كان المنطق قد مات ببغداد وبرلين وسائر أنحاء العالم. وكان قضاء الله الجائر يمضي وفق خطته المرسومة. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر بحثت مريم عن أمها بمرافق البيت وغرفه، ولم تجدها. وغاض وعي مريم في أعماق العقل. عرفت أن الأم خانتها في غفلة وخرجت. انطلقت مريم تبحث عنها بين طرفي الشارع. نادتها. عاد إليها صوتها مع الأصداء. والشارع كان بلقعا مهجورا لا أثر لمخلوق فيه. عادت مريم للبيت. انتحبت. ها قد لحقت الأم بأبيها. أتراها فقدت الأبوين معا؟... أين أنت يا صيون؟ أين أنت يا سلمان؟ أمي وأبي. إنهما في أشداق الموت الشره الذي أبدا لا يشبع.

* * *

في تلك الساعة كانت أسمر تتلفع بعباءتها وتعدو كالمجنونة نحو الباب الشرقي. وكان شيخ يهودي ورع صالح يجلس على كرسي في بيت متواضع مندس في حي شعبي من بعض أحياء الفقراء ببغداد. وكانت لحيته البيضاء تكاد تلامس كتاب مزامير، والرجل غارق بتلاواته، غائب في ملكوت الله، ويحاول درْء غضبه بالصلوات، وكان شلومو كتاني في بيت الحاخام ميخائيل، لكن روحه وفكره في بيته بالكرادة وهو يتساءل عن أسمر. وأسمر تتعدى الباب الشرقي متجهة نحو «قهوة عرب» ومنها إلى «باب الشيخ» وكانت مريم وحدها في بيت أبويها حائرة مشدوهة ساقطة القلب والعقل وتتنبأ بكارثة محتومة وصيون يلبد في بيته، في كنف الأولاد والزوجة بعيداً عن مسرح الأحداث، يتذرع بالصبر ويأمل خيرا، وسلمان عبر البحر يلتقط أذناب أحداث ولا يعلق عليها أهمية. ومضى مردخاي حاي، وهو بمرقد ناحوم القوشي، بالقوش البعيدة يبتهل ويترقب خاتمة الأحداث، دون أن يعرف عن مجراها شيئا، وعجوز ورع في بيت متواضع ببغداد يتلو مزامير داود، وامرأة فاضلة تسعى بدروب بغداد الخطرة تنادي «شلومو! شلومو!» والشيخ الورع والمرأة الفاضلة سيفتديان بدمهما، دماء يهود بغداد المباحة، وينهيان المأساة. واقتحم جمع من القتلة منزل الشيخ الصالح. لم تزعجه الجلبة، فظل يتلو صلواته وهو غارق في ملكوت الله، ولم

Twitter: @ketab_n

تزعجه الطلقة النارية لكنه أوجس بدنو الموت. قطع تلاوة زبوره، وتشاهد بوحدانية الله، ثم انكفأ على مصحفه يلطخه بدمائه ويلفظ عليه الروح، واجتازت أسمر بعباءتها باب الشيخ تعدو في «شارع غازي» المفعم بالقتلة والمقتولين، وقد فقدت الرشد تماما، تعدو وتهتف «شلومو! أنا فداؤك يا شلومو!» ولم تعد اسمر بعد لتهاب الخوف أو الموت. ولم تحاول تمويه شخصيتها. كانت تكشف عنها وتصيح «وايهوداه! واشلوماه!» تدعو الموت إليها. تدعو القتلة. تمتثل لقضاء الله، لتفدي مع الرجل الكهل الصالح بقية يهود بغداد.

فجأة، أحاط بها السفاحون. «يهودية! يهودية!» كانت خناجرهم تلمع في وهج الشمس، وعينا أسمر تتوهج بالعبرات. وهي لا تنكر يهوديتها بل تعلن عنها بصياح مجنون. وتلقت أول طعنة فصاحت «شلومو!» وتلقت الثانية فصرخت «شلومو!» وانغرزت الطعنة الثالثة في قلب أسمر فزعقت «شلو...» وقبل أن تكملها غابت في أحشاء الموت.

* * *

يكفي يازمن! قد نعيت الغالية المحبوبة «أم البنين» فدع من هو أولى واجدر منك ينوح عليها. أبدًا يندبها ويبكيها، وها بالعين المتحجرة تعود وتندى، لكنها هي هذه المرة الثانية التي لا تتلوها ثالثة. هي التي تتكرر مستعيدة ذاتها مع الذكرى المعاشة. اسمر أم البنين. اسمر كبش فدائي منذ أيام الصبى، بمشاعرها افتدتني، وبحليها، ثم لم تكتف أسمر بكل ما فعلت فضحت من أجلي بما تنتهي عنده كل التضحيات وينفد الفداء. ولم تفدني وحدي أسمر بل افتدت بدمها الطاهر كل يهود بغداد. عرفت هذا إذ التقيت بعد سنين بالشيخ مردخاي حاي خادم مرقد النبي ناحوم في القوش، قص علي ما أخبره به سيده النبي عشية العيد و«الفرهود»، قال إن شيخا صالحا وامرأة فاضلة أنهيا بفدائهما قوافل الضحايا، لم أعرف الشيخ الصالح، لكن المرأة كانت أسمر بالتأكيد.

حين طُعنت أسمر في الشارع أحسست بوخزات في القلب. وهدأت العاصفة لكنني تيقنتُ. احساسي كان أقوى من المجهول. صممت على أن أذهب. وقف الحاخام ميخائيل واصحابي سدأ في وجهي. أدركت بوحي من إحساسي اني

Twitter: @ketab_n

قد فوت الموعد ومرت ساعة حبلى بالشؤم، ثم طرق علينا الباب صديق لي مسلم، عباس القره غولي، من أصل كردي ومن إخواني في السوق. في التَّوّ عرفتُ. من أجلي جاء. وفي الحال تأكدت من إحساسي. نظر عباس إلي، وتفرست في وجهه. كان صمته أبلغ من كل كلمات الدنيا، والدمعة المتحشرجة في عينيه تستخلص عصارة روح الحزن ولما انحل لسانه قال.

– قم معي يا أبا سلمان!

وجم الرهط بأسره. شعروا جميعا ورأوا شبح المكروه. وكان المكروه يشمل ليس فقط هذا المنزل، ولا بغداد برمتها، ولا العراق وحده، بل يمتد إلى سائر أرجاء الدنيا. كانت هذه غضبة الله على يهود الدنيا. وكان أصحابي وجلين حزانى ويعتذرون بصمت، لكن المجهول مازال يثقل عليهم بهاظة عبئه. أنا وحدي كنت من يعرف، وسألت عباسا القره غولي

– أسمر؟!

هز رأسه وذرفت عينه دمعة اشتملت على روح الحزن في العالم

– أما زالت حية؟

– نقلناها للبيت وهي تنازع. كانت هناك مريم، ودلتني عليك، فأما أن تلحقها أو...

وعدوت. لم انتظر أن يكمل الكلمة... لم أقل شيئا لرفاقي. لحق بي القره غولي يناديني وأنا أركض في الطرقات. إني فداؤك ياأسمر! إنتظريني! دعيني اسمع صوتك! والقره غولي يطاردني بسيارته، ولما أدركت أن السيارة أسرع مني توقفت ولأول مرة بحياتي خالفت فريضة العيد، وركبت سيارة، لكن وا أسفاه، نعيها أدركني قبل أن أصل البيت. كان صراخ مريم يبلغ ملكوت الله. الله، من شرفني بأن اختار أعز ما عندي، كبش فداء لجميع يهود بغداد، كانت بغداد برمتها تحيي المأتم. مناحة عظيمة. في كل شبر صرخات حداد. في كل متر زعقات الموت. كم كان بودي أن أسمع آخر كلمات أسمر؟ خاب رجائي. كان دمها يكسوها وينطق عوضا عنها. وكان مازال حارا يغلي. وفجرت دموعي بقوة. ولم أخجل من ضعفي فدموعي على أسمر كانت دموع القوة. لم أبذلها بحياتي غير

Twitter: @ketab_n

مرة ومرة. للموت وحده، وليس أي موت كان، بل موت أعز ما أملك وما ملكت طول عمري.

الآن، وأنا في أرذل العمر، ضعف قلبي وما عدت أملك جلد الأيام المطوية، إن دوارًا يعصف في رأسي ومازلت أريّث هذه الروح الكردية السادرة بعنادها الكردي ومع ذلك فسألحق يا أسمر بك! صحيح أني تزوجت الملعونة أم عزيزة من بعدك، لكني ما خنتك في يوم من ذات الأيام، عرفت فيما عرفت، أن روحك يا أسمر قد فاضت واسمي يجري على لسانك. أم عزيزة، لا أحظى منها بغير اللعنات مقابل الحسنات وكيف نقارن الطهر بالرجس، والماسة بالفحم؟!

حاشى لله! حاشى لله!

Twitter: @ketab_n

بغداد، أواخر ١٩٥١

قلبي كشتاء بغداد الكالح، برودة ووحشة وخلاء، وتراوده أحيانا رعشات الأمل المتألق مثل صرير عجلات «عربات الشلغم» وهي تدور على أرض الاسفلت المغسول بالأمطار في جوف الليل. لقد «مخضوا جود اللبن» وألقوا بكتلة الزبد الدسمة خارج الزق. معظم يهود بغداد رحلوا. حتى مريم وصيون، حزما مع أزواجهما وأولادهما ما أثر من سقط متاع الدنيا وتركاني مع الملعونة وابنتها! مختارين القدر الآخر في اسرائيل. «حجرتي» في الخان لم تستبدل سحنتها في الظاهر، لكن الزبائن اختلفوا وازداد التعامل بالدَّيْنِ مع أبناء عمومتنا من تجار بغداد. السيولة في الخان قَلَّتْ، والاحباط عشش في النفس، والبيت أضحى جحيما مع «أم عزيزة.» لا تسألني كيف وقع المحذور. إذ لن يعثر إلا الفطن الشاطر. وقد سقط الفأس برأسي وشجه، شجة لا تندمل طول العمر، سليطة وخبيثة وشريرة. أُتخمها بالنِعْمة فتتخمني باللعنات، أُوقد لها أصابعي شمعا فتدس أصابعها في عيني، وكفيها في وجهي متمنية موتي ورحيلي، عاتبت نفسي، وقلت إني أتلقى جزائي، إذ آويت امرأة في بيتي من بعد أسمر. لكن أسمر ظلت حتى بمماتها بارة ووفية، فلم تلق باللائمة علي. في الحلم. جاءتني تبكي ما ألقاه من «ضرتها» الحية وتقول «فديتك.. ليتك كنت استخرتني في الحلم لأشير عليك بالزوجة الصالحة من بعدي!» استيقظت أترحم على أسمر. وأردد في سري وبكل جارحة في بدني «قد سبق السيف العذل! سبق السيف العذل!» وأفر من بيتي إلى مقهى «الحيدرخانة.» رحم الله الماضي! كنت فيه أُلازم عملي في الخان. أمكث في المكتب حتى ساعات الليل، أنسى نفسي في زحمة العمل المتجدد. ومذ رحلوا قل العمل وانتقل المال إلى جيوب العملاء. ديون وديون! وأسماء من أبيعهم بالدين اجشمت الدفتر. آلاف وآلاف الدنانير! وأنا أنفث في المقهى دخان النارجيلة وأسمع قرقرتها. وأحدق بأقفاص الببغاوات المتدلية من سقف المقهى، مفتوحة على مصراعيها، والببغاوات تخرج منها متسلقة «الزنجيل.»

Twitter: @ketab_n

سلاسل حديدية غليظة وطويلة تربط بين السقف والأقفاص، أتمعن في هذا وأحاول أن أعثر فيه على حكمة أو مغزى، والحكمة تتغير في كل مرة، فقد خضت الدنيا واستنفدت حكمياتها بأجمعها، لا بل هذا هو الخطأ الفادح، فأنت رغم حكم الدنيا المكنوزة في رأسك، جاهل مادمت تعيش، فبطن الدنيا بجراب الحاوي، وهي تفاجئك كل لحظة بجديد. تعلمت خلال الأهوال المنصرمة، أن القدر قد ألقى الإنسان في حقل ألغام، وأن على الإنسان أن يتحسس ما تحته قبل أن يخطو، فالخطوة التالية قد تفاجئك بالمكروه ومادمت لا تعرف ماذا تخفي لك الخطوة القادمة، فإن عليك إما أن تبقى بمكانك أو تتقدم باستمرار رغم أنف الأخطار، معادلة متناقضة الطرفين، سوّى بينهما إيماني في القول المأثور «ما يصيبك إلا نصيبك!» بيد أن حقيقة جهلك لمصيرك، وأن الدنيا هي قبعة الساحر المنبعث منها، في كل دقيقة، شيء لم تتوقعه ويصيبك بالدهشة، تبقى ثابتة رغم الحكمة النظرية والتجربة وفلسفتك المختارها لحياتك.

وعلى تخت في مقهى الحيدرخانة، أُمدّد ساقي وبيدي «ماربيج» (خرطوم) النارجيلة، وفمي ينفث دخان الاحباط والغيب، ومزَق ذكرياتي تنتابني بألوان شتى. لحظات أطياف! هذه هي خلاصة أعمار الناس! لحظات أطياف، تسترجعها بحنين وتترحم عليها حتى يطويك الموت فيترحمون عليك وتلتحق أنت ببارئك مخلفا جسدك الفاني مع هذه الأطياف المندثرة.

كل خلاصة هذه الأشياء كانت تومض خلف جبيني في ذاك اليوم المشؤوم، وأنا في مقهى الحيدرخانة، أعيش الماضي وأجهل اللحظة التالية الملغمة، وأشعر بحنين وعذاب وألم وبأني أتلمس دربي في ليل بلغت فيه الحلكة ما لم تبلغه حتى في أوج الحرب الضارية في صبلاخ، أو في «الفرهود» وأنا في رهط من أصحابي ببيت الحاخام ميخائيل، أترحم في هذه اللحظات على أسمر قبل أن أترحم على الأشياء المنصرمة برمتها، وألعن أم عزيزة قبل أن ألعن غدر الدنيا، وأطحن خلاصة تجارب خصبة وأراها كغبار يتبعثر في الريح، وأرد في شبه إغفاءة على تحية أتلقاها من طيف إنسان لا يتضح شكله لي في السهوة، ثم بسرعة انفض أفكاري وجُنوني على شاطىء الماضي والمستقبل، فأرى شرطيا

Twitter: @ketab_n

يدعوني فأفاجأ بجديد آخر يخرج من بطن قبعة الدنيا الساحرة الملعونة.

– أأنت شلومو كتاني الكردي؟

إني هو، وكل الناس تعرفني، أُجاهر باسمي، لا يمنعني شيء عن إطلاقه مصحوبا بالفخر إذ لم ارتكب معصية قط، ولم أخدع أحدًا بتجارة أو مال أو عرض ولست مدينا بل ويدين لي الخلق بالمال، ورغم هذا كله فاجأني الشرطي إذ كلمني بلهجة الآمر.

– قم! بسرعة! وتعال معي!

لم أتلق ردا عن سبب الدعوة، لكني ببرودي المعتاد قمت وصاحبته. بمقر الأمن العام لقيت معظم إخواني اليهود الإيرانيين، وبسرعة أدركت أن الأمر لا يخصني وحدي، وأنه أخطر من هذا بكثير.

كانوا قلقين، قالوا، إن أمرا صدر بترحيل اليهود الإيرانيين إلى إيران. فقدت هدوئي وصرخت بالضابط.

– إني هنا منذ أكثر من ثلاثين عاما.

فقاطعني، ولكن ببرود.

– لكنك لم تتخل عن جنسيتك الإيرانية، ولم تطالب بالتجنس كعراقي.

– أولادي عراقيون، فهل يسبق الابن اباه بشيء كالجنسية؟!

– ولم لا؟ تجنسوا إما بسبب زواجهم، أو لطلبهم التجنس، أين هم الآن؟

– قد رحلوا، أحدهم لأمريكا والآخران لإسرائيل.

صرخ الضابط

– خونة! هذا ما أنتم! وقد آواكم هذا البلد الطيب فرفستم نعمه عليكم بالأقدام!

– لكني هنا، خدمت هذا البلد الذي آواني وساهمت في تدعيم اقتصاده. اسأل عني في السوق!

ازداد غضب الضابط وهو يصرخ.

– أتظنون أن بوسعكم خداع هذا الشعب الطيب بأكمله؟ أكلتم خيراته، ونقلتم أمواله إلى خزائنكم وتتحدثون عن اقتصاده وتدعيمه؟!

أوجست شرا. انخفض صوتي... كتمت غضبي الكردي.

Twitter: @ketab_n

- إن كان لابد من الرحيل، فلنُمهل ريثما نصفي أعمالنا ونجبي الأموال التي يدين بها لنا زبائننا وعملاؤنا.

قلت نكتة أثارت سخرية الضابط، أجزم.

- ليس لديكم شيء بحوزتنا، يكفي أننا آويناكم قرابة أربعة عقود وأفسحنا لكم سبل العيش برفاهية لم يحلم بها أجدادكم بقراكم الكردية المتخلفة القذرة!

طعنة نجلاء في القلب! وليس الأمر مجرد لسان مسموم مشحوذ كحد السيف الباتر، بل هذا هو الحقد الأسود والبغضاء. إن بوسعهما إحراق العالم، ولو ابتليت بهما عن حق لهان الأمر، لكني، والله شهيد علي، أني ما فكرت يوما في القاء حجر في هذه البئر الطاهرة التي أروتني. ورغم الوحشة، بعد أسمر، ما فكرت يوما بمغادرة بغداد، حتى بعد أن غادرها جل يهودها. هذا بلدي الثاني. قد فتح لي أحضانه، في أحلك أيامي، وأعاد لي عزي الغابر ورد اعتباري لي، أما أسمر فمصابي بها ثابت قابع لا يبرح العقل، وهي هنا مدفونة، فكيف أترك هذا الحب، لها ولكل ما في هذه الأرض الطيبة من أشياء؟!

وا أسفاه! إني ألوح بالحب والخير، لكني أمضيت معظم عمري بمجابهة الحقد البشري الوحش، مفجر الحربين الكونيين، وفرهود بغداد، وملاحقات يهودها قبل الهجرة وأخيرا هذه الطعنة النجلاء في القلب. سأكذب لو قلت لك إني لا أعبأ بأموالي، علمني الدهر أن للمال قيمة، لاسيما بعد عملي بمراحيض إنكليزية وكركية، وما جاء منه بالكدح المضني وبالعرق الدامي... في تلك اللحظات كان قلبي يبكي على أكثر من شيء في بغداد، عملي الراسخ الثابت كسدرة تكلكل في بيتنا بالكرادة، بيتنا ذاته، أموالي، وما مكث ببغداد من أصحابي وإخواني، وأخيرا قبر أسمر، أخلص من أخلص لي في هذا العالم، وكنت أكتنز ببيتي مالا لوقت الحاجة، يعادل، ربع ممتلكاتي ببغداد، وأم عزيزة ليست أسمر، فهي تعقد على الفلس ألف عقدة، وحلي أسمر لن تصبح ملكا لأم عزيزة، كنت أعلم بأني استبدلت الوفاء بالغدر، والأثرة بالأنانية والطهر بالرجس، أخفيت كل ما كان لأم البنين عن أم عزيزة، وأخفيت عنها نحوًا من عشرة آلاف دينار، كنت ادخرتها لمثل هذه الساعة أجل، نزف القلب في الساعة هذه، لكنه لم يهمد، إني تعودت على

Twitter: @ketab_n

غدر الأيام وسيعيدونني لمسقط رأسي، وهناك أمل لم يبرح القلب، رغم سنوات أعقبت الترحيل، إن شيئا لن يبقى على حاله. وسيأتي اليوم إذ أرجع إلى بيتي الثاني، بغداد، مصدر عزي الثاني، ومأواي.

واستيقظت من السهوة وشرودي. «الحجرة» في الخان ورائي. وسلعي خلفي وأصحابي وبيتي وقبر الغالية المحبوبة. سمحوا لنا بدخول منازلنا وبأخذ ما نرغب من داخلها. وكانت الباصات مكتظة بنا. وأم عزيزة تحمل الطفلة وتولول، ولسانها كالمنشار لا ينفك يروح ويجيء. يروح بشتيمة ويجيء بلعنة، لسان لا تفرغ منه دعوات الشر. وأنا أول من تدعو عليه، فإني فشلت وإني عجزت عن رفض أمر الترحيل، وأنا أركب الباص وقلبي يطاوعني في أن أترك أموالي وممتلكاتي. إني إذن، بنظرها، غير جدير بحياة. إني بدون، أموال طائلة – لتراها فقط كتميمة تحميها شرور الدنيا – مدان وفق شريعتها، بالموت، كان رأسي يدور، والقافلة تمضي بنا نحو إيران، وكان ثمة من سبقنا إليها وإلى اسرائيل. كل الفقراء سبقونا من أمثال حاخام ميخائيل وسبقنا شبان تحمسوا لفكرة الدولة اليهودية، أو شبان لم تندمل بقلوبهم جروح «الفرهود» حتى الآن. كنا في الباص تجارا، في الأرجح حسب. ورأيت بين زملائي من فقد كل شيء للمرة الثانية من بعد صبلاخ. اولاء، وضعوا ثقتهم في الدنيا، وفي الحكام، أولاء لم تستوعب رؤوسهم العبرة، أما أنا، شلومو كتاني الكردي، فرغم الطعنة النجلاء والنزف الدامي، ضحكت. إذ ما من نائبة تصادفني، تعادل نائبتي في مصرع اسمر أم أولادي ونائبة مصرع استير والولدين في صبلاخ، لم تتفجر ينابيع دموعي الآن كما تفجرت في تينك الفاجعتين. ولن تنفجر بعدهما، أبد الدهر.

إن قوافل المطرودين تمضي الآن في طريقها إلى إيران، مبتعدة عن أشياء عزيزة كثيرة، أما أم عزيزة المولولة حتى وهي في الباص المسرع، فستظل تولول حتى في ايران، إنها أمقت ما اخترته في عمري. عثرة الفطن العارف بالأشياء، تعكر على ضحكي، وحزني، وحنيني، وهواجس المستقبل المجهول، وتنغص حتى على وضعي من كل هذا علي في هذا «الموقف» الذي لم أختره. موقف، القيت فيه كما ألقيت في الماضي بمواقف أكثر حرجا وخطورة، إن أم عزيزة

Twitter: @ketab_n

تحرمني حتى من هذا الموقف، لا تترك لي أن أتذوق طعم هذه التجربة الجديدة الأخرى. وتفعم، أذني بهذرها المعتوه، وتضع على رأسي تاج الثرثرة والهذيان، المرصع بماسات شتائمها واللعنات!

أم عزيزة! عليك لعنة الله يا أم عزيزة! أما أنت يا أسمر، فعليك رحمة الله، وليسكنك الرب فسيح جنانه! وليكن عونا لي على الدهر... وأم عزيزة!

Twitter: @ketab_n

طهران، ١٩٦١

ما أروع المفاجأة يا عم «أبو سلمان!» ها نحن نلتقي على غير موعد. للمرة الثالثة نلتقي في طهران. تتلاحق الأعوام، وفجأة تطرق بابي - بابك، من قبل، وتدخل. السؤال يتجمد في بلعومي، الفرحة تسيل داخل أعطافي، قعقعة الذكرى تتصادى بين جنبات جمجمتي. كان حضورك جادا وعميقا، دائما فرضت، في الزمن والمكان وجودك... وتلاعبت بهما كالساحر الماهر، الكل لديك سيّال سائب، وتلقاني أحيانا، وغيرتك مثلك كردية. كنت تشتمني في ساعات غيرتك على الله، في غرفتي وبحضوري بجوارك. كنت تشتمني بسبب السيجارة يوم السبت، وأنت في أيام البرد القارس تحتضن مدفأة النفط، وتتغاضى عما تفعله أم عزيزة وعزيزة حين الأم في الحمام الموقد بالجمر المتلظي والابنة تكوي الشعر! والوقت سبت. هذا هو عيبك، وتشدقك المتواصل بمغازيك وفتوحاتك، لكنك حين، قبيل عام، حملت نفسك وعزيزة وأم عزيزة ونقودك، ورحلتم إلى اسرائيل، شعرتُ بنقصك وافتقدتك. كنت أحببتك. أحببت شهامتك المتعالية على النزوات. ورزانتك غفرت، في الأرجح، الفورات الغاضبة المندلقة، في أوقات متباعدة، نادرة لدرجة تجعلها محبوبة، ولما كنت تهدأ كنت تعتذر بقولك، «ما من مخلوق حي، لا يغضب والسكينة المحضة هي سمة الأموات والاحجار» وتضيف «لا تنس أنني كردي حاد الطبع» ثم على غير موعد، طرقت الباب ودخلت وأنت تقول.

- إني ضيفك هذه المرة!

تذكرت كيف استأجرت منك الغرفة قبل سنوات، في بيتك المتواضع في «كوجة بهار.» ذاك البيت الشرقي، ذي الصحن المفتوح، والبركة في وسط الصحن، وكيف أن حداثة عهدي بك جعلت تعاملنا متسما بالحشمة، وبتحفظ الغرباء وحاجته لمبادرة التحطيم. وبادرت أنت إلى ذلك، ربما بسبب فارق السن أو لأنك، ربما أيضا، صاحب البيت وأنا المستأجر، وكنت تنام لوحدك، في غرفة،

Twitter: @ketab_n

بالطابق الأرضي، مقابل غرفتي، ولها نافذة مشرفة على الشارع، في حين رقدت أم عزيزة وعزيزة في غرفة، بالطابق الثاني، كان بابك يقابل بابي، فكنت تأتيني كل مساء وكنت بأحاديثك الممتعة الفذة تقلص بيننا كل الابعاد... وتَعَارَفْنَا...

صبلاخ، كانت بالنسبة لي عدمًا، أو ثقبا أسود في رأسي يحوي جهلي العقلي، أنت، كنت تخبئ في رأسك نتف الأحداث، أحداث خانقة، تتحيّن، كنت بلا شك، الفرصة كي تطرحها، أعرف أنها عبء، منغصة لكنها مأثرة ومفخرة أيضا، ملحمة، أسطورة، مأساة، إنها خلاصة «الدهن الحر» في عمرك. زهرته السوداء وشوكته الفواحة بالعطر. مجتمع متضادات وملتقى عناصر شخصيتك عند تعاملها مع تلك الأحداث وتعرضها للإمتحان، أذكر أيضا، أني شهدت بنفسي اختبارا عسيرا لك، في منأى عن ثورات غيرتك على الدين، أفتذكر أنت «الصعلوك السكّير؟!»

* * *

أُقهقه من على فراش المرض والشيخوخة، هذه الطرفة المجنونة تدغدغني، أنا لا أنسى شيئا، إلا ما لم يترك بحياتي أعقابا، أعرف الحادثة هذه، رغم تفاهتها، كانت كالمدماك في صرح صداقتنا. من يدري، فلعلنا لولاها، كنا سنظل ندور في فلك «صباح الخير» و«كيف حالك؟» و«اليوم ذهبت أو جئت...» ولعلني لولاها ما كنت سأطرح قدامك ذاك العبء، المأثرة، المعجزة، الأسطورة - المأساة كما تدعوه.

وأنت، شاب غرير، بل ومجرد صبي طفل يومئذ. كان من بين معارفك في طهران، رجل بغدادي، يأتي، كل يوم، إلى بيته بصعلوك متشرد، ويقول لزوجته «وجدت هذا المسكين في الشارع يتضور جوعا، فصبيّ له من كل ما عندك من أكل، ليشبع ويعود إليه طيف الانسان» قلت لي هذا، وأنت تعتذر عن فعلة «الصعلوك السكّير» وأضفت «أردت مرة أن أفعل ما يفعله صديقي ذاك!» والأكثر من ذلك أن الصعلوك السكّير كان على شيء من معرفة بكلينا!

* * *

دعوتُه لسماع حفلة «كوكب الشرق.» كنت اشتريت مذياعًا، ويعجبني إشراك

Twitter: @ketab_n

الناس بمسراتي وبما يمتعني من أشياء. كنت أعرفه أكثر مما تتصور. أمضينا في تركيا معا شهورا في نفس الفندق المتواضع، ولما جئت إلى طهران، طلب مني أن أبعث له «تأشيرة» دخول لإيران.

في تلك الليلة جاء ومعه القنينة. لم يعجبني هذا لكنه قال «لا يحلو سماع طرب من غير مشروب!» وأعددت بعد عشاء دسم، الفاكهة والنقل، ودعوتك ودار حديث بينكما، عابر. مواضيع شتى لكنها لم تخرج عن أحداث الساعة ثم استأذنت لتنام، فبقيت وحدي مع «الصعلوك السكّير» وتوغلنا مع كوكب الشرق إلى أعماق الليل، والليل يدب بوتيرته المعلومة وسلاف «الصعلوك السكّير» يدب في رأسه، والوسن يطلق صفارة انذاره في بدني فأتثاءب، إنطوت أنغام المذياع مع ما قد فات. «نام أبو سلمان، فهيا يا أيها «الصعلوك السكّير» إلزم دربك، وامض!» وبشق النفس، وقد بدأ يعربد، أقنعته بمغادرة الغرفة، ثم، وهو يترنح، أخرجته من باب البيت، لكنه رغم السكر كان يميز بعض الأشياء، توقف عند شباكك وراح يلعنك ويشتمك ويسبك، بأعلى صوته المخمور، ويذكرك باسمك مع كل شتيمة ثم يلتقط الأحجار من الشارع ويلقيها على نافذتك. ولا تسأل عن حالي في تلك الساعة، فلو انشقت الأرض وابتلعتني لما كفاني ولما كفر عن حرجي وحيائي، ولكن هل من حرج على السكير والمجنون؟ مازال سؤالي هذا يبرحني الآن. كان يبدو أن السكير يوجه سهامه نحو هدف محدد بعناية. كان بينكما خلاف في الرأي، واحتدم في أعماقي خلاف من نوع آخر، فهل أن إيواء الصعاليك والبؤساء، وخيمة عاقبته بهذا الشكل المزري؟!

منذئذ عرفتك أكثر. في تلك الحادثة بالذات، لم تغضب بل ازددنا صداقة، ومنذئذ بدأت أنت تلقي أمامي بهذا القسط المسمّر للشعر من تاريخ الدنيا... وتاريخك!

* * *

كانت تأتيني متفرقة وبغير نظام. بليالي شتاء طهران القارصة المقرورة. كانت فاكهة سمرنا الساخنة كالنار، وانقطع سمرنا بليالي الصيف الثاني، حين سافرت، يا ولدي، إلى بومباي، يومئذ حدثتك عنها، وعن ساسون دوك، وعن

Twitter: @ketab_n

أحفاد داود ساسون، وغبت عاماً ثم عدت وأنا بعت الدار في كوجة بهار، واستأجرت بهذا المبنى بخيابان شاه، الطابق الثاني تمهيدا لرحيل الأسرة إلى اسرائيل. فوجئت بك كما فوجئت أنت بي. الآن إذ أطرق عليك الباب بلا سابق علم أو إنذار. كان بحثك عنا هو الإقرار الأصدق لماهية ما يربطنا. لم أتردد واستأجرت لك هذه الغرفة، وعاد السمر إلى سالف عهده يفلت نتف الأحداث مبعثرة في فوضى... صبلاخ. موسكفا... طهران... بومباي.. وبغداد. شذرات ومقاطع من ذكريات مبتورة، ربما كانت تتمتها قد وردت في سمر سابق، أو سوف ترد في سمر لاحق، في ليلة قادمة نصطلي فيها بغرفتك هذه نار مدفأة «صلاح الدين» أو لعلها بقيت مكنونة في طيات الذاكرة أو النسيان... ثم انقطعت برحيلنا إلى اسرائيل...

* * *

ماذا قذف بك ثانية إلى طهران هذه، وأنت وحدك، دون إشعار سابق، كولادة الغيب وكمفاجأة سارة، لكنها تحمل أسئلة شتى، وربما، شيئا من خوف؟ لكن السحنة المستبشرة، سحنتك هذه الباسمة كيوم مشرق بشتاء طهران، آت بعد عاصفة ثلجية، تضحك ثمة على الطرقات والأشجار والأسطح المتشحة ببياض جليد ناصع، سحنتك هذه بددت الخوف فلم يبق إلا الاستغراب، أبهذه السرعة عدت مشتاقا لعاصمة الفرس؟

أم هل مللت الأوضاع هناك، رغم جَلَدِكَ وقوة صبرك وعنادك؟ وعزيزة، وأم عزيزة، لم تأت بهما... فلماذا؟!

وضحكت ضحكتك المعتادة فتوسمت فيها مشروعا لمغامرة لم تسأمها حتى بعد دخولك باب الشيخوخة، ثم عدت وفجرت بوجهي قنبلة الدهشة.

– سأعود إلى بغداد!

مسقط رأسي الأول، مسقط رأسك الثاني! ومن ذا لا يشتاق لمسقط رأسه؟ قد زرت مراراً مسقط الرأس الأول. قلت هي صبلاخ، العزيزة – الكريهة، امتدت أكثر. انتشرت وتنامت واستبدلت الجلد الرث البالي، وآثار المأساة الغابرة الحمقاء. حتى الاسمُ اختلف الآن فغدا مهاباد. ثمة يوجد أثر من الأصحاب

Twitter: @ketab_n

والإخوة. وأبناء الأصحاب والإخوة وبغداد أيضا امتدت ونمت واستبدلت، رغم بقاء الاسم، الجلد، والسحنة. ما أكثر من طردتهم بغداد من الأبناء. قلت «اختلف الوضع الآن وزعيم بغداد الأوحد، يحترم الانسان، يحب الانسان، يتفانى من أجل الانسان»، وتحدثت عن ص. شيرازي، رُحِّل مثلك في قافلة الإيرانيين اليهود المطرودين. مرت عشر سنوات وإذا بالفلك يدور دورة عجيبة، رجع ص. شيرازي بدعوة من «الزعيم الأوحد.» كانت في الماضي صداقة تجمعهما. وقد خيره بين أمرين. أن يأخذ أمواله ثم يرحل، أو أن يبقى في بغداد، ومع التخيير نصيحة «والأفضل أن ترحل» قال زعيم بغداد الأوحد، وأضاف بوعي كامل «فأنا اليوم هنا، لكنني لا أضمن ما يحدث لي ولأبناء جلدتك من بعدي في الغد!»

أنا لم أبد رأيًا في الأمر، إني شغوف مثلك، ولكن في مكنونات الأشواق الوردية الفواحة، ينبت شوك الخوف والاشفاق فهناك غول يتغول. ولا استقرار! وأنت ذاك القائل «ان الدنيا كالحاوي أبدا» لن ينفد ما بجرابها من أشياء يفاجئنا بها كل مطلع يوم، وإذا كان زعيم بغداد لا يأمن بنفسه، غدر بغداد، فكيف يأمنه من طرد منها يوما شر طردة؟! وأنا صامت، وأنت احترت، جئت عاقدا العزم، وقرارك بيدك، لكني كنت أشهد، ولأول مرة، كيف يتأرجح قرارك هذا فجأة، وإن عناد «شلومو الكردي» يلين أمام المنطق وشبه إجماع الأصحاب. وفي الليل في غرفتي - غرفتنا، تبعث ذكرياتك حية، وتعود «شهرزاد صبلاخ» تروي حكاياتها، وحول مدفأة صلاح الدين تقوم الأحداث المنصرمة من ألحادها وتنبعث جعجعة المدافع الغابرة وتلعلع البنادق ويتعالى لغط يختلط فيه، مع رطانتك العربية، الكردية والآرامية والفارسية والروسية والآذرية، والتركية والألمانية وحتى الانكليزية، ويمتزج الحب بالبغضاء وجنون الإنسان الجمعي، برزانة الفرد، والهمجية الانسانية، لكن رائحة البارود والدم تعلو على هذا كله وتزكم أنفي.

وتمضي الأيام. شهر كامل، ويذوب قرارك كله، بمقاهي طهران وبمنتديات التجار، قالوا لك «مادمت لا تأمن أحداث الغد، فاضرب صفحا عن فكرة العودة إلى بغداد» قالوا لك «المال فداء رأسك ياشلومو، أما الشوق فريَّتُهُ لحين تعقل بغداد...» لكن أسمر... إنها في جنات ربك، وقبرها محفور في قلبك وذكراها تملأ نفسك وهي معك، سواء ببغداد حللت أو في طهران، وها قد زرت صبلاخ بعد

Twitter: @ketab_n

عقود من فرقة، فلعلك تحظى بزيارة بغداد في أحد الأيام.

أجل، جئتني فجأة إلى طهران لتعود منها إلى بغداد، لكنك أفرغت لدي جعبة الذكرى... ثم عدت إلى رمات كان!

Twitter: @ketab_n

رمات كان، أواخر ١٩٨٥

من هذا القلب اللاهث الواهن أرحب بك! هذا القلب، نصبٌ، جَلِدٌ، صامدٌ، مستودع التاريخ. تاريخي وبعض تاريخ البشرية، ودليل صادق على عته الإنسان وبطلان الأشياء. «باطل الأباطيل» قال جامعة الحكمة. شلومو الملك «الكل باطل.» من بعده رددها كثيرون، ويرددها «شلومو الكردي» وغدا سأعيد هذه الروح لباريها، من بعد أن يعطس هذا الجسم المتعب آخر عطسة، ثم يخمد، يهمد من ثم الفكر، تصمت الذكرى. يخرس التاريخ. مئة عام ويزيد مجبولة في هذا الجسم الأعجف، ستوارى تراب الأرض والنسيان. وسيلتهم الدود أحداثا جسيمة وصفات إنسانية وميزات وعيوبا، وسترحل روحي مع عقلي بعيدا، وسأروي الأحداث لمن خلق الأحداث، لو كُتب علي أن ألقاه، وسأرويها لملائكته ولأهل الجنة أو أهل النار، وقد ألقى هناك أصحابا اغتالتهم يد الهمجية وجنون الإنسان، والطفل والطفلة، وأمهما أستير، مازالوا كما كانوا طفلين وامرأة شابة وجمالا لم يذبل، الحاخام ناحوم وأخاه الحاخام ميخائيل، واعز الناس إلي أسمر أم أولادي. وهنا ستنطفيء الأحداث، أو ستكون أنت بعض ذاكرتي. قد أورثتك جزءا منها وأورثت الزمن كل ما أذكر مع ما أدركه النسيان. بل كل ما استوعبته، وما فوَّته في زحمة الأحداث!

سيقص الزمن هذا على أذان صماء. وأخيرا ستزول الأشياء. «باطل الأباطيل» كل الأشياء والعاقبة عند ربي وربك. وهنا يسدل الزمن ستاره الترابي على إنسان لن يبقى منه غير شاهد منقوش على قطعة مرمر. والذرية، والرحمة أو اللعنة إلى حين، «الكل باطل» فالشاهد يمضي والذرية، وتخرس الرحمة واللعنة ويدور الزمن وتتعاقب الأجيال، ويأتي فرعون لا يعرف يوسف، ويدرك النسيان ذاكرة الأزمان، فلا يبقى فيها غير من صنع ذاكرة التاريخ في سالف العصور، يوسف وشلومو وفرعون وهامان وعلماء وفنانون ومن أبدع أشياء تركت بصماتها على لحم الدنيا، فتحدتْ أغبرة الأيام ونسيج عناكب منسوج على الوقت المتراكم البائد.

Twitter: @ketab_n

هنا وهناك، اشتاق لهناك ويداي متشبثتان بهنا، إذ رغم الأهوال الأسطورية - وأنا أعايشها الآن متجددة طازجة وكأني عانيتها في التو مع التاريخ - أشعر بأني منها صنعت حياتي وقبست شعلة عمري، تحضرني ما عتمت كنوْبات حادة من آلام الضرس، أو كجرعات لذيذة من إكسير لا أعرف له ماهية ولا أدرك كنها له. دفقات حنين عاجز يجتاح هذا الجسم الأعجف المهدوم، وتيارات شوق آخر للقاء وجه ربي وأحبائي، وكل من رحل من قبلي. الآن فقط أشعر بأني سلمت نفسي للأقدار، فلم يبق وعد أُنفّذه مختارا ولا إرادة يلبيها لي إصراري ومقدرتي، حتى لساني ما عاد يطاوعني على قراءة صفحات مخبأة في رأسي، وحتى الصفحات، إصفرّت وانطمست أحرفها، وانطفأ المصباح هناك، إن نورا أصفر قد شرع يسطع قدامي، أُحسّ بأني أغطس ثم أغيب، ثم أعوم فوق السطح.

اهبط ثم أرتفع في خفة لذيذة على أجنحة أثير نوراني، ابتعد حثيثا عن كل جسام الأحداث المعاصرة لجسمي المادي. أبتعد عنها وهي ورائي، بشعة فظيعة، مروعة، هائلة، حلوة، معشوقة، رائعة، مذكورة، قريبة، بعيدة، منسية!

أبتعد عنها وعنكم، أُودّعكم، أقترب من ربي وموتاي وأولهم أسمر... رباه! إني سعيد وحزين، إني مسرور وكئيب. في نور الله تمحى، كل الأشياء.

صبلاخ... طهران... موسكو... بغداد... بومباي... رامات كان!

محطات ومواقف وها بي أتركها جميعا إلى حيث غاية الغايات!

فوداعا حتى يحين لقاء!

أم عزيزة «صرخت.» عزيزة هتفت منتحبة «وا أبتاه!»

وكنت أنا بمناجاة مع الزمن، صامتة خرساء، ونحن نمثل بخشوع أمام شيء صامد، منطفيء ميت دارت على ظهره، في الماضي دائرة الهول، واعتملت مفرمة التاريخ، وقيامة الموتى قامت منذ ستين، سبعين عاما ويزيد، فكان يقابل كل هذا ببسمة هادئة ورزينة، وبقهقهة خافتة ما انفكت تتصادى وتتعلق الآن بفضاء الغرفة المثقل بعويل النسوة وأنفاس الموت، وشحنات الأفكار المحملة بحقائب التاريخ المطنبة المملوءة...

وقلت للزمن: قد انتهت القصة.

Twitter: @ketab_n

فرد علي الزمن: بل هي الآن قد بدأت

وتساءلت: كيف؟

فقال: الدجاجة والبيضة، والرجل والطفل، أوعيت الآن؟!

- فارْوها اذن!

فقال:

- أنت!

- لا بل أنت!

- بل أنت!

فاحترت وسهمتُ حتى قلت.

- دع الأمور إذن تجري كما يحلو لها أن تجري.

فتصادى صوت الزمن، في رأسي يطن.

- حسنا. دع الأمور إذن تجري كما يحلو لها أن تجري.

* * *

Twitter: @ketab_n

صبلاخ

١٩١٤ - ١٩١٨

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(ما قبل العاصفة): صبلاخ، ١٩١٤

ذُرى الجبال مازالت مكسوة بالثلوج، على رؤوسها طاقيات ناصعة، هبة ريح ضربت قمة الطود الشامخ المائل للحمرة ثم مرت بالبيت الكبير.

أسمر جالسة في الشمس تجدل ضفيرتها وهي في شبه غيبوبة. أصابتها هبة الريح المشبعة ببرودة قمة الجبل الأحمر، برعشة خفيفة. فانتعشت. إنتشلتها من قاع بحر الأفكار. إنه سيصل اليوم. الفارس البطل المحبوب. قال لها، في السادس عشر من الشهر. وسيصادف يوم أحد، فإذا نسيت فانتظري ليلة مطلع السبت التي يتلون بها «صلاة القمر» في الكنيس، تحت قبة السماء والقمر في أول نقصانه يغادر الأفق متجها إلى كبد السماء، وفي الغداة في يوم الأحد، سأصل، بعون الله ومشيئته بين الظهر والمغرب ومعي مير علي، وبقية التجار.

انتفضت أسمر كعصفور ينفض عنه القطر ثم عادت وغطست، بيد أنها لم تغطس ثانية في بحر الأفكار، بل جرفها بحر من سعادة إلى أعماقه. كيف ستنقضي الساعات حتى يزول الظهر ويأتي العصر؟! إن ساعات هذا اليوم لأطول من ساعات شهر الفراق بأسرها. هذه الرحلات التجارية إلى موسكفا! قبل سبعة أعوام، وهو فتيٌ عائد من إحداها، حل النصيب قرب العين. في الرابعة عشرة من عمرها كانت. بالشروال الزاهي وجديلتها تضرب كفليها حين تسير، والجرة مليئة بزلال الماء. ورآها. لأول مرة رآها. هي، كانت تعرفه من بعد. الشاب الوسيم الفارع، يدور عمره حول العشرين لكنه تسلق جبال الشهرة وأضحى في البلدة أشهر من نار على علم، تاجر إبن تجار، يشير إليه أهل صبلاخ ويرددون بإعجاب «هذا شلومو ابن التاجر كتاني! ليحرسه الله! انظروا إليه! لن يموت أبوه مادام أنجب مثله! قد جاب وما خاب! قد انجب ابنا قرة للعين ورجلا من خيرة الرجال في صبلاخ.» والتقت عيناه بعينيها قرب العين. ما أشبه حكايتهما بحكاية يعقوب وراحيل، وفي الحال فر السهم من مقلتها وأصاب قلبه. ولم يضيع وقتا في السهد. ولم يبدد يوماً على الآهات... في اليوم التالي، زار أبوه أباها وقال له

Twitter: @ketab_n

«أريد أن تزوج ابنتك أسمر ولدي شلومو!» ولم تمض أسابيع حتى عُقد القران في البيت الكبير.

واليوم سيعود. بيد أن الوقت لا يجري، والشوق جامح ويعتصر المهجة. رتبت البيت... أعلاه وأسفله، غرفه ومرافقه والحوش، ودخلت مع خادمتها قشنك الزريبة. حلبت البقر، وكومت قشنك الروث، ووضعت العلف للبهائم. كانت العجول والجداء ترضع... في الخريف ستذبح العجول وتصنع من لحومها "القلية "ثم تحفظ في براني الزفر وتودع باطن الأرض، أما براني مستحضرات الحليب، فلها في القبو مكان آخر، إنها تملأ بالزبدة، يمخضون الحليب في ظروف من الجلد كل يوم.. كل أسبوع... تفيض عن الحاجة. يوزع الفائض على الأصحاب والأقارب، وليس كله، فبعض الفائض يختزن، وبعضه يباع كذلك. ان الخير كثير بحمد الله وبفضل شلومو... متى تزف الساعة فتراه وتطفيء بطلعته حرقة الحنين إليه؟

دخلت أيضا إلى مخزن المؤن، الأكياس مكدسة هناك من كل ما لذ وطاب جريش القمح، البرغل، العدس والماش والهرطمان، الرز والدقيق... والزيت والدبس والمربيات، وما شاء ربك من نعم أغدقها على شلومو أبي سلمان، عادت ورضخت لداعي الشوق، وفي سرها همست داعية «لتقر عيوننا بعودتك سالما يا أبا سلمان!»

اغترفت من الجريش والرز والعدس، عاونت قشنك في حمل المؤن إلى المطبخ، اليوم ستعد وليمة، سيمتليء الخوان بألوان الطعام والخضار والفاكهة. منذ الصبح الباكر أرسلت قشنك لتأتي بالفاكهة الطازجة. من البستان، أخذت معها، مريم لمعاونتها... مرتين ذهبت مرة للفاكهة وأخرى لخضروات الموسم الطازجة. بمخازن البيت. خضروات مجففة تستعمل في غير موسمها. طبختا أصنافا شتى. فرغتا من الطهي والتنظيم، بيد أن الشمس كأنما التصقت في موضعها، أو دق عليها بمسمار، إن عليها أن تمضي سريعا نحو الأفق الغربي لتهل طلعة شلومو، سابقة القمر البدر، وقاشعة نوره، لكن الشمس عليلة، وتتحرك بونى كالفيلم الهرم منهوك الحيل!

Twitter: @ketab_n

وسلمان وصيون في «المدراش.» قال الحاخام ناحوم «سلمان هذا كالاسفنجة يبتلع الكلمات والأحرف والحركات، لكن صيون ما زال صغيرا، ويرضع أصبعه عوض الدرس ومن الخير أن يُمضى عاما آخر في البيت ليرضع حليبا عوض اصبعه»، وليقول «أبي وأخي بفصاحة قبل أن يتعلم حروف لغة التوارة» ضحك أبو سلمان كعادته وقال لحاخام ناحوم «فليرضع في حضنك حروف لغة التوراة، ثم يتعلّم الصلاة فيتلوها بفصاحة وستراه اذاك ينطق كلمتي «أبي وأمي.» يومئذ شاهدْت كيف انشرح صدر الحاخام وأفتر وجهه عن بسمة رضى وسعادة، ربت على كتف شلومو ودعا له بالبركة وبأن يزيد الله من نعمته عليه، الإبنة مريم أكبر من صيون، لكنها مازالت ترضع، إنها تلعب في حوش البيت. قشنك! ألا يكفي أنك أخذت البنت معك للبستان وحمّلتِهَا فاكهة وخضارا، فهي تلعب في الحوش ولابد ستتوسخ، فخذيها، أو هاتيها لترضَع رضعة! قشنك! قولي لي بالله عليك، لماذا يتجمد الوقت اليوم كالماء في كانون وشباط؟! ولماذا من بعد أن أصبحت أما لثلاثة، أشعر وكأن اليوم، يوم عرسي؟! ولماذا يراودني هذا الإحساس، كلما عاد سيدك من رحلة له في استانبول أو طهران أو موسكو؟!» وكان كلما ذهب تُقلِّده الحرز وترقيه باسم الله وتلح عليه بالا ينسى تلاوة «صلاة الطريق» لتحفظه من كل شر. في الأول، كانت تخشى عليه الجبال والوديان والوحوش وقطاع الطرق. لا يروق لها بال ولا يستقر نومها حتى يعود، وفي كل ساعة دعاء، بأن يعود إليها سالمًا غانمًا لم تسقط من رأسه شعرة. ثم اعتادت كثرة أسفاره، وانتزعت العادة من قلبها شوكة الخوف، بيد أن السفر أبدا لا يخلو من أخطار ولن يأمن المحب غياب حبيبه ساعة واحدة. هكذا ظلت تداري قلقًا مكتومًا حتى أيقنت، وازدادت ثقة بمرور الأيام، بأن زوجها رجل حذر وحريص وشجاع، إنه كلما عاد من رحلة، رأت سعادته تنبثق من خلال التعب ووعثاء السفر، سعادته بها وبأولاده، وبتجارته أيضا. أبدا لم ينس أن يحمل لها وللأولاد وللبيت والأصحاب، بغلا ينوء تحت عبء الهدايا الكثيرة والتحف والطرائف. وأجالت النظر وأرهفت السمع وتشممت. عادت ورأت المواشي في الحظيرة وسمعت الخوار والثغاء والصهيل. وفي الحوش قوقأ الدجاج وصدحت الديوك

Twitter: @ketab_n

الزاهية، وثمة عبير النرجس والورد يفوح من حديقة في صحن الدار، شذ شلومو عن العرف وزرع قرب الحوض المطبّق بالمرمر الأخضر، قسيمة زهر. قال: ما يخنقه الجليد في الشتاء، نعود ونزرعه في الربيع، والبستان بعيد، وهو للشجر والخضراوات والبقول، وفيه أيضا من المشمومات والرياحين والبطْنج والنعناع. نقل بعضها لحديقة الدار، لتكون بمتناول اليد، وهي تستعملها في الطعام، وهو يستعملها بفريضة البركة على «المزروعات العطرية.» أجل. على الزهور والورود إن تكون قريبة لتمتع النظر وحاسة الشم، وغمرت خياشيمها أيضا، روائح المطبوخات المتبِّلة، الناضجة على الكوانين! لم يذق المحبوب طعامًا كهذا منذ شهر كامل، يكتفي، في الطريق الطويلة الشاقة، بما في الخرج من مخبوزات وفواكه مجففة، فإذا حلت القافلة ببلدة يقطنها ابناء جلدته، حرص على أن يأكل «الحلال» فقط، بأواني الحليب ومشتقاته، وبأواني الزفر، اللحوم «الكاشير.» إنه حريص ومدقق في كل الأشياء، وهو شديد ورقيق في آن، بيد أن للحب في قلبه ينبوعا متفجرا تخشى أحيانا من أن تغرق فيه. ربي! متى تنقضي الساعات ويأتي البشير؟! إن ثمة طرقا على الباب، فمن الطارق؟! ورف قلبها رفيف عصفور منتعش بقطرات ماء الصيف، رفة سعادة وإشفاق. أفيمكن أن يسبق البشير الموعد ويأتي الآن؟ أيمكن أن تكون القافلة قد سبقت مسيرة الشمس المعتادة نحو غيابها في الطرف الغربي؟ وقالت لقشنك الراكضة نحو الباب،

- مكانك يا قشنك فأنا التي ستفتح الباب!

مضت نحو الموضع المنشود. من هناك سيدخل حبيب القلب، رشيقة طويلة سمراء، تضرب جذيلتها كفليها وزهرة نرجس تتوج الشعر الفاحم، فاحم وكث وطويل فوق وجه صبوح أسمر في لون القمح. وانفتح الباب، فأخفت أسمر بعض الخيبه وأبدت فرحًا بالقادمة، وهي تغمغم.

- تفضلي يا فاطمة! أدخلي!

المرأة الأخرى الحسناء، جمالها مقتحم ثاقب وصارخ.. بياض وجه تلطخه حمرة خدين يتوجه شعر أسود وحاجبان كالفحم. فسبحان الله الخلاق! كان جمال فاطمة بعكس جمالها الهادئ الكتوم، صارخا ويهمس للرجال، ودخلت.

Twitter: @ketab_n

وجلست المرأتان على تخت بجانب من الإيوان، ويواجه الباب، وكانت فاطمة أيضا تنتظر زوجها مير.

كانت العيون اليوم ترنو إلى هذا الباب، هذا اللوح الخشبي العملاق، كم تتعاظم أهميته حين تقترب أوبة رجال معشوقين! وقالت فاطمة.

– هابك يا أسمر، قد تزينت وتطيبت وتجهزت للقاء!

تضرج وجهها حمرة تشبه تقسّبُ الخبز في التنور، همست

– كلما عاد من سفر، أحسست وكأننا سَنزَفٌ من جديد

وأطالت التحديق بفاطمة، ثم جلجلت ضحكتها في أرجاء الحوش.

– وأنت يا خبيثة؟ أما تزينت وتبرجت لحبيب القلب مير؟

فهمست فاطمة وكأنها تحدث نفسها.

– متى يأتي؟ متى ياتون؟!

– بل قولي متى ياتي الأثنان، الصديقان، الشريكان!

كانت فاطمة قد شردت مع أفكارها لحظة، أعادتها إلى واقعها جملة أسمر. قالت:

– زوجي وزوجك روحان في جسم واحد، لكنه ليس الشوق وحده يا أسمر.

تفحصتها أسمر. رأت على طلعتها الجميلة المشرقة جزع غزال يطارده صياد، والجزع ممتزج بلهفة وبضيق ذرع. تفحصتها بوجه متسائل، ثم شفعت النظرة بالصوت.

– أفزعتني يا فاطمة، فخبريني ما الخطب؟

– إنه الغيب يا أسمر، فهل أفضى لك بالغيب؟!

– المرأة للمرأة، فضلاً عن أننا كالأختين.

– عديني إذن بألا تفضي بشيء مما سأسره لك يا أسمر.

– أعدك. حتى زوجي حبيبي سأُخفي عنه إن كان الأمر لا ضرر فيه عليه.

– إنه بعيد عنه بعد الأرض عن السماء.

فتساءلت بحزم وإصرار.

– ما الأمر يا فاطمة؟!

Twitter: @ketab_n

- مخاوف أحاول طردها عني لكنها تزداد عنفا مع الأيام!

نجحت فاطمة في أن تنتشل أسمر لحظة من بحر الشوق العارم وأن تلقيها في بحر فضول عرم هو الآخر. بحر يحوي فضولا وغموضا واستغرابا، وسألتها.

- ما الذي يخيفك يا فاطمة؟

قاومت الأخرى ترددها. ازدادت حمرة وجهها الناصع حمرة. قسمات هذا الوجه ارتعدت. غضت الطرف لتخفي حياء مشبوبا. مرت لحظة، ولهثة، وتبلع ريق، وحمحمة... وأخيرا.

- لا أدري، لكنه رضا شقيق زوجي. أشعر وكأنه يفترسني بنظراته ويحدق بي دون حياء!

ازدادت أسمر استغرابا. إن رضا شاب ومراهق، لم يشتد ساعده إلا «بالأمس!» والوحدة مرتع الوسواس، وخيال النسوة خصب. ولهن مصادر للخوف ويستقينه من الينابيع الناضبة أحيانا، وقالت:

- قد لا يتعدى الأمر مجرد الظن، ولعلك تظلمين رضا..

قالت الأخرى بإصرار:

- لا. لا. إن رضا نذل وقذر وإنها لم تكن النظرات وحدها إنه أحيانا يتعمد الاصطدام بي، بل... بل...

ونشبت بقية حديثها في بلعومها، فشرقت، وأسمر سألت

- بل ماذا يا أم محمد؟

نفض الوجه المشرق عنه غبار كآبة، وتضرج بمزيد من دم... حياء وغضب غمر الطلعة الفتانة وقالت:

- البارحة... أمسك بيدي، واعتصرها!

رباه! سرت عدوى الخوف إلى أعماق أسمر. وجف فؤادها المشتاق. تصورت يدها في يد رجل غريب، والرجل الغريب الوحش، المسخ، بل ابليس بنفسه، يعتصر اليد الطاهرة. وفي الحال تجسد شلومو أمامها واحتواها بذراعيه. إرتمت في أحضانه محتمية من كافة شرور الدنيا، إن فاطمة تفتح لها عينيها على أشياء مرعبة، لم تخطر على بالها من قبل. واحتمت ثانية بحبيب القلب ولهج

Twitter: @ketab_n

فكرها بالسؤال عنه. متى سيصل، ومتى سينفتح الباب لتطل منه ابتسامته الوضاءة، المطمئنة القاشعة لكل هموم الدنيا ونوائبها؟

وقالت:

- إمكثي هنا إذن يا فاطمة، حتى يصل مير، ولما يصل، خبريه بما حدث

وجه فاطمة الناصع البياض يمتقع فجأة وكأنه امتزج بصفار البيض. صفرة وحمرة، وتتابع ألوان.

إن وجه فاطمة يعكس همجية وتقلبات العاصفة. والعاصفة بداخلها تهب بجنون، تحتدم وتصارع ذاتها. والرعب يتضخم ويستشري.. إنه يحيق بالمرأة وحسب. رضا يفترسها بنظراته، يمسك بيدها ويعتصرها، لكن العار سيقع عليها. إمرأة متزوجة تتعرض لمعاكسة رجال. هذه وصمة في قلب شرفها وهي كالجذام في شرف زوجها مير. وسيتحاماه بالطلاق. والمجتمع ينبذها لأنها، رغم كل الأشياء، هي المسؤولة. والناس ترتعد فزعا من العدوى ويفرّون من الجذام والمجذومين. وأخفت فاطمة هواجسها هذه عن أسمر لكنها بيقين قالت:

- مكوثي لديك، ربما يثير التساؤلات، أما إخبار مير بالحقيقة فقد يؤدي إلى مجزرة، تغرق بيتنا بالدم!

فلينطوِ الوقت ولتصل القافلة، ففي وصولها البلسم الشافي!

علق بها خوف لا يعرفه قلبها كغشاء أسود. رثت لفاطمة لكن أفكارها نفرت قليلا. فجأة تنبهت إلى أشياء كانت ساهية عنها.. أو ربما هاجس توحي لها به محنة فاطمة. خطت أفكارها نحو الصبية استير ابنة السيد متتياهو جونه. زهرة النرجس المتفتحة بحديقة صبلاخ. الصبية ابنة الخامسة عشرة، التي تعدو على الروابي مع الظباء وتمرح في الحقول والبساتين مع الفراشات والأطيار الشادية. رباه! شلومو حبيب القلب يرمق استير كلما رآها. نظراته تنفر إليها. تلاحقها. تطارد الفراشة الهائمة، ويتنهد، وينسلخ عن المكان والزمان. وينقطع حديثه إن كان يتكلم، وتصم أذناه إن كان ينصت لحديث، ويرصن وجهه إن كان يبتسم، ويحزن، ويخفي بذكائه المفرط سرا، لو تدرين عظيما.

- بماذا تفكرين يا أسمر؟

Twitter: @ketab_n

سحب صوت فاطمة أفكارها النافرة. أعادها إلى موقعها من إيوان الدار بمواجهة الباب، أحست بجفاف في فمها فابتلعت ريقها. نهضت وهي تقول

– ألهانا الحديث فلم أضع الشاي على السماور. سآتي به وبالقوري والفحم والشكردان ثم نواصل الحديث ريثما يتخدر على مهله الشاي.

وكانت في أعماق أعماقها ما فتئت ترثي لفاطمة، لكن نظرات شلومو إلى أستير أحدثت في رأسها ثقبا ظل يتسع طولا وعرضا حتى أصبح نفقا... بل بئرا بلا قرار.

* * *

بعد منتصف النهار بساعة جاء البشير.

مكثت أسمر وفاطمة تتحدثان وتنتظران. كان إبريق الشاي ما عتم يتحرق على بخار ماء السماور المغلي، والمرأتان تصبان القدح تلو القدح... والانتظار والشوق يستحيلان جزءا من جمر هذا السماور بينما المخاوف تكمن تحت الرماد. الأمان في وصول الزوجين، الأمان يصرع المخاوف، ولكن هل يدوم الأمان؟... تحدثتا وشربتا الشاي تلو الشاي. ودخنت فاطمة حتى فرغت علبتها الفضية المزدانة برسوم جميلة مصنوعة من المينا الملونة، الانتظار يطيل الوقت لكنه يقصر الأعمار. خمدت نيران الكوانين، وانصرف الولدان من المدراش، لكن أحدا لم يحل له طعام. اليوم لا يمد أحد يده إلى مأكل، حتى يفتتح الرجال الولائم. لا يهم أن يتأخر الغداء حتى المساء، لكن القافلة كانت بعد الساعة الواحدة على مشارف البلدة، وكانت جوقة من الأطفال تجوب أزقة صبلاخ وحواريها وتهتف «عاد التجار من موسكفا!» وإذ تناهى إلى اسمر هتاف الأطفال القادم من بعيد، حدقت بالساعة التي أتاها بها شلومو من موسكو في إحدى رحلاته السابقة – وكانت لا تنفك تحدق بها طوال الوقت – قد فاتت الواحدة. وهبت تحاول اللحاق بقلبها المنطلق من صدرها كعصفور نافر. وفي لحظة نسيت كل شيء «مريم! أين أنت يا مريم! سلمان! صيون!» لكن فاطمة ما زالت هنا، إنتبهت إلى وجودها بعد أن نسيته في غمرة الانفعال. إرتبكت بحياء وهمست.

– هبيني العذر يا فاطمة ولا تؤاخذيني، الفراق صعب ومن مثلك يعرف هذا؟!

Twitter: @ketab_n

وتلكأت. فاطمة في مثل ظروفها، بيد أنها لا تبدي انفعالها بمثل هذا الاندفاع الجارف. إن كلمة واحدة بوسعها أن توضح كل شيء لكن الحياء يمنع أسمر عن المجاهرة بها، ولو حتى لنفسها، إنها كلمة شديدة الخصوصية والصميمية ولها حرمتها القدسية، ومحال أن تصرح بها فتعرضها للمهانة، وقد تدنّس من قدسيتها. إن مكانها القلب تهمس بها نبضاته والمشاعر، بيد أن فاطمة ضحكت... عرفت وقالت لها أن حال العاشقين يفضحهم وأن هذا هو العشق والوله والوجد الذي لم يهدأ بعد سنوات العشرة الطويلة وإنجاب الأولاد. وفكرت فاطمة إزاء وجه أسمر المضرج بالحياء «كم تتسع القلوب للمحبة؟!» وتأملت خاطرتها فتطفل عليها شقيق زوجها، وانتابها ضيق وأحسّت باختناق فأجزمت أفكارها «هكذا القلوب والصدور، إنها تتوسع حين تحب فتغدو دنيا بأكملها، وتضيق حين تكره حتى تصبح، كثقب إبرة!» ونهضت مع أسمر، قالت إن «الأولاد في الدار عند أم مير.» أولادهم الثلاثة، محمد وأحمد وحميد الصغير البالغ من العمر سنتين ونصف، وأحمد في السابعة، أما محمد الكبير فقد أكمل قبل أسبوعين الثامنة من عمره.

- ولا شك أن «العجوز» قد أطعمتهم، وأنهم سبقونا إلى استقبال القافلة.

حملت قَشَنْكَ صيون، وأمسكت سلمان بيمناها ومريم بيسراها، ومضى الجميع باتجاه العين... القافلة ستمر من هناك، وقد حان الأوان لأن تكتحل عيون النساء برؤية أزواجهن بعد طول فراق.

القافلة! كنوز محملة في عربات وعلى ظهور البغال، كنوز بشرية تحمل كنوز سلع مختلفة، والقافلة طويلة هذه المرة وتبدو من علٍ كالأفعى المرقطة تتلوى في مسالك المنحدر، تغذ السير معتلية المرتفع، بادية التعب رغم اسراعها، تحاول أن تسعف الأشواق المتبادلة، وتختصر ما تبقى من ساعات، تمضي رغم الإعياء بخطوات واثقة مطمئنة، إذ طوت الطريق الطويلة وتركت وراءها مشاقها ومخاطرها، ووصلت وقد توجتْ السعي والكفاح بالفوز والغنيمة. وكانت مطايا الحراس المستأجرين تتقدم القافلة وتتذنبها في آن، وفي الوسط كانت ركائب التجار والسلع، كانت أسمر بين أولادها، وقشنك وفاطمة تتوسطان حشدا من

Twitter: @ketab_n

أهل البلدة جاؤوا كلهم لاستقبال القافلة. يحدث أحيانا أن يعود التجار وقد خلت مطية من مطايا القافلة من صاحبها فليس من النادر أن يموت أحد المسافرين في الطريق أو يلقى مصرعه في حادث جلل، هكذا فان بهجة الوصول لم تكن تكتمل ما لم يلتق المنتظرون بأحبائهم العائدين. وكان شلومو يقول لأسمر دائما «إن الله معي وسينجيني في روحاتي وغدواتي كما نجى الصالحين من قبلي وسينجيهم من بعدي» ولم يخلُ خرجه يوما من رقىً وتمائم كتب عليها إسم الله الاعظم، مع متطلبات الصلاة، على اختلاف أنواعها. وكان يقول لأسمر أيضا «إن الإيمان هو أن تتركيني لرحمته ورعايته فيحميني ويبلغني مأربي ويعيدني بالسلامة» خفف كلامه هذا من خوفها إبان رحلاته الطويلة المحفوفة بالمخاطر، لكن الشوق مقيم دائما، والحب يبث لها في غيبته ظلالا من القلق تداهمها بين الفينة والفينة، فتتساءل «ترى ماذا تفعل الآن يا أبا سلمان؟ وهل أنت سليم معافى؟ وهل أنت مرتاح، مرتو شبعان؟!» كتمت أسئلتها لنفسها ولم تَشْكُ، بيد أن ساعة اللقاء كانت تفجر في النفس كل المشاعر، الآن في ساعة الترقب هذه، ترفع مشاعرها المترقبة رأسها بكل عنفوانها. يشرئب عنق أسمر وتخترق عيناها جموع المنتظرين مهومتين حول «الأفعى» المتنامية مع مرور الدقائق، حتى تتضح الأشكال وتتكامل، وكلما اقتربت القافلة وبانت دقائقها، إزداد صخب المستقبلين وتعالت أصوات الصبيان تنشد أغنية الاستقبال. وسمعت أسمر بين الأصوات الصادحة صوتًا عذبًا. لقد انسلت شحرورة إلى جوقة الأطفال ومضت تنشد معها. كان متتياهو جونه أحد التجار العائدين في القافلة، وغيمة صيف كست قلب أسمر، ستنعم فاطمة، إذ يعود مير، به وبالأمان، فبماذا تراني سأنعم هذه المرة، إذ يعود شلومو حبيب الروح؟ لأول مرة تساءلت. إن إستير الصغيرة الجميلة تقف على رأس المستقبلين، تغني مع الأطفال للعائدين، أفجاءت تستقبل أباها وحده؟ أم هي الغيرة، تزين لي وتوسوس وتعكر علي سعادتي المعهودة كلما عاد بعد غيبة؟ ما هو السر؟ ماهو؟ وهاهم يقتربون. والغيمة ليست أكثر من غيمة صيف فشمس السعادة كانت أقوى ولم تلبث أن قشعت الغيمة. ها هو ذا شلومو ومير... متتياهو وسائر التجار. ينابيع العواطف الجياشة تفجرت

Twitter: @ketab_n

وتدفقت.. هديرها المنطوي في الحنايا يصمُّ الأذان. المشاعر، جمال هائجة إنطلقت من عقالها. الفوضى تتاخم الجنون. جنون جماعي لا يعقل. تتشبث أسمر بولديها كي لا يضيعا في الجلبة. أين أنت يا قشنك؟ أين أنت يا مريم؟ أين أنت يا فاطمة؟ الأسئلة تفقد جدواها الآن. إن ثمة أنهارًا وبحارًا، ولكل نهر مصبه ويسعى إليه. هناك تمتزج الأمواه، والأرواح تنصهر في بوتقة واحدة.

في مداخل صبلاخ خفت حدة العاصفة واستقرت العواطف، وتوزعت القافلة في شعاب البلدة، وككل مرة، سبقتهم الدواب والعربات المحملة بالتجارة مع الأجيرين... ستنعم الدواب بالموارد والعلف، وتتحرر من أحمالها، وننعم نحن بلقاء الأحبة وانقضاء الغربة، والاطمئنان على «زينة الحياة الدنيا.» لم تثرثر العواطف الجياشة بلسان فصيح، الألسن لا تستقي من الفكر والقلب إلا ما قل ودل. توجز في البداية، وتختصر، أما التفاصيل فتتركها ريثما يزول الإعياء والتعب، وتشبع البطون، وتتنظف الأبدان، ومع ذلك، كان شلومو دائما يترجل عن مطيته، ويرافق، سائرا على قدميه، أسرته إلى البيت الكبير. يحمل أولاده على التوالي، ويتحدث عن الهدايا والحب والشوق الملتهب، ويسأل عن هذا وذاك، وفي الطريق تمر العائلة المجدودة. بالبستان. رحب واسع وكعادته مزهر يانع، رجل محظوظ أنا! ويتأمل من يحيط به فيزداد رضى ويشعر بزوال مشاق السفر وأهواله. كل المتاعب ذابت في لحظة اللقيا. المال والبنون والزوجة الصالحة، الدفء والحب يحيطان بي من كل جانب ولساني لا يكف على طول الطريق إلى البيت عن رد التحايا، ويداي تصافحان الناس. الكل يحييني وأسمر! وهذه الحمامة الجميلة. يا إلهي! أتراها جاءت تستقبل أباها أم تستقبلني؟ ولماذا عيناي طرفتا فجأة؟! ولماذا طريقنا واحدة؟ ولا تنفك هي تمطرني بسهام عينيها الدعجاوين؟ أجل طُرِفَتْ عيناه، وأفكاره تمزقت. قوة جبارة كانت تسرق اهتماماته وتدير برأسه نحو الصبية الحسناء العابثة.. حذارِ من أن يفتضح أمرك يا شلومو! سيقولون، «هذا الليث المقدود قلبه من صخور جبال كردستان سرقته طفلة، كانت بالأمس فقطِ تحبو وتقضي حاجاتها بثيابها!» سيقولون، «قد خان شلومو الإخلاص والعشرة، وأشرك في حب أسمر العملاق، صبية رعناء...»

Twitter: @ketab_n

ربي! أهو الحب؟! منعه حياؤه وأنفته من الاعتراف بهذا، فهذا يعني الاندفاع والضعف، يعني الخيانة، هو شلومو كتاني، من يشير الناس إلى رجاحة عقله ورزانته ورجولته المبكرة وصلابته، يسقط في شباك طفلة؟! ورعناء؟! في موسكفا تأكد من أنه سقط في الفخ. كانت إستير تزاحم في مخيلته أعز الناس إليه. كانت تداهم عقله حتى وهو في ذروة التفكير بأمور التجارة والمال، طغت على صلواته وعلى مساوماته وعقد صفقاته وعند هجوعه إلى سريره، في الغربة. كانت إستير مع أولاده وأسمر، عند تهويمات الحنين والشوق، وأحيانا حاولت هذه الطفلة أن تتصدرهم!

كان يبحث عنها وهو على أعتاب لقائهم قبل بحثه عنهم. إن الارتباك والحزن شريكان حتميان ولا بد منهما، فلماذا جئت الآن يا أستير، وماذا سأقول لأسمر لو شكَّتْ في الأمر؟! عندما سألته عن سر كآبته الطارئة العجيبة، أنكر وتذرع بالتعب وانشغال الفكر بأمور تجارته. وقريبا من البيت الكبير رأى «ألماس» إبنة جاره الثري عزريا الصائغ. كانت تختال مزهوة بخلخالها وأساورها. وضفائرها الذهبية المتدلية من جديلتيها الكثتين، وبخلاف كل الذين صادفهم على طول الدرب، أشاحت ألماس بوجهها باستهانة. وحاول شلومو أن يراوغ داخل رأسه صورة إستير المنقوشة في لحم دماغه، وأن يخلع من ثم مسمارًا ليضرب في موضعه مسمارًا آخر، وكان في الواقع يحاول أن يبعد نفسه عن شبهات أسمر فهتف بألماس راسما على وجهه ابتسامة مفتعلة، مستفسرا منها عن صحة والدها، بيد أن ألماس لم ترد. تجاهلت استفساره وازدادت مشيتها خيلاء وزهوا. انتفشت كالديك الرومي، ومضت لا تلوي على شيء. تغاضى شلومو عن تصرف ألماس وقال:

– قد جئتك يا ألماس بساعة تحفة من موسكو، سيحسدك عليها كل بنات صبلاخ!

التفتت ألماس شامخة الرأس والأنف، وقالت بتشدق وزهو.

– لست بحاجة لهداياك فوفر على نفسك خردتك أو اعطها لو شئت لخادمتك قشنك.

Twitter: @ketab_n

بلغ الغيظ بأسمر مبلغ الصدمة وقشنك طأطأت برأسها وهي تدمدم بكلمات مهموسة ولامست الإهانة كبرياء أبي سلمان فمسحت عن مخيلته صورة إستير، وغمغم.

- أقسم على أن يوما سيأتي فيهبط فيه رأس هذه الصبية المغرورة حتى رغام الأرض.

* * *

لم تأت التفاصيل حتى زال التعب وشبع الجسم وارتوى، واستحم الجسد طاردًا عنه وعثاء السفر. حتى الدواب أكلت وشربت ورمت عنها أحمالها، العربات أفرغت في مخازن البضاعة. سماورات روسية، وأقمشة وصيني وتحف، إلا أن أبا سلمان همس لأسمر وكأنه يفضي لها بسر خطير.

- جئت هذه المرة بما هو أهم من كل التحف والملابس. جئت بأربعين طبنجة وأربعين بندقية مع عتادها وسترين الناس تقبل على السلاح إقبال النحل على رحيق الزهور.

وككل مرة احتلت الهدايا حمولة بغلة. سر الأولاد وقشنك بهداياهم، إلا أن أسمر كانت معكرة الصفو. إنها تستقي مشاعرها من مشاعر زوجها، وما تبوح به مشاعره لا يعكس فرحة اللقاء، بل إنه لا يتحدث كعادته بعد كل رحلة، وببهجة، عن تجربة موفقة جديدة. إن ما يبدو عليه هو الجهامة والحزن والشرود. حتى الإبتسامة على وجهه مفتعلة وتفضحها آهاته. كلا فما تراه على زوجها ليس بالمظهر الجديد الذي جاء به من موسكو. كانت تعتريه حالات وجوم كهذه من قبل أن يمضي ليأتي بالتجارة من روسيا. وتسأله فيتذرع بهموم العمل. كم كانت ساذجة حتى فتحت لها فاطمة عينيها، من درب غير مباشر. إستير، هذه الصغيرة الرعناء، أفمن المعقول أن يسقط النسر صريعًا تحت كرعي عصفورة، والطود الشامخ يتزعزع بهبة ريح أو نفخة؟! أم هي زوبعة عواطف تطوح بالمنطق والعقل؟ ظلت تسترق منه النظرات. ما من أثر لابتسامته تلك المتميزة بالقوة والاستخفاف بالأشياء، وهي لا تسمع منه حديثه الممتع من بعد كل رحلة. أين السعادة المعهودة والبهجة؟ إنها تشهد كتمانا يبرحه في صمت ويسومه عذابا يحرص أن

Twitter: @ketab_n

يبقيه في أعماقه وحده.

لكنها جزء منه، ومشاعره، مهما كانت الأسباب، هي البئر التي تغترف هي منها مشاعرها، هو يتعذب، هي تتعذب، وأن بوسعها أن تقسم على أن ثمة شيئا يعاني منه بفظاظة. تمنت أن تمتص كل عذابه. أن تستأثر بالألم كي يهدأ المحبوب بالأ، وينعم بالراحة. فالمشاركة بعذابه لا تكفي. إنها لا تحل مشكلة ولكن... كيف تحلها؟!

طاردها السؤال. لاحقها حتى جمعهما السرير. إنه عائد من سفر وكلما عاد، وجد أسمر عروسا في ليلة دخلتها. اليوم، لم يتغير شيء من ذلك. قد تطهرت أسمر بالمغطس، وتزينت وتعطرت، لكنها يقينا لم تكن بالعروس التي تسلمه كل وجودها ومشاعرها. كانت أفكارها تسافر شاردة عن سرير الزوجية. شلومو يتمدد بجوارها وهي لا تكاد تراه. إن جسمه هو الذي يرقد بجوارها، فزعت. فهل هي نائمة بجانب جثة من وهبته حياتها؟ كان كل من شلومو وأسمر في واد آخر هو ينأى عنها وهي تفتش عن حل تفدي عذابه به. كيف ستعيد للمحبوب الممدد بجانبها، روحه وهو مستلق من غير هذه الروح؟ لا ينطق، لا يتحرك... أتهزه؟! أتناديه؟..! أم تناجيه بالهمسة الدافقة بحبها المشبوب؟!

- شلومو! أبو سلمان!

همست. تعمدت إلا يسمع صوتها إلا بصعوبة كي لا تذعره أو تخدش روحه، او تسحبه من مصاف هيمانه بفظاظة قد تؤذيه، لم يسمع نداءها في الأرجح، أما هي فسمعت أصداء تنهيدة، فخيل لها أنها تسمع تنهيدة الألم... دار في خلدها، أنه يصلى في أتون ملتهب، أشفقت عليه وجزعت وارتفعت نبرة همستها، طبقة.

- شلومو يا أعز الناس، قل لي ماذا يعكر صفوك...

الآن، آب إلى جسمه، صر السرير من تحته وهو يتقلب ليواجهها، وندت عنه آهة أخرى، ضايقه أنه عجز عن أن يقهرها، قاوم انحداره إلى مهاوي الضعف، برجاحة العقل وعناده قاوم. كيف انحدر إلى كل هذا؟ انتبه تماما وخاف. من نفسه خاف ومن ضعفه هذا الذي داهمه بغتة كالداء، رباه؟ كيف سُرِقَ في غفلة من أمره؟ كيف تنتزعه من جوار أسمر، صبية رعناء غريرة وتسلخه عن حبيبته

Twitter: @ketab_n

وزوجته وأم أولاده وملاذه المخلص عند كل صغيرة وكبيرة؟

- ماذا ينغص عليك يا أبا سلمان؟

ساوره ضيق أكبر. لم يعودها على أن يكذب عليها، وهي تحاول دفعه إلى هذه الصفة الكريهة. سيكذب لو قال «إنه التعب» وسيمضي في كذبه لو إدعى «إنها هموم العمل.» إنه اليوم عاد إلى لقاء الأحبة بعد طول غياب. وغانما سالما عاد. فأستحم وأكل مما أعدته أسمر من أطاييب الطعام، وعطّره الجميع إذ رشوا عليه من قماقم المحبة والمودة والتقدير. ماذا يقول لها إذن؟ أيكذب، أم يعترف، أم يصمت؟ كل الخيارات تعسة مسكينة، فانشقي يا أرض وابتلعيني قبل أن ينكشف الضعف وتلوح خيانة الزوجة وتفتضح الهفوة المراهقة الصبيانية.

- أهي إستير إبنة جونه، قد فعلت بك كل هذا؟!

ذهل... صعق مرتين، سمع إسم الحبيبة الأخرى، وممن يسمع هذا؟ قد افتضح السر إذن وانكشفت العورة، اعتملت آلة فرم داخل رأسه ومزقت أفكاره. وفي داخله احتدمت دوامة. أفينكر أم يعترف أم يصمت؟ ذات الدائرة المفرغة. قضي عليك يا شلومو! قد متّ فليرحمك الله!

- إني زوجتك وحبيبتك يا شلومو، وقلبي مفتوح الأحضان لاستقبال همومك، فاسكبها فيه يا أغلى الأزواج!

أجل. قد انهتك الستر وما عاد الذي في قلبه ذلك السر، الذي حنا عليه ردحا، واستأثر به، ونهل منه الشهد والعلقم. انهتك الستر كنسيج مهلهل لعناكب. كان يخفي السوأة، فبانت وظهر العيبُ! وهاله هذا الضعف، وهو يتباهى، والناس معه، بصلابته الفذة. هبط درجات أخرى إلى الحضيض الأسفل، لكنه تمالك دمعه، مهما بلغ من ضعف فدمعه أعز ما عنده، وهو يوفره لأعز ما يستحق أن يذرفه عليه، أخيرًا همس بصوت مضمّخ بالحياء من نفسه ومنها.

- لا أدري كيف وقع هذا، لكنه القضاء والقدر يا أسمر.

- أتحبها حقا يا أبا سلمان؟

فقال، كالمعتذر عن عيب شائن.

- يحدث أن يعثر الإنسان أو يسقط فيكسر ساقًا أو يتهشم!

Twitter: @ketab_n

- أتحبها حقاً؟.

- أخجل من قول «نعم» وأكذب لو قلت «لا» لكنني أُبَرِّحُكِ ألما بغلطتي الشنعاء ودائي!

- عذابك هو الذي يؤلمني يا أبا سلمان!

- خير الزوجة أنت يا أسمر، فأعينيني، وانتشليني من هاوية عذابي!

فقالت:

- نم مطمئنا واهدأ بالاً وسأفعل كل ما يقدرني الله عليه.

فتساءل كالمستنجد.

- أحقا ستساعدينني على نسيانها؟

عادت تقول...

- قلت لك اطمئن ونم بهدوء، وبعون ربي وربك، سأضع حدا لعذابك.

إنه الحل الذي كانت تبحث عنه، قد عثرت الآن عليه، فمضت تنتظر طلوع الصبح بفارغ صبر.

* * *

بعد أن عاد من الصلاة، وجد أسمر مرتدية ثيابها ومتأهبة للخروج. إستاذنته وقالت، إنها تنوي شراء بعض الحاجيات وزيارة بيت السيد متتياهو جونه، عندما سمع هذا الأسم اجتاحت بدنه قشعريرة، وتساءل.

- متتياهو جونه؟

- لم أر زوجته منذ زمن، ورأيت متتياهو البارحة بين العائدين من التجار، فشعرت بواجب الزيارة.

ثارت في رأسه عاصفة لكن لسانه أُفحم، اكتفى بالقول.

- أجل، أجل.

ماذا تراها ستفعل في بيت المحبوبة إستير، وقد وعدته في الليل بمساعدته بشأنها. إستير! ألا يجدر ألا يمعن في التُّنبيش بهذه «القمامة» أمام أسمر؟! كلا. إنه يظلم الصبية بهذه الكلمة، لكنها سبب ضعفه وخيانة أسمر! أليس من الأفضل لو حاول أن ينسى؟ وترك أسمر وقشنك ومريم يغادرن البيت، وسارع إلى عمله

Twitter: @ketab_n

في «الحجرة!» كان شريكه مير ينتظره، وغمس أفكاره في العمل وقال لنفسه «اطردها من فكرك يا شلومو، وإلا فستنزل العار عليك، والكارثة على بيتك وعائلتك!» وقال أيضا ساخرا من أفكاره «يشبه هذا محاولة إقلاع المدمن عن الأفيون!» لكنه عاد وقال «ليس الأمر محالا! يجد المرء صعوبة في بادئ الأمر، ثم يتغلب إن كان قويا، كما كنت يا أبا سلمان!»

إستحضر زوجته الوفية وأولاده، وصورته ذات الشخصية القوية في كل مخيّلات أهل البلدة. حشد كل معداته لينبري للمشكلة ويقهرها، ولكن مهلا. فمن السذاجة أن تطمع بقهر هذا الداء المتمكن في ضربة واحدة ووحيدة.

في الظهر، شعر برغبة أن يرجيء عودته إلى البيت.

فجأة، هاله أن السر قد افتضح لأسمر، وفي أرجاء نفسه تعمق إحساسه بالذنب والحرج والعار، لكن إستير عادت وجاءته بكل حضورها المصحوب بالعشق. وعاد وشبه نفسه بمدمن أفيون، لا أمل بشفائه، فعاوده حزن عميق ومدمر وهو يؤوب إلى البيت!

في الطريق فكر بأشياء كثيرة، الأسرة، الأصحاب، التجارة، النجاح، الدواب، الخيل والبقر والمواشي، البستان المليء بأصناف الفاكهة والخضروات، طهران، وتبريز، تفليس وموسكو! أرضروم، وأنقرة والأستانة، الجبال والوديان والسهول، السنديان والبلوط، أجل! السنديان والبلوط، رمز القوة والصلابة والصمود. هو، إنه تلك السنديانة الفارعة اليانعة، وإستير، إستير رغم كل هذا، ألم ظالم في الضرس، إنها مازالت تفرغ النفس وتستأثر بها، إنها النور اللذيذ المعشي، العذب الموجع، أين السنديانة إذن والقوة والصلابة؟ إضحك من نفسك. إضحك وأنت تقترب من البيت! واكذب على إستير وأسمر وعلى كل الدنيا. إذ تتظاهر بعدم الإكتراث، وابتسم لأسمر أم بنيك الصدوق، لكن ابتسامة أسمر المحبة تسبقك فتستقبلك عند الباب. وها بطلعتها تستحم في ينبوع زلال من السعادة، وهي تبادرني بالبشر والفرحة، وباستغراب أتساءل.

– ما الأمر يا أسمر؟

ففتحت يدها ومدتها إليه، قائلة.

Twitter: @ketab_n

- هات حلاوة البشرى يا أبا سلمان!

دهشة وفضول إمتصا كل ما كان يعتلج في نفسه ويمزقه.

- ما الأمر يا أسمر؟ وأي حلاوة وبشرى تحدثينني عنهما؟

فزغردت قائلة.

- ألف مبروك يا شلومو!

تعسر عقله، أفتريد أسمر أن تصيبه بالعته مقابل الخيانة؟

وبآلية كرّر

- البشرى ومبروك، والزغردة أيضا، ماعدت أفهم شيئا يا أسمر!

- وعدتك ليلة أمس بأن أُريحك، ووعد الحر دين يا شلومو!

- ما الأمر يا أسمر؟! خبريني قبل أن أصب جام همومي على البيت بأسره!

فهتفت، لا تَسَعُهَا الفرحة

- السيد متتياهو جونه قد وافق! والدها وافق يا شلومو!

قلبه غطس في بركة يمتزج ماؤها بالشك مع اليقين، ولم يعرف أي العنصرين يختار فهتف واجف الصوت.

- اطرقي الموضوع ولا تداوري يا أسمر!

تريَّثْ، كبحت جماح انفعالها، قالت، بشبه هدوء كاذب.

- وافق متتياهو جونه على أن يزوجك ابنته إستير!

لم يفهم. سحابة من بلاهة طارئة كست عقله. أفجنت أسمر أم جننت أنا؟ فهل سمعت بزوجة تخطب لزوجها وتزغرد حين تحظى بضرتها؟! هذا هو الحلم والأمنية المتعذران، إلا أسمر! فهي الوحيدة القادرة على جعل جنونه رجاحة عقل، وأن تفتديه بأثَرَتها وتستر عورته بتضحياتها اللامعقولة، ولما رأته فاغر الفم والعينين، أكدت له.

- صدقني يا أبا سلمان. قصدت متتياهو جونه في الصباح وطلبت منه أستير لك، فوافق.

الجنون يقف بينه وبين أسمر، ترى من أي منهما ينبثق هذا الجنون؟! ويسأل مشدوها.

Twitter: @ketab_n

- أأنت تخطبين لي إستير يا أسمر؟ أفقدت عقلك؟
- بل هو عين العقل يا شلومو.
- أعين العقل أن تأتي بضرة لك، وغريرة أيضا؟!
- كل شيء يهون عليّ إلا عذابك يا أعز الأزواج!
- لن ينتهي العذاب، لو رأيتك تتعذبين بنفسك.
فقالت بثقة مطلقة لا تتزحزح.
- لن يحدث هذا مادامت سعادتك هي سعادتي يا شلومو!
- فكري بالعواقب يا أسمر!
- قد فكرت، واخترت لأستير مكانا في هذا البيت.
صمت. غمرته أفكار وعواطف كأنها مزجت بعناية.. نظرته الجافة من الدمع حملت كل مشاعر العالم الجياشة، دائما إعتز بأسمر، لكنها الآن كبرت حتى كادت تغدو بعينيه عملاقا، وصغرت الأخرى بازائها حتى غدت قزما بمواجهة العملاق، وقال.
- رغم مكانة والدها، فإنها ستكون في هذا البيت كالخادمة لك يا أسمر.
فقالت بإصرار.
- لن تكون إحدانا خادمة للأخرى، إنها صغيرة وساذجة، وسأعلمها الحب والاحترام المتبادل.
هذا هو المعدن الكريم، ويوم اختار أسمر، قيل له «أحسنت الاختيار!» أما الأخرى فعلبة مغلقة من الطلاسم. ويزيدها استغلاقًا موافقة والدها على أن يزوجها برجل متزوج. لماذا؟ وهل ثمة ما يبرر هذا؟ ألأنه يشار إليه بالبنان، تتلاشى أمامه كل الحواجز؟ وبين عسر الفهم والإكبار لأسمر والفرحة والسعادة، تشرئب أعناق مشاعر غامضة. أفسيبقى هذا البيت مرتع الوئام أم سيتعكر صفوه بخلافات الزوجتين، وهل يمكن أن تجتمع ضرتان تحت سقف واحد؟ وهل سيعدل بينهما ويعاملهما بالمساواة والإنصاف؟ بل ألم يظلم أسمر، من قبل أن تأتي الأخرى؟! أم قد ظلمت أسمر نفسها بنفسها؟! ألا لعنة الله على نزق الشباب! وكانت أسمر منتصرة وسعيدة وعاقلة في مجابهته. كانت هي

Twitter: @ketab_n

المرأة لكنها في هذه اللحظة كانت أقوى منه. بوفائها وأثرتها أقوى منه... وبخطواتها الشهمة المقدامة طوحت بكل صفاته المحمودة على ألسنة الناس ولكن ماذا سيحمل المستقبل لهذا البيت بعد الآن؟ مكث ساهما ضاربا في بيداء الفكر، حتى طرقه صوت أسمر.

– وقد اتفقنا على أن تكون الدخلة بعد شهر، ريثما تتم ترتيبات الزواج وتريثت قليلا ثم أضافت.

– وأستأذنك في أن أُجهزها بنفسي، يا زوج الامرأتين!

* * *

التقط الزمن أنفاسه ليواصل سرد القصة، انتصب مزهوا وتساءل «كيف تراني أروي الأحداث؟»

قلت «أنا من سمعها من شلومو كتاني بنفسه»، قد شحذتَ عواطفك وأرهفت الاحساس، حتى أسففت بكلامك، وبخلاف عادتك في ممارسة القوة المكنونة بين طياتك، إخترت العزف على أوتار الوجدان، أفأنت تضلل وتراوغ وتستقطب الأحداث لتداهم بالآتي البشع من أحداث القصة؟!

وتشدق الزمن – الراوي – الشاهد «إني أنا الماضي والحاضر، والمستقبل. أنا التاريخ والغيب. ذاكرتي كاللوح المحفوظ، لا أنسى كلمة، أو سكنة، أو ذرة من أحداث الدنيا.

قلت للزمن المتعجرف «لكن شلومو كتاني روى القصة لي، فدعني أرويها بلسانه.»

طرقتني ضحكة الزمن المتهكمة كالعادة وقال.

– إني أقف بين ذاكرتين، ذاكرة شلومو وذاكرتك، والإنسان من عادته النسيان وتحريف الأحداث.

واحترت كما في أول مرة، لكنني قلت:

– ينسى المرء ما يبغي نسيانه، ويتذكر ما لا ينبغي أن ينساه، ويحرّف الإنسان ما كان يتمنى لو سار على ذاك الوجه من التحريف!

قال الزمن بنبرة المنتصر دون منازع.

Twitter: @ketab_n

- أرأيت إذن كيف أني وحدي يمكنني سرد الأحداث بدقة وأمانة؟

فتساءلت:

- أولا يوجد قيمة، في نظرك لرأي بطل القصة المروية ورؤيته للأحداث؟!

بدرت عن الزمن إشارة موافقة أردفها بقوله:

- هذا صحيح.

فقلت:

- تعال إذن نتعاون في سرد الباقي من أحداث القصة، أنت وأنا، وراويها الأول وبطلها شلومو كتاني الكردي.

* * *

Twitter: @ketab_n

صبلاخ، بعد شهر من الأحداث السابقة

في ذاكرتي أحداث عشتها ألف مرة، نسخ طبق الأصل. دابقة، ألوانها لم تبهت ولم تنل من جدّتها الأيام. أعود إليها مخترقا حاجزك المتراكم بالأيام والأعوام وبالصور الأخرى، أعود إليها يا زمنًا يغدر بالإنسان، ويزعم أن الصدق والأمانة، شِيَم يعتز بها ويمارسها حتى في سرده لأحداث الماضي أفما رأيتني يا ولدي، يوم قصصت عليك الأحداث الغضة في صفحة ذهني؟

إني أغوص في يمّ الأحداث، لا أروي، بل أُقحم في أعماق هذا البحر، وأغوص في أعماقه، نحو الماضي، نحو الصورة، أدخل فيها وأعود أحياها، وأخوضها المرة تلو المرة، أتقنها حتى أكثر مما أتقنت الأصل، وها أنذا في اليوم الموعود. في بيتي الواسع بمسقط رأسي صبلاخ. وأسمر زوجتي تزف إليَّ ضرتها وتحملها بيديها إلى مخدع الزوجية، والخدْر بجوار الخدر، وأثاثه كأثاث غرفتها بالضبط، لم أختره بنفسي بل اختارته أسمر، وانتصرت أسمر وملكت القلب المشغول بحب إستير، فحين دخلتُ على إستير كنت مع أسمر أيضا، اسمع صوتها يزغرد خارج الغرفة، لكني أراها، معنا على سرير الزوجية. لا بل هي في وجداني إعجاب. هي خوف في وجداني، وهي في وجداني تأنيب ضمير. لأول مرة ستنام وحيدة وأنا موجود في البيت بجوار امرأة أخرى. إستير، الطفلة الغريرة الغَنِجَة أدخل في أحشائها وهي تدخل في رأسي، أخشاها، أفكان الحب مجرد نزوة؟ أم أولادي، حققت الرغبة المحرومة المحرمة لي. خَفَتَ لهيب العشق الأبله «أصبحت يا أستير زوجة لي!» من كان يصدق؟ فجأة ثاب عقلي إلى رأسي ولما ثاب، رأيت أمورا فاتتني وأنا داخل محّارة الغيب، اني أصبحت زوج امرأتين وهذه الأخرى المنطلقة النزقة حب طفولة نزقة منطلقة. أما الأولى، أم أولادي فعاقلة ووفية وفدتني بما لم تفد به امرأة زوجاً. رأيت أسمر كما لم أرها من قبل. كلا. لم يساورني في إخلاصها شك من قبل، لكنني الآن أرى فيها ما يعلو على الإخلاص. شيء يغمر ذاك الإخلاص. ويطفح داخل رأسي، شيء معطاء ناكر

Twitter: @ketab_n

ذاته، وهذا الشيء المتميز برجاحة عقله، قهر حتماً رجاحة عقلي! وليلة عقدت قراني على إستير، اقترنت هي بالجسد العاري واقترنت أسمر بالروح! ولو كنت حقا اتكهن بالغيب، لأدركت ليلتها أن استير مجرد حلم جميل وقصير! وأن أسمر حقيقة راسخة دافقة بمعان ينهل منها العمر بمراحله المختلفة. إنها شمعة واقدة تبث النور. إنها شجرة مثمرة لا تنضب.

رحم الله أسمر..! رحم الله الامرأتين.. والولدين!

* * *

وبعد السهَم الاسيان تأتي ضحكة هادئة وقصيرة تسخر من سخرية الأقدار. في الليلة الأولى، كما يبدو، بذرت يا زوج الامرأتين، نطفة الطفل في رحم إستير. وفي الصباح نهضت أسمر تأتي بطعام الإفطار وتطرق باب غرفة زوجيتك الطرية، تبارك لكما وتزغرد، وأنت بألف إحساس، مموه كله بمسحة بهجة وسعادة تستيقظ، وترى أسمر فرحة مبتهجة لكنك تستاء من فعلتها، تسحبها إلى خارج الغرفة وتقول لها شبه معنف.

– أنت سيدة هذا البيت، والسيدة لا تخدم ضرتها، فدعي هذا لقشنك، واياه أن يتكرر بعد الان.

وحمدت الله على أن النوم ضَرب بين استير وفعلة اسمر حجابا من ستر، إذ لا يفهم بعض الناس كنه تواضع المرء، وإستير، البنت الغريرة النزقة، عرضة لغرور لا تحمد عقباه، لو كانت شهدت ما فعلته أسمر. وجاءت ضحكتك الساخرة من سخرية الأقدار، وليس لما حدث جاءت هذه الضحكة، وليس لأن مشاعرك الألف كانت تجعلك جبل رصاص ثم تبخّرك وترفعك كدخان نحو سماوات الله. وليس... وليس..

فالباب يطرق، تأتيك قشنك وتقول

– سيدي! سيدي! في الباب من يطلبك يا سيدي!

ساعة مبكرة من يوم «صباحية» الدخلة وصبلاخ كلها تعرف ولن يزعجك من أهلها أحد في هذا الوقت الباكر، بزيارة ولا حتى أهل أستير!

راودك الضيق وغضبت وقلت لقشنك.

Twitter: @ketab_n

- اسأليه من هو وماذا يريد؟

ذهبت قشنك وعادت (وأنت كنت تغرق بالضحك إذ تروي هذا لي وتقول...) ذهبت قشنك عاقلة وعادت من الباب مجنونة. ذهبت ولسانها كلسان طائر غريد، فعادت وهي تلعلع كالسعدان... ذهبت ووجهها يقطر حمرة كعصير الرمان فعادت وهو مصطبغ ببول الصائم، وأنت ترمقها بالدهشة وتتفحصها بالاستغراب وتراها مرتعشة، وتحاول أن تنطق لكن كلامها كان يتجمد في حنجرة أغلق عليها بالقفل والمزلاج. وقلت لخادمتك المسكينة، مرحًا رغم الاستغراب.

- فهمت الآن، يقف عند الباب ساحر. قلب كيانك كله.

فنفت قشنك هذا بحركة من رأسها وهي مازالت تحاول أن تنتشل صوتها من قاع البحر، وثار عفريت مزاحك وراح يعربد.

- الآن فهمت حقًا، إنه وحش كاسر وليس بإنسان، أهو فهد أم أسد أم نمر؟!

وفجأة انتشلته. صوتها هذا الغارق في أعماق البحر، خرج وهو ينفض عنه الماء ويرتجف بردا.

- يقول... يقول يا سيدي، إنه رسول مولانا الشاهنشاه إليك!

رسول الشاه إلي، وفي صبيحة يوم عرسي! أكيد أن قشنك قد جنت وأن صبلاخ قد جنت، وأن إيران كلها قد جنت، أو إن كان الأمر حقيقة، فيقينا أن الشاه بنفسه قد جن! أنا، لا من البطانة ولا من حاشية الشاه، ولست من أرباب الدولة، ولم يحدث يوما أن أكلت مع الشاه أو عاقرته خمرة ولا أفقه بسياسة الدولة شيئا ولا أفهم بشؤون المُلْك. إني يهودي كردي تاجر في بلدة يكاد ينساها الخلق، ولا يدخلها تقريبًا أحد من رجال الدولة، فلماذا يأتيني رسول الشاه؟ ويقصدني في يوم زفافي؟! أفيبعث الشاه القجاري رسوله ليهنئني بزواجي؟ أم لعل الامبراطور قد أرسل لي هدية عرس؟!

لا. لا. هذا أمر لا يدخل في عقلي. البنت مجنونة وتخرف. إن عند الباب، ولا شك، مصيبة قلبتْ سحنتها وجعلتها تخرس ثم تهذي. لكني لم أفقد هدوئي فضحكت وسألت قشنك المسكينة.

Twitter: @ketab_n

– ويحك، وما أدراك بأنه رسول الشاه حقا ويطلبني أنا بالذات؟

فأجابت مذعورة:

– أقسم لك. قال إنه رسول الشاهنشاه، وذكر اسمك يا سيدي واسم المرحوم والدك.

وهنا، خامرني بعض الشك، ولعلي ظلمت البنت المسكينة، ومن الجائز أن القجاري قد جن حقا. ذهبت بنفسي استطلع جلية الأمر، حقا هذا رسول الشاه أمامي، أما قشنك المسكينة فلم تكذب يوما حتى وهي تهذي، وتبول بثيابها من فرط الخوف.

رسول الشاه أمامي في صبيحة يوم عرسي. تفضل! أُدخل فأنا خادم مولانا الشاهنشاه! لم يتحرك من مكانه ولم يدخل، بل سلمني رقعة مختومة بالختم الملكي وهو يقول:

– هذا أمر مولانا ملك الملوك إليك، إنه يأمرك بالسير فورا إلى الحضرة الشاهنشاهية في طهران.

لم أجرؤ أن أسأل، لكنني قلت.

– أمر مولانا الشاهنشاه مطاع، ولكن، ربما حضرتك، ولا تؤاخذني قد أخطأت العنوان.

نظرة الرسول الحارقة تكاد تلتهمني، نظرة أسد هصور يتحفز للوثوب على فريسته المسكينة. في عين مخيلتي، رأيت رسول الشاه يمد يده إلى عنقي ويطبق على «جوزة» حلقي، لكن يده لم تمتد إلي بل امتد صوته يحمل إلي جعجعة الرعد وهدير العاصفة وزمجرة وحوش الغاب.

– أنا لا أخطيء يا هذا، وإن كنت تعرف القراءة فتطلع بالفرمان الشريف فهو يحمل اسمك بالكامل وهذا العنوان!

حقا. أنت لا تخطيء، لكن مولاك قد أخطأ بالتأكيد! إنه يجشمني عناء السفر إليه في يوم زواجي، ولما سأكون في الحضرة الشاهنشاهية، سيقول لي «لست من قصدته، فعُدْ أدراجك يا هذا!» ولكن أأقول لرسوله أن مولاك قد أخطأ؟! لو قلت له هذا فسأُرمّل أسمر وأستير وأُيتّم أولادي، وستبكيني أسمر مدى العمر، أما

Twitter: @ketab_n

أستير فقد تحزن شهراً ثم تبحث عن زوج آخر، ولعلها حبلت في ليلة دخلتها، وستلد طفلاً يتيمًا لا يعرف أباه ويربيه الغرباء. دار كل هذا في خلدي بمواجهة رسول الشاه القجاري، وهو ينفذ غلطة سيده الكبرى ويأتيني على غير ميعاد ليأمرني، بالسير إلى طهران في التو وفي الساعة وليس على صهوة جوادي، فإن أمكن فعلى جناح الطير، فالشاه يريد مقابلتي قبل رحلته الصيفية إلى سان بطرسبرغ، لزيارة صاحبه إمبراطور الروس، نيقولاي الثاني.

توسلت برسول الشاه أن يمهلني اسبوعا، اختصر فيه شهرَ عَسَلي وأُمتّع عروسي بوجودي أياما معدودة معها قبل أن تغيبني الأقدار عنها وعن آل بيتي، أسابيع وشهورا، أو أني قد أمكث سنوات، أو لا أرجع أبد الدهر. فهل يأمن من يدخل عرين الليث أن يخرج منه؟ ولكن بالله عليك يا رسوله، هلا أخبرتني بسبب هذه الدعوة السامية الفجائية؟!

بالطبع، لم أحظ بجواب، والأمر يقضي بحضوري دون أن يذكر الأسباب، وهذا غضب باد على وجه مبعوث الحضرة. بيد أن المرء يعجز عن أن يتنبأ بسر الغضب الناطق على وجوه أولاء، فوجوههم أبدًا ينطلق منها شرر السخط المستعر المحموم، فكأن الناس جميعا مصدر إزعاج للسلطة، وليس بوسعك أبدا أن تعرف، إن كنت أنت مصدر حريقهم المتأجج، أم أنك بحذرك وتملقك إياهم ستفوز بالجائزة السلطانية، إذ تغنم سلامة بدنك وتعود لبيتك ورأسك فوق كتفيك، وإن سمات الغضب البادية على سحناتهم الجهمة، لا تتعدى مظاهر العجرفة المزهوة بتاج هيبتهم والسطوة. إن السخط على أوجههم هو قناع الإرهاب والتخويف، ليبقى الفرد من الشعب يرتعد رعبا حين يراهم وقد مثل قدامه سيف الموت المسلط على عنقه بيد عزرائيل!

سأمضي إذن، تسامرني بمفازات أذربيجان، وبوديانها، وهضابها احتمالات شتى، يصحبها صقور الوسواس والشك والأسئلة المحتملة. سأمضي دون تمهل أو إرجاء فالأمر الشاهنشاهي مصدره إرادة الله، مادام الشاه بذاته ظل الله على الأرض. ورضخت وقلت لرسوله.

– هما يومان إذن، أُدبّر بهما أمري وأُودّع أصحابي وأهلي.

Twitter: @ketab_n

فقال رسول الشاه.

- بل يكفيك يوم واحد، تودع فيه أهل الدنيا بأكملها.

أُودّع أهل الدنيا؟ وما الخطب يا رسول السلطان؟ جبنت عن أن أسأله أخرى. وخزني قلبي، أفأصبحت أنا من أهل الآخرة، لأودع أهل الدنيا؟ أودعت مصيري بيد من نجاني من قبل وسيظل ينجيني حتى خاتمة مطافي. كان يقيني بإلهي كالطود الراسخ لا يتزحزح، والله لم يخذلني. كان هذا قبل أن تولد أنت بأعوام طويلة. وها أنت الآن رجل ملء العين أحدثه بما مر بي من أهوال في سالف الأيام، وكيف حماني سبحانه من كل تلك الأهوال، لكن ريقي كان جافا وأنا أقول لرسول الشاه.

- سأمثل أمام مولانا الشاهنشاه في الوقت الموعود والساعة. سأُغادر في الغد، وإذا لم يحدث لي مالا أتوقع في الدرب فقد أصل إلى طهران في نفس اليوم.

فقال وهو يزمجر.

- بل ستصل بعدي، بيوم واحد، لأني عائد تواً الى طهران، والآن، مر لي بزوادة يعدّها لي أهل بيتك، تكفيني مسافة سفري من صبلاخ وحتى وصولي إلى طهران المحروسة.

* * *

هلعت أسمر، وانتحبت إستير، وأدركت إنها طفلة بالفعل حين تشبثت بأذيالي ومضت تبكي وتصرخ

- «لا تذهب! لا تذهب وتتركني!»

لم تفهم أبدا معنى «الأمر الشاهنشاهي» رفضت اني على كره مني أتركها وأسافر. قلت لها:

- ما من أحد يمضي طوعًا بقدميه إلى مصير مجهول قد لا يرجع منه.

فبكت أسمر جزعا ودعت لي بسلامة العودة، لكن إستير مضت في ولولتها وهي تصرّ.

- لا تمض! كيف يطاوعك قلبك بأن تتركني صبيحة يوم عرسنا وحدي؟!

أدركت ألا جدوى من إفهامها، وأن الرحلة قدر فرض علي، وأنها لا تبكي خوفا

Twitter: @ketab_n

من أن يصيبني مكروه، بل خشية أن تبقى وحيدة، فقلت لها

- البركة في أسمر، فهي من جاءت بك إلى هذا البيت، اعتبريها بمثابة أختك، ثم إن البيت الذي جئت منه بالأمس، ليس ببعيد.

فتهلل وجهها وهي تقول بحماس

- إذن آخذ أمتعتي وأعود لبيت أبي!

ونفخت نفخة الضيق المتراكم في صدري! وعدت أنفخ أيضا في «قربة» أستير المثقوبة وأتفانى في سد هذا الثقب، فعسى أن تستوعب، أنها منذ البارحة قد أضحت زوجة، وأنها مذ زفت إلى هذا البيت فأنها عادت جزءاً منه، بل وهو بما فيه أمسى جزءا منها، إنها في بيت الزوجية، وبيت أبيها بيت عزوبيتها، ولن تعود لتقطنه الآن بل ترتاده لزيارة... ثم تعود.

النساء والتجارة، همان ينبغي الاطمئنان عليهما، لكن البيت لحسن حظي ترعاه أسمر، واعتمادي عليها كاعتمادي على الله، إنها تطمئنني قبل أن أوصيها خيرا بالأولاد واستير! وبالبهائم ومؤونة الصيف، والبستان والأُجَرَاءِ.. ومير علي شريكي وحبيبي، أودعت شؤون تجارتنا بيديه وأوصيته، وأعددت العدة لرحلة لا أعلم بعواقبها، ولم أسقط موتي من حسباني، لكني تأهبت للمجهول، مبتسما للمستقبل، وأتضح أن أمامي عمرا كعمر النسر، كنت أعمل للدارين بنفس القدر، دنياي وآخرتي، لكن طبعي وإيماني كانا يشداني دوما نحو حياتي، فأنا مازلت في مقتبل العمر وريعانه، ومن حقي أن أجني رحيق أيامي في الدنيا، ومن حقي أن أبني صرح حسناتي، لأعتصم فيه بعد نفاد زاد حياتي وأواجه ربي، إن لي مسؤولياتي في هذه الدنيا، وها قد زدت على أعبائي عبئا آخر لم يمض عليه غير ليلة ونهار، وفي أعماق نفسي ناداني صوت المسؤولية والإيمان، بشرني بأني سأعود وفي ميزان أحاسيسي رجحت كفة سعدي وآمالي على كفة نحسي ويأسي. فجاءت بعد لحظات فتور الهمة ساعات تحفز العزم، فكرت بمعاشي وتماديت فخططت لربح أجنيه من هذه الرحلة. وأخذت من العفص حمولة ثلاث بغال، تزودت بالمأكل والمشرب، وبصصيدي وتفليمي ومصحف صلواتي، وعدت وودعت كل من في البيت، ثم توكلت على الله.

Twitter: @ketab_n

وحدي على حصاني، وأقود بغالي، بين جبال ووهاد وسهول. وهذا أمامي وادي الثلج، احتكره آل بوزورك واختزنوا فيه جليد الشتاء وضغطوه حتى أصبح ثلجًا للصيف، يقتطعونه ويزودون به أهل صبلاخ ونواحيها، وأنا وحدي على صهوة جوادي، والله من فوقي ومن حولي وبقلبي وعقلي، وإسمه على شفتي وفي وقع كل الأصوات. وإسمه معقود بحواشي صصيدي ومكنون بتفليمي وبمصحف صلواتي، ومعي الماء والزاد يكفيني، وأنا أصعد لتبريز لأبيع العفص وأعود لطهران، فأتزود من عاصمة أذربيجان، تبريز، بماء آخر طازج. ومعي أيضا أهل بيتي واسئلتي المطروحة على نفسي وعلى آذان الدنيا والدهر، وأنا أفحم عن كل جواب. والدهر يعرف لكنه يتحفني بالصمت، والدنيا تجود علي بمناظرها الخلابة، وتبخل علي بالرد على استفساراتي، وهذا هو الصيف يمنحنا الشمس والدفء والوقت الكافي لنا كي نتهيأ لثلوج الشتاء الكالح، تبريزا! أتوجه إليك لأتاجر وأعود. وقد غادرت صبلاخ في الصبح الباكر فلن أتأخر عن الوصول إليك. وحصاني سريع وبغالي، وأنا أعرف متاهات أذربيجان، وأعرف كل واد وطود فيها، وكل عين وشجرة، أتخذ طريقي بشعاب الوديان الخضراء. أتفيأ بظلال الاشجار البرية، وأعرف المرتفعات. أمضي لا ألوي على شيء، أقطع الصبح وأتوغل بضحاه دون توقف، وعند هاجرة الظهر أشرفت على عين ماء، سماها التجار بعين الباشا، وكعادتي في كل رحلاتي لتبريز، حططت رحلي وأوردت حصاني وبغالي ماء العين، وجلست تحت شجرة. أخرجت خواني والزوادة وغسلت يدي بماء العين، وبدأت باسم الله «اللهم...» لم أكمل. جفت على لساني بقية البركة، قطعت حبل أفكاري، شفرة عيار ناري، إرتجّ بجواري ماء العين، جفل حصاني، بغالي ضربت بحوافرها الأرض. كنت مقابلا الشجرة، نظرت ورائي. جلْتُ بين الصخور بأنظاري. حدقت بالأشجار. لم أر أحدًا صرخت بأعلى صوتي.

- من هذا؟

فرد علي صوت يرشح شرًا محضًا.

- أترك حصانك وبغالك وأعدُ..! إنج بجلدك!

Twitter: @ketab_n

لم يهتز بي ساكن. جناني قوي مازال. لكني لهجت باسم ربي وتساءلت.

– من أنت يا هذا؟

فرد الصوت بسرعة وهمجية.

– أنا الصقر الجارح جعفر أكبر... وبجواري حسين أخي... نحن من تهتز جبال كردستان هلعًا منا، ويسْلح بثيابه لو صادفنا أعتى رجال أذربيجان!

عندئذ أحسست بسكينة وهتفت.

– أنا لست عتيا أو علجاً. إني شلومو ابن يهودا كتاني، فأخرج ياجعفر وليخرج معك أخوك حسين، ولنتفاهم.

خرج السفاحان من خلف صخرة ملثمين متوجسين، وبيد كل من الأخوين بندقية، فوهتها مصوبة نحوي، وكلما اقتربا سقط جزء من اطمئناني، لقد عرفاني، فهل يفعلها السفاحان؟! رأيت الجوارح بعين مخيلتي وهي تتجمع قرب النبع، فالصقور والجوارح تحل حيثما حل جعفر أكبر وأخوه حسين، واقتربا مني. واقتربت مني فوهتا البندقيتين، ولم أترك للذعر أن يعقد لساني فهتفت بهما

– كلا! أنتما أشرف من أن تفعلا بي فعلتكما، لأنكما تدينان لأبي بهاتين الرقبتين!

خرس المكان إلا من حفيف الشجر وخرير الماء. عادت الأطيار الفزعة الفارة إلى أوكارها، ومن على فنن شجرة زقزق عصفور، لكن غرابا لم ينعق. واستبشرت بصوت العصفور ورأيت فوهتي البندقيتين تحيدان عني والسفاحين يتهامسان. يتشاوران بينهما. إني الآن أنقذهما من جريمة قتل أخرى... وأبي أنقذهما من حبل مشنقة ما كان منه فرار. كان أبي صديقا لحاكم الإقليم ورجال السلطة. القي القبض على جعفر وحسين وحكم عليهما بالموت شنقا. جاء والدهما لأبي يسعى. ركع أمام أبي يلثم ذيله ويقبل تراب قدميه. توسل وهو يبكي، «يداك ماضيتان يا يهودا، وحتى الحكام بطهران يستمعون لقولك، فتشفع لجعفر وحسين لديهم! وانزلهما من حبل المشنقة ثم خذهما عبدين لديك!»

وقال جعفر:

– أنت، إذن، شلومو ابن يهودا كتاني!

Twitter: @ketab_n

فقلت لجعفر وقد قوت الذكرى، غير البعيدة، قلبي.

- ولولاه ما كنت وأخوك الآن بين الأحياء.

لم يكن من عادة أبي أن يرجو، بل كان يطلب كالآمر. قال لأصحابه «هبوني رقبتي الشقيين!» قال له أصحاب الأمر والنهي «ليكتبا مرجمة يتعهدان بها بالتوبة، وسنقوم نحن بالباقي!»

قال حسين معتذرا:

- أخطأنا بتشخيصك وجل من لا يخطيء.

قلت بصوت سمعه الوادي والعين والاشجار ودوابي.

- فبفضل أبي صدر الأمر بالعفو عنكما.

فقال جعفر:

- ونحن مدينان لأبيك بوجودنا، فمرنا بما ترغب وسنلبيه لك في الحال!

- إني بطريقي إلى الحضرة الشاهنشاهية، لكني سأصعد أولا إلى تبريز لأبيع حمولة بغالي، ليتوفر لي ما أقوّمُ به أودي وما يكفيني لوقت الحاجة في هذه الرحلة.

انتحى جعفر وحسين جانب الصخرة، وتسارّا طويلا. وشعرت بجناني يعود ويضحى بصلابة هذا الصخر. لا أدري لماذا استبشرت خيرا. لكن خضرة الوادي احتدت في عيني، وحل صدح الطيور كألحان مسحورة على أذني، ثم رأيت الأخوين يقتربان، وسمعت جعفر أكبر الأخوين، يقول لي.

- سنكفيك عناء السفر إلى تبريز، ونشتري منك العفص والدواب معًا وسنقبضك الثمن الذي تطلبه في الحال.

رباه! كم أنت كريم مع عبدك شلومو! وهذه أولى طلائع إستبشاري بخضرة الوادي وتغريد البلابل. إنقلبت الغمة فرحًا وانطوى بعض الدرب. وبعت السلعة دون عناء! وقلت للأخوين أكبر والفرحة تفيض من قلبي إلى وجهي وصوتي وسكناتي.

- هاتا ما تجودان به فلن أساومكما على بضاعة أو مال!

أجل يا أبا سلمان! ولعلك يومئذ داريت فرحتك عن جعفر أكبر وأخيه أما امامي

Twitter: @ketab_n

فلم يكن ثمة ما تخفيه، فضحكت ضحكة الظفر والاعتداد المنطلقة منك مع كل رواية تفوح منها رائحة الفوز العذب. يومها ألقى إليك جعفر بصرة وألقى لك أخوه حسين بصرة مثلها. قلت لي وكأنك تفضي لي بسر تعاقبت عليه عشرات الأعوام «حتى في أجمل أحلامي ما كنت لأحلم بعشر ما أعطيانيه. لقد ضاعفا لي الثمن عدة مرات وأخالهما أرادا جزائي على معروف أبي.»

بفضل السفاحين عدت أدراجي، وبفضلهما وصلت إلى قرية بت في خانها حتى الصباح ثم واصلت طريقي إلى طهران قاصدًا الحضرة الشاهنشاهية.

فتبارك ربي الذي كلما وقعت في محنة خلصني منها ورماني بأحضان البهجة.

* * *

طهران. في زحامها يضيع الإنسان وتمحي الهوية. وثمة حصان في خرجه معدات صلوات يهودية، وصرتان من المال وبقايا طعام، وعلى صهوته رجل فارع يحمل فرمانا شاهنشاهيا ويقصد القصر الامبراطوري في الطوبخانة. وفي الرأس أفكار كثيرة تتكدس، فتغيب عن العينين حشود الناس ويخفت الصخب وتبقى أسمر وأستير والأولاد. ترى ماذا يفعل الآن الأحبة؟.. يبقى أيضا التعب ووعثاء السفر وأمنية ملحاحة تطلب الاستحمام وتنشد بعض الراحة، فتصطدم بروعة البُعْبُع القادم عما قليل، القجاري الطاغية الأرعن، أحمد شاه، سيقابله بعد قليل. سيقابله، فماذا سيقول، وفي أي شأن استدعاه آمرًا إياه بالحضور؟

وهاهي الطوبخانة، وعلى مشارفها القصر، والرياض. والأسواق في الجانب الآخر. مر زمن لم يكحل به عينيه برؤية خيرات هذه الأسواق. وفي الخرج صرتان، ولو قدر له الخروج حيًا من عرين الأسد، فسيرجع إلى صبلاخ محملا بخيرات طهران وتحفها. هي اذن، زيارة وتجارة. وسيقول الناس في صبلاخ: عاد شلومو كتاني من الحضرة الشاهنشاهية يحمل السلع الطهرانية! ولكن مهلاً، لا تمض بتفاؤلك وأنت على أبواب يوحي دخولها بالشرور المهلكة. أحمد شاه! ماذا تراك تبغي من اليهودي الكردي المسكين؟ وتساءل إن كان مسكينًا حقا؟ وعلى مقربة من البوابة الملكية، خفق قلبه خفقة رهبة، وقال: «أجل أنا

Twitter: @ketab_n

مسكين إذ قادني قدري رغما عني، إلى مصير لا أعرف شيئا عنه، من دون أن اقترف بحياتي ذنبا بحق أحد» ولكن أستير؟ أليست ذنبا أقترفه بحق أسمر؟! وقال وهو يقدم الفرمان الملكي للحارس «لا. فلقد كنت عقدت العزم على نسيان إستير، لكن أسمر أصرت على أن تزوجني إياها!» وأعيدَ الفرمان له وأذنَ له بالدخول على الشاه. ربط حصانه بجذع شجرة من أشجار القصر وحمل معه الخرج. في هذا الخرج الرث تكمن الدنيا والدين. وفيه خلاص المؤمن والملحد. ضم الخرج إلى صدره وأشار للخدم المنتصبين خارج الباب إلى حصانه. وأوصاهم به خيرا ودعا ربه أن يكفيه شر الغيب... ثم ولج، بشجاعة، هذا الغيب.

* * *

إنها بسمة الفائز الواثق. أبدًا مرسومة على هذا الوجه، إنك أنت الآن مرآتي، لكني على أعتاب القصر الشاهنشاهي، لم أجد المرآة. سيظل شكل هذه السحنة، ساعة دخولي على القجاري، ضربًا من الحدس والتخمين. هل خفت؟ لا أدري لكنها بالتأكيد برهة كانت تحمل رهبة المجهول وبالتأكيد ايضا، أني كنت لحظتذاك أغترف من رباطة جأشي ومعين إيماني، وأرفع رأسي للمزهوين والمغرورين، لن أُخفضه إلا امام ربي. أوقفني حاجب الحضرة وأمرني بنزع ثيابي، ونبَّش في خرجي، رأيت ومازلت أذكر، عينيه تلتمعان ببريق شهوة وحيرة. شهوة المال والحيرة إزاء سيور جلدية سوداء متصلة بمكعبات كصناديق جلدية. وازاء قطعة قماش مخططة بطرفيها المحفوفين بخيوط الابريسم، المعقودة. قلت له

- رفقا باسم مولاي ومولاك، وأبعد فظاظة يدك عن اسم الله كي لا يعاقبك ربي وربك بشلِّ يديك!

وصحيح أن عينيه وجهتا إلي سهاما نارية إلا أن يده ما لبثت أن ارتدت عن معدات صلاتي، مرتعدة، وأعاد كل شيء لمكانه في الخرج وقال.

- ضع هذا هنا حتى تخرج!

لا. لا. المال سيضيع، ومعدات صلاتي أستعملها، ثم من قال إني سأخرج من هذا الجحر بأقدامي؟! سيبقى الخرج معي، ويغادر القصر معي. سواء إلى

Twitter: @ketab_n

صبلاخ، أو القبر.

- لن أترك الخرج هنا ولو قطعت رقبتي!

انتزعت الخرج منه، فقال، وكأنه يتمنى أن يجلد رقبتي.

- آمل أن يحدث هذا حقا في حضرة مولانا الشاهنشاه!

اللعنة! بلاط الشاهنشاه! هذا الأرعن «ملك ملوك الدنيا»

اللعنة! وهو يتحكم بمصائر الناس. من حوله حاشية من «صفوة» الايرانيين، ويعاقرهم الخمر بكأس ذهب! ما قول شيوخ طهران في هذا؟ كانت تلك ساعة الشيطان، ولا شك ساعة لهو وطرب واستمتاع. لم أدر هل أستبشر خيْرًا أم أتشاءم؟ همس الحاجب شيئًا في اذن الشاه وأشار إلي - وكان قد أخذ الفرمان مني ثانية وأعطاه للشاه - فألقى الشاه نظرة على الفرمان، أما أنا فشعرت ببعض تلكؤ.

- تقدم!

أمر الشاه...

قدماي تعثرتا. لغط مصحوب بالسخرية والإستنكار. أياد تمسكني من ظهري، وتدفع بي نحو السجادة الحمراء على الأرض.

- إركع!

- تقدم!

- إركع!

- تقدم!

اللهم لا أركع إلا لك، لكني سقطت على الأرض في عاصفة الضحك والإستنكار. زحفت أمامي، حبوت كطفل إبن عامه... كنت، رغم هذا محظوظًا لأن حجابا من مساحات شاسعة ينسدل بيني وبين أهلي وأصحابي. سأموت لو أن أحدا منهم شاهدني أزحف! وهذه الصفوة تسخر مني وتضحك، وكأني مهرج السلطان، أو قرد يرقص.

- قف!

وقفت وأنا أحمل خرجي بينما لساني وعقلي ماعتما يتمسحان باسم سيد هذا

Twitter: @ketab_n

الطاغية الأرعن. الله!

- ماذا تحمل في هذا الخرج؟

فتلكأت قليلا ثم واتتني الجرأة.

- معدات صلاتي وبعض المال...

وارتفعت أصوات مستنكرة تأمرني

- قل يا مولاي! قل يا مولاي!

فوجهت أفكاري إلى ربي وهمست.

- يا مولاي!

وضع الكاس الذهب أمامه وقال والزهو يسيل من فمه مختلطًا بلعابه.

- أأنت شلومو إبن يهودا الكردي اليهودي الصبلاخي؟

- إني هو...

فتعالت ثانية الأصوات.

- قل يا مولاي! قل يا مولاي!

وأخرى توجهت بأفكاري إلى ربي وقلت.

- يا مولاي!

رصن وجه القجاري، وقال:

- بلغني أنك تحرض في كردستان على الثورة والعصيان!

لم أتمالك نفسي فضحكت. صرخ وحاشيته من خلفه كصداه.

- إخرس وتأدب..!

وخرست وتأدبت، من شيمي أن أترفع على غير المتأدبين من خلق الله. كلا. ذاك شيء آخر، فحين أشتمك يوم السبت، فإني أفعل هذا غيرة على تحديك وصايا الله جل جلاله، أما القجاري فكان يتطاول على شخصي أنا، وصمت مترفعًا عن ذاته، هذا الطبل الأجوف، وفي تلك اللحظة، نسيت أهلي وأصحابي وصبلاخ بلدي، وترفعًا عن تشدقه، عقلت لساني، لكنه عاد وضرب طبله ضربة همجية طرقت أذني وخدشت سمعي.

- هيا تكلم! ما قولك فيما سمعت، ولماذا خرست فجأة؟

Twitter: @ketab_n

- طلبت مني أن أخرس فخرست.

وتعالت الأصوات.

- قل يا مولاي..! قل يا مولاي!

فقلتها وأنا أقصد ربي، فعاد يقول

- أنت تحرض الأكراد على العصيان والثورة على المُلْك...

- إني يا ... «مولاي» يهودي تاجر لا شأن له بأمور الملك والسلطة!

- أوتكذب يا هذا في حضرة مولاك؟!

فأخرجت من الخرج «تفليمي» وقلت لأبريء نفسي من هذه الفرية

- هذا يا «مولاي» اسم الله، وبه أقسم على أني لم أحرض أحدا بل ولم أتكلم يومًا مع أحد بشؤون الدولة... وأن..

فقاطعني وهو يتميز غضبًا.

- لا تقسم، فتكذب على ربك يا هذا! أفتنكر أنك تبيع للأكراد سلاحًا جئت به من روسيا؟

- إني أتاجر...

قاطعني ثانية، وقد هبت في جوفه زوبعة، فراح يتأرجح فوق العرش.

- تتاجر يا أبن الملعونة! مائة طبنجة وبنادق شتى وأنت تعرف أن أربعين قطعة سلاح تكفي لإعلان العصيان؟!

- لم يخطر هذا على بالي يا ... «مولاي!»

تأمل الشاه الأرعن ما قلته ساعة، ثم قال مشيرا بصولجانه إلي،

- لعلك في هذا صادق، فلولا أنك يهودي وينحصر تفكيرك في المال وحده، لأمرت الآن بتعليقك في الشارع العام، لكني لن أتخلى عن تأديبك، كي لا يعمي المال بصيرتك في المستقبل، إختر إذن ما بين خمسين جلدة عصا مرنة، وبين مئة جلدة عصا جافة!

هو الموت إذن، لم يتخل عنه لكنه اختاره بطريقة أكثر إيلامًا من التعليق، بيد أني كردي وعنيد، إن جسمي الفارع الهائل سروة منتصبة نشأت على أرض كردستان، بلوطة لن تقصمها أعتى زوابع الكون، وجناني قدٌ من صخر بلد نشأت

Twitter: @ketab_n

في أحضانه، فهو ليس برعديد، إنه لا يخفق خوفا بل حنقًا على هذا الظالم المعتوه الجالس على عرشه يتلاعب برقاب رعيته ويطوح بها من غير وجه حق. إنه يهين العدل في شخصي ويجسِّد في بدني ظلمه واستبداده، لم أعبأ بخياريه، عرفت فقط أني سأتحدى هذا الموت المفروض بتحدي القجاري. ثارت بي النخوة والغضب الكرديين.

– لا بل أختر بنفسك الميتة التي أعددتها لي، فبعون الله سأخرج منها حياً

جن جنونه. لدغني الشرر المتطاير من عينيه، إنبعث لغط مستنكر غمر القاعة، وأحسست ببعض تراجع. تصورت أن تحدّيَ سيكلفني عمري بالفعل، وصرخ القجاري وهو يريق خمره في بطنه وكأنه يريق فيه دمي.

– إجلدوه بهذه العصا المرنة خمسين جلدة، وبالجافة مئة جلدة، وافعلوا هذا أمامي هنا في الحال!

عاد إلي أهلي وبيتي، صبلاخ بمنازلها وحواريها وجنائنها وعيونها وزرقة سمائها ووديانها وهضابها.. جاء كل هذا إلى قصر الشاه وانتصب قدامي، زلزلت الصخرة بين جنبي قليلا ثم هدأت. كان الله أمامي وورائي، كان فوقي ومن حولي، وكنت مبتلعا بغشاء واق من ظله سبحانه، وآمنت بصمودي المستوحى من إيماني به ووقوفي في وجه الظلم، نزعت عني ثيابي العليا، لكني تشبثت بمعدات صلاتي، أمسكت بها وعليها اسم الله، وتركت المال في الخرج بجواري وسط حضرة الشاه وهو يتسلى الآن بتعذيبي، وسيمزج بخمرته الدم الذي سينزف من ظهري، وحين سأفقد وعيي تحت وطأة الضربات، فسوف لا أسمع قهقهته الملتذة بآلامي وها أنذا الآن أتلقى أول ضربة عصا جافة، أسمعها تلعلع على ظهري. وهذا صراخ المي ينبث بكياني، وكتمت الصرخة، وكتمت الأخرى... والأخرى... والأخرى. إني صامد وحق عينيك يا استير، لا بل وحياتك الغالية عندي يا أسمر، يا أم أولادي. إن شيئًا يتحطم خلفي. أهي عصا الجلاد أم ظهري؟! التبس الأمر علي. كان ظهري بحرا من ألم طافح بدمي... لا بل إن العصا هي التي انكسرت. عصا الشاه الجافة. مرحى! عصاه انكسرت على ظهري المسكين! إني ألهث... لم أفقد الوعي بعد ولكني غارق في بحر أوجاعي، أسمع

Twitter: @ketab_n

مع صرخات بدني المكلوم صوتا آخر مجنونا يهتف

– هاتوا العصا المرنة! العصا المرنة في الحال!

العصا المرنة، رطبة تقطر ماء وتفج الهواء وتبصق على ظهري آلامًا ودماء. الهواء توجع وتوجع ظهري، والشاه يضحك، وبطانته تضحك. إبليس يضحك. الظلم يضحك. الطغيان يضحك. ظهري يتألم. قلبي. أفكاري. أنفاسي تلهث. حنجرتي تحبس آهاتي. ظهري يبكي دما. أفكاري تتضبب. الشاه يضحك، الشاه يغضب. فلماذا لا أصرخ؟! ولماذا لا أتوسل؟! لماذا لا أسقط؟! لماذا لا أنهار؟! إضرب! إجلد! بضراوة إضرب. صرخة ألم أولى! اللعنة عليك يا ألم فإنك أقوى الأشياء. اللعنة عليك يا قجاري فأنت الضعف الطاغي! وأنت التفاهة والجبروت! أنت اللعنة بذاتك! أخ! إني لا أحصي الضربات، لكني وإياها أمضي إلى نفق دامس. الحلكة تتكاثف، الغيم يلبد رأسي. سحب سوداء. ثم لا شيء! لا شيء!

أين أنا؟ فتحت عيني. حاولت أن أتحرك فبرحني ألم حاد. ظهري كتلة من شيء يدعى «الألم القاتل» وأنا مبطوح على بطني، رفعت عيني فرأيت القضبان مددت يدي وتحسست بطانية على الأرض. الخرج! خرجي! تذكرت. صصيدي! تفليمي! مصحف صلواتي! صرة وصرة أخرى! لم يعبث الأوغاد بديني ومالي. رغم الأوجاع المجنونة، أحسست ببعض الراحة، ورغم نباح ظهري المسعور، جاءتني إشارة من ثغري. جفاف في حلقي، مرارة في فمي.. الظمأ قد شقق شفتي. هل من أحد يسمعني؟.. انجدوني بقطرة ماء! لا بل من الأوْلى أن أبدأ بشكر مولاي... ربي من نجاني وأبقاني حيا، الحمد لله! الحمد لله.! ما اليوم؟ وكم مر علي هنا؟! ومنذ متى لم أقض فريضة صلاتي؟ ظهري! فمي! ألمي! عطشي! أسمر! أستير! أولادي! أهلي وأصحابي! هل من أحد يسمعني؟! هاتوا لي جرعة ماء! هيهات، فأنا بالكاد أسمع صوتي. مع ذلك فيخيل لي أني أسمع وقع أقدام. بل أسمع أيضا دورات المفتاح في قفل باب الزنزانة، وهذا صرير الباب، أرفع بحذر رأسي. هذا كوز الماء يحمله الحارس وهذا رجل معه يحمل حقيبة. يجثو الحارس قدامي والرجل الآخر يجثو ورائي، الحارس يسقيني، والآخر يكشف شيئا عن ظهري. يجسّ ظهري، ظهري كلب مسعور، أوار من نار... ثم أحس

Twitter: @ketab_n

بأشياء باردة تذرى فوق هذه النار، تخمد النار قليلا. الكلب المسعور يخفت صوته، طبيب! طبيب.. !هذا طبيب.. !يأتون الي بطبيب ليداويني! أفيخافون أن أقضي نحبي؟! أم أن الله الهمهم العدل ليبقي علي؟!

آه.. شربت.. خفت آلامي.. وبالصوت الواهن سألت.

– كم مر علي هنا؟

قال الحارس.

– أنت هنا منذ البارحة.

وسمعت الطبيب يقول بغبطة.

– ها أنت تتكلم! وسآمر لك بطعام خفيف يقويك.

صحت:

– لا! لن آكل إلا الطعام «الكاشير»

ضحك وقال:

– نعرف هذا، وسنتدبر الأمر.

– كيف؟! كيف؟!

– سيتولى طعامك وأواني طعامك رجل دين يهودي إستدعيناه خصيصاً

أأصدقهم؟! ليس الأمر بعسير، فبوسعنا أن نعرف بعضنا بعضاً.

سأكلمه بالعبرية و«شماع يسرائيل» شهادتنا وإقرارنا بوحدانية الله، وبهذا سنحسم الأمر، إنهم يعلموننا هذا منذ المهد ونظل نردده حتى اللحد، واستغربت، ليس من هذا، بل من أمر القتلة استغربت. أفيهمهم أمري إلى حد الاهتمام بطعامي «الكاشير؟!» استدعاني القجاري الظالم من صبلاخ إلى طهران كي يروي ظمأه العدواني من نزف دمي.. أفيأمر لي بطبيب وبطعام كاشير؟! مفارقة لم أفهمها، وتصرف يصيب دماغي بالعسر، وبديهة إستنتاجي وذكائي بالاستغراب. فالشاه وبطانته هم اقرب بنظر أنفسهم من الآلهة، والناس في عرفهم أحقر من أن يثيرون فيهم حساً وشعوراً، فما بالك بكردي ويهودي ويتهمونه بالتحريض عليهم وبتعريض عروشهم المعبودة للتقويض؟! أمر لا يعقل. مكثت افكاري تلوكه وهو كحديد يأبى أن يتفتت أو حتى يلين، وإذ جاءني أكلي

Twitter: @ketab_n

وتبينت أنهم قد صدقوا، سألت اليهودي المتولي أمر طعامي عن جلية الأمر فقال.

– جاءني شخص من حاشية مولانا وأعطاني نقودًا وأمرني بتولي شؤون طعامك، مع التدقيق بأن يكون كما أَمرَتنا به شريعة موسى وهاورن!

إزدادت أفكاري عسرًا، وأُصيب ذكائي بامساك حاد. «من حاشية الشاه» يقول، فمن هذا؟ ولماذا؟ وسرعان ما جابهت المفارقة في عقلي ثانية وأنا في دَرَكِ العجز عن الشرح والتبرير فحتى إيماني هنا لم يقدر أن يفصل الأمر.. مكثت في حيرة لكني أقنعت نفسي أخيرا بأن يد ربي في الأمر، وهو سبحانه قد ألهم شخصًا ما بأن يرأف بي. ولكن من هذا الشخص «من حاشية الشاه؟...!» مع ألف أداة سؤال أخرى كابدت أمواج الحيرة العاتية أيامًا. وأنا مازلت في حبسي وقد خفت حدة آلامي، فانفكت بعض قيود حركتي، وإذا برجل كهل أشيب فارع ومهيب، يبتسم لي من خلف القضبان وهو يقول.

– أهلا بابن المرحوم أخي يهودا كتاني!

إزداد العسر الهضمي في معدة رأسي، وطفحت أمواج الحيرة حتى كدت أغرق فيها، فأنا لا أعرف عمًا لي في حاشية الشاه.

–إبن أخيك؟

– أنا جلال رافضي، من الحاشية الشاهنشاهية وكان المرحوم والدك بمثابة أخي، وقد خلصني يومًا من ضائقة مالية كادت تقضي علي، وجميله هذا لن أنساه مدى العمر!

انشطرت الدهشة في أعماقي نصفين. حظي النصف المتسائل عن «رجل الحاشية» المهتم بأمري، بالرد فتلاشى. أما النصف الآخر، فحبل بألف سؤال. أفيمكن للصُّدَفِ أن تتزامن على هذا الشكل الشبيه بالمعجزات؟ أتتشفع صنائع المرحوم أبي لي مرتين في رحلة واحدة؟! إني أعرف السفاحين جعفر وحسين أكبر، وحكايتهما، أما هذا الرجل؟ لم أسمع من والدي شيئا عن رجل يدعى جلال رافضي، أفيدين لأبي حقا؟ ولماذا اهتمامه هذا بي؟ أنقذني جلال آقا من شرودي وقال.

– إهتممت بالطبيب وبالطعام الكاشير، وسأهتم بخروجك من هنا.

Twitter: @ketab_n

ألف ليلة وليلة تعيش وتبعث هنا أمامي، أفحقا أحيا الآن في غياهب أسطورة؟

– كيف ومتى؟! .

– لقد ألقى بك الشاه إلى هنا ثم غادر طهران إلى سان بطرسبرغ، ليمضي بعض الصيف مع صديقه قيصر روسيا نيقولاي رومانوف.

– وكيف ستخرجني من هنا؟

– دعني أُكمل كلامي، سيمكث الشاه في روسيا نحو شهرين، ولما يعود ستكون قد غربت عن باله تماما.

– لكنك ستخرجني من هنا؟ أليس كذلك؟

– لقد أرسلني الله إليك لأخلصك من هنا ولأقضي دين المرحوم أبيك!

فتساءلت

– ومتى ستخرجني من هنا؟

كانت نظراته تتسللان عبر القضبان وكأنه يبحث عن شيء ما. ساورني إحساس بأنه يبحث عن خرجي - الدين والدنيا. كان الخرج ينحشر في زاوية الزنزانة، ونظرات جلال رافضي ذبابة تحوم هناك، حتى لأكاد أسمع طنينها.

وأخيرا قال وهو يبتلع ريقه:

– إسمع! إني أرد جميلا، ولن أُبقي لنفسي شيئا.

ضقت به ذرعاً وهتفت

– إن كنت ستخرجني حقا، فلماذا لا تخبرني، كيف ومتى؟

لكنه لم يعبأ بسؤالي، بل قال

– أعطيت للطبيب حقه، وأعطيت للحاخام اليهودي حقه، ويجب أن أضمن سكوت الحراس وأشتريهم وذوي الشأن ببعض النقود كي ينسوك إلى الأبد.

في سري ضحكت. إني تاجر وذكي. فش النصف الثاني المنتفخ من الدهشة المعتمل برأسي، عرفت الآن. هي ليست أسطورة إذن، ولكن ماذا يهمني إن كان بوسعي إفتداء نفسي؟!

– كم؟!

تلعثم جلال رافضي قليلا ثم قال:

Twitter: @ketab_n

– صدقني إني أرد جميلا، ولكن هل يرضيك أن أدفع لهؤلاء جميعًا من جيبي؟!

– سألتك كم؟

– لديك من المال صرتان.. اليس كذلك؟

هو ذا أنت كأبناء أكبر، لكن أبناء أكبر لم يفتروا على التاريخ.. ماذا يعنيني؟! فأنت لا تبحث عن ديني بل عن دنياي، وقد رد ابناء أكبر معروف أبي، بهاتين الصرتين، وأنت تريد أخذهما مقابل «المعروف» وقلت.

– أجل. هما صرتان من المال.

– قد تكفينا نفقات الطبيب، والطعام الكاشير، وإسكات الحراس وذوي الشأن.

لصوص أنتم وحق الله! ولقد كان بالإمكان أن تضيع الصرتان قبل وصولي إلى هذه الزنزانة، لكنك يا رافضي فضلت الإستئثار بهما لنفسك. الذئاب كثيرة هنا، وببلاط الشاه تتربع عصابة الصفوة، يترأسها من ملأ خزائنه بكنوز سرقها من عرق شعوب إيران وكدحها! وسواء عرفت أبي أو لم تعرفه، وسواء أسدى لك المعروف الذي تتحدث عنه، أو أن هذا محض حديث خرافة، فإنك بذكائك عرفت كيف تحافظ على مالي وإبقائه عندي لتأخذه مني من بعد، مصروراً لم ينل منه أحد غيرك قراضة فضة واحدة. تألمت فأنا تاجر وأكذب لو قلت أن رحلاتي، وقطْعي الطرقات الوعرة الشاقة هي مجرد حب لخوض مغامرة، لا بل إني أُحب المال، فهذا المال قد رفع من شأني وحباني وأهلي ببحبوحة العيش. وستأتي أيام تحرق الأخضر واليابس وسأستعمله في إنقاذ أُناس حين يجف ضرع الدنيا فيموت جوعا من ينجو من حد السيف وقذيفة المدفع، تألمت لكني فكرت بنجاتي، وقلت لجلال الرافضي.

– نقودي تحت أمرك، لكني أرجو منك أمرين.

نطقت سحنة الرجل الكهل بفرحة عجز عن مداراتها عني وقال.

– قل يا أبن أخي فأنا مدين لك بمعروف المرحوم أبيك.

– أن تعمل على إطلاق سراحي، وأن تترك لي من هذا المال ما يكفيني لحين وصولي إلى أهلي في صبلاخ.

– سيكون هذا لك بعون الله.

Twitter: @ketab_n

ولمعت عيناه ثم أردف.

- والآن هبني الصرتين لأباشر بهما رد جميل المرحوم أبيك.

الفرحة أم الغصة؟ المال ضاع لكني مازلت رهينة الشاهنشاه المتربع الآن مع طاغية روسيا في سان بطرسبرغ. أتراه قد وصلها، وهل سيفي جلال بوعده؟ وهل سيمن علي بفتاتة من مالي، كمحسن يتصدق على متسول؟ وهل سأعود وأتجول في أسواقك يا طهران ومرآى خيراتك يُسيل لعابي؟ إذ يمنعني إفلاسي المفروض علي من أن أغترف، الآن، من هذه الخيرات؟! تحسرت لكن أسمر إنتصبت قدامي. قالت وكأنها تذرف عبرات القلب الملهوف.

- تفديك أموال الدنيا، فعد إلينا فنحن نريدك أنت!

أجل، حياتي وأحبائي والدنيا، أين كل هذا من صرتين ما كنت لأحلم بهما؟! حقا ما أغباك يا شلومو! أشكر ربك وانتظر مقدم الرجل الشهم، من سيرد لك حياتك وأحباءك والدنيا بقليل من مال. إذ مهما يكن، فلا ريب أن جلالاً رجل شهم. أفلم يداوِك ويهتم بأكلك؟ وها هو ذا يبر بوعده ويأتي بمفتاح الزنزانة وبليرة ذهبية كاملة. ثم هذا حصاني في الخارج وكأنه، بل هو فعلا قد خرج في التو من الاصطبلات الشاهنشاهية... والسوق قريب، فسأكحل عيني بخيراته وأشتري منه الزاد وهدايا لأهل بيتي ولأسمر ولأولادي ولعروسي الغنجة، إستير.

ولك ألف شكر وتحياتي يا رافضي.. يا من أنقذني من عرين الأسد الشاهنشاهي.

Twitter: @ketab_n

صبلاخ، خريف ذلك العام

مر شهران مذ عاد من طهران، سمع برجوع الشاه من سان بطرسبرغ، فخفق قلبه خفقة الخوف، إلا أن هواجسه لم تتحقق، صدق جلال رافضي فلم يعد الشاه إلى استدعائه، فيقينا، قد اكتفى بعقابه، أو ذاب من ذاكرته مع ثلوج روسيا وإيران واحترق مع مغامرات فاحشة حمراء خاضها الطاغية الإيراني مع قيصر روسيا الطاغية الآخر، الآن تسير الأمور كمياه الشلالات، ويتوهج اسمه في البلدة كماسة كريمة خالية من كل شائبة، أو خبث. لا شيء ينغص صفوه عدا كونه قد أصبح زوجا لامرأتين، وحين عاد من رحلة الموت إلى طهران وصلت الأخبار إلى صبلاخ، وهو بعد على مشارفها، فخرج لاستقباله أهل صبلاخ برمتهم لكنه بحث عن إستير فلم يجد لها أثرًا، كان يحلم بأن يرى العروس الغضة على رأس من جاء لاستقباله ولم يمض على زواجهما، لو استثنينا فترة غيابه، غير يوم وبعض يوم، فرحته بأسمر والأولاد وبمحييه شابتها منغصة، فكأن حجرا منجرفا وسط ماء العين قد صدم وجدانه. إعتذرت اسمر عن إستير وقالت.

– يبدو أنها حامل وصغيرة، وقد بدأت تشكو وتتدلل!

لم يقبل هذا العذر، من أسمر، ثم سرعان ما اتضحت له أشياء أخرى، لام عليها نفسه وشكك، برجاحة عقله، وتمادى حتى كاد يدخل أسمر في دائرة اللوم والتقريع. سار إلى منزل متتياهو جونه وبادره بالقول.

– خرجت إستير عن طوعي وتركت بيت الزوجية من قبل أن أبتعد عن صبلاخ

فقال أبوها يداري ارتباكه وحياءه عن صهره.

– زوجتك حامل يا شلومو، فتقبل تبريكاتي وعاملها بالحسنى

فقال بعتاب

– وأنت لم تسْع حتى لاعادتها لبيتها يا عمي!

قال متتياهو.

– لا تظلمني يا شلومو، لقد سعيت وحاولت، لكن البنت صغيرة وعنيدة ولم تبلغ الرشد بعد.

فقال شلومو وهو يعض على شفتيه

Twitter: @ketab_n

- هذه طبيعتها، ولن تغيرها الأعوام مهما كبرت!

خفض والدها رأسه نحو الأرض وأفحم فتساءل شلومو إن كان بذاته أقل حمقا ونزقا من زوجته الثانية الغنجة، وعندما واجهها بفعلتها قالت:

- لن أسكن مع ضرة، فإمّا أن تطردها أو تهجرها أو أن تشتري لي بيتا يكون من أضخم بيوت صبلاخ!

إحتدم في شلومو غضب عارم. إن الصبية شكسة ومغرورة فضلا عن كونها رعناء وقال بإصرار

- أسمر من جاءت بك من هذا البيت أما أنا، فسأتركك فيه وأمضي لبيتي إلى غير رجعة.

فزع الأب وانتحبت استير ولم يجدِ اعتذارهما نفعا عند شلومو. قال متتياهو أشياء كثيرة: استير طفلة غريرة! الجنين الذي ينمو في رحمها! وإن الإنسان غير معصوم من أن يخطيء! وتوسلت هي ثم أقرت بالذنب، لكن شلومو أصر.

- بل هو الطلاق ولا شيء سواه!

وتدخلت أسمر مرة أخرى قائلة.

- قد وافقت البنت على العودة إلى البيت وأبدت ندمها بعد أن اعترفت بذنبها فسامحها، إذ إني لا أكن لها حقداً ولن أغفر لنفسي إذا لم تعدها يا شلومو!

قال وكأنه يخاطب نفسه، كالعارف بما يخفيه الغد.

- لو كان الأمر سينتهي عند هذا الحد...

قالت:

- دع هذا علي فأنا كفيلة بعلاجه، أما أنت فلا تنغص على نفسك أبداً

لان عناده أمام شفاعة أسمر، لكنه تنبأ بمنغصات آتية كان البيت بغنى عنها. وقال لنفسه" مهما حدث، فستظل الصبية حمقاء ولن نجني من حمقها إلا وبالاً".

إلا أن البيت هدأ فترة وكانت أسمر ترعى أستير المنشغلة بحملها ووحامها، عادت السعادة تعمر قلب شلومو، الحظ غير مكشر، والله سبحانه يحبّه. لا ريب أنه يهديه سواء السبل وييسر أعماله له وينجيه من المحن، والتجارة رابحة مع سمعة تتألق كالنجم في ليل صاف، والكل يغمره بمحبته، محبوب في البيت،

Twitter: @ketab_n

ومحبوب خارج بيته، ولا يكترث بالبنت الجارة ألماس إبنة الصائغ، التي ترمقه بغرور ومهانة كما ترمق الناس جميعاً، وكأنها تعلن للملأ «من أنتم فتسيرون على الأرض منتصبي القامة؟! إن هذه الأرض قد خلقت لي وحدي لأختال عليها كالطاووس!» كان يراها فيقول ما فائدتها وهي لا تفعل في الدنيا شيئًا غير أن تأكل وتشرب وتنام وتنظر إلى نفسها من خلال مرآة تضخمها وتقلص الناس بعينيها وتجعلهم بمحاذاتها في حجم وأشكال الحشرات؟! كان يقول لنفسه أيضا «لن تتزوج هذه المغرورة ولن تدخل مجتمع الناس! لكن الدنيا خؤونة ولن ترحم أمثال ألماس!»

يسأله شريكه مير علي عن اهتمامه هذا المتمادي بأحوال الناس. فيُفحم فيه مشاعره الجياشة، ويضحك بحياء الأطفال، هذا الجذع الشامخ الصلب يتواضع أمام عواطفه الدافقة بحب المخلوقات. إخوانه.. أصحابه.. أحبائه.. ويأتيه الحاخام ناحوم وأخوه الحاخام ميخائيل ليقولا له.

- طائفتنا في صبلاخ المحروسة بعون الله، اختارتك عمدة لها ومسؤولاً عن الكنيس الكبير في البلدة!

عاوده حياء الأطفال فطأطأ رأسه وتلعثم، لكنه قال

- هذه الثقة التي أولتني إياها طائفتنا، يحفظها الله، لا تكفيها عبارات الشكر والعرفان، لكني صغير السن وثمة من هم أولى مني بتقلد هذا المنصب.

يمسح الحاخام ناحوم بيسراه على لحيته البيضاء، ويربت على كتف شلومو بيمناه ويقول.

- رب صغير يا ولدي فاق في الحكمة والعقل من هم أكبر منه بسنوات

ويمثل أمام شلومو زواجه من إستير فيهزأ سرًا من حكمته وعقله هذين لكنه يستدرك «لكني لا شك ماكر، فبهذا المكر خدعت الناس فباتوا يعتقدون حقا أني راجح العقل وحكيم» ويقول للحاخام ناحوم

- حاشا لله أن أكون أرجح عقلاً من أبناء طائفتنا، ما دمت والحاخام ميخائيل، أدام الله بقاءكما، من أبناء طائفة بلدتنا المحروسة.

فيعود الحاخام ناحوم ويربت على كتف شلومو كتاني ويقول

Twitter: @ketab_n

- يكفينا معالجة شؤون الدين في صبلاخ يا ولدي، وإن كان اخي ميخائيل مازال غضا فأنا شيخ، والشيخوخة نصف الموت ياشلومو!

ويضحك ويضيف كالملتمس عذراً.

- فتول أنت شؤون دنيانا. أم انك تطمع بالدنيا والآخرة يا ولدي؟!

- لكن أعبائي كثيرة ومسؤولياتي أكثر!

يرمقه الحاخام ناحوم باستنكار مفتعل ويقول

- وهل تهرب من خدمة أبناء طائفتنا ورعاية كنيسنا يا ولدي؟! إن الناس تحبك فلا تخيب فيهم ظنا، وليكن المرحوم أبوك قدوة لك في كل فعالك وأحوالك.

اجل إن احدا لن يسمي رفضه هذا تواضعا، وعلاقاته العامة لن تعززّها إلا خدمة المجموع، وهو لن يبخل على أحد بتحية وبشاشة وجه، وهو يسعى لعمل الخير لكنه لم يتول بعد مهمة السهر على المصلحة العامة ورعاية كنيس صبلاخ. أدرك أن مشاغله تتضاعف، لكنه سيدلو من بئر ذاته ليسقي نبتة هذه الذات اليانعة في نظر الناس. ذاته! أفحقا هذا جلّ همه في الدنيا؟ لدى الناس والله معًا؟.. أفحقا أنه لا يفعل شيئا إلا بدافع من أنانية هذه الذات، ولخدمة هذه الذات ولإرضاء الذات هذه؟ أفحتى الغيرية والإيثار أنانية؟ وحتى عمل الخير والشرف والنزاهة وخدمة الناس؟ وقال الحاخام ناحوم بدعابة وهو يحطم حاجز الصمت السائد

- لو رفضت يا ولدي فأنت أناني!

ضحك أبو سلمان الآن وقال

- يبدو أني أناني فعلا ولهذا سأقبل بما اختارته الطائفة لي.

جوابي هذا يلقى استحسان الحاخام ناحوم، فيعود ويلقي يده المعروقة على كتفي ويقول:

- إن كنت تظن أن خدمة الطائفة أنانية، فأنت من الأبرار المغمورين ممن يتحاشون الشهرة والشكر، ويفضلون عمل الخير سرًا وليس علانية.

حقا أن كل ما نفعله، ربما نفعله من اجل ذواتنا، حتى غيرتنا أنانية، أما ثقة الجمهور بك، فأحذر أن تنسيك تواضعك وتنفخك كمنطاد فتطير في الهواء. لكنك

Twitter: @ketab_n

تبالغ يا شلومو كتاني. أتتذكر أنك كنت أول من نسي ذاته وجازف بحياته يوم كان الصبي حسن بوزورك يسقط من الجبل إلى الحضيض فعلقت ثيابه في أغصان شجرة؟ يومئذ لم تكن قد تزوجت بعد ولا أنجبت أولادا. وهببت متفانيا لإنقاذ الصبي، ربطوك بحبل متين وأدلوك إلى شجرة البلوط حيث يواجه الولد موته ويميل مع الغصن المائل المنحني باستمرار نحو الحضيض. كنت أنت تريث الولد الخائف وتشجعه على الصمود وإذ وصلت إليه ضممته إلى صدرك وربطته بالحبل إليك، ولما عدتما إلى ساحل الأمان في أعلى الجبل تنفس كل منكما الصعداء، وكم كنت سعيدًا إذ أنقذت حياة حسن بوزورك، كنت سعيدا إذ ما اكثر ما نجوت ونجيت بمعونة الله؟! لم يتوقف لسانك عن القول «إن الله يحبني» وكنت محاطا بهالة الانبهار، أعمى لا ترى البركان الموشك على ذرف حممه، وأصمّ لا تسمع وعيده وهو يهمس لك ولصبلاخ بأسرها «انتظروا» كان الموت يتلمّظ بشهية، لكن ظلاله لم تكن بعد تلوح على الأوجه. كان الهول القادم كله في ذمة الغيب، وكان هم صبلاخ الآن، ينصب ككل عام على الشتاء المقترب، كانوا يعدون له ما استطاعوا من عدة. وتيرة حياة ورثها الخلف عن السلف، والإبن عن الأب. إن شتاء صبلاخ ظالم لا يرحم، وثلوجه في بعض الأحيان، تدفن تحتها الناس والبهائم والأبواب، أحيانا يضطر الناس إلى الاحتباس ببيوتهم أسبوعا أو أكثر، كانت الوطأة شديدة على فقراء البلدة، أما الأغنياء من أمثالك، يا أبا سلمان فكان للتحضير للشتاء عندهم طقوس ادعى للفرح والمتعة من الهم والحزن. إن مخازن الطعام في البيوت تمتلئ بالطعام، وتنشغل النساء بإعداد المربيات من شتى الأصناف، فتخزن هي الأخرى ببراني وبواطي خزفية خضراء، لتنضم إلى براني السمن والدبس والزيت والشيرج وغيرها، وتذبح العجول لتصنع من لحومها القلية وتختزن أيضا ببران يحتفظ بها تحت الأرض. طقوس التحضير لمؤونة الشتاء هي طقوس المقدرة والخير والرفاه أما الطيور من دجاج وبط وغيرها فتبقى في أقنانها وتذبح عند الحاجة، الأسماك فقط، التي غالبا ما يؤتى بها من بحر رضائيه أو قزوين تقل عادة في الشتاء، وكان شلومو كتاني لا يحب الأسماك المملحة والمجففة المتوفرة في الشتاء بل السمك الطازج وحده فكان يبذل

Twitter: @ketab_n

قروشا مضاعفة ليحصل على سمكة «سفيد» طازجة، المؤونة، حركة دؤوب. طقوس احتفالية يشارك فيها كل أهل البيت. تعلو أصوات أسمر وقشنك وتعلو أيضا أصوات الأولاد. حتى صوت أبي سلمان. استير وحدها حامل وتتوحم، يسأل عن إستير، ويريد أن تشارك في الجلبة، فتعتذر عنها أسمر وتقول «دعها فانها حامل وعذرها معها!» فلتشرف إذن على الذبح والطهي وادخال الأكياس الكثيرة القادمة من الخارج، أحيانا ترمقنا أعين بشرية بحسرة لكني أبدا أعدّ لها ما يسكت حسرتها. وشعوري بالراحة يمتد أحيانا حتى موسكو، ويبلغ أيضا قصر الشاه في طهران. لا أحلم بأكثر مما أنا فيه. أشكر ربي ولا أتمنى عليه سوى ان يديم النعمة ولا يرفع عين رعايته عنا. إعتزازي لا حد له، ففي سني المبكرة هذه حظيت بمال وبنين ومحبة وأصبحت عمدة الطائفة المختار بل ودعيت بزوج الإمرأتين. اختال فخرا وأحس بأن الشاه عبد لي. وأتنزه بين رحاب نفسي فأراها جنائن زهور فوّاحة مختلفة الألوان لكني حين أسير بين الناس وأحيِّيهم ويحيونني، أغض الطرف وأرتبك وينتابني بعض حياء، فكيف أصبحت عمدة القوم وأنا أصغر صفوة الطائفة سنا؟! أترحم على المرحوم أبي فهو من علمني ألا أخطو إلا بحساب وأرى ماذا سيلد القدر ولكن أكنت حقا أعرف ماذا سيتمخض عنه الغيب ونحن على أبواب شتاء قارس والحرب شبت بعيدا عنا وأيران لا تدخل حربا لا صلة بها تربطها؟ عميتُ عن هذا، وعمي الناس معي. ضرب القدر بيني وبين المستقبل ستارا وقال في سره «مفاجأة ستكون» ضحك أيضا. أراد أن يختبر الناس. راهن على أن الإنسان مجنون وبعيدا في أوربا كانت تدوي الطلقات، وحتى صبلاخ النائية المسالمة المسكينة سوف لا تسلم من هذه الطلقات ومن الموت.

كيف لم نعرف؟ ولماذا كان لابد للعنة أن تشمل بلدتنا الوادعة صبلاخ؟!

* * *

Twitter: @ketab_n

الربيع!

يقول الزمن لي - أنا الراوي - إن هذا عام الحسم، عام أهم من صبلاخ ومن شلومو كتاني. إنه عام دقت فيه لأول مرة طبول حرب البشرية وهي تسري كالمد الجارف نحو العالم كله...

أقول للزمن: بل هي قصة شلومو كتاني وصبلاخ، كانت صبلاخ بمنأى عن مسرح الأحداث، كانت تحقق ذاتها في البئر والجبل والنبع والبستان، وبالأهل البسطاء، والتجار والفقراء. جونه وكتاني ومير علي وبوزورك. بعيدا عما يحدث في الدنيا. نائية مدسوسة بين دول شتى، كأنها منسية صبلاخ ويتنافس فيها على السلطة شقيقان...

يقاطعنا شلومو كتاني وهو يبتسم بسمته الهادئة المشتملة على معان شتى، يبهت بعضها ويحتد بعضها الآخر، حسب الحدث والظرف.

هما ابنا حاجي زادهْ. ولي ومرتضى ولولاهما - كما يخيل لي - ما كانت ستأكل أمواتها صبلاخ عند المجاعة الكبرى. وكان ولي طويلا عريضا. جبلا من شحم يعترض سحنته الصارمة، شاربان كرمحين مشرعين إلى الجانبين، وكان منظره يكشف عن دخيلته الظالمة.

في أول الأمر تعكرتْ طلعتك الصافية يا أبا سلمان وأنت تتذكر السفاح، ثم فجأة تمسح ابتسامتك الكدر العالق كغبار بتقاطيع وجهك ويحلّ الصفاء مع الضحكة الخفيفة.

مازلت أذكر ذلك اليوم، أذكر تفاصيله. لكني لا استطيع تحديد موقعه من الزمن. لا أدري أكانت الحرب قد نشبت أو كادت. أجل، أجل. كانت إستير قد ولدت لي «ناحوم.» باسم الحاخام الصالح سميته، الحاخام المحبوب في كل صبلاخ وكان ذلك أسبوعا حفظه تاريخ صبلاخ وأقيمت فيه الأفراح ونقشت لياليه بذاكرة أهل البلدة، حتى أضحى تاريخا يشيرون إليه ويتذكرون معه حادث المشاحنة بين الأخوين، فيقولون «كان ذلك بعد أسبوع ناحوم إبن شلومو كتاني،

Twitter: @ketab_n

بفترة قصيرة» يوم «الطولة...» الإصطبل!

تدمع عيناك بعد الضحكة وانفراج الطلعة.

لا! لا! يعترض الزمن - إنكما تخونان الأحداث والتاريخ، وتخلطان بين الأشياء، فدعوني أروي بنفسي.

بل لنرو كلنا معا، مثلما جرى الإتفاق بيننا من قبل.

إن كل حادث، جلل، وكل يوم نفثه القدر من كوره، كتلة ملتهبة حامية، برغم الأفراح و«الليالي الملاح!»

وفتل ولي حاجي زادة شاربيه المدببين، في مكانه المبجَّل بـ«القائماقاميّة» وقال «لا يوجد هنا من الشاه الفارسي سوى إسمه ورايته وفرماناته. إذ لا خدمات تقدم لصبلاخ. ولا اصلاح، لا سيادة فعلية للفرس هنا، فنحن أكراد واذربيجانيون وسُنّةَ: وهم إيرانيون شيعة!» واعتدل في مجلسه ورأى بأم عينيه أطراف شاربيه تكاد تمتد إلى أرجاء الدنيا فعاد يقول «إني أنا صبلاخ، وصبلاخ أنا!»

أجل، أجل! الأخبار منذ زمن تتناهى عن قيام الحرب. قد كبر أبو سلمان، فليس دائما تسعفه الذاكرة. أفتذكر يوم كنت وشريكك مير علي في موسكو، فرأيتما جنود القيصر تملأ الشوارع كأسراب الجراد. قال مير علي.

- يبدو أنها الحرب.

وفكر شلومو كتاني بالأحباء في صبلاخ. وفكر بأسمر والأولاد وبكل الأحباء في صبلاخ وقال.

- آمل ألا تدخل إيران الحرب...

صحيح أن الشاه صديق القيصر، لكن القيصر يحارب الإسلام، ويتطاول على الخليفة في اسلامبول. إيران لن تقحم نفسها في حرب لا شأن لها بها، وصبلاخ في أقصى الدنيا، ونحن لا نرى ممثلي السلطة في طهران أكثر من مرة في العام... وبيضة الديك خرافة تتحقق في صبلاخ.

- لا بل أنا صبلاخ، وصبلاخ أنا.

أطلقها ولي حاجي زاده، وهو يجمع من حوله الأجلاف والمجرمين، وحتى

Twitter: @ketab_n

السفاحين جعفر وحسين أكبر، أصبحا من أعوانه. وكان مرتضى يجلس في شرفة قصره المطلة على بساتين صبلاخ، ويحلم هو الآخر بالسلطة، وكان رضا علي يحاور الشيطان عن فاطمة والجمر في أحشائه، يقتل في مخيلته أخاه الغائب مير، ويلغي الأولاد محمد وأحمد وحميد... والشيطان يهمس في أذنيه «تحرك فماذا تنتظر؟!»

- لا. لا إني خائف.

«جبان! أنت جبان» قال الشيطان وهو يرمق رضا علي الشاب المتيم بنظرة إغراء.

وقال مرتضى حاجي زادة لنفسه وهو في الشرفة، «جبان! جبان! أخي يحاول أن يستأثر بالسلطة. أخي الذي ولدته أمي من صلب أبي!» وقام وقد قدحت عيناه شررًا، وكَرَمْيَة أحسن راميها تصويبها انطلق نحو أخيه...

واهتزت طاولة ولي من قبضة مرتضى، واهتزت أعصاب الشقيق الجالس، وتذبذب شارباه، أما الأخ الواقف فتبلع ريقه وهتف.

- أريد أن أشاركك السلطة!

وداري ولي أعصابه المُسْتَفزة وجارى أخاه فتبلع ريقه ثم قال.

- أخفض صوتك فللشاه عيون، وأنا بنظر القانون مازلت عامل الملك الجالس في طهران.

- ماذا تعني؟!

- أعني أني لم أبلغ السلطة بعد، فتطالبني بقسط منها؟

فصاح مرتضى حاجي زادة.

- بل أنت القائم الفعلي على شؤون صبلاخ.

- أصمت، وإلاّ فسيذهب كلانا إلى طهران ليعلق على حبل المشنقة في ميدان الطوبخانة.

- هيهات! فالحرب الكونية تدور رحاها، والفوضى تعم أطراف الدولة.

- لا تنس أن إيران على الحياد، وأن بوسع الشاه أن يرسل عشرة من جنوده ويقودنا إلى طهران مكبلين بالسلاسل!

Twitter: @ketab_n

- هيهات! أفتنسى صبلاخ كيف ارتعدت فرائص أحمد شاه حين نمى إلى سمعه أن شلومو كتاني يتاجر بالسلاح؟!

يومئذ أعلنها بصراحة فجلجلت لها جنبات القصر «العامر» في طهران. تكفي بصبلاخ بندقيات معدودات لأحداث الثورة والعصيان، هي فكرة إذن! فكرة.. !وصاح مرتضى بأخيه ولي.

- أتسخر مني يا من ولدك البطن الذي ولدني، عوض أن تفسح لي تختك وتدعوني إلى الجلوس بجوارك؟!

أسفا إذن على الرحم الذي ضمنا معا، لكنني سأجعل تختك يتسع لنا نحن الاثنين.

وخرج. والحرب قد قامت، قامت الحرب في الدنيا وبنفوس الناس. كان الحكماء في صبلاخ يسمعون جعجعة المدافع من على بعد آلاف الأميال، كثير من الناس قالوا «نحن في منأى عن اللعنة!» وسارت الحياة، هي هي، لكن شلومو كتاني، سمع فجأة الدوي القادم من بعيد، فجمع أبناء الطائفة بكنيس صبلاخ وقال لهم.

- يا أهل الخير والحكمة، إننا نجد في توراتنا جوابا على كل شيء! وأمامنا سنون عجاف ستأكل الأخضر واليابس، ولا تبقي على شيء وإني لأشير عليكم بما أشاره سيدنا يوسف الصديق على المصريين وحكام مصر.

كان الحاخام ناحوم أول من استحسن قوله فربت على كتف الشاب الفارع وقال.

- نعم التشخيص ونعم الإشارة، فليكن لنا في السلف الصالح قدوة حسنة!

أفحم العاجزون، وما أكثرهم وانخسفوا في أعْماق الحيرة، فقال لهم أبو سلمان.

- لا ضير عليكم، فإن كان بيتي قد آوى الناس في أيام السلم، فسيكون في أيام الحرب بيتا تسعكم خيراته بأجمعكم...

سمع المتبصرون في صبلاخ طبول الحرب على أبواب بلدتهم، وسمع ولي حاجي زادة في خطوات أُخيه المبتعدة، دقات طبول حرب أخرى يعلنها الأخ

Twitter: @ketab_n

الصغير عليه، إذ هو يتهددني بتقاسم التخت معي بالقوة، والقوة سلاح. ومهما بلغت أنت من الضراوة والشدة، فبوسع رصاصة غادرة يصوبها إليك في غرة من أمرك، أن تجعل ضراوتك وشدتك مجرد حكايات يبدؤها الراوون بكلمة «كان..» ولا فرق بين من سيرويها معجباً كان أو كارهاً، صديقاً أو عدواً. وانفتل الشاربان وتدبب الطرفان، وانتصب الرمحان على وجه ينفث بصيص الشر والعدوان. وهتف في أعوانه والقائمِينَ على خدمته.

- اجمعوا لي كل أشرار المنطقة من قتلة وقطاع طرق وعيارين وشذاذ آفاق فإذا فوّتم أحدًا من أرذل الناس وأكثرهم إجرامًا، فوالله لأجلد رقابكم وأجعلكم طعامًا للطيور الجارحة.

إرتجف أحد الأعوان وسأل؟

- وكيف نعرفهم يا ولي نعمتنا يا ولي آقا؟!

زمجر ولي كالأسد الهصور.

- أيها الأحمق، ألا تعرف أن الرسالة تبان من عنوانها وأن الله خلق سيماءهم في وجوههم، جدوا لي كل جلف عملاق مفتول الساعدين موسوما بالوشم أصلع الرأس يدهن صلعته بالزيت حتى تتألق تحت وهج الشمس، وكل من شوهت الندبات وآثار الرصاص والسكاكين طلعته وجسمه وكل عبوس دميم الخلقة يوحي منظره بالشؤم ويذكر بمنكر ونكير.

فقال أحدهم

- لكن الله يا سيدي يضع القوة أحيانا في أحقر عباده وأرقّهم شكلا.

فحك ولي حاجي زاده رأسه وفتل شاربيه وقال.

- هاتوا لي إذن فضلاً عن كل من ذكرت، النحل والعقارب والأفاعي والذباب والناموس والبق!

وقال الصالحون المسالمون من أبناء صبلاخ متهامسين بحزن وأسى

- أسفا على دنيا تحشد فيها الأخوة لأخوتها كل أسلحة الدمار وتفتك ببعضها بعضًا

وكانوا يقصدون الجيوش المتحاربة، أما الأعوان ممن سمعوا وليا حاجي

Twitter: @ketab_n

زادة يطلق أوامره الغريبة فهمسوا.

- وهناك من يؤلب على أخيه فضلاً عن الحديد والنار، كل حشرة مؤذية وطير جارح وحيوان مفترس.

وضحكت الماس إبنة الصائغ وهي ترى الحركة الدائبة في البلدة، وأسرت لبعض الفتيات اللواتي نلن رضاها فأدخلتهن في عداد إمائها وجواريها، او رفعتهن إلى مصاف «الحاشية»

- كم يثير هؤلاء غثياني؟! لقد ألغوا كل ما فوق بطونهم فهم يعيشون لفروجهم ويجمعون طعامهم كالوحوش..! سحقا لهم فلقد ابتلاهم الله بالعورتين وجعلهما ملازمتين لهم كوجع الضرس.

فقالت لها واحدة من بنات الحاشية،

- لا تبالغي يا عزيزتي. فالطعام وقود الحياة، أما ذاك الشيء الآخر فقد خلقه الله للمحافظة على الجنس.

فردت الماس شامخة الأنف.

- ليشأ الله ما يحلو له، لكنني آنف من أن أترك أحدا يطؤني، ولا آكل إلا حين لا أقوى على الكلام، إننا نحن من نضع لأنفسنا أقدارنا، أما هذه الحشرات المليئة بها صبلاخ والدنيا، فقد جعلت مصائرها رهن الأقدار ثم قالت: تلك مشيئة الله!

وكانت الماس تحيا برأسها المفعم بالخيلاء، وولي حاجي زادة يحيا برأسه أيضا، وكان هذا الرأس ملبدًا بشهوات السلطة وقلبه ينبض بحب ذاته وصدره يستنشق أبخرة مشبعة بوساوس القتل والتدمير. وكان العالم كله يحشد معدات دماره، والماس تلغي مشاعرها البشرية وتختال بشعور واحد ينفخها كالمنطاد، ويحلق بها عاليًا في سماء ترى منها الناس أقزامًا صغار الأحجام. وكان شلومو كتاني يوفق بين نصفيه الأسفل والأعلى ويعامل كل إنسان بالعدل، ويفكر أيضا بالناس، واتخذ بنفسه من يوسف الصديق قدوة وأخذ يكتنز لسنين عجاف ستأكل اللحم وتلحس العظم. ولم يكتف بنصح أبناء طائفته بهذا، بل قال لشريكه مير علي، وهو يراه منهمكًا في جمع المال.

Twitter: @ketab_n

- إجمع الطعام لا المال يا مير. فإننا مقبلون على قحط شديد. العالم في حرب وحتى لو بقينا بمأمن منها، فالقحط والجوع كالمد الجارف لا يعرف حدودا.

وسواء سمع مير بنصيحة شلومو أو لم يسمع فان مرتضى حاجي زادة كان يندب صلة الرحم، يندب موتها ثم يغضب، ثم يصر على مشاركة أخيه السلطة. ولم يكن اقل شراً منه، لكن وليًا كان يتمتع بتلك السلطة ويحيط ذاته بهالة من القوة لم يكن هو يملكها، أو لعله كان أقل شرًا من ولي الظالم، لكن البنادق كانت حقائق تعيش في خيال غضبه، بيد أن غضبه كان يستعر على أرض جرداء، لا هشيم بها، ثم لم يلبث أن خمد تاركًا وراءه الرماد والأحباط والخيبة، وتساءل «كيف تسرعت في مجلس أخي، فبحت له بمطامحي في مشاركته السلطة؟! لكن عليه أن يفعل شيئا.» لام نفسه ثم اتهمها: «كلب! أنا حقا كالكلب الذي ينبح ولا يعض!» وجمع أخوه حثالات أشرار المنطقة وقطاع الطرق والأشرار وقال لهم.

- قد تحداني الكلب أخي، فوالله لأجعلن منه عبرة سيتحدث عنها الناس ويذكرها التاريخ بعد أكثر من سبعين عامًا، وستسطّر ببطون الكتب والمجلدات!

إختار ولي من أعرق مجرميه عشرة أشخاص طوالاً عراضًا عمالقة مفتولي السواعد والشوارب، صلع الرؤوس عور الأعين مزروعة أجسامهم بالوشم وبآثار الجروح. تُذَكِّرْ سحناتهم بالويل، غاضبين عبوسين، يحلمون بالشر ويفتشون عنه بشمعة. ينادون عليه... فإذا لم يخوضوا غماره، ماتوا!

جمع ولي هؤلاء العشرة وسلمهم سرج جواده الأشهب ولجامه وركابه وقال لهم.

- في الآن واللحظة، تقتحمون الدار على اللعين أخي مرتضى، فتسرجونه كحصاني وتلجمونه كحصاني وتقودونه في الطرقات كحصاني، وهو بفضل قوتكم وإرادتي سيسير معكم على أربع كحصاني، فتذهبون به وهو على هذه الحال إلى اصطبلاتي الخاصة، وتربطونه بمكان حصاني الأشهب، عند المذود، وتأمرونه بأن يأكل شعير حصاني، ثم يرد مورده، ويمكث هناك حتى يراه أهل صبلاخ، ويسمع بخبره القاصي والداني من الناس، ولو حرن أو عاند أو قاوم فهذا السوط وقوتكم كفيلان بتعليمه الطاعة والصمت.

Twitter: @ketab_n

هب الأجلاف الأشرار العشرة وانطلقوا يهتفون بصوت واحد وكل منهم يمسك بقطعة ذهب.

– السمع والطاعة يا مولانا ولي!

كان ذلك اليوم، يوم «الاصطبل» كما شاء له ولي حاجي زادة أن يكون. ويذكره أبو سلمان كلما ذكره، بابتسامة تعلو شفتيه، وربما ضحك ضحكة خفيفة، يذكره ثم لا يلبث أن يحلّق في سماء أفكار واجمة، أو يسبح في بحر ذكريات مكدرة، قرارها كأُفق اليم المضبب وكمائنه الأُجاج وحضيضه السحيق المطنب بالأهوال.

* * *

وكانت الشرارة تأكل أشجار الغابة. والغابة من لحم ودماء. والنار ملعونة قدحتها يدان. يد الشيطان ويد الإنسان. حرقَتْ عدوانية البشرية كل الأشياء. وانتشرت في المعمورة كالطاعون، وإيران حيادية، وصبلاخ جزء من حياد إيران. أعد ذوو الحزم العدة للمستقبل، فلقد ارتفعت الأسعار ونَدُرتْ السلع شيئًا، شيئًا، لكن أيًا من حكماء صبلاخ ولا حتى أشباه الأنبياء الأتقياء فيها لم يتكهن بأن صبلاخ الجميلة الوادعة ستسقط في فوهة رحى الحرب الملعونة. وأن الكماشة ستطبق عليها بطرفيها وامبراطورية روسيا القيصرية طرفًا من طرفي الكماشة. والعثمانيون والألمان طرفها الآخر... كماشة ظالمة ستعتصر صبلاخ ولن تتركها حتى تزهق فيها الروح.

ومن ذا سيروي القصة؟!

إنبرى الزمن سبّاقًا ومباهيًا «إني أنا الشاهد وأنا التاريخ وأنا الأحق بسَرْد الأحداث.»

واعترض الراوي يقول: بل أنا أعرف منك بخبايا نفوس الناس، وبصياغة الأحداث صياغة الفنّان المضفي عليها جمالية لا تعرفها أنت. إني فنان ولست بموثق. وأنا أقتحم أفكار الشخصيات ومشاعرها، فأقدمها للقارئ وليمة شهية.

«بل الفضل كله يرجع لي» قال أبو سلمان، شلومو الكردي فأنا بطل القصة. قد عشتها بمشاعري وبوجداني وأفكاري. شاهدًا وشريكًا، أروي الأحداث بأمانة وبدقة وبإخلاص أصف المشاعر والأفكار. فأنا الأحق في سرد الأحداث وإكمال

Twitter: @ketab_n

القصة.

إختصمنا نحن الثلاثة وطال بيننا الجدل وتناظرنا وأطنب كل مِنًا بميزاته وبمساويء الآخر، أبرز حسنات ذاته وطمس حسنات سواه.

حتى اتفقنا أخيرا على أن يشترك الثلاثة في رواية أحداث ووقائع صبلاخ كل في دوره، ومن منطلق رؤياه.

Twitter: @ketab_n

(الجولة الأولى)

تحمل إستير طفلها وبطنها مرتفع قليلا، وتمضي كل يوم إلى البستان، تمر بالعين، منتدى نساء صبلاخ. ترمقها النساء. نظراتهن مستهينة لائمة، لكنها أحيانًا تحمل لها بعض ما يكنه الناس لزوجها من تقدير. كبرت إستير عاما لكنها لم تبلغ الرشد. يذكرونها فيقولون «ما أصدق المثل عن ذيل الكلب!» إلا أن شلومو أثبت في هذا العام جدارة وكفاءة.. قالوا فيه «ما أحسن من اختارته الطائفة لإدارة شؤونها العلمانية..!» ومن النبع انتشرت التقولات في البلدة،

– قد حبلت إستير.. لم يمهلها حتى تتم رضاعة «ناحوم.»

– بمجرد أن انتهت فترة النفاس...

– سيكونان كالتوأمين.

– ولكن ما بال أسمر..؟

– لعل صيون كان «غاسل البطون.»

– لهذا تطوعت بنفسها وزوجته بأستير «المجنونة.»

– كفى! كفى! فأسمر ما فتنت في عز شبابها... لكن الله يرزق من يختاره..

– ويعطي الرمان للمحروم من الاسنان!

– ربما ما عاد شلومو يقرب أسمر منذ تزوج أستير الحمقاء!

أعرف إن أسمر عاقلة. صمتت على مضض وتبادلنا نظرات اشتملت على ما يعجز اللسان عن قوله... وبعد إطراقة قلت لها.

– كنت وستظلين الزوجة المفضلة يا «أم البنين.» والولدان والأبنة نعمة من عنده تعالى وناحوم رابعهم والخامس في الطريق... ولعله سيأتي إلينا مع غضب الله الحاصد بعباده كسنابل القمح!

أعرفت حقا يا أبا سلمان أم هي الذكريات قد ضمختها نفحات من الماضي – المستقبل، الكأداء؟ «كُبِستْ» أسمر ولم تعقل إستير. وأنت تجمع أعيان الطائفة في الكنيس وتحذرهم مما يخبئه الغيب، ومن الطلقة الأولى، فالطلقة الأولى

Twitter: @ketab_n

سيعقبها طلقات ينظمها ملك الموت عِقْدًا عملاقا ليقلده الالآف من أهل البلدة.

أأقول الحق؟ قد أوجست خيفة... لم تدخل إيران الحرب، لكن تركيا على الحدود، والعراق هو الآخر، وهو ولاية عثمانية، وهناك أيضا روسيا. النار منا قريبة.. والنار تمتد.. خاف الناس، وأنا عدت وحذرت شريكي مير. كان أولاده محمد وأحمد وحميد يلاعبون سلمان وصيون ومريم. أراهم فيخزني قلبي، لكن الحياة في صبلاخ تمضي وئيدةً، وعلى نفس وتيرتها، ولا تنغص عليها الأخبار القادمة من وراء الحدود ومعها نبوءات الشؤم.

ويومًا فاتحت جارنا عزريا الصائغ في أمر زواج ألْماس. وكنت بطبيعة احتكاكي بأبناء طائفتنا قد عرفت خيرة شبانها، وقلت لعزريا إن ابنته تكبر وإن بوسعي أن أمخض الصفوة، وصفوة الصفوة فآتيها بماسة التاج. ضحك الصائغ ضحكة إحباط ومرارة وقال.

- ماسة التاج تقبع على رأس الشاه بطهران، وياليتها ترضى بها.

- بمن ترضى إذن؟

- لا أدري، ولا أضمن لك أن ترضى بأحد، حتى ولو كان سيدنا موسى لو قام من قبره وعاد لشبابه.

يخجل أبو سلمان من سرد باقي القصة، يصطبغ وجهه بحمرة غيظ. ثم يتذكر ما سيؤول إليه أمر ألماس فيحزن ويضحك في آن.

مسكينة ألماس!

أجل، ألماس سمعت الحديث من غرفتها فاندفعت كالاعصار نحو شلومو كتاني، وبدون حياء بصقت في وجهه وهي تصرخ.

- لم يخلق بعد من يتدخل بشؤوني، فامض إلى زوجتيك، واهتم بمداواة العاقر والمجنونة، ولا تخض بأمور لا تجني منها إلا العار والخذلان!

الأب خرس، وأنا افحمت، ثم غادرت بيت جاري، ولم أعد بعد إليه أبدا.

وكان قلب رضا يلتهب بالنار المجوسية التي لا تخبو. النار الحرام، لا تطفئها أولى طلائع رياح الخريف الباردة الهابة من الجبل. ومازالت النظرات من زوجة أخيه تلفحها بناره، وهي لا تكتوي بها حسب بل وترتعد فرقًا ورهبة، إنها زوجة

Twitter: @ketab_n

وأم وشريفة، وهي تحب زوجها وأولادها والستر، وتخشى الفضيحة، فلو صرفتضح أمر رضا، فهي التي ستؤخذ بجرمه وتعاقب، وقد تكون هي المجرمة رغم براءتها فتغرق بالعار وبالدم وهي التي ستموت، إن الضحية هنا تؤخذ بجريمة الجلاد!

- أسمر!

همسة استغاثة مرهفة مذعورة.

- بوحي لزوجك!

- محال! محال! سيتهمني بأني شجعته، وسيجري دم الأخوة مدرارا.

- عندما تنطلق «الرصاصة» ستغدين في موقع اللاعودة!

- إني إذن محاصرة من كل جانب، وليرحمني الله!

فاطمة وصبلاخ! في منتديات الرجال، في البيوت، في ساحة البلدة، في الكنيس، والكنيسة والمسجد، وفي منتديات النساء قرب العين، وفي الخدور، يتحدثون عن «الحرب الكونية» التي تدور رحاها على الأبواب. كان الحديث عن هذا يحل محل الحديث عن يوم «الاصطبل»، وخلاف الأخوين حاجي زادة، وعن حسن بوزورك الذي شب عن الطوق وأخذ يغازل حسناوات البلد، فمالت له قلوب العذراوات، وليس فقط بفضل حسبه ونسبه ودار أبيه الفخمة بجوار بيت شلومو، بل ولأنه وسيم جميل، غض ومهندم، وهذه صفات فتنت النساء وخلبت ألبابهن في كل الأماكن والأزمان.

كان الرجل من أهل صبلاخ يقول لصحبه.

- إلحق، إني حبست بناتي في البيت خوفا عليهن من غواية إبن بوزورك ولأعترف بأني رغم تربيتهن على الشرف والعفة، فلا آمن أن تغلب ذلك فتنة حسن بوزورك وصفاته.

الآن أصبح عوض الحديث عن ابن بوزورك يتساءل.

- أترانا سنكتوي بنار هذه الحرب الضروس، وهي على قاب قوسين منا؟

وكان آخر يقول في الماضي وكأنه يتنبأ.

- لا أخال مرتضى يسكت على أخيه ولي، بعد فعلته الشنعاء فوالله لو كان لطخ

Twitter: @ketab_n

وجه مرتضى بروث البهائم أو بسلْح الإنسان، لكان ذلك أهون من فضيحة يوم الاصطبل، فالدم بسبب هذا يبلغ الركاب.

فأخذ الآن يتنبأ، ويقول.

– لن تمر هذه الحرب اللعينة مر الكرام بصبلاخ، وسأذكركم، أن الدماء ستجري في بلدتنا حتى تبلغ الاعناق!

ورهبة الغد غول يعتصر بيديه المتثلجتين القلوب، فتتجمد مع هواء طلائع الشتاء الزمهرير، ويعودون ويتداولون الأمر.

– لن يدخل الشاه هذه الحرب، إذ من تراه سيحارب؟ صديقه الجالس على عرش روسيا، أم خليفة الاسلام؟!

سأقول لهم، أنا شلومو كتاني.

– فاتكم أن صبلاخ الآمنة العزلاء، قد شاء الله لها أن تقع موقع اللقمة السائغة لهذا ولذاك، وأن حياد الحمل لا يلزم الذئاب، وفاتكم أيضا أننا بمثابة الجسر لكل من الطرفين المتنازعين للوصول إلى عقر دار عدوه، صبلاخ الجميلة المسالمة تغدو فجأة موقعا إستراتيجيا هاما لجيرانها المتخاصمين!

وكانت مؤونة الشتاء قد اختزنت بسراديب البيوت الميسرة، وهبت على صبلاخ العواصف الثلجية. اكتست الأشجار والبيوت والدروب بأكفان باردة ناصعة البياض واستيقظ الناس ذات صباح، فسمعوا في الخارج حركة غير معهودة، كما سمعوا لغطًا وحديثًا يرطن بلغة لم يفهمها إلا القليل، وكان شلومو كتاني من بين هذا القليل، وكان قد عاد قبل وقت غير طويل من آخر رحلة تجارية له من البلد الذي ينطق هذه اللغة... روسيا!

كان الذين يُصلُّونَ الفجر في المساجد والكنائس والكنُس من مسلمي ومسيحيي ويهود صبلاخ، أول من رأى المشاهد الغريبة، البلدة مكتظة بجنود غرباء يرتدون بزات الشتاء الصوفية ويرتدون «الكلاوات» الفرائية السوداء، ويرطنون بالروسية، رأى الراؤون كذلك المدافع والدبابات لأول مرة. إذ أن البندقية كانت أكبر سلاح شاهده من لم يترك بحياته صبلاخ. أما من سافر منهم إلى طهران فقد عرف «الطوب» أي المدفع. تسمر الشعر برؤوس الذاهبين

Twitter: @ketab_n

للصلاة، تجمدوا فوق الثلج، وذاب تحت أقدامهم المرتجفة هذا الجليد. إن هذه الغيلان الحديدية التي لم ترها صبلاخ الآمنة قبل الآن، تملأ ساحة البلدة وتخنق المنافذ وتسد الطرقات، وكان الجنود الغرباء يلغطون ويضحكون فيما بينهم، وكأن الأهالي بصبلاخ أشباح لا مرئية. كأن أهالي البلدة غرباء راحلون، والقادمون، الغرباء هم أهل صبلاخ المقيمون، كلا، كان من الواجب أن يؤخذ الصبلاخيون بالحسبان، إن أحدا لم يستشرهم بهذا الاقتحام المفاجيء، لم تطرق عليهم الأبواب ولم يستأذنوا بالدخول. لكننا لسنا بمدينة أشباح، هذه بلدتنا ومن حقنا التأثير على مجريات أمورها...

- أفحقا!؟

حمل شلومو كتاني صصيده وتفليمه ومصحف الصلوات، وفتح الباب. لم تكن الجلبة التي سمعها حلمًا حل عليه في نومه. فهاهي ذي الجلبة تتواصل وتشتد قرب الباب. أوجس خوفا من أن تتحقق نبوءاته، كان لا يستبعد أن ترغم صبلاخ على دخول رحى الحرب، لكن شلومو تردد عند الباب، ثم عاد أدراجه إلى خدري المرأتين، دخل بالبدء على أسمر. كانت أسمر رفيقة الرحلة، رحلة العمر، وتعيش حياته بكل دقائقها، استيقظت معه لكنها لم تنهض. قال لها إنه لم يتناول شيئًا قبل الصلاة، هكذا اعتادت أن تقوم بعد ذهابه فتوقظ قشنك وتعدان معًا طعام الفطور. وإذ عاد إلى الغرفة رمقته من مرقدها ثم همست:

- ما الخطب يا أبا سلمان؟

إرتبك قليلاً، تبلع ريقه وقح قحة صغيرة. لهث وكأنه عاد من تسلق طود. قال

- لا تخافي يا أسمر، لكن الله هو الأعلم بما سيحدث، وقلبي يحدثني بأن أمورًا ستقع، عدت لأشبع أنظاري برؤيتكم ولأُقبل الأولاد.

كالطارق حل على قلبها كلامه هذا. خافت بل جزعت، احتوت جزعها وهي تبتلع صرخة كادت تنفر من حنجرتها.

- لا تذهب! لا تذهب! ابق هنا يا أبا سلمان ولا تخرج!

وابتسم ابتسامته الهادئة المعهودة، انحنى على سلمان وطبع على جبينه قبلة، انحنى على صيون وقبله، انحنى على مريم، قبلها فتقلبت الطفلة وفتحت عينيها

Twitter: @ketab_n

وصاحت:

- بابا! بابا!

إنشغل بها عن الرد على أسمر، فعادت تقول أسمر،

- لا تذهب يا شلومو!

فطوق البنت الصغيرة وقال.

- مسؤوليتي فوق كل شيء، وربي من فوق يرعاني! إنه صاحبي وحارسي وملاذي!

... وملاذي! حين قالها لي رفع رأسه إلى السماء إلى حيث ربه. دمعت عيناه بخشوع، إنه يحيا الأحداث. ألف مرة نفض الماضي السحيق ترابه عن هيأته الميتة المتآكلة الدميمة وجاءه. كان شابا يافعا رغم تراكم أعباء السنين على بدنه، ولسعاتها الواضحة على طلعته، إنه الحاضر والماضي، يتجهم ويضحك. يخاف ويطمئن، يتساءل ثم يطرقه اليقين، هذا اليقين السائب الذي مازالت تصعده هذه الطلعة من أبخرة مستنقع الأحداث الآسنة المنتنة.

سرت إلى خدر الثانية. كانت نائمة. لم تشعر بدخولي، ناحوم بجانبها وليس في مهده. جسمها يكاد يطبق عليه ويكتم أنفاسه. غريرة. يقيناً لن يهمها ما يحدث. إنها تحلم الآن. حتى أنا زوجها لا تشعر بخطواتي وأنا أدخل. أزحت ذراعها عن وجه الطفل، قطبت وهي نائمة وتقلبت مع زفرة متذمرة. تحرك ناحوم ولم يستيقظ، كان الآن طليقا يتنفس بحرية، والآخر في رحمها نطفة، وهي نائمة لا تسمع اللغط الدائر في الخارج. غريرة..! غريرة! ناحوم! كيف تراك ستنشأ في كنف أم غريرة؟! لكني أبوك! أبوك..! ولو مت في غمرة هذه «الرحلة» المحفوفة بالأسرار والأخطار؟! باركت الطفل والأم والجنين الراقد في الرحم. خرجت من الخدر الثاني، أخرجت ساعتي من جلبابي. ساعتي الذهبية «أم الطمغة» ونظرت فيها فاستعجلت خطواتي واستعجلني وجداني... شعوري، صفعني بالمسؤولية. إني أنا السيد والخادم. إذا غفر لي أبناء طائفتي، تأخري عنهم، فلن أغفر أنا هذا لنفسي! لن أتفقد إذن الزريبة والاصطبل. لا بل تفقدتهما قبل أن أعود من الدرب، ماذا دهاني؟ لماذا أتصرف اليوم كمن يودع أهله ليرحل إلى غير

Twitter: @ketab_n

رجعة؟ ماذا هناك في الخارج يا أبا سلمان؟! الجلبة عند الباب وقد أخذ الظلام يتراجع. تجسدت الجلبة الآن، كشفت عن فحواها، جنود روس لاشك.

وخطا شلومو خطوات في عكس بيته. في الطريق المفضية إلى الكنيس. الصصيد والتفليم، تحت إبطه وصلوات تترى على لسانه وفي التو أدرك. النبوءة تحققت، فليعلم أهل صبلاخ إذن، أننا لم ننجُ من النار، وها نحن الآن في أول الطريق.

وصاح صائحهم.

- ياوري! ياوري!

سيماؤنا على وجوهنا وبأيدينا. إنها معدات الصلاة. يهودي! أينادونه أم مجرد يتفكهون؟! استدار وكلمهم، إنه يعرف الروسية، وهم يبحثون عمن يعرف الروسية. وهو المسؤول عن الطائفة وهم يريدون رؤساء الطوائف في البلدة، هذا، إذن من محاسن صدفهم، ومن مساوئ صدفه. امسكوا به «تعال إلى القائد!» الوقت يتشبث بخناقه «إلى الكنيس! لم يبق وقت!»

جاذبوه وجاذبهم! بالكلام سحبوه وبالكلام حاول أن يسحبهم.

- الناس في انتظاري هناك!

لا جدوى! إنها الأوامر العسكرية. قادوه إلى مقرهم المؤقت في ميدان البلدة. متى نصبوا الخيام وأعدوا مقرًا مؤقتا للقيادة؟

رأى هناك شيخ الإسلام وقس النصارى والحاخام ناحوم، والقائد الروسي يتكلم، والترجمان يترجم، يقول القائد أشياء لا يفهمها أهل صبلاخ، ويقول الترجمان كلامًا يفهمه كل أبناء صبلاخ. ولكن ما شأني أنا والحاخام ناحوم قد سبقني إلى هنا؟! المصلون الآن في الكنيس. لعل الحاخام ناحوم فتح الباب هناك، وهم لا ريب كقطيع بلا رعاة. والصلوات، يقينًا استحالت إلى أحاديث محرمة، وبيت الله غدا محفلا للسياسة الدولية ومجمعًا تتلى فيه أوامر جيش القيصر الروسي.

اللهم عفوك! غفرانك! اللهم رحمتك فأنت أرحم الراحمين.

أجل. أجل أنت كهل يا حاخام ناحوم، غبار السنين على جبينك وشعرك

Twitter: @ketab_n

مخضوب بجليد صبلاخ، ولكن لماذا تشير بعصاك إلي؟! أفلا يكفي أنك حملتني عبء المسئولية عن يهود صبلاخ، وتريد أن تجعلني وسيطًا بين أبناء طائفتنا وهؤلاء الروس؟ اللعنة على همتي وشبابي! لا تنس أني زوج الإمرأتين ووالد أربعة، آخرهم سَميكَ، والخامس يحبو في بطن أمه ويحث خطاه ليحل على صبلاخ محتلة، وتخطو خطوتها الأولى نحو الحرب. أفليس هذا أثقل من عبء العمر؟! أنك يا حاخام ناحوم تقحمني إلى هذه الحرب المفروضة علينا ولا تدري إنك تجعلني بمواجهة الموت. وكثير لو تترمل أسمر وتترمل إستير ويتيتّم أربعة أطفال، وخامس مازال في بطن الغيب. إني أتشاءم، لكنني أنتفخ أهمية، أغدو طاووسًا، لا بل هذه لحظة من لحظات ضعفي وغروري، تشبه يوم إقتراني بأستير، فليغفر الله لك يا أسمر، وليسامح الرجل الطيب الصالح الحاخام ناحوم!

في تلك اللحظة كانت الدنيا من حولنا ساذجة غريرة كأستير. وما دامت طلقة واحدة لم تطلق ولم تُنزف قطرة دم، فحلول الروس أو العثمانيين أو جند الشاه القجاري على صبلاخ سيان! كانت هذه فكرة الوهلة الأولى، وهلة الضعف، وهلة منزوعة من منطقها كحمة النحلة والعقرب. لكني حين استدعيت إلى القائد وأمرت بنقل الفرمان إلى أبناء طائفة صبلاخ، تلاشت «خمرة» اللحظة من رأسي وجاءت «الفكرة.» فكرة الأيام.. والأعوام.

«يا أهالي صبلاخ! لقد دخل جنود القيصر إلى بلدتكم لحمايتكم والذود عنكم كيد العثمانيين وحلفائهم الألمان، واعلموا بأننا لا نبغي بكم ولا ببلدتكم سوءًا، فانصرفوا إلى أعمالكم ولا تتدخلوا فيما لا يعنيكم. لا تؤذونا فلا يصيبكم أذى منا، ولكن الويل لمن تسول له نفسه عرقلة مهام جيش القيصر المقدس، ومساعدة الأعداء وقد أعذر من أنذر!

عاش القيصر نيقولاي الثاني وعاشت روسيا!»

حملت الفرمان، والحاخام ناحوم معي، إلى الكنيس سرت معه وشبح ملعون يرافقنا. كان هذا شبح الأفحام الأسود إذ لا فرق بين الفحم والأفحام، واشتد هطول «البرف» مع بداية اتضاح الأشياء. بياض.. من فوق ومن أسفل.. من قدم ومن دبر. هذا كفن صبلاخ اما الأسود فبداخلنا نحن. الافحام والفحم حدادنا

Twitter: @ketab_n

على أنفسنا وصبلاخ، وقال الحاخام ناحوم أخيرا،

- ماذا سيحدث؟

نظرت إلى السحب المتكاثفة المثلوجة وقلت.

- العاصفة الثلجية ستقوى!

فقال بسذاجة الصديقين الأبرار.

- قصدت الروس! الحرب!

ها بالأفحام يتحطم الآن، لكن الأسود بالداخل يغدو أكثر سوادًا من لون القار.

دفعت قدمي اليسرى في خطوة أخرى. دفنت حذائي عميقا في الوفر الهش، هذا الوفر سيتراكم ويتجلد ويصبح زجاجيًا صلبًا، زلقًا وعلى أشد درجات الخطورة، إنه سيعرقل سير الآليات والدبابات، لكن الروس متمرسون وذوو خبرة، والكنيس قريب، والرد على لساني يتأرجح بفضاء المجهول، إلا أن الأحساس بارد وصلب كقالب ثلج.

- سيكون العالم وصبلاخ معه محظوظًا لو اندحر الألمان وحلفاؤهم العثمانيون منذ بداية هذه الحرب.

- أتعني...؟!

- مهما اشتد المرض على «الرجل المريض» فلا أظنه وحليفته الجبارة برجًا من ورق يتهاوى بالنفخة الأولى.

فعاد يتساءل وقد أرعش القلق وجهه المحفور بالأخاديد.

- أتعني..؟

- بل أخشى... وأدعو الله أن يخفف عنا هول اللعنة.

إشتدت الحلكة... إشتد بياض الدنيا... ظاهر الموت أبيض... البرد! وكنيسنا، هذا بابه.!

- ثلاثة أرباع المصلين لم يأت!

قلت:

- بسبب الخوف والبرد!

وأحسست بالضيق، فلو جاؤوا لكفوني التجوال وطرق الأبواب للإعلام

Twitter: @ketab_n

بالفرمان، كُلِّفْتُ بالأبلاغ «والحاضر يعلم الغائب» ليست في الحسبان. قرأت الأمر على من جاء، فأرتجل الحاخام «دْرَاَشَةَ» موعظة في يوم عادي، تبعها بصلاة من عنده لسلامة صبلاخ المحروسة وطائفتنا فيها وعموم أهل البلدة. ودعا الله بأن يزيل عنا الغمة، ورغم الخوف والعاصفة الثلجية، طالت الصلاة أكثر من اللازم، كان ذلك يوم خميس، فنشرت أسفار التوراة، وأكثروا من الأدعية والتسبيح، قلت لنفسي أن من الناس من يبغي أن يرشو الله، إلا أن الله لا يقبل رشوة. قلت أيضا أن من كان مؤمنًا حقا فإنه لا يقترح على مولاه، ولا يحمِّل ربه منة إداء فرائضه، أما أنا فهو معي ويرعاني حيثما أولي بوجهي. وكيف أنسى أنه نجاني من السفاحين أكبر ومن طاغية إيران الأكبر؟!

عدت إلى البيت وبيدي الفرمان. رأيت الجليد فوق العتبة وأسمر فاتحة الباب، وتنتظرني. وحين رأتني شهقت، استقبلتُ مريم التي كانت تحملها، تناولتها منها وهتفت.

- رويدك يا أسمر، فالبنت كادت تسقط من بين ذراعيك!

قالت:

- لا لوم علي، تقطع قلبي قلقًا عليك، فلما رأيتك عادت روحي إلي برجة عنيفة.

سهمت قليلا وأنا أُنبِّش بغبار المستقبل. كان ما رأيت هو الغبار وحده مع إحساس بالشؤم، وكانت الأشياء غامضة متلفعة بالرهبة، وسألت أسمر:

- وأين إستير؟

قالت بنبرة تحاول الدفاع عن ضرتها،

- نائمة لم تزل، أفليست حاملاً وتتوحم؟!

صدِّيقَة.. صدِّيقَة.. ولك مكان بالجنة يا أسمر! ودخلت حاملاً مريم وكانت بي رغبة لَأن آخذ الأم وأن أعانقها. أضمها إلى قلبي. أن أعبث بجديلتها الفاحمة الكثة، أن أقودها إلى المخدع لكن هذا كله توارى تحت جليد الواقع، كان البرد شديدا في أعماق الروح. فجأة، إنقلب العالم، ورأيت فوهَة رحاء مفتوحة تبتلع صبلاخ وتجمد بحناياي كل شيء. وقالت أسمر:

- فطورك يا أبا سلمان!

Twitter: @ketab_n

جلستُ بهدوء. لم أبد شيئا مما اعتلج في صدري، لكني همست.

- الروس بالخارج، كالدود بكثرتهم.

إمتقع وجه أسمر.

- الروس؟!

غمغمت وأنا أقتطع قطعة حارة من خبز الساج، أعدته أسمر قبل رجوعي.

- لقد احتلوا صبلاخ بلا ضجة.

فتساءلت بسذاجة.

- ومن الأحسن، الروس أم الفرس؟

فقلت:

- ليس الأمر، أمر مفاضلة يا أسمر، إنها الحرب يا أسمر والله وحده الأعلم بما سيكون.

وجمت.. ومن غرفة إستير، تعالى صوتها الناعس وهي تنادي على قشنك. ها هي ذي الغريرة تستيقظ جاهلة كل ما يجري في الدنيا: وغمست قطعة الخبز بسمنة مذابة ثم في قدح العسل الأسود وألقمتها فمي بعصبية وهمست:

- والأدهى من ذلك، إني أصبحت الوسيط بين الروس ويهود صبلاخ، وعلي إبلاغ الفرمان للكل بلا استثناء.

ألجمها الخوف، فواصلتُ

- لأول مرة أشعر بسوء الحظ. كاد الكنيس يخلو اليوم من رواده، وهذا يعني أن علي أن أجوب البلدة وأطرق أبواب يهودها، بابًا بابًا، والعاصفة الثلجية تشتد في الخارج.

همست أسمر، مرتعدة الصوت، ترتعش بردًا، وترتجف خوفًا، ترتعد بالاثنين.

- أُمكث بالبيت ولا تخرج!

لكن بسمتي الواثقة الساخرة أحيانًا، الحكيمة أحيانًا، تأتيني حتى والروس يغزون بلدتنا، والدنيا شدق فاغر ويحاول أن يبتلعنا. هي لا تعلم بأن سحنة الأشياء قد انقلبت، ويخيل لها أن الروس يتنزهون في صبلاخ، إنها تخاف علي من دون وعي لكنها تجهل الوجه الحقيقي للإنسان، الروسي، العثماني، الألماني

Twitter: @ketab_n

في الحرب. الحرب، البعبع الذي لم تره صبلاخ من قبل، فرويدك يا أسمر ورويدك يا صبلاخ! فالسحنة ستكشر عن أنياب وحشية..!

ستزمجر وستنفث بوجوه أهل البلدة النار، رويدك يا أم سلمان، فأمامنا أيام سيشيب من هولها شعر ناحوم في مهده، أيام ستأتي على الأخضر واليابس، وسنوات أعجف من سنوات مصر السبع، وتريدين أن أمكث في البيت؟!

وقهقهت قهقهتي. شقت طريقها عبر دروب الحزن ومسحت فمي وحمدت الله على رزقه وقلت:

- إنها الحرب يا أسمر! ألا تعرفين ماذا تعني الحرب؟!

- لذا عليك ملازمة البيت يا أبا سلمان!

- لكنه الفرمان الحربي. وقد أمروني بتبليغه، وإذا لم أبلغه، أحاسب يا أسمر، والحساب في زمن الحرب عسير.

حينئذ هبت أسمر مذعورة، كأنما لدغها عقرب، هتفت بالصوت المرهف.

- إمض إذن يا شلومو! وتحفظ بطريقك، ولتمض ملائكة ربك أمامك ووراءك، وتحرسك من تحت ومن فوق، وتضع من حولك درع الهك الواقي من كل شر!

غَرِقْتُ رويدًا بدعاء الزوجة الوفية المعطاءة، واستحممت في إيماني وشعرت بسكينة عذبة حتى انتشلني صوت الأخرى الحمقاء وهي تترنم بإحدى أغاني الأفراح، وفي الخارج دوت أصداء طلقة، إمتزج غناء إستير بترجيع صدى العيار الناري، ووجم الكل إلا هي، وتساءلتُ «هل مات أحد في الخارج؟!» تساءلت أيضاً «أترى ما يحدث في الخارج هو عقابي على زواجي من استير؟ وهو يتعداني إلى سائر أرجاء صبلاخ المسكينة؟!»

وكان استحالة هذا والقلق من المجهول، هو الرد الذي تلقيته من نفسي. وإستير مازالت تغني بمرح وجذل، كعذراء لم تتزوج ولم تنجب، وتتأهب كالماضي لتزف إلى فارس الأحلام.

* * *

خرج شلومو كتاني من داره وهو يجيل أنظاره باحثًا عن زهرة. غارت قدماه في ما يشبه القطن المندوف، وغطست فيه حتى الركبتين. لم يجد الزهرة، يحدث

Twitter: @ketab_n

هذا كل عام، وهو يعرفه كما يعرف بيته لكن الرغبة الحمقاء مكثت ملحاحة رغم استحالتها، هل من خضرة إذن قد غافلت العاصفة الثلجية ولم تتلفع بكفن الشتاء الناصع؟! لا ردّ في الأرجاء. وبصمت متناه يتراكم الثلج ويكسو بياضه كل الألوان. وتشاءم، وللحظة شاهد خيطًا أحمر يسعى كأفعى على الأرض البيضاء، وتوالت طلقات من بعد، وأصاخ السمع قبل أن يطرق باب جاره الصائغ، النار من جانب واحد، فلعل الروس يعبثون برصاصهم أو ربما يخيفون به المارة، فهل الخيط الأحمر الداب على الأرض البيضاء كان وسواسًا أو رؤيا؟ شاهده للحظة ثم ضاع. لم يعرف وقرع باب عزريا، وكان مصراً على أن يبر بقسمه والا يدخل. أبلغ جاره بفحوى الفرمان، وراقب من فتحة الباب سكنات ألماس. لماذا استهانتها هذه بما يحدث؟ وهل هي إستير أخرى؟ لكن الثابت أن غرورها ثابت لا يتزحزح، وأنه أشد جنونًا من الحمق! غضب من ردِّها على الفرمان من الداخل. ولكن لا وقت للغضب الآن، فغضب الله يكفي، لكن خيلاء الإنسان الملعونة سبب من أسباب غضب المولى، وقلت قبل أن اترك باب عزريا الصائغ،

- إكبح جماح غرور ابنتك يا عزريا، فإن لم تفعل أنت فستفعل هذا الأيام القادمة السوداء!

ومهمتي سوداء..! وبياض الأشياء لعنة سوداء، والعاصفة سوداء وتتعاظم. ولما سيفرغ من إبلاغ رسالته لكل يهود صبلاخ، سيعود إلى بيته، لو عاد سليماً وقد اصطبغ الكون بسواد الليل، وغاصت ساقاه داخل الوفر الأبيض، إرتفع الثلج ربع متر آخر. مذ غادر بيته، فكيف سيكون الحال بعد قضاء مهمته المشؤومة؟ ولماذا يزداد إطلاق النار؟ وأين هارون وميخا وشمعيا وساسون؟ لو صادف بعض أصحابه هنا وهناك، لأختصر بعض الوقت. الوقت! أحيانا يُهدر دمه كالشاة وأحيانا ترتفع أسهمه في سوق العمر، فيغدو سعر الساعة كسعر اليوم أو الأسبوع، أو الدهر بأسره! اليوم، يتسابق معه لينجو من أخطار عدة، أولها خطر الموت. وطرق الباب تلو الباب، وتلا في سره ابتهالات ودعوات وقرأ الفرمان، ونصح الناس .برصد الطعام لمواجهة الأقدار، ورأى شبح الجوع الأصفر يزداد شحوبًا على وجوه الفقراء، وحل الظهر ومازالت مهمته ملقاة على

Twitter: @ketab_n

ظهره، نصف وقر حمار. وكان النصف القاصم للظهر. أخطأ إذ بدأ بالصبح بأقرب الناس إلى بيته، ثم سار إلى الأبعد، كان عليه أن يفعل العكس. فيبدأ بالأبعد ثم يقترب حتى يصل البيت، سيعود الآن ليتناول الغداء مع أسمر، وإستير والأولاد، ثم بعض الاسترخاء يعقبه التعجيل بإتمام الإبلاغ برسالة الروس، عليهم اللعنة، لمن لم يتلقها بعد من يهود صبلاخ. لا بل هو الحرص على إخوانه وأهله وأقرانه، إنه أنما يذود عنهم خطر الموت، حين يتلو عليهم الفرمان. وفي المرة هذه سيمضي إلى طرف صبلاخ الآخر ليبدأ بالأبعد ثم يعود. وإذا لم يدركه الوقت فسيصلي العصر والمغرب بكنيس البلدة، ولكن هيهات...

وكالعادة، كانت أسمر تنتظره بقلب واجف، وأستير عرفت بما يجري أخيراً، فسألته على مائدة الغداء.

- وهل تشبه الحرب ما كنا نلعبه ونحن صغار؟

غصت اللقمة بحلقومه، قال

- وهل الموت لعبة يا إستير؟

- كنا نموت في اللعبة، ثم ننهض كعفاريت!

وبكى ناحوم فجأة وضجَّ صيون وسلمان، لكن شلومو كتاني كان مشغول الفكر، ونغص عليه أن استير لا تستوعب معنى الحرب، ولا تدرك معنى الموت. إنها حمقاء وطفلة لا ريب ولكن، هل العالم كله، هذه الملايين المتحاربة من شتى الأطراف، تدرك حقًا معنى الحرب والموت؟ وهال أبا سلمان أن هذه الدول الكبرى تفهم ذلك وتقدم عليه دون مبالاة. وقال لنفسه «إن كان الأمر كذلك، فويل لعدوة نفسها، هذه البشرية!»

* * *

كان الجليد يتساقط في طهران بكثافة، وأنت تحتضن بين ساقيك مدفأة علاء الدين الخضراء وتضع راحتيك فوق شعلتها، الأنوار في الداخل والخارج، وفي الداخل والخارج تتفاوت حدة البرد، ونظرت إلى أكداس الجليد المتراكم في الشرفة. إنها تصل إلى ما فوق متن رجل فارع مثلك، «هذا شيء فظيع» قلت، وضحكت مني. وعدت إلى تلك الليلة، لا شيء يقارن بتلك الليلة، كأن الله سبحانه،

Twitter: @ketab_n

قلب آياته وجعل العاصفة الثلجية رمزا للموت في اللون وفي الإحساس.

تبلعت ريقي، تصورتك قبل نحو خمسين عامًا، في ريعان شبابك، ونحن الآن في طهران في الستينيات، أجل في ريعان العمر. كنت كرديًا باسق العود كالسروة وعنيدًا كالبغل، تحمل فرمان القائد الروسي وتطرق أبواب يهود صبلاخ، لتحميهم ولتحمي نفسك، ولتزداد لديهم حظوة، ولتكتسب أجرًا آخر يحتسبه لك ربك والناس. وعاصفة الثلج مازالت ثائرة في صمت، وبيد صباغ ماهر لا تترك لونًا إلا وصبغته بلون الأكفان وبلون الطهر. إن رموزًا كثيرة ومفاهيم أكثر بحاجة إلى تغيير، فالبشرية أحيانًا تتبنى الأشياء بلا إمعان، أو تقبلها مضطرة بدافع الحمق أو الضعف أو العجز المطلق. ها بي أمضي كالآلة من بيت إلى بيت مدفوعًا بأمر القائد الروسي. أمر رجل لا أعرفه ولا يعرفني، وتجهله صبلاخ. بل حتى كلامه لا يفهمه الصبلاخيون، رجل متطفل لكنه يملك أن ينهى ويأمر في بيتنا هذا الآمن، اللعنة! والمعطف الصوفي المصنوع من اللباد فقد مقاومته في هذا البرد القارس. إني عار. الحصن الذي أحتمي بداخله يتهاوى أمام منجنيقات البرد. إني أتلفّعُ الآن بهذا البرد، وعما قليل ستلفني معه حلكة الليل، أما الوحشة فبعبع آخر يطلق في وجهي صرخات الهول. تماسك، فأنت أصلب من شجرة البلوط! تماسك فالله معك يمضي. من خلفك وأمامك، وعلى شمالك ويمينك. من فوقك، أجل! ولكن من تحتك؟ حاشى لله! إني أغرس أقدامي في القطن البارد المندوف. أخوض صحارى جليد، وحاشى أن أطأ ربي! الليل والعاصفة والمحتلون! الدمس والبرد والرهبة! آن لي الآن أن أرجع! الحمد لله! الحمد لله المحيط بي من كل جانب، إذ فرغت المهمة بسلام. وسأبلغ داري بسلام. لا شك أن الجزع قد أفقد أسمر العقل، أما أستير فيقيني أنها تغني الآن أغنية عرس. لتتزوج عزرائيل إن شاءت، لكني حاشى أن أطأ بقدمي الله! ما هذا؟! وأين هما قدماي؟! إني أخطو فأرفع في اسفل ساقي جبلين. والآلام المبرحة فترت. الام البرد، لكن ثمة صخرة وصخرة. توقفت لحظة ثم ذُعرت. طار صوابي! حقًا لم يكن المولى سبحانه من تحتي! الكارثة إذن جاءت من أسفل.. قدماي تحجرتا. إنهما صخرتان من ثلج. إمض يا شلومو! فها بالموت يتشبث بك من

Twitter: @ketab_n

تحتك! طار صوابي. هيا! إرفع الصخرتين الهائلتين الميتتين وأسرع! سابق موتك! فلعلك تنجو! كيف؟ كيف؟ أين هو البيت، فلعله يرد على أسئلتي، إخبط في الظلمة ومحيط الثلج والرعب، خبط عشواء. إدفع بهاتين القدمين الميتتين. الثلج والأهوال والموت! إبلغ بيتك قبل أن يسري الموت إلى ساقيك. إلى أحشائك.. إلى قلبك.. إلى كل ما فيك!

أصداء صليات مدافع رشاشة يرجعها صمت الليل، أترى اقتطفت أرواحًا من حديقة البشرية؟! إن الموت ينبح هنا وهناك، في الصمت وفي الضجة. وهذا الوفر المتساقط في خرس تام، متى يتوقف؟! ربي! هل اخترتني لجوارك؟ اللهم لا اعتراض ولكن، ماذا ستفعل أسمر وإستير وماذا سيفعل الأولاد؟! اللهم استغفرك إن كنت حاجيتك، لكنك أنت مسبب كل الأسباب وأنا سبب هذا البيت المترامي. ربي! ربي، والبيت! وهذه أسمر تطل من شباك غرفة بمواجهة الشارع. المصباح هناك يتراقص لاهث الانفاس فهل فرغ زيته؟.. هل فرغ زيتي أنا؟.. وانفتح الباب وهي تقول.

- لو كنت تأخرت دقيقة أخرى، لكانت روحي قد غادرت جسدي كي تبحث عنك!

سقط عليها فاحتضنته وأقامته، قال بصوت خافت:

- خذيني إلى تخت يا أسمر!

ألف سؤال مبهم إرتسم على طلعتها المذعورة. إمتثلت وهو يردد:

- استميحك العذر يا أسمر! أستميحك عذرًا يا أسمر!

- ماذا تقول؟

- ضعيني على التخت يا أسمر!

إمتثلت. كان يكره الضعف. يأنف من أن يستند على إنسان. أن يطلب شيئًا من مخلوق، ناهيك عن أهل بيته. قاوم ضعفه ليغالب موته. إن لم يفعل شيئًا سيموت، أو تبتر ساقاه، فأما الموت أو ماهو أسوأ منه!

- أين الأولاد؟

- ناموا.

Twitter: @ketab_n

- وإستير؟
- نامت.
- أنت إذن الصاحية وحدك يا أسمر.
واعتذر بهمس واهن.
- كان يجب أن أبلغ يهود صبلاخ بأوامر الروس.
- تأخرت كثيرًا.
فقال:
- هناك ما هو أدهى وعلينا أن نسبق الوقت!
وأشار إلى قدميه. نظرت أسمر إلى القدمين. كان الحذاء جزءا منه هو والقدمان قطعة من ثلج متحجر. وكان هو ينظر إلى سحنتها، قبل أن تطلق الصرخة. كتمتها بإشارة من فمه ويديه.
- خذيني إلى الاصطبل يا أسمر!
- يجب ان نفعل شيئا في الحال!
- خذيني إلى الإسطبل يا أسمر!
أطاعت. أسندته عليها وهي مرتجفة. هو تحامل على موته الكامن في هاتين القدمين. الله، يقينا، كان فوقه، لذا لم تتجمد أفكاره، من بين رماد اليأس والموت، التقط الجمرة. أجل، الاصطبل! الاصطبل!
هاهوذا الاصطبل. حمير وجياد وبغال وبقر ومواشٍ، زريبة وليست إصطبلاً، انبعثت إلى خياشيمه رائحة الروث المتراكم، فكرته انتفخت مع أمل متأرجح. شمّ عبير هذا الأمل يفوح من نتن روائح «الطولة.» قال لنفسه «ربما حياتك تكمن الآن في قبضة هذا الروث!»
إستغرب. برهة كاد يغير رأيه، قال لنفسه مرة أخرى، يتساءل في حيرة «أيمكن أن يحقق المعجزة الدنس وقذارة الحيوان؟!» ولم لا؟! أفلا يأتي الحي من الميت، وينبلج النور من طبقات الدمس الأعمى؟ لنجرب! لنجرب!
- أنيميني وهاتي المسحاة يا أسمر!
أطاعت، وإذ جاءت بالمسحاة قال
- أهيلي الروث على قدمي وساقيٍّ بسرعة! هاتي الروث من تحت البهائم يا أسمر!

Twitter: @ketab_n

عادت وامتثلت. ولكن ما هذا؟ نشبت في قلبها قرصات الذعر، قد جن الزوج المعبود! هل سيموت؟ العقل والروح فداؤك يا شلومو... أفتدفن نفسك حيًا؟ وتدفنها تحت سرجين الحيوانات؟

– أهيلي يا أسمر! غطِّي القدمين والساقين بكل روث الاصطبل! غطيها بكل روث بهائم صبلاخ. بكل روث حيوانات الدنيا!

كانت الفكرة مخيفة مجنونة وتفوح منها رائحة الكفر، ولعل هذا تجذيف بالخالق، أفهكذا يطلب العبد المعجزة من ربه؟! أفحقا، يتوقف كل شيء عند خاطرة حكيمة، حمقاء، عاقلة – مجنونة؟! تلاشى الموت وذابت الصلوات، مكثت أسمر ومسحاتها الجادة في غرف الروث، وأهالته على قدميه وساقيه، وحدها خلف الإدراك. الأولاد، أستير، الأصحاب، مير علي، عزريًا الصائغ، عمه متتياهو جونه، إخوته، الحاخام ناحوم وأخوه. آل بوزورك، صبلاخ المحبوبة، البيت والعين والجبل والوديان والأحراش، الأشجار، طهران وموسكو، والدنيا برمتها، تلاشت كلها ولم يبق سوى الفكرة والحرب والإنسان المخلوق بهيأة الله، هذا المتشاحن المتخاصم المجنون.

– ماهذا؟ وهل انا ميت ام مازلت حيا؟

إنتبهت. كان ثمة حرارة في أسفل ساقيَّ؟ الصخرة الثلجية أخذت تتلين في بخر بخار الروث.

– أهيلي يا أسمر! أهيلي كل سرجين الحيوان على قدميَّ!

اهيلي كل روث حيوانات الطولة. روث البقر والجاموس والخيل والحمير. حتى بعر الشياه والماعز أهيليه. أهيلي فقد ألهمني الله طريق نجاتي. أهيلي! فأنا سأعيش، ولن تترمل أسمر ولن يتيتم سلمان وصيون ومريم. اهيلي فسأبقى زوج الإمرأتين! اللعنة على الفكرة! لقد خلق الله الإنسان وحباه بالعقل! وخيره بين الخير والشر. واعطاه اللعنة والبركة. أنا، اخترت العقل والبركة وثلاثة أرباع الدنيا اختاروا القتل والتدمير. وسمعت لهاث أسمر، ورأيت فوقي جبلا من روث الحيوان. وأحسست بحرارة في قدمي، وبأن إبهامي تتحرك وصرخت بأسمر،

– حبك يا أم أولادي! قد أنقذني بمشيئة الله!

Twitter: @ketab_n

ورمقتك أسمر بحنان وبرأفة. وبدت طلعتها الودودة الحلوة، المرهفة، جميلة وتختزن خلاصة خير الدنيا. وكان هذا الخير العذب الرائع يتماوج على انعكاسات ضوء المصباح الأصفر. كان الفانوس الآن بيدها. ويدها ترتعش إشفاقا وانفعالا، وترتجف بأشياء أخرى إلا البرد. رأيت حبات عرق صغيرة تتحرر فوق جبين أسمر، وسط العاصفة الثلجية الهوجاء المعتملة في الخارج. في حومة البرد الظالم. فوق القدمين المتجمدتين، وهما تستعيدان بشريتهما ورويدًا رويدًا تعودان لحمًا وجلدًا وعظامًا، وعروقًا يجري فيها الدم.

- علقي مصباح الطولة، وخذي فانوسك وعودي لخدرك بجوار الأولاد.

بحنان قالت

- وأنت يا شلومو؟

مازالت خلجة الشك تراودني، شرسة كالحرب.. ومثلي عنيدة في ساعات يقيني، لم يتزعزع إيماني بالله، لكن الله وهب الإنسان العقل وأعطانيه، واعطاه أيضا للمقتتلين الآن بمناطق واسعة من هذا العالم. قلت

- أنا؟ سأظل كذلك حتى الصبح!

اندهشت. قالت باستنكار،

- أتبيت في الطولة، مع الحيوانات تحت «الصون» - رجيع البهائم -؟!

- وغدًا، أما أبيت مع أولادي ومعك يا أسمر، أو بجوار ربي!

ذعرتْ وهي تطلق دعاء البركة،

- بل سينجيك ربك كما نجّى إبراهيم أبانا من آتون النار،

صرخت قدماي متوجعتين. وبمكان الخدر الظالم حلّ ألم ظالم. هل سأعود وأقف عليهما لتسيران بي إلى محافل القوم، وغاياتي؟ وهل ستزول الغمة عن العالم؟ أسأغمض عيني وأفتحهما لأرى الحرب قد وضعت عنها الأوزار؟ أسيتوقف سيف عزرائيل عن حصد رقاب الناس؟ وهل ستخرس رعود مدافع فتاكة ويتوقف مطر رصاص الموت؟

غدًا... يداعبني بتساؤلات مجنونة تتأرجح معي بين اليقظة والنوم.

Twitter: @ketab_n

إن أقدامي تصرخ. وأجفاني رغم الوحدة وبخر الروث الخانق، تصارع النور في عيني، تنسدل فوق الحدقات – أنسى! تتوقف كل الأشياء؛ وأنا أموت لأبعث حيًا في الغد.

الغد! قد جاء الغد وأنا غارق في نسياني، حين استيقظت تذكرتُ، حركتُ ساقيّ، كانت قدماي تنبضان حياة. دفعت القدمين إلى أعلى فطاوعتاني وكانتا في خفة ريشة. ككرتين تنطان، وكأن ما حدث في الليل كان كابوسًا، أو وسواسًا خنّاسًا، ذاب مع الصبح وتلاشى مع العاصفة الثلجية، لكن الثلج متراكم، والبرد قارس، والروس ما عتموا يدبون كالنمل بصبلاخ، والحرب تحتدم بضراوة في هذا العالم، وسيف عزرائيل يحصد بهمة ونشاط ونهم، رؤوس المخلوقات.

Twitter: @ketab_n

(الجولة الثانية)

هذان الشهران البيضاوان - السوداوان، المتجمدان المتأججان!

كيف يجتمع الثلج بالنار، والبرد القارس بالحر المتلظي؟! في صبلاخ إجتمعا. وفيما حول صبلاخ، قال مير علي، لشريكه شلومو

- متى سيزيح الله عنا هؤلاء الموسقوف الكفرة الرابضين على صدورنا كهذا الثلج؟

فرد عليه شلومو كتّاني

- أأصبحوا الآن كفرة وقد إغترفنا من موسكو من السلع ما ملأت أرباحها، بيتي وبيتك بالمال والرياش والأطايب؟

سهم مير ثم غمغم

- الحرب أكلت الأخضر واليابس، حتى السفر إلى طهران غدا عسيرًا وكأننا نحيا بدولة منفصلة عن إيران.

غمة وستنقشع مع جليد الشتاء، وهناك أخبار تشير إلى أن «الرجل المريض» مريض حقًا، ولولا خليفته ألمانيا لأنهار كبيت من قش في أعقاب هبة ريح. ولكن ما بال المسلمين في صبلاخ يجاهرون بكراهيتهم الروس ويتمنون مجيء العثمانيين وحلفائهم الألمان ليخلصوا صبلاخ من «الرجس» الموسقوفي؟! وكأن «الرجس» الألماني قد غدا طهرًا بمجرد تعاهد الألمان مع المؤمنين العثمانيين؟! وقال لشريكه نصوحًا وودودًا

- قد وقف الشاه مما يحدث موقف الحياد، فلنتخذ نحنُ موقفه في بلدتنا، كي لا تسحقنا الحرب ولا تُزْهِقُ أرواحنا طرفا الكماشة، المنقضة على صبلاخ!

فقال مير علي

- لكن أطماع الروس لا تقف عند حد، وما من مسلم يوافق على أن ننتقل من دار الإسلام إلى دار الكفر، كما أرغمت روسيا الملايين من المسلمين ممن احتلت أراضيهم. وإذا كان لا بد أن تنفصل صبلاخ عن إيران المسلمة الشيعية

Twitter: @ketab_n

فلا أقَل من أن تنضم، في غياب كردستان مستقلة، إلى تركيا العثمانية السنّية وليس إلى الكفار في روسيا!

نعم هذا إذا لم ينْدح بطن الدنيا بجنين مسخ مجهول، بل بتوائم أمساخ لا حصر لها، ستلدها تباعًا وتلقيها هنا وهناك. وقد بدأ بطن إستير ينداح ثانية، وناحوم ما فتيء جنينا يرضع، ورغم الشتاء الظالم، الذي بدأت شوكته تنكسر قليلا، فإن ناحوم أخذ يحبو في أرجاء البيت، ويعثر، فتأخذه قشنك وتقبله وهي تتمتم باسم الله.

مر الشهران بدون أحداث تذكر، فعدا انفجارات مفاجئة طارئة وبعض إطلاق للنار، كان الناس يهرعون خلالها إلى بيوتهم، فيختبئون حتى يخرس الرصاص، وغالبًا ما يخرس قبل وصول الناس إلى بيوتهم، فإن أمور البلدة سارت بشكل يشبه ما قبل دخول الروس. كان أهالي صبلاخ يرفضون التقرب من «الغازي» الروسي، وكلما لعلعت المدافع وأز رصاص الرشاشات، علموا بأن «الفاتح» العثماني قريب، وإن أصوات الضرب ستسفر أخيرًا عن إندحار «الكفّار» ومجيء حماة الديار. كانت هذه الأمنية شبه إجماعية في صبلاخ، واقليم تبريز بأسره إذ قامت أحزاب إسلامية قومية، وصحف تدعو إلى الإنضمام للإمبراطورية العثمانية، بيد أن ضمائر الأفراد تخرج عن هذا الإجماع لتدور في فلك أنانيات ورغبات ذاتية. لم يفلح جليد صبلاخ المتراكم في إطفاء الجذوة المشتعلة في قلب رضا مير أو إخماد حريق مرتضى حاجي زادة. كيف السبيل إلى فاطمة وهي معتصمة في حصن زوج تحبه وثلاثة أولاد؟ وكيف السبيل إلى وليّ الجاحد الظالم وهو يتدجج بالقلعة وبأعوانه من الأشرار والسفاحين؟! أسبيلك الروس؟! لا. فأنت ستؤلب عليك فضلا عن أخيك الظالم وأعوانه القتلة، سائر أبناء البلدة، وستغدو «الخائن» في نظر معظم الناس. إذن فلينتظر مجيء العثمانيين، ولينتظر رضا مير أيضًا ان تقوم القائمة بالفعل، وأن تعم الفوضى. إن فاطمة ستستجيب له، كلما أضعفت الحرب من قوة احتمال الناس وإراداتهم، واختلط الحابل بالنابل، ففي الفوضى تسقط الأبراج والقلاع، وهو لا يريد الروس ولا العثمانيين، إنه لا يراهم أصلاً. فهو لا يرى غير فاطمة زوجة أخيه، ويريدها هي، وهو يريد

Twitter: @ketab_n

الفوضى، إنه يريد أن ينقلب العالم، وحبذا لو مات أخوه مير.. حبذا لو مات الناس جميعًا، وبقيت فاطمة وهو وحدهما.. فمتى يموت العالم كله ليحظى هو بالمعبودة، وليبعث من موت الحرمان، وأعانق صديقي الشيطان، مَنْ سيبقيني وفاطمة ملكين غير متوجين على صبلاخ؟!

وانحسرت في فمه أسنان صفراء، وكانت تلك أيضا أسنان شبح مجهول يحتضن صبلاخ برمتها. ابتسامة صفراء ترشح سمًا.

كانت السماء مازالت تنثر القطن المندوف البارد، عند غروب شمس يوم عادي مختبئة خلف سحاب؛ حين اختلط الرعد العلوي برعد أرضي إنفجر فوق ساحة في وسط البلدة، قذيفة مدفع، ثم قذيفة مدفع، وبعد قليل إختلطت الأصوات وكانت تنصب في أذان بعض الناس كأصوات موسيقى عذبة.

واستمتع مرتضى حاجي زادة بكل ما يحدث. النار وصراخ الناس، الحرب، والموت والفوضى. إنها أشياء يتلقاها كثيرون بلهفة العشاق.

إلاّ أن الأطفال هرعوا لأحضان أمهاتهم فزعين. بكى ناحوم الصغير بجنون. هزّته إستيرفي مهده لكنه ظل يصرخ بفزع كصفارة ناشزة تخدش الأسماع. ضاقت به إستير ذرعًا، وهتفت متوجهة إلى أصحاب «الضرب»،

– لقد أفزعتم الطفل فكفوا يا أولاد الفئران!

ثم توجهتْ إلى الله بعتاب

– من أين جلبت علينا هذه المنغصة الكبرى؟، فقد تصدعت رؤوسنا وفزع الأطفال فهاهم يبكون، فيغدو صداع رأسي صداعين.

وفكر عزريا الصائغ بابنته الوحيدة ألماس، فأحس بالخوف «لو حدث مكروه لي، فكيف ستعيش وحدها ألماس، ومن ذا سيحميها من مخالب هذا الوحش.. الدنيا؟» كانت أمها من أصحاب الأجداث، ماتت وهي تلد ألماس وكان يمكن أن يحميها الأب من غدرات هذه الدنيا، بزواج يوفر لها عشًا وله صهرًا وأحفادًا، لكن ألماس، كانت في دنيا مختلفة، وكان رأسها ممتلئًا بأبخرة أوهام عفنة. اختطفها مارد الزهو المجرم، في غرة من أمر عزريا، فهي بين يديه يهدهدها بأغاني تهويمات مجنونة ترفعها دومًا عن دنيا الناس، وحقائق ما يجري في هذا العالم.

Twitter: @ketab_n

وقد صدق شلومو كتاني، ولكن هل لا بد من أن تفنى صبلاخ كي تسقط الماس من العلياء إلى أرض الواقع وليحل برأسها صوت العقل، محل نهيق الأوهام والأحلام؟ لكن هذه الأحلام، مهما اختلفت في ماهيتها، كانت تداعب عدا رأس الماس، رؤوساً كثيرة في صبلاخ وفي غير صبلاخ، وعند سماع سمفونية النار والدمار قال الفتى حسن بوزورك لأصحابه من صبيان البلدة

– نحن أصحاب الثلج، سنغدو من أثرى أثرياء صبلاخ، لقد وهبنا الله هذا العام ثلجاً وفيراً وأنزل في صبلاخ آلاف الغرباء، وسمعتُ أبي يقول: إن أسعار الثلج ستتضاعف وإن تجارتنا ستنتعش ليحبوني المال بوسامة أخرى أسبي بها قلوب ومشاعر أحلى صبايا صبلاخ!

وجاءت ساعة المغرب، مجنونة وتشحن بعض الناس بما في جعبتها من أحلام، وتلقي الروع بقلوب من يسعى بالدنيا إلى العيش بسلام، ويحترم حياة الناس، ويقدّس الحب بين البشرية. فزعت أسمر. كان الزوج مجتمعاً بصفوة أبناء الطائفة، بعد صلاة المغرب بكنيس البلدة. وكعادتها رفعت رأسها إلى السماء وابتهلت. وتساقطت القذائف على «رأس» إستير مصحوبة بصراخ ناحوم المذعور، فلعنت الدنيا وناحوم والساعة التي ربطتها بقيود لا تقوى عليها. وفي لحظة عابرة تمرق من ثقب الرعب والضوضاء، وانتها إشراقة. عضت على شفتيها ندماً. إن الطائر الغريد لأكثر صدحاً وهو بين الأشواك، من أن يحبس في قفص ذهبي. هي قد اختارت القفص، في ساعة مشؤومة من ساعات الضعف. الضعف؟! كانت دائما تحنّ إلى البستان، قبل دخول الروس وبعده. شاهدها الناس تحمل «ناحوم» والبطن المنداح وتمضي، بستان الزوج، أجل، لكنها فيه تلاعب الأطيار وتلاحق الفراشات وتقطف الثمر وتنطلق عابثة كالأطفال. إنها ليست كما يقولون عنها غريرة حمقاء. فهل من ضير في الحرية؟ وهل الإنطلاق مع الجمال غباء؟ لكن شلومو يحذرها في أشياء ويحدثها عن أشياء أخرى.

وغريب أنه يحدثها عن أشياء رهيبة وينهاها عن أشياء فاتنة محبوبة. وأنفجرت داخل رأسها قذيفة أخرى، فتطايرت أفكارها أشلاءً ضربت جنبات العقل: أف! لا بد أن امضي إلى الأوغاد وأطالبهم بالكف عن هذا! أفلا يدرون أنهم يصدعون

Twitter: @ketab_n

رؤوس الناس ويرعبون الأطفال؟!، لا، لا، أنا لا أعرفهم البتة، لكن شلومو يقابل قائدهم كل أسبوع، فسأطلب منه أن يخبرهم بهذا بدلاً عني فتعال إذن يا شلومو، إني ما عدتُ أحتمل هذه الأصوات الملعونة.

لم تسمع أسمر ما كان يدور في خلد ضرتها من أفكار، جمعت ابنيها وابنتها واحتضنتهم عند شباك في واجهة الدار. رأت شرارات تتطاير متلاحقة بسماء البلدة، وتشبه شرارات البرق المعقوبة بالرعد، ثم سمعت صوتًا كالصاعقة تمامًا. احتضنت أولادها بقوة، ومثل أمامها شبح الزوج المحبوب. وارتعدت.

أين تراك الآن يا شلومو؟ جاء الرد على شكل أصوات باهتة، لوقع أقدام يختنق فوق الجليد المتراكم. إنها تسمع حتى الصمت. هتفت من الشباك بصوت حييّ.

- شلومو؟!

فرد عليها وهو يدير المفتاح الهائل داخل ثقب القفل الجبار،

- قد جئت يا أسمر!

إرتاحت وتراخت. تصارع فيها موت وحياة. جاء إليها فرأى الأولاد ذاهلين معها، إحتواهم جميعًا في الصمت الهائب. نظر إليها وهي غارقة في هذا الصمت، فقال،

-الوضع خطير، وأخشى ما أخشاه هو أن تغرق صبلاخ بالنار والدم.

اختبأت داخل أفكارها برهة ثم همست:

- لكننا لم نفعل لهم شيئًا، فلماذا يدمرون حياتنا وبلدتنا يا أبا سلمان؟!

لعل هذه البسمة ذاتها إرتسمت ساعتئذ على شفتي، أفبوسعك أن تحل أحاجيها وما يخالجني من عسر في التفكير وتضارب في الإحساس؟

لكن إيماني لحسن الحظ لم يتزعزع. تذكرت الطوفان وغربة بني إسرائيل في مصر، وخراب الهيكل الأول، وخراب الهيكل الثاني وسبي أشور وسبي نبوخذنصر، فقلت لأسمر

- هذه مشيئة ربي وربك.

فهمْتْ متسائلة

- ماذا سيكون؟

Twitter: @ketab_n

قلت لها:

- أدعو الله فقط أن ينجينا من النار والدم.

فسألتني:

- أنت تلاقيهم، فماذا يقولون، وماذا سيحدث؟

- هجوم تركي ألماني على البلدة.

- أسيأتي الأتراك إلى صبلاخ إذن؟

- العلم عند الله سبحانه.

صمتت أسمر طويلاً ثم سألتني

- ومَن الأفضل يا شلومو، الروس أم الأتراك والألمان؟

فكررتُ دعائي دون وعي مني

- أدعو ربي وربك أن ينجينا من النار والدم.

* * *

في تلك الليلة، إشتد الضرب، ذاب جليد صبلاخ وتحول الليل نهارًا بفعل كثافة النار، وكان ثمة جلبة تقبع في قلب الجلبة الكبرى، كانت أصوات الروس تتعالى في كل مكان. وهمس أبو سلمان

- إنهم يجمعون معداتهم وينصرفون!

وفهم أهل صبلاخ جميعًا ما يحدث. ومن لم يستوعب الأمر من خلال الصرخات المسروعة والذاهلة بالروسية، أدركه من خلال حركة الآليات المتواترة وهي تتلاحم مع صوت الضرب وتتناغم معه في لحن مكتمل مزعج، لكن كثيرين من أهالي صبلاخ طربوا له بل ورقصوا نشوة ثملين بخمرة «هزيمة الكفار» والتي بدأت في منتصف الليل. إن صبلاخ سيحررها العثماني «حامي الإسلام.» كان الخوف طوال أشهرالإحتلال الروسي، يعقد الألسن ويحبس كراهية المؤمن للكافر في صدره، فيوغر القلب والرئتين بالحقد الأعمى. ضاقت النفوس واختنقت بالبغضاء المكتومة. إستمرت الأفئدة وهي تخفق باللعنات على الظالم المحتل. وفي غرّة من أمر الجندي الروسي، كان الصبلاخي يبصق على الأرض ويهمس بكلمات مسمومة، الليلة، إنفتحت بسماء البلدة طاقات ليلة القدر.

Twitter: @ketab_n

أمطرت الدنيا بدل الجليد نارًا إنقضّت على الدب الروسي، وراحت تمزق أشلاءه. جمع الدب الروسي مزق أوصاله ولعق نزف جروحه وأخذ يفرّ فزعًا، يكبو ويتعثر. وبلغ الخبر اليقين مسامع كل بيت في صبلاخ. ومن قلب الجلبات المتداخلة شجرت جلبة أخرى تسبّح الله وتكيل له الحمد. وفي الحال، وكأن ملاكًا يهدي أبناء البلدة ويوجههم، إنفتحت الأبواب واجتمع في الساحة الآف رجال ونساء يحمل كل منهم هراوته أو فأسه أو خنجره أو سيفه المسلول. وحتى الصبيان هبّوا من مضاجعهم ولحقوا بالأباء والأعمام والأخوال. وانطلقت الجماهير المحمومة كالإعصار الهائج في أعقاب الجيش «الكافر» المهزوم، تطارد الأفعى الفارّة، تبتر ذيل الثعبان، ثم تواصل قطع ما يتسنى لها من أوصاله الدامية المنهوكة. تفعل ذلك بالعصا والحجر والمعوَل والسكين. ثم تعود الجماهير مدنسة بدم الغاصب المقهور، لتستحم بطهارة الفاتح العثماني الصنديد. وتتعطر بعبير رُسل خليفة الإسلام، وبسرعة تتحول أصوات تفَجُّرُ القذائف وأزيز الرصاص إلى زغاريد وتسابيح. وفي محل الروسية المأفونة، تنطلق أصوات تركية معهودة تشوبها أحيانًا أصوات بالألمانية. فيشوب الفرحة بصدور المؤمنين بصبلاخ كدر وجود حلفاء - كفار!

إلا أن عقلاءهم قالوا «صحيح أن الألمان كفار، لكن حليف المؤمن، نصف مؤمن!»

تنفس الصعداء كثيرون. مير علي قال

- ضائقة وانفرجت. والآن سنتاجر مع إسلامبول وبرلين، عوض موسكو بلد الأشرار.

و في المعمعة الكبرى، في ظلمة الليل، جاء رضا إلى زوجة أخيه، وكان مير خارج البيت يحتفل وأصحابه بنصر المؤمن واندحار الكافر. والأولاد نيام، والعجوزان كذلك، سمعت فاطمة «خرخشة» مشبوهة في الخدر، رفعت الفانوس الزيتي، فرأت وجه رضا، جفلت كالفرس المذعورة، ولو صرخت فسيستيقظ الأولاد، ومحمد لا شك سيحكي لأبيه، وستكون تلك الطامة الكبرى، جفلت أكثر، إقترب منها رضا مثل شبح أصفر متراقص، همستْ

Twitter: @ketab_n

– إعقل، فأنت بمثابة شقيقي،

– لا!

من بين أسنانه المصطكة خرجت، قالت فاطمة متوسلة،

– سيستيقظ الأولاد، وستكون فضيحة ستشغل أهل صبلاخ عن هذه الحرب..

لكنها شعرت باللمسة. إقشعرت الكتف بدبيب حشرة رجسة. إنتفضت فاطمة. نفرت، أصبحت خارج الخدر. ومن هناك قالت بنصف همسة ونصف صراخ

– إذا لم تخرج، فسأستنجد بالناس وليعلم كل أهالي صبلاخ بأنك وغد شرير.

إرتدع شقيق الزوج. عثر الحصان الجامح. شجّ رأسه. لسانه عجز عن لعق جرح هذا الرأس. خرج وهو يغمغم.

– أحبك! أحبك! ولنا يا فاطمة جولات قادمة أخرى!

ولأسباب مختلفة جدًا، ردد بعض الناس بصبلاخ بإيمان يشبه إيمان رضا الوله إلهائم،

– أمامنا جولات وأي جولات.

كان حسن جاقماق يؤمن وأتباعه بتعاليم لينين وتروتسكي. بولشفيون أو منشبيكيون بصبلاخ، وكانت ثقتهم في أن يوم خلاص الشعب الروسي من نير آل رومانوف، قريب، كقرب خلاص شعوب إيران من حكم سلالة قجار الظالمة. وقال حسن جاقماق لرفاقه همسًا وبالسرّ،

– هذه ضربة لنيقولاي الظالم، بيد أن هذا الجيش المهزوم هو في الواقع من أبناء الشعب المضطهد، فهو جيش الشعب ومن سيزيح قريبًا الأشرار ويوطد حكم العمال ولهذا فهو عائد دون ريب، فكونوا على حذر من العثمانيين، وقيّدوا بدفاتركم أسماء من طارد إخواننا من أبناء الشعب الروسي المظلوم، ومن نكّل بهم عند انسحابهم، لأجَل معلوم سيستردون فيه القوة والأنفاس ثم يعودون. فويل لكل من يتعرض للجيش الروسي، أمل شعوب روسيا والبشرية جمعاء!

كان حسن جاقماق وأتباعه في صبلاخ، يرضعون تعاليم لينين وماركس في سِتْرِ إدلهمام ليالي صبلاخ، داخل أقبية دفَن الجليد نوافذها، طوال نصف عام، وأَحكموا حجبها بستائر من لبّاد عازل للصوت. في نصف العام الآخر، كانوا

Twitter: @ketab_n

كالأشباح يتلقون دروس منقذي الفقراء ومهضومي الظلم الفادح، لا عين تراهم ولا أذن تسمعهم، في السر ينمون، ويترعرعون بالخفية. ينضم إليهم بمرور الأيام أشخاص وأشخاص يتعدون حدود صبلاخ، كما ينضم إليهم رجل لا تلبث أن تسْري عدواه إلى أهل بيته بأشد الكتمان. إلاّ أن هذه «الفئة الضالة» بقيت رغم تزايدها قلة بين طوائف وأحزاب شتى في هذا الجزء المنسي من العالم. وتألق نجم كثيرين، أو هذا ما زيّن لهم شيطان الحرب المحتدمة. وسعى مرتضى حاجي زادة إلى قائد الجيش العثماني في صبلاخ، يقدم له رسوم الولاء والطاعة والقبول، ويعرض بمحاجةٍ تفتت قلب الصخر بمنطقها وعدالتها، أسباب حقه المشروع بادارة البلدة وفضله على أخيه وليّ الظالم، حامي الأشرار وشذاذ الآفاق وكل سفاح وقاطع طريق مجرم موتور. ولم يغب عن بال مرتضى حب العثمانيين للمال، فشفع المنطق بالذهب الأصفر الوهاج وأسند ألق الحق بالسحر الفعال، وإذا بالقائد التركي يلين، وعلى عقله تنهال عبارات التعظيم والتبجيل، ومن عينيه يفيض الوهج الذهبي وينسل إلى كل خلايا دماغه فيدور الرأس، ويفتل الشارب المسنون، ويهز الرأس الضخم المفتون، الدائر في حلقة السحر والمكر، ويَعِدُ مرتضى حاجي زادة برياسة البلدة، ويأمر بالقبض على أخيه وحاشيته المجرمة السفاحة، لكن الحرب سجال، وعلى أبواب صبلاخ يقتتل الجمعان، وتُعزف ألحان الحرب بأصوات المدفع والرشاش، وفي كنيس صبلاخ يبتهل الجمع وعلى رأسهم الحاخام ناحوم وشلومو كتاني، إلى من لا يغمض له جفن، أن يحفظ المحروسة صبلاخ ومن فيها من شرور الحرب والأغراب. ويبعد عنها العثماني والموسقوفي والألماني، بيد أن شلومو أحس رغم الأيمان العامر به بنيانه الجسدي الشامخ، والمتَشَرِّب روحه وحواسه، بأن الله لن يستجيب لدعاء الداعين بسهولة، وإن كان ثمة أفراد، وهو أحدهم، قد اختارهم ليشملهم بعين رعايته ويحرسهم في القيظ وفي الثلج، وفي الماء والنار، وفي أيام السلم وأوقات الحرب، «افتدري يا ولدي أن السلم جولة لكن الحرب جولات، إني قد بلغت الآن أرذل سنوات العمر، لا أذكر يوماً لم يقتتل فيه الإنسان، في هذه البقعة خصام، وفي تلك القارة قتال، وفي رقعة ما، أو ربما في ألف رقعة

Twitter: @ketab_n

ومكان يزهق الأحمق روح عدوه الأحمق»، وفوق هذا فقد دارت إشاعات صارمة وعنيدة عن أن أكثر من يهودي قد قُتِل على يد الأتراك أو الألمان. وقالوا أن حننيا بانو صاحب حانوت التبغ، وربما ابنه البكر كذلك قد افتتحا قوافل الشهداء في صبلاخ. وبحكم مهامي المسنودة إلي، أُوكِلَ إلَيَّ التحقيق في الأمر. وقد كنتُ سمعتُ عن الظلم العثماني. وأن الإيرانيين الشيعة والعثمانيين السنة، قد يختلفون في أكثر من شيء، لكنهم يتفقون في شيء واحد هو الظلم. وإذا بالحرب تأتي لتنوّع لهم أشكال الظلم وتبيح كل محظور وتجعل أرواح الناس بأيديهم في رخص جليد صبلاخ في الشتاء. أما أرواحنا بالذات فبرخص تراب إسطانبول وبرلين! اللهم نجنا من برلين وإسطانبول!

ورفع شلومو كتاني عينيه المتألقتين إلي، ويومئذ رفعهما نحو أسمر خابيتين قلقتين وقال

– قتلوا حننيا بانو صاحب حانوت التبغ، وقتلوا ابنه موشي، وقتلوا آخرين، بلا ذنب اقترفوه. وُجد حننيا وابنه مبقوري البطن ممرغين في الوحل وهما بطريقهما للكنيس كما يبدو، ووُجد بعض النصارى مقتولين في أماكن شتى.. ونُكِل ببعض الجثث، فجُدعت أنوفها واجتثت أحاليلها، ذهبتُ لأحتج لدى القائد العثماني فواجهني بأقبح الألفاظ، ووعد بالضرب على أيدينا لأننا كما سمانا «جواسيس الأعداء الروس»، وإذ سألته عن سبب مقتل الأبرياء، أنكر أن العثمانيين هم القتلة وقال: «لعل بعض الجنود من حلفائنا الألمان كانوا ضجرين فتسلّوا بقتل بعض الكلاب...»

لم أشأ أن أدخل في جدل عقيم معه. إذ لن أتلقى غير المزيد من الإهانة، وهذه هي الحرب وثمة من يزعم أن كل شئ في الحرب مباح! أوْجَسْت شرًا. وكتمت دعائي في قلبي... وكنت أفكر بأسمر والأولاد وبأستير وناحوم، وبكل أهالي البلدة الآي.

إني أبيع حياتي بقشر بصلة، لأحمي أبناء هذا البلد الطيب. أما الشاه القجاري فيجلس على عرشه في طهران لا يعبأ بما يحدث لمواطنيه في هذا الجزء من مملكته. وعاهدت نفسي وأنا أقصد كل فرد في صبلاخ مبتدئًا بأهل بيتي

Twitter: @ketab_n

وأصحابي «أنتم أمانة في عنقي مهما مرّغ هذا العثماني الفاسد كرامتي بالوحل.»

كنت مبهورًا بأحاديث أبي سلمان مرتاعًا مما يحدث في الدنيا...

وكان هذا قد حدث يومئذ وحدث من قبل يومئذ، ثم تواصل في أنحاء مختلفة من هذا العالم.. لم يتوقف حتى هذه اللحظة، وسألته إذ سكت وهو يتأمل أشياءً بفضول:

– وماذا بعد يا عمي شلومو؟!

سهمتَ. لم تنسَ، لكن الأهوال تفحمُ المرء حين تنقض عليه ذكراها ككابوس. هنا، بعد عقود، في طهران محمد رضا بهلوي، وطرير العربات ينهال علينا من الشارع، والأنوار تومض في أعيننا، وهناك، قبل عقود، في بلدة معزولة منسية بشمال إيران، طرير الدبابات ووميض النار!

«اقتل!» يقول التركي «اقتل!» يقول الألماني «اقتل!» يقول الروسي، والإنكليزي... وكل متحارب. وكان أبو سلمان يناجي ربه، يستحلفه بحق نبييه ورسله وصديّقيه أن يرفع عن صبلاخ لعنة الحرب، وحمق الإنسان، وشراسة الإنسان، ووحشية الإنسان، وجريمة الحرب البشعة التي يقترفها هذا الإنسان.

– أين استير وناحوم؟!

فجأة تنبهتُ. لم أعثر لهما على حسّ في البيت، فهتفت من بعدي أسمر هلعة

– قشنك! قشنك! أين إستير وناحوم؟

دخلت قشنك تعدو حاملة الطفل. تبعتها إستير بالبطن المنداح.

هتفت

– ضعي الطفل بمهده يا خادمة الشؤم.

فصحتُ

– لا بل تريثي لحظة يا قشنك!

أنا لا أغضب بسهولة لكن مقتل بانو وابنه وغيرهما من سكان البلدة ووعيد القائد التركي وإهاناته، جعلت أعصابي كأوتار كمان مشدودة

– أين كنتم؟!

Twitter: @ketab_n

متلعثمة خائفة قالت:

- أمرتني سيدتي إستير...

قاطعتها مغتاظًا:

- إستير ليست سيدتك! الله وحده السيد يا قشنك! ثم لا تنسي أنك عندنا من قبل مجيء إستير، وعليك استئذان أسمر قبل الإمتثال لأوامر إستير. أين كنتم؟

تبلَّعَتْ ريقها المسكينة، أدركتُ أنها تنجذب بقوة ومن طرفين متضادين. هي بالتأكيد تخاف من إستير، خوف دجاجة من ثعلب.

- أمرتني أن أحمل ناحوم وأصحبها للبستان!

جن جنوني. أعصابي كوتر الندّافين المضروب بالمطرقة الخشبية. وإستير تعصي أمري وتخرج عن طوعي. لم يحدث هذا من قبل، وسوف لن يحدث من بعد. وصحتُ كالثور الهائج.

- فلتأتِ إستير! لتأت إليّ إستير!

جاءت. كأنما لم تعص لي أمرًا. لا أثر لما يجري عليها، حمقاء وغريرة، قلت لها:

- ألم أحذرك من أن الخروج في هذه الأوضاع الخطرة، محظور؟! فهل تسعين إلى عصيان أمري وتعريض ناحوم والآخر الراقد في بطنك إلى خطر الموت؟ أفلا تدرين أن هذا الموت يتسكع في طرقات صبلاخ؟ أوما علمت بأن الحرب تدور في أنحاء البلدة، وأن أناسًا قد قتلوا فيها؟!

أنا كردي وعنيد! قد أغضب، لكني لا أثور بسهولة، كلا، لم تخني إرادتي، بل هي غيرتي على الحياة سبب هيجاني. حمق هذه المرأة يمكن أن يقتل مدينة بأكملها. إنها لا تشهر فقط في وجهي سيف العصيان، بل هو سيف الثكل تسْتله وتضعه أمام عينيّ يومض.. يُرهب.. يجعلني ألهث. عيناي لا تريان إلا الموت. وأي موت؟ إنه موت طفلي وجنيني. وما أفظع الفكرة؟!

لكني لا أتغيّر، شهقة، غصة، ثم همدتْ الثورة، وأمرتُ:

- إمضي لخدرك! ولا تخرجي بعد الآن من البيت إلا بأمري!

أغمضت عينيّ قليلا. تخيلت الموت المتبجِّح في الطرقات، يسري بهواء البلدة،

Twitter: @ketab_n

بمياهها، داخل البيت. الموت.. ألف سبب له. إنه أرجل أخطبوط متشعبة ممتدة. وهو واحد. كلا! هو ليس بواحد كما يزعم الحكماء! إنه أنواع مختلفة الكنه والخاصية كالأسباب. ومنه ما يسبقه ألف ميتة مروعة وفظيعة حتى يغدو المنشود العذب.. وافتقدت «القلية» يومًا. وشكا لي أصحابي نفاد بعض السلع الهامة. التجارة تكاد تصبح لفظة لا معنى لها!

– منافذ البلدة تكاد تكون مسدودة.

– لو طالت هذه الحرب، فقد تنعزل المنطقة كلها عن الدنيا.

– لا حلّ إلاّ في تخزين الأطعمة والحيوان!

كان التجار يختزنون السلع ليبيعونها وقت الحاجة الصاع بعشرة.

أنا كنتُ أشتري الطعام وأخزنه في بيتي، ونظرتُ إلى ما في الخزنة من أكداس ذهب وفضة، فقلتُ: «إن أولادي وأهلي وأصحابي لو عزّ المأكل والمشرب، فلن يغنيهم هذا المال عن ذلك.»

كان مير علي قد أصبح يشتري لحسابه ما تسنى من طعام ليبيعه. قلتُ له:

– لم تتاجر يومًا بطعام إلاّ بقليل من الأصناف، وها أنت الآن تعمل بالمقلوب، أخذتَ تشتري الطعام وتبيعه وكأنك نسيت كل ما قلته لك.

قال:

– لست طماعًا مثلك فأختزن كل ما أقدر عليه في بيتي منتظرًا صعود الأسعار أكثر من هذا. انا يكفيني الصاع صاعين.

لا يا مير! أنا لا أختزن الطعام لأبيعه بعشرة أضعاف سعره، بل أنا أختزنه لوقت الحاجة.. إني أحوّل ذهبي طعامًا وأتهيأ لسنين عجاف قادمة لا شك. إني أحمي أولادي، وربما أحميك وأهلك، من غائلة الجوع القادم، فالموت ليس نفس الموت كما زعموا، فهناك ميتات أبشع مما تتصور، تأتي فيستقبلها الإنسان بالأحضان من بعد أن أصبحت حياته أمر من كل أصناف الموت، وقالت أسمر:

– قد امتلأت المخازن بالأكياس و«التنكات.»

فقلت:

– أعدوا غرفة أخرى نجعلها غرفة كيل

قالت:

Twitter: @ketab_n

- وضاقت «الطولة» بالحيوانات، وأصبح الدجاج والبط وسائر الطيور في كل مكان بالبيت.

فقلت لها:

- تحملي يا أسمر فسيأتي يوم قد يصبح فيه كل هذا ذكرى نتحسر عليها ونتمناها كما يتمنى المرء الصحة وراحة البال.

رهف صوتها من فرط الرهبة، وبالهمس سألت:

- أتعني...

- القحِط يا أسمر.. القحط والجوع!

- أولا تكفي الحرب ولعنتها يا أبا سلمان؟

فأجزمتُ بما لا تعرفه نساء صبلاخ، وبعض رجالها.. بل وكثير منهم

- الحرب لا تعني الموت فقط يا أسمر، إنها ويلات ولعنات البشرية مجتمعة، الدمار والجوع والأوباء والعاهات وكل ما يقضي على الإنسان.

سمعتْ إستير ما قلته وهي تتشمس تحت شمس اذار المنتفضة من القرّ، وتمد ساقيها، ووركاها مختبئان تحت البطن المنداح، فقالت:

- أقسم بالله وبناحوم إني ما أحسستُ بحرب أو لعنة. بالعكس، صبلاخ خرجت عن وتيرتها المملة المزهقة للأرواح، وها هي ذي حبلى بمفاجآت، تتجدد كل يوم، الروس، الأتراك، الألمان.. أصوات الضرب.. ومن يدري ماذا سيحدث في الغد؟

وانفجرت في أذني قذيفة. ولم أدر هل انفجرت في صبلاخ أم داخل نفسي، لكن شظَايا السخط الجبار إنتشرت برحاب ذاتي. كتمتُ غضبي، ليس على ما يحدث في الدنيا، فهذه اللعنة الأخرى تقطن في بيتي، وترتبط بي بوشيجة لم يعد بالإمكان أن تُفصم، إلاّ إذا..

وهلعتُ. ناحوم؟! والآخر الراقد في الأحشاء؟! حاشى لله! حاشى لله!

وتبَلعتُ ريقي. روحي في أعلى حنجرتي، أحاول أن أبتلعها فتأبى. أغص بها وبالسخط الممزوج بالإشفاق، أشياء كثيرة لا بد أن أبتلعها، وفمي يابس، ريقي لا يطاوعني فيأتي. وقلت لأسمر وأنا كتلة مشبوبة أهيل عليها كل وقود العالم.

- طاسة ماء يا أسمر! إلحقيني بطاسة ماء!

Twitter: @ketab_n

(الجولة الثالثة)

مع الربيع إنحسر الجليد، وارتفعت الأسعار أكثر في صبلاخ، وازدادت قلة السلع في الأسواق، وتهيأ أناس لما كانوا يحلمون به. آل بوزورك سيبيعون الثلج هذا العام بضعف ثمنه، والمنْجَم يزيد عن حاجة البلدة، ويكفي الجيوش الوافدة إليها، شريطة أن يدفع القادة ما يستهلكه الضباط. مير علي كسب من مخزونه الشخصي الصاع ثلاثة. وتلظى مرتضى حاجي زادة على نار انتظار الجلوس على كرسي أخيه الظالم. وتلظى رضا علي بنار كافرة لا ترحم، نار العشق المحظور، فهل ستحن فاطمة يومًا؟.. وبلغت حسن جاقماق أخبار، فجمع أتباعه وأسر لهم.

- يوم الخلاص قريب. العالم يُسمي تركيا «الرجل المريض..» وهناك رجل مريض آخر مازال يكتم أنفاس الشعب الروسي. لكن يوم الخلاص قريب، فاستعدوا له وتحلوا بالصبر والكتمان.

كانت أصوات قذائف المدافع تتصادى في أرجاء صبلاخ. لا تصمتُ يومًا، تبتعد أحيانًا ثم تقترب أحيانًا أخرى. فإذا ابتعدت فرح بعض الناس وقالوا «إن المؤمن يطرد الكافر بعيدًا عنا» وإذا اقتربت فرح البعض الآخر، وقال: «ها قد عاد الروس، جالبين معهم لنا الطمأنينة والخلاص.»

كان الليل صحوًا والقمر شبه بدر، حين عاد شلومو إلى بيته بعد صلاة المغرب. في هذه الليلة اشتد القصف، واشتد معه الخوف. وحتى إستير خافت، وعلى مقربة من البيت صمّ آذان شلومو صفير حاد. خيل لأبي سلمان أن القذيفة ستسقط في صحن الدار.. إنحشر بجدار ورفع رأسه، شاهد شررًا يمرق من فوق رأسه ويمضي نحو ساحة البلدة. حمد الله كثيرًا. قال «إن عساكر العثمانيين والألمان موجودون في الساحة بكثرة»، لكنه أشفق من أن تسقط القذيفة هناك، إذ لو سقطت، فستمزق أجسامًا بشرية كثيرة. والأتراك والألمان بشر، ورغم نزوات الإنسان فهو إنسان.. وحتى المعتدون بشر، وحتى الظلم

Twitter: @ketab_n

نزوة، بل هو ضعف، أو مرض مزمن في نفس بعض الأشخاص. أسرع ودخل البيت، هرعت إليه أسمر، ولأول مرة هرعت إستير كذلك، إن الدهشة عظيمة، لكن هناك إشفاقًا أعظم. تداعت إستير بين يديه. لهثت. يقينًا انفجرت قذيفة في الساحة. صرخت إستير صرخة مجنونة، لم تعكس نبرة صرختها الخوف، رمقتها أسمر بنظرة حنونة، متمرسة وخبيرة. ثم صاحت:

- إنه الطلق ورب العزة!

في الخارج طلقات الحرب، مخاض الموت في الخارج، وهنا في هذا البيت المبروك، مخاض حياة. أفتذكر يا أبا سلمان تلك الساعة؟

وجف قلبي. الحمقاء تلد ثاني بطونها. والحرب تعتمل كالخلاطة خارج هذا البيت وتهشم أشياء، وكلما واتت إستير طلقة كتم صراخها فرقعة انفجار، ثم تتواتر في الخارج أصوات قذائف مصحوبة بصراخ إستير المجنون. وبعد كل طلقة وصرخة كانت تبكي، تستغيث وتستنجد

- جدوا لي الداية! القابلة يا كفّار!

كان الضرب يزداد حدة ومخاض إستير يزداد حدة، ورعب الصغار يزداد حدة، وبكاء ناحوم يزداد حدة. وجزع الكبار يزداد حدة، وجزع أسمر وقشنك يزداد حدة، فتطوعت الصبية الخادمة وقالت:

- سأذهب لاستدعاء الداية راحيل!

وسقطت قذيفة روسية، وزعقت إستير زعقة نافست صوت إنفجار القذيفة. ولم أعرف أهي صرخة الذعر أم صرخة ألم المخاض. إهتزت أعصابي المشدودة كأوتار قيثارة. رنّت متصادية دائرية أحاطت بالبيت، وبصبلاخ ثم لم تلبث ان خمدت.

- لا ياقشنك. لن تخرجي من البيت في هذه الساعة. ألا ترين شدق الموت مفتوحًا يتربص بالأحياء ليجعلهم من أبناء الأجداث؟

صاحت إستير:

- يا ظالم، يا كافر، تخاف على خادمة ولا تخاف على زوجتك؟

Twitter: @ketab_n

أوتار قيثارتي إهتزت ثانية. عرفت أن الأحداث استحالت إلى فأر شرع يقرض في أعماقي. كنت متوترًا جدًا. لكني ابدًا لن أفقد رباطة جأشي.

– قشنك إنسانة، فضلاً عن أنها واحدة منّا، ولا فرق لدي بين روحي وروحك وروح قشنك أو أرواحِ الدجاج في أقنانه والبهائم بزرائبها.

أسمر! لو ترحمتُ عليك كل لحظات عمري لما كفاني ذلك! تطوعتْ أم أولادي بحنانها المعهود وقالت:

– لا تخافي يا حبيبتي. ساولّدك بنفسي. سأكون لك القابلة والداية والحاضنة والأم والأخت والصديقة المخلصة كما عهدتني.

وتحاذتْ طلقتان. طلقة في الخارج، وفي بيتنا طلقة. طلقة نارية من سلاح روسي، في الأرجح، وأخرى بشرية إجتاحت إستير فصرخت... طلقتان وصرختان!

وشردتُ أنا عن رواية حكاية أبي سلمان، وفكرت «طلقة وطلقة»، واحدة تسلب حياة من الوجود، والأخرى تدفع بحياة وتهبها لهذا الوجود، تضاد مسؤولة عنه اللغة، وأردت أن أسأله: كيف تُنطق تلك الطلقة المستلبة وكيف تُنْطَق هذه الطلقة الواهبة، بالكردية وبالآرامية، وبالأذربيجانية، والتركية والروسية، لكنني رأيته غارقًا في بحر الذكريات، يعيشها وكأنها وقعت الآن، بل تأكدت على مدى سنوات تعارفِنا، من أنها جزء منه ومن كيانه، تنام وتستيقظ معه، وترافقه إلى بغداد وبومباي وطهران ورمات كان. إستعنت إذن، بتخميناتي فقدّرتُ أن الطلقة القاتلة ربما لا تنطقها هذه اللغات بأسرها بمثل ما تنطق الطلقة الأخرى، النسوية، الخيّرة، المعطاءة. طلقة الولادَة. وكان المتحاربون يطلقون طلقات الموت وإستير تعاني طلق الولادة وتصرخ. وأسمر تطلق كل إنسانيتها وتنطلق لتسخن الماء إستعدادًا لتوليد ضرّتها. وأبو سلمان يطلق ذكرياته ويحررها من رأسه، بلا وجل ولا هلع، وعلى وجهه المغضّن بتجاعيد الشيخوخة وأهوال الحياة، ظل ابتسامته الهادئة الرزينة، وأنت أيها الزمن تصمت مفحمًا واجمًا عاجزًا عن الكلام، فالساعة الآن هي ساعة هذا الرجل – الشاهد – البطل، شلومو أبي سلمان الكردي.

Twitter: @ketab_n

نعم، كانت إستير تصرخ مع كل طلقة، تصرخ مع طلقتِها هي ومع طلقات المتحاربين. طلقة الألم، وطلقة الهلع. وكانت خائفة في الحالتين، خائفة على نفسها من كلا الطلقتين. كنتُ أعرف أنها ستلد في النهاية. وأعرف أن تفكيرها بنفسها قد انتفخ مع بطنها ويكاد ينفجر، صبيانيتها وحمقها كانا يحولان دونها ودون السيطرة على نفسها. ولم تكن أفكارها تتعدى أنفها، وهي لا تكف عن طلب القابلة والداية رغم الخطر الكامن في الخارج. لا تثق بضرتها الحنون التي حملتها بيديها إلى هذا البيت لتقطنه بالحب وترافق أهله العيش على الوئام والمودة، لا تفكر بالأخطار المحيقة بالخروج من البيت ولا حتى بسكان هذا المنزل وبأطفاله المعقودة ألسنتهم ذعرًا، المشدوهة وجوههم وهم يحملقون في المجهول الضاج هنا وهناك، ولا حتى بناحوم، فلذة كبدي وكبدها، وبكائه المحموم الهائب، ولا بالجنين الذي أخذ يطرق أبواب رحمها والكون، قد ضاق ذرعًا بالعتمة وضيق الموضع، فتمرد، وها هو ذا يحاول الإندفاع إلى هواء الدنيا.. هذه الممطرة في هذه الساعة نارًا وكَبريتًا.. يقرع بابها بطلقات تهز كيان إستير وتتواتر، وتتسارع حتى يجن جنونها مع هذه الدنيا، ويمتزج به وهو يتزايد، تمامًا كما يتزايد طلقها، فيحتضن العالم من كل جوانبه ومحاوره. وتساءلتُ بحيرة قاصدًا الجنين المستعجل وصوله إلى هذا العالم «لماذا الآن بالذات؟! لماذا؟»

في هذا الجنون المعتمل من حولنا بضراوته الكبرى، كانت أسمر العاقلة الوحيدة في صبلاخ وضواحيها، المعتصرة في قبضة الوحش المعتوه. ولم تكن خائفة ولا وجلة. كان خوفها ووجلها قد غرقا في قاع مهمتها الإنسانية. وهي بذاتها غارقة في نبل عملها الإنساني. كانت حبا محضًا وحنانًا، أفتصدقني لو قلتُ لك، إني بعد كل سنوات الحرمان منها، لم أفهم مصدر إيثارها ذاك؟ إيثار وغَيْرية مكثتُ أشهدهما طوال سنين حياتي معها؟ من أي نبع كانت تنهل ذلك؟ من أي شلال؟ في تلك الساعة الحرجة المكشرة عن أنياب تنذر بالشر، كانت روحها، كما عهدتها دائمًا، تستحم بماء الكوثر، بزلاله، ولا تترك فيه شائبة أو عيبًا. كانت

Twitter: @ketab_n

الشوائب تفرّ من أسمر، ولم تكن تفعل هذا إلا بسجية تلقائية تزيدها طهرًا وتسمو بها عاليًا فوق الأنانيات المشرئبة الآن بأعناقها في كل مكان، والتقت خواطري بصوتها العذب يقول:

- اخرجوا كلكم واتركونا وحدنا!

رأيتها. كانت تحمل طستًا صغيرًا يتصاعد منه بخار الماء الساخن ويضرب سحنتها المسرورة بما هي مقدمة على عمله، والمنهمكة في مهمة إخراج حياة من عتمة الرحم إلى نور الدنيا، وتوالت في الخارج إنفجارات قذائف وضجّتْ إستير مصرّة عليّ:

- هاتوا القابلة! فلن تولدني ضرتي! أفلا تخاف علي وعلى ابنك منها يا ظالم؟! ستقتلني هذه المرأة، أو تقتل ولدي، أو تقتلنا نحن الإثنين!

بلغني هذا وأنا خارج الغرفة، إبتسمت كما الآن، في لحظتنا هذه أرى البسمة تنطبع في تلك المرآة المعلقة بأقصى غرفتك. يومئذ لم أحظ برؤية إبتسامتي، لكنك تعرف أنها تنطبع على شفتيّ، لتغني عن الكلام لساني ولتقول في لحظة، ألف شئ. وفي الأرجح أني كنت وقتئذ أسخر من خبل العالم، كان العالم يقتل بعضه بعضًا وأمام ذلك هانت شتائم الزوجة الغريرة لي، وإتهاماتها الحمقاء لضرتها المحبة المخلصة أسمر، بمحاولة القتل. فما أسخف هذا؟!

إنطبق باب الغرفة وراء الضرتين. من داخلها يتوالى ضجيج إستير، ومن الخارج هدير جنون العالم. لغط هناك وصياح هنا. وهنا أحمل الصغير الحبيب ناحوم أُحاول إسكات بكائه. أخدع نفسي. فالصغير لن يهدأ حالهُ مالم يهدأ جنون العالم، ولن يهدأ روع سلمان وصيون ومريم مهما قصّت عليهم قشنك من حكايات عذبة جاءت بها من والديها. إننا نطلب المحال! ونحن نجهل ما يحدث خلف الباب. دائما كنا نجهل ما يجري وراء هذا الحاجز، بيد أن جهلنا في هذه اللحظة كان مطلقًا، وحتى أنا عانيت من هذا الجهل المطبق، لكني أيقنت من شيئين، أن باب الغرفة المطبق الآن على حياتين، سينفتح بعون الله، بعد ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات عن ثلاث حيوات، وأن أسمر لن تقتل إستير ولا جنين إستير، ولو خاب يقيني وماتت إستير، أو خرج جنين إستير ميتًا، فلن تكون تلك

Twitter: @ketab_n

بالتأكيد، مشيئة أسمر، بل هي بالتأكيد مشيئة ربي سبحانه. وكنت أبتهل إليه وبكاء ناحوم الحبيب يصم أذني، لكي ينجي إستير والطفل الوافد ليردّ التهم الباطلة الحمقاء إلى نحر الغريرة، وليفوح عبير عطر شهامة ونبل العاقلة الأخرى.. أسمر «أم البنين.»

أسمر، أم البنين. وأنت تصمتُ برهة.. تتأمل. تسقط أفكارك في ثقب مظلم. ما من ثغرة هناك. كانت تلك ليلة الهول ومتناقضات عجيبة. أفتسأل نفسك إن كانت تلك الليلة، قد أوحت لي لأول مرة أن أدعو أسمر «أم البنين؟!» أم أن القادم من الأيام حبل باسم المحبة هذا حتى ولده جنينًا حقيقيًا جميل الطلعة، مكتنزًا بحب ينهل من مَعِين حياة لا ينضب ما دامت حياتنا مازالت نبعًا يجري بالحب العطر الخالد؟ وها بك مرة أخرى تتحفز، وأنا أتجبجب عن طرح سؤالي عليك. ثمة أشياء تتكون في غرة منا، حين نسهو، او ننصرف عنها إلى أشياء أخرى، أشياء لا تاريخ لها، لأنها لا تولد في تاريخ معلوم. إنها أشياء توجد ثم تخلد لكن مبدأها يبقى مجهولاً مكتنفًا بغموض لا يجود علينا بالكشف لنا عن أمره.

كانت تلك، ليلة الأهوال والمتناقضات. ويد الزمن، بخلاف يد تلك الأشياء الغامضة، ترفع الستار عن مسرح الأحداث، وهي تقتحم الأعمار. ونحن نضيع في طيات الحدَث، ثم ننساق إلى تتمته المتصلة المجهولة، بسرعة مدوِّخة، أو ببطء باهظ مرهق. تلك، أحداث لا تعطينا حق التوقف، لنلتقط الأنفاس، كما نفعل الآن، وإذ التقط هذه الأنفاس الآن، وأعود لهناك، أسمع لغطًا ينبعث من الغرفة المطبقة، يتبعه صمت يتحدى كل صخب الخارج. كان الله يملأ خاطري، أسبّحه لكني أُثقِل عليه في الوقت نفسه، بطلباتي، تساءلت عن فحوى الصمت الطارئ داخل الغرفة. فرد علي بابها بصرير شبه مكتوم وهو ينفرج على مصراعيه، ولاح وجه أسمر وديعًا مبتسمًا، في انعكاسات ضوء المصباح الزيتي، في يدها، كانت سعيدة، وفي الحال تناهى من الداخل صراخ جنين، وقبل أن تنطق أسمر، أدركتُ أن جزءًا من طلباتي لربي، قد أستُجيب، كنتُ بأشد اللهفة لأعرف، كيف حال إستير، وفي الحال سمعت صوت أسمر يدعوني:

– أُدخل يا أبا سلمان! قد ولدت لك إستير طفلة كالقمر المنير.

إنزاح حجر عن قلبي، ناولتها ناحوم وتبعتها إلى الداخل، بدت إستير متعبة

Twitter: @ketab_n

وجميلة. وكانت تحاول إرضاع الطفلة القادمة للدنيا منذ قليل. كانت الطفلة قد حُمّمت وقُمّطت، بعد أن عالجت أسمر سرّتها. وكانت المشيمة والحبل السرّي وملحقاتهما قد لُفّت ونحيّت جانبًا وتنتظر أن ترمي قشَنك بها خارجًا. حتى شراشف سرير إستير وثيابها كانت قد غُيّرت. كل شيء يشرح الصدر ويعمر النفس بالإطمئنان والإرتياح. ولبرهة، نسيت جنون الدنيا الهائج في الخارج، وتعمقت إبتسامتي كما الآن، وقلتُ لأستير، بعد أن حمدتُ الله على سلامتها.

– ما كانت القابلة لتولّدك بأحسن مما ولّدتك أسمر، ضرتك المحبة. فلندعُ طفلتنا هذه باسمها، إعترافًا لها منا بالجميل.

أخرجت إستير حلمة ثديها من فم الطفلة وصرخت ناسية تعبها وإعياءها.

– أأنت بوعيك يا رجل؟! وهل تدري ماذا يقول لسانك؟! أَأُسمّي ابنتي باسم ضرتي، من كانت ستقتلها وتقتلني لو استطاعت؟! إن ابنتي ستدعى منذ الآن «إستير الصغيرة» رغم أنفك وأنفها وأنف كل من لا يعجبه ذلك.

الآن نسيت العالم كله، إلا قذيفة سقطت داخل رأسي وانفجرت فيه، لكن من خلال شتات أفكاري المتطايرة، جاءني صوت أسمر، الحنون، العطوف، يهدئ إستير:

– سمّها ما شئت يا حبيبتي، واهدئي، فالغضب بعد الولادة خطر عليك وعلى الجنين، أما أنا فأكره أن يُدعى أحد بإسمي مادمت على قيد الحياة!

* * *

في تلك الليلة، ورغم الغضب الطارئ وتوتر الأعصاب، عاد شلومو كتّاني الكردي وأحس بلحظة قصيرة من الإرتياح، ثم لم يلبث أن دارت على أكتافه الدائرة. هجع البيت أخيرًا إلا هو، اللعنة على زمن لا يسمح للمرء حتى بأن يلتقط أنفاسه! كان يريد أن يحصر أفكاره داخل هذا البيت. أن يتأمل الأحداث. أن يمدح ويلوم ويعاتب. أن يحتفي ويحتفل بالضيفة الغضة الحالّة على الدنيا، لكنه كان ينسحق بين حجري رحى الدنيا، كانت جلبة العالم تردي بكل رغباته. وكانت الأفكار السريعة الحادة كالشفرة، تخترق أيامًا وشهورًا، وتتوغل في أدغال المستقبل، أعتى من كل إراداته، الساعة، تقلصت المعمعة في الخارج! مكثت صليات رصاص تتناهىٰ من بعد وتلتقي بصليات يطلقها عقله.

Twitter: @ketab_n

وفجأة، أصداء لصراخ جماعي مذعور. أصخى السمع. لا. ليس من داخله تأتي الأصداء. هذه ظلال زعقات. أصداء تحملها الريح لعواء لا يُعرف كنهه، أفهذا هو الرعب وقد اكتسى لحمًا وعظامًا ومضى يطلق أصواته؟! هل تهذي أسماعي؟! أتغرر بي أُذناي؟! وتسمعني صوت جنون صبلاخ المسكينة؟! لا. لا. ها قد خرس هذيان السمع، هدأت هلاَسات مجهولة.

لأقم! كان يجلس على تخت في إيوان يشرف على صحن البيت الواسع، الطيور نائمة والبهائم، والقمر قد ابتلعته الجبال الغربية، هجع الكل ورغم جنون العالم، ناموا نومة أهل الكهف!

لأقم! وقام على قدميه، فصر التخت، ودوى صفير طلقة، ورقصت في أذنيه الأشباح الصوتية ثانية، لكنه سار يحمل فانوسًا. فتح باب غرفة أسمر والأولاد، حمامة تحنو على فراخها. ومكان قشَنك على التخت في الطرف الأيمن خالٍ. طلبت أسمر منها أن تمضي الليل في غرفة إستير النفساء وترعاها. رد الباب بهدوء وتوجه إلى غرفة النفساء. الآن راوده شغف في أن يتفحص ملامح «إستير الصغيرة» غير المبلورة بعد. لا فائدة! إنه سيعتاد على هذا الإسم وناحوم سماه كذلك، إجلالاً وإكرامًا للحاخام ناحوم. وكلهم الساعة في قبضة الموت الأصغر. هو، أفلت من كل الميتات ليتأملها صنفًا صنفًا، صبلاخ! قد حلّت اللعنة عليك يا مسكينة! صبلاخ الوديعة كحمل تُعاقب بلا ذنب إقترفته... تُرى أين بلغ بنا الوقت الآن؟! وما أطول هذا اليوم؟! رويدك، فستشهد بلدتك التعسة ويشهد أهلوها أيامًا أطول. بل وستصبح فيها الساعة دهرًا. مذنبة صبلاخ ولا شك! إذ من قال لبانيها أن يختار لها هذا الموقع الأستراتيجي المهم؟ بين روسيا وتركيا الخصمين المتحاربين، والعراق كذلك، من يحارب بنوه رغمًا عنهم في الجيش العثماني، ويموتون من أجل لا شئ؟!، أما أنت يا قجاري يا من سميت نفسك، أسوة بأسلافك بـ«ملك الملوك الشاهنشاه» فنم بقصرك في طهران ناعم البال، محتضنًا غرورك ورعونتك والحياد! الحياد! والساعة الثالثة صباحًا. وباسم الحياد تنعم أنت وعاصمتك بالأمان والطمأنينة، ويلقى مواطنوك في صبلاخ أهوال الجحيم، مذنبة أنت يا صبلاخ، إذ لا شئ أنت بنظر الشاه، وأنت كل شيء بنظر الغرباء. والساعة الآن الثالثة صباحا. كيف؟ كل هذا الوقت؟ أفنسيت ما

Twitter: @ketab_n

جرى؟ أنسيت أن البيت قد أضاف إليه في هذا الوقت الغافي نسمة حياة جديدة صغيرة وبريئة، لا تفقه مما يجري شيئًا؟! وإذن فلم يبق على وقت الكنيس كثير. ترى، أسمع حقًا أرواح الأصوات المفزوعة أم زُيِّنَ له؟ وطُرق الباب بعنف فجنحت أفكاره عند فرقعة الطرقات. أسرع نحو الباب دون أن يتريث كي يسأل ذاته عمن يطرق بابه في هذا الوقت، الكامن في حومة اختلال عقل الدنيا. وبجوار الباب توقف وهو يرفع الفانوس.

– من؟

رد عليه صوت بالروسية يأمره بفتح الباب.

أنتم إذن قد عدتم إلى صبلاخ، أفهزم الأتراك حقًا؟!

كان الضابط الروسي محاطاً بثلة من جنده، ويحمل أكثر من منشور. وقال بلهجة الآمر:

– تعال معنا ياشلومو كتاني!

وتساءلتُ بذهول:

– إلى أين؟

– سترى الآن بعينيك!

– لم يبق على فتح الكنيس غير ساعة، وبعض الساعة.

فقال برصانة:

– عجّل إذن فأمامك مهمة غير يسيرة.

تساءلت وقد أنذرني قلبي بالسوء:

– أي مهمة؟!

عاد وكرر:

– إسرع وسترى بنفسك!

في الليل المتلاطم بلُجج القار نسعى. روس وأنا.. ضابط وجنود وأنا ومصابيح في عربة يسحبها حصانان. يلهبهما الحوذي الروسي بسوطه فيغدوان ريحًا، ويندفعان، في صبلاخ النائمة اليقظة المغتصبة المغدورة المغتالة المفزوعة. بجنون نجري نحو ميدان البلدة. وسط طلقات تتصادى، يرتدع

Twitter: @ketab_n

الحصانان من صوت الطلقات فكأن الريح ما عادت تجري بل تتسمر بمكانها وتتأرجح موجهة قبضتها نحو الأرض المرصوفة بالأحجار.

الميدان... تحول كابوساً هذا الميدان. وأنا في أحشاء الكابوس، أضواء كثيرة تنير قلب هذا الكابوس، وسؤال مشدوه يتردد في قلبي وعلى لساني:

– ما هذا؟

يردّ الضابط الروسي بتشف

– هذا جزاء من يلاحقنا بالعصي والبنادق، ويضرب مؤخرتنا مناصراً الأعداء..

تخثرت أنفاسي في رئتي. قلبي تصاعدت خفقاته، وأنا أتفحص وجوه الجثث الملقاة في الساحة. أكوام جثث. وأنت تعرفني. رغم المظهر الصارم وتحجر الدمع بمأقيّي، فقلبي أرق من النسيم رهافة. إنسان أنا، وبجوانحي تعتلج كل شيم الإنسان الفاضل. والقلب تتسارع دقاته، أتفرس بوجوه المذبوحين. صبلاخيون بلا استثناء، مسلمون من إخواني. وهذا فاضل قاعودي، رفيق الطفولة، من بين القتلى. كنا معًا نتسلق أشجار البلوط، ونتبارى في القوة، ثم حين كبرت عرفت أن القوة للبندقية والمدفع. هذا سعيد زاهدي، التاجر المعروف. كان رفيق دربي في آخر رحلاتي إلى موسكو، وهذا.. وهذا.. وهذا.. والنساء.. والأطفال، عشرون.. خمسون.. ستون.. بل نحو مائة من أهل صبلاخ.. رجال ونساء وشيوخ وأطفال صبلاخ!

– لماذا؟ لماذا؟

غضب شلومو كتاني، عيناه أغرورقتا موتا لكنهما لم تجودا بالعبرات.

هتف بغضبه العارم:

– لماذا فعلتم هذا؟

وضحك الضابط الروسي:

– وماذا يهمك يا شلومو يا كردي، هم مسلمون وأنت يهودي!

وكأنه صبَّ وقودًا على غضبي فتعالت شعلته إلى السماء وصرختُ:

– هم إخواني وأحبائي. هم بشر مثلي ومثلك. هم صبلاخيون. وكلنا بشر

Twitter: @ketab_n

وصبلاخيون.

فقال بصلف قوة، كانت ضعفا قبل القليل من الأيام.

– هم قد بدؤوا. حذرناهم، فلاحقوا مؤخرتنا وقتلوا منا جنودًا كثيرين. أنذرناهم وأعذر من أنذر! والبادىء أظلم، وليكن هذا لهم عظة ودرسًا للمستقبل!

شلومو كتاني يزدرد حنقه وألمه. يقول وعيناه تفيضان برؤى الموت.

– ولماذا أنا بالذات تجيؤون بي وترونني فظائعكم هذه؟!

فظائعكم! نكتة غثة كفّنت الموتى المضطجعين على أرض الميدان، كالخرق الرثة، بقهقهات الروس الوقحة. وأنا كردي وحرون كالبغل. ولو انفجر غضبي فسأواجه العالم كله ما دام الله والحق معي!

لكني فكرت بأسمر والنفساء. فكرت بسلمان ومريم وصيون. ما أثقل أعبائي ومسؤولياتي! فلأبق حيًا وأسعى لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. وألقى الضابط الروسي عليَّ محاضرة قصيرة في الحرب وما يُقترف فيها، كان يخالني إستير، لكني كنتُ أرى في الحرب ما لا يراه هو من فظائعها، وأخيرًا قال:

– الحرب هي الحرب، لكن العثمانيين والألمان، يقترفون القتل بلا مبرر، ويذبحون الناس للإستمتاع برؤية جثثهم حسب.

وما هذا الذي أمامي؟! أفتقنعني أيها الضابط المتعجرف بالقوة، بأنكم حملان وحمائم، وجريمتكم الكبرى ما زالت أمامي وتغمرني بالهول؟ وبأنك تتنصل حقًا من حربكم القذرة، جريمة الإنسان الكبرى، وقلت ورؤى الموت تفقأ عيني.

– فعلتكم هذه ستزيد الشقة بينكم وبين أهالي صبلاخ اتساعًا.

أطلق الضابط الروسي ضحكة سمجة وهو يقول،

– أنت إذن لا تعرف ماذا يفعله الخوف من الموت بالإنسان.

هززت رأسي وغمغمت:

– وأنت يا سيدي لا تعرف الأكراد، ولا المسلمين، ولا أهالي هذه البلدة المغتصبة.

فقد صبره فصرخ.

– سيتعظون. سيعلمهم هذا الدرس الحي ألا يتعرضوا بنا بعد الآن. أما أنتم

Twitter: @ketab_n

يا يهود صبلاخ، فستدفنون هذه الجثث بأيديكم.

غريب ما أشهده مذ بدأت هذه الحرب. شدهت لكني قلت بضراعة:

– دع أهاليهم يتولون دفنهم، ولا تجعل يا سيدي الفاجعة، فاجعتين!

فصاح مصرًا:

– لا تجادلني يا يهودي! عقابنا يجب أن يكون كاملاً فامض الآن إلى الكنيس وجد لنا عددًا من رجالكم الأشداء، وليبدؤوا بحفر القبور في أرض محايدة خلاء، خارج مقبرة المسلمين، كي يروا ويتعظوا!

فتمتمت قبل أن أنصرف.

– سأفعل، لكني أكرر. أنكم بهذا قد كسبتم المزيد من عداء مسلمي صبلاخ، ومهما فعلتم فسيظلون موالين لإخوانهم العثمانيين ومعادين لكل من يحارب المسلمين!

فصاح، ومن تحتنا ترقد الجثث البريئة هامدة لا تسمع ولا ترى

– إفعل ما أمرتك به واترك لنا أن نعالج مسألة الولاء بأنفسنا.

– إذن، هلكتْ والله صبلاخ وأهلها.

– إمض الآن ياشلومو كتاني! ونفذ أوامري بحذافيرها. ودع الأحداث تسير كما نريد لها نحن أن تسير!

كلٌ يريد، وكلٌ يفعل عكس ما يفعله الآخر! وتركته وأنا أكرر في سري «هلكت صبلاخ وأهلها إذن! هلكنا وحق الله!»

وصلت الكنيس وعيناي لا تريان إلا الموت المتراكم في الساحة. فتحت الباب وولجت بيته تعالى فوجدتني وحيدًا معه. ناجيته مناجاة المتوسل الطالب للرحمة. لن يأتي المصلون حتى يشرف الفجر على الطلوع بعد ساعة.. أفتكفي هذه الساعة الخلوية مع ربي لدفع الغمة عن بلدتنا المحروسة؟! وضحكتُ من هذه الكلمة.. لقد عفا عليها الزمن، وأصبحت كالبيت بلا جدران. ويلي عليك يا صبلاخ.. فقد هنتِ وهان ذووك.. وهاهم مستلقون بلا أرواح في الساحة!

كان كلّ ما حولي يجعلني قريباً من الملأ الأعلى. وبحزنٍ يشوبه أمل مؤمن، توجهت إلى الهيكل وفتحته. اليوم يوم خميس، وستنشر أسفار التوراة أمام يهود

Twitter: @ketab_n

صبلاخ. وأمامي مهمة عسيرة كما قال الضابط الروسي، إبتهلت لمولاي بأن يسهل أمري وأن يخيب ظني فيحفظ صبلاخ ومن فيها.. وأن تبقى صبلاخ حية وتموت اللعنة.. ولم أكن أشد تعلقًا ببلدتي وإلهي كما الآن. لكن شيئًا في أعماقي كان يسخر من آمالي. إذ ما أسرع أن يفقد الإنسان صوابه وما أشق أن يثوب إليه العقل!

لا. ما أنا بنبي. إني لا أقرأ الغيب، وأنا أصغر من أن أتوغل لضمير الله. لكني لست بغبي أيضًا، وما يجري من حولي ينبيء أيضًا بما سيأتي من أحداث.

إن الدائرة تدور على أكتافي. على أكتافك تدور الدائرة يا شلومو يا أبا سلمان الكردي، فهل تهيأت بما يكفي للقادم من هذه الأحداث؟!

قد بدأت السنين العجاف. وهانحن بداخلها منذ حين. قد بدأت هذه السنوات بيد أن كثيرين في بلدتنا ما زالوا لا يدرون!

* * *

لم يكن أبو سلمان موجودًا في كل أنحاء البلدة، حين شرع منادي الروس يجوب حواريها وأزقتها، يدعو المسلمين فيها إلى النهوض والمجيء إلى الميدان. أنا كنتُ هناك، أنا الزمن الرائي ما يحدث، الشاهد على كل الأشياء. صحيح أني أسقط باستمرار في هوة الماضي لكن ذاكرتي باقية لاتمحى ولا يعلوها صدأ الأيام. ذاكرتي ابدًا ليست كذاكرة الناس، وضميري ليس كضمير البشرية. إني بأمانة أتذكر، لا أكذب عمدًا. لا أكذب سهوًا أو بدافع نسيان.

قد ضاع المنشور الروسي ومات معه المنادي الطواف الجوّال، لكنه ما انفك يتصادى داخل جدران رأسي ويدوّي كقذائف حرب ما زالت تتفجر في كل يوم وبأي مكان. كان منادي الروس يجوب دروب صبلاخ وهو يهتف «يا مسلمي هذه البلدة! انهضوا على الفور، واتركوا كل ما بأيديكم وهلموا بجموعكم إلى الميدان الكبير، لتروا بأم أعينكم نتيجة رعونتكم وتحرشكم بجيش القيصر الروسي العظيم. إجتمعوا فورًا في الساحة ومن يحضر ينبيء من لم يحضر. إن جثث قتلاكم مكومة تنتظركم في الميدان، فتعالوا لتروا نتيجة تطاولكم على مؤخرة جيشنا عند انسحابه الأخير، رغم أننا كنا حذرناكم وأنذرناكم. تعالوا وكحلوا

Twitter: @ketab_n

عيونكم برؤية موتاكم. وإيّاكم أن تلمسوهم بأيديكم، فلقد أمرنا بدفنهم يهودَ بلدتكم. وسينفذون أوامرنا رغمًا عنهم وسواءً شئتم أو أبيتم، وليكن كل هذا لكم خير عبرة للمستقبل. وأعلموا بأن من يتطاول على جيش الإمبراطور نيقولاي المقدس يباد. وقد أعذر من أنذر. وهلموا هلموا إلى الميدان قبل أن يوارى موتاكم تراب الأبدية!»

قرأ المنادي المنشور بالروسية والكردية والجبلية والأرامية والأذربيجانية. وأعاد قراءته عشرات المرات، وهو يجوب صبلاخ من أقصاها إلى أقصاها. وقبل أن ينفض الصباح عن أجفانه الكرى، كانت ساحة صبلاخ الكبرى تكتظ بحشود من مسلميها. إختنق هواء البلدة بصرخة ألم تصادت شمالاً، جنوبًا وشرقًا وغرباً وتناهت إلى أعلى فبلغت عرشين. عرش الله، وعرش الشاه. بيد أن الأثنين تغاضيا عن مسلمي صبلاخ ومحنتهم ولم يكترثا بهم أبدًا. وتصادى عويل الحزانى والثكالى بين شرانم جيش العثمانيين المهزوم وحليفهم الألماني. حرّق قادتهم الأرم ووعدوا بتدمير الجيش الروسي. وحاولت جموع مسلمي صبلاخ اقتحام طوق الجنود الروس، للوصول إلى موتاهم، فحالت دونهم أسنة الحراب الروسية. وخلال ذلك بدأ عدد من أشداء يهود صبلاخ الأكراد بحفر نيِّف ومئة قبر في ظاهر المدينة، تنفيذًا لأوامر الجيش الروسي، وصغرت بنظر مسلمي صبلاخ مصيبة القتل الجماعي هذا، إزاء الطامة الكبرى. أن يدفن يهود البلدة شهداء المسلمين الأبرار. وأن يتم ذلك دون إقامة الصلوات على أرواح الذين حظوا بالشهادة والجنة ودون تغسيلهم وتكفينهم وقراءة الفاتحة عليهم ثم دفنهم خارج مقابر المسلمين في صبلاخ. ومثلما توقع شلومو أبو سلمان، فإن جريمة الموسكوف هذه بحق مسلمي صبلاخ، قد حفرت هوة عميقة من العداوة والبغضاء بين الطرفين لم تمحَ طوال سنين حرب الغفلة هذه، وزرعت بصدور المسلمين غصة ظلت تنغص عليهم حياتهم حتى انقرضت اجيال الحرب الأولى من أهل صبلاخ وحتى استبدل اسمها بـ«مهاباد» بل وحتى الأبناء والأحفاد ما زالوا يروون الحادث بمرارة فترتادهم غصة الآباء والأجداد، وتعن عليهم الذكرى فيشهقون ليحرروا صدورهم من العظم الناشب فيه، وبلا جدوى، في معظم

Twitter: @ketab_n

الأحيان!

وتوافد أتباع حسن جاقماق ومريدوه يقصدونه بعد أن استحال كل منهم تنينًا ينفث من فمه النار عوض الكلام، ويزفر فيندفع الدخان الساخن من أنفه بدل الهواء.. أفحقًا؟! هذا الجيش السفاح هو الذي سيحقق الأخاء بين البشر؟ هذا الجيش الذي نحر رقاب الأخوة المسلمين وشرب دماءهم وكأنها النبيذ المعتق وسلّم جثثهم الطاهرة ليد اليهود؟ أهو الذي سيزيل الظلم ويحقق العدل ويفرض في العالم بأسره تعاليم ماركس ولنين العظيمين؟!

إن الصراع داخل روسيا على أشده والحرب العالمية تحتضن نصف العالم، وهذا هو الجيش محط الآمال، يقتّل بالمؤمنين ويحارب جيش خليفة الله، ويضع اليهود فوق المسلمين؟ أفنسيتم أن بعض قادة الاشتراكية، بل ومعظمهم من اليهود؟ فكيف لا ينحاز الروس إلى هؤلاء اليهود؟ هذا قبل أن تتحقق ثورة الشعب، فماذا سيفعل هؤلاء الزعماء الشيوعيون اليهود فيما لو تحققت تلك الثورة حقا؟!

إنشق كثير من أتباع جاقماق عليه احتجاجًا على فظائع الروس، وأدار حسن جاقماق رأسه من حوله فلم يجد بجانبه غير قلة من الأتباع، تعد على الأصابع. أوجس خيفة، وليس فقط لأن معظم أتباعه تخلى عنه وانضم إلى أعداء الاشتراكية، فعقيدته الراسخة كجبال كردستان هذه التي لم تنل منها أعاصير السنين والأحداث، هذه العقيدة الشامخة والإيمان الثابت بأن الاشتراكية الحاثة خطاها لتسود روسيا ثم تنطلق منها إلى كل أرجاء العالم، هذه، منقذة العالم والبشرية من كل شرور الإنسان على مر العصور والأجيال، عقيدته هو بالذات، قد أخذت بذاتها تتأرجح بقرارات نفسه وداخل عقله. رفعه الذعر إلى السحاب ثم هوى به إلى الأرض بقوة هشمت عقله، فسرقته حيرة ذات براثن تنشب في اللحم العلوي الرخو، مكث كذلك مدة، ولما نفض عنه براثن هذه الحيرة وثاب إليه رشده، قرر حسن جاقماق أن يضع النقاط على الحروف، وأن يفجّ حشود الأخطار ليواجه القائد الروسي في البلدة وينبهه إلى خطئه الفادح في ما عامل به مسلمي صبلاخ. وما أكثر الحُمْق المسيئين إلى أنفسهم بإساءتهم إلى غيرهم،

Twitter: @ketab_n

وما أكثر الأغبياء الذين يؤذون ذواتهم وأصدقاءهم ويعرضون أهدافهم المقدسة للخطر!

قرر مواجهة القائد الروسي الأحمق. قال: صحيح أن أهالي صبلاخ يحملون في رؤوسهم أدمغة عصافير، وأنهم تعرضوا للجيش الروسي عند انسحابه فحق فيهم العقاب، إذ أثبتوا بتعرضهم لهذا الجيش أنهم برجوازيون، متعفنون، لأن ثورة الشعب لن تطهر العالم إلا بالدم ولذلك اخترنا العلم الأحمر المغسول بدم الطغاة والضحايا لكن هذا القائد يحمل في رأسه عقل جندبة. أنه لا يفهم عقلية الإسلام ومن الخير أن أنبّهه إلى ذلك في الحال. سار حسن جاقماق معتدًا بنفسه وغاضبًا إلى مقر القائد الروسي في كنيسة صبلاخ. دخل منتصب القامة غير أنه جوبه باعتراضات الحراس المدججين بالسلاح، كاد يقتل لكنه لم يعبأ. وكيف يعبأ من يحمل عقيدة لنين وماركس ويكافح العالم كله من أجلها؟ وجد القائد الروسي يشرب مع ثلة من كبار ضباطه. أساءه هذا المنظر، بيد أن القائد الروسي هب ممتعضًا وهو يرى صعلوكًا صبلاخيًا كافرًا يقف أمامه داخل المقر- الكنيسة بلا استئذان؟ أفهذا فأر في شكل بشر؟ أم نملة غابت عن أعين الحراس؟

قلت للزمن مستغربًا: «ما كنتُ أعرف أنك تملك كل هذه الملَكَة من الفكاهة!»

قال الزمن: «الفكاهة والجد، والضحك والبكاء، والفرح والحزن، وكل ما تحتويه دنياك من عجائب وغرائب كلها أنداد رغم كونها متضادة. أفليس من البلايا ما يُضحك، ومن حمق العالم ما يثير السخرية عوض الإستهجان؟!»

قال هذا ثم واصل الرواية.

وصاح القائد الروسي مغضبًا:

- كيف سمحتم لهذه الحشرة بالدخول؟

فاحتج حسن جاقماق:

- لست بالحشرة يا سيدي، بل أنا من أعوانك أيها الرفيق!

عبثت الخمرة برأس الروسي فأهتز في أرجوحة ضحك أرعن:

- وتستْقلّني يا جرادة، فتجعلني رفيقك؟! أأنت جاسوس في خدمة

Twitter: @ketab_n

امبراطوريتنا العظمى؟!

فقال جاقماق على عجل:

- أنا من أعوان من سيحررها من الظلم ويقيم العدل في العالم، وأنتم بقتلكم المسلمين تبعدون عنكم الأنصار والمؤيدين.

طارت الخمرة من رأس القائد الروسي، النشوة على وجهه أستُبدلت بعاصفة تراب مربدّة. صرخ بصوت خارج من حشاشة روحه:

- اعتقلوا هذا المجرم في الحال!، إذ لا يكفي أنه مسلم فهو يعترف بصدق وفصاحة بأنه من أعوان أعداء مولانا القيصر نيقولاي رومانوف الثاني العظيم!

في الحال، وجد حسن جاقماق نفسه يتوسط ماردين عملاقين، أيديهما تضغط على ذراعيه كالكماشة وتدفع به إلى خارج الكنيسة. أفيحلم؟! أعاش سنواته الأخيرة في وهم عذب نفذ منه إلى دوامة الحقيقة؟! وهل سيموت عقاباً على إيغاله في حلم محظور؟! ضاع في متاهة الإستغراب وعدم التصديق، وفجأة أعاده لمكانه صوت ودود يقول له:

- إننا نحييك أيها الرفيق العزيز على إقدامك وجرأتك!

حدق بعينين فاغرتين مندهشتين بالعملاق الذي على يساره، وإذا بالآخر الذي على يمينه يقول:

- ونعدك أيها الرفيق بأن ثورة الشعب قادمة لا محالة! وإننا سنزيح من على وجه الأرض كل فاسد ظالم من أمثال قائدنا هذا، وأسياده من آل رومانوف العابثين بروسيا وشعوبها، والحاكمين بالظلم والاستبداد والفساد!

فرك عينيه، ونفض رأسه وتساءل وهو يتأرجح بين الجنون والعقل.

- أأنا على حق إذن؟!

- واصل مسيرتك وأجمع ما استطعت من الأعوان، فساعة انتصار الشعوب وشيكة، بفضل الاتحاد والتضحيات.

وقال الجندي الروسي الآخر:

- والآن انجُ بجلدك، ولا تجهر بعقيدتك، فما زال الظالمون من أصحاب النفوذ هم الحاكمون!

Twitter: @ketab_n

أشياء كثيرة أعتلجت في رأس حسن جاقماق في تلك الساعة، لكن غريزة البقاء أثبتت أنها أقوى من كل الأشياء. أطلق جاقماق ساقيه سابقًا الريح، غير مصدق أنه نجا. وعندما بلغ شاطيء السلامة وتأكد من أنه مازال على قيد الحياة، فكر بالأشياء الأخرى وتنفس الصعداء.

* * *

ويواصل الزمن روايته وعلى طلعته أبتسامة أبي سلمان المتهكمة.

والشر كثيرًا ما يجبن ويتقلص أمام القوة. واجتمع ولي حاجي زاده، وقد فقد سلطته الفعلية ولم يبق من مظاهر هيبته غير الإسم فقط، بكل أعوانه من المجرمين والسفلة والسفاحين. كانوا من الذين يهابهم أهل صبلاخ، وجرت أسماؤهم مجرى القشعريرة والرجفة في الأبدان، قد غابوا في جحورهم وأوكارهم كالحيوانات الوضيعة المتوجسة خطر الموت. إستقر الرأي على إعلان الولاء للمحتلين الروس، لكن خطر مرتضى الأخ المشاكس لم يبرح خاطر وليّ. إن مرتضى لن يتخلى عن أوهام السلطة حتى وإن كانت هذه السلطة وهمًا بحد ذاتها. ومرتضى لن ينسى «يوم الاصطبل.» كان هذا اليوم ما عتم يرويه أبو سلمان، شلوموكتاني الكردي، وحين يرويه تعود ابتسامته المتميزة وتعلو وجهه.

صرخ ولي الجسيم الشحيم وقد اختلط شره بالخوف وغضبه بالجبن الصارخ:

- الروس أعداء المسلمين، وها قد أقترفوا في صبلاخ مذبحة، وستأتي الفرصة المؤاتية للثأر لها، لكن الوغد أخي قد ينتهز الفرصة فيدس لنا لدى أعدائنا الروس دسيسة يصبح أمامها يوم الاصطبل نسيًا منسيًا، بعد أن تشغل مكيدته أذهان الناس وتملأ ألسنتهم فيتغنون بها والزمن يسير في مقدمتهم منشدًا.

ضحك السفّاح جعفر أكبر حتى تراقص كرشه وخرّ لعابه وجأر:

- وهل تصدق هذه الخرافة حقًا؟ إذا كان لم يشفع له جيش المؤمنين العثمانيين فكيف تشفع له جيوش الكفار وهي تقتل بالمسلمين وتعيث بنا ذبحًا وتنكيلاً؟!

Twitter: @ketab_n

لم يقتنع ولي حاجي زادة تمام الإقتناع. ظل هاجس شرير يضاهيه شراً يدغدغ كرشه الهائل فيرتعص ويعبث بشاربه المدبب فيتراقص، ومع ذلك فقد نجا من هذا الخطر أيضاً. كان في رأس مرتضى حاجي زادة القابع فوق جسمه الهائل، ذرة من عقل، لم تفته فكرة الدسيسة والثأر، فيوم الإصطبل الذي لم ينسه الناس حتى اليوم، كان جرحًا في كرامته، مفتوحًا وينز صديدًا يتزايد مع مرور الأيام. أيام وشهور وأعوام الثأر الطائش، لكن ذرة العقل هذه قهرت فكرة الدسيسة ووضعته أمام حقيقة ثابتة. قال له عقله بإصرار «لن يعين الروس في هذا البلد مسلمًا على مسلم، ولو فعلوا فماذا سيقول عنه أهل صبلاخ؟! سيقولون أن مرتضى أستعان على أخيه بقتلتنا الكفار.» وفي هذه الحالة سينضم أخيارهم إلى أشرار ولي، وستحظى أنت بلعنة تفوق لعنة يوم الإصطبل.

لم يستطع مرتضى حاجي زادة أن يقرأ الغيب كما قرأه أبو سلمان، لكنه ريث نفسه وصب على حريقه المضطرم، من ماء الصبر ما جعل هذا الحريق يهدأ إلى حين، ولكي ينال ولاء الناس في صبلاخ، أخذ مثلهم يجاهر بعدائه للروس، وإسوة بهم كان كلما رأى جنديًا روسيًا، بصق على الأرض. تحقق حدس أبي سلمان شلومو كتاني. وانفغرتْ هوة من العداء العميق بين مسلمي صبلاخ والجنود الروس الذين يفعمون البلدة كالنمل. يبصق الصبلاخي المسلم، كلما صادف روسيًا، ويرميه صبيان المسلمين بالحجارة، ثم يلوذون بالفرار. كان هذا يحرك غضب الجنود «الموسقوف» السكارى، فتفلت من بنادقهم رصاصة غالبا ما كانت تصيب قلب الهواء، ولكن حدث أيضا أن أصابت المسلم الذي لم يستطع أن يكظم غيظه وهو يرى في بلدته هؤلاء الكفار، قتلة اخوته، فكان إما أن يُحمل إلى بيته جريحًا، أو ينضم إلى قافلة شهداء ذلك اليوم المشؤوم.

دائرة مفرغة لا تنفصم بل تزداد حلقتها إحكامًا مع مرور الأيام...

* * *

وتمضي في طريقك شارد الفكر واللب، لا تتعمد أن تمحو ابتسامتك عن طلعتك التي هربت منها السعادة، لكنها تفرّ مع هذه السعادة وكأن على عاتقك تحمل الدنيا. السماء صحوة زرقاء، لكنك تراها غائمة بسحب سوداء، القمر بدر، بيد

Twitter: @ketab_n

أنك لا ترى غير المحاق، وهواء جبال كردستان العليلة المنعشة، تخنقك. أنت وحدك، من يحمل هموم هذه البلدة كلها. وحدك من يعرف أن ما يحدث لها، ليس إلا بداية الإعصار. شريكك وحبيبك مير علي، تتجهم لك طلعته مع الدنيا، حتى محمد وأحمد وحميد قلّ لعبهم البريء مع سلمان وصيون ومريم.

تسأله عن ذلك فيقول لك:

– اسأل هؤلاء الروس الملاعين!

أنت، تأبى أن تصدق، بل تتمادى إلى أبعد من هذا فتقول له

– أنت واهم يا أبا محمد. ان محنة صبلاخ ستوحد بين أهلها جميعًا. فالصبلاخي شقيق الصبلاخي، والكردي صنو الكردي، ولن يفرق بيننا الغرباء أبدًا. بل حتى ولي ومرتضى حاجي زادة يمكن أن يتوقفا عن محاربة أحدهما الآخر حتى ينزاح الكابوس ويولّي عن بلدتنا كل الغرباء!

يفحم مير علي طويلاً ثم يقول:

– ما يفقدني صوابي الآن، هو أن تجار صبلاخ وغيرها من مدن إيران وأذربيجان كانوا يتاجرون معهم. ونحن من بينهم، كان هؤلاء التجار يعطونهم الذهب الخالص ليأخذوا منهم سقط المتاع.

فتضحك، رغم الحزن الدفين وتقول:

– ما تسميه سقط المتاع، هو حياتنا يا مير!

يغضب، ويرتفع صوته:

– صحيح أني وأنت لم نشتر منهم الطعام، إلا أن معظم التجار جلبوا أنواعًا من الطعام من روسيا، طعام نأكله فيتحول إلى فضلات، يعني أننا أعطيناهم الذهب الخالص وحصلنا منهم على الخراء!

تقول له محاولاً اقناعه بكل ما أوتيت من قوة:

– إننا لا نستطيع العيش بلا طعام يا مير. وما تسميه بالخراء يا أبا محمد، هو ليس ما تظن، بغض النظر عن مصدره. وما اشتريناه أو اشتراه غيرنا من التجار كان الحياة وليس الخراء يا مير!

يتجاهل مير علي هذه الحقيقة، فما حدث في صبلاخ لا يمكن أن يغفره للروس

Twitter: @ketab_n

إنسان مهما كان. ويستطرد،

- وهم الآن يعطوننا الموت. ألا ترى هذا يا أبا سلمان؟!

أجل.. السنين العجاف قد كشفت عن ذاتها معلنة.. ها أنا أجتاحكم منذ الآن! والناس في صبلاخ مشغولون بما يحدث. إنهم يعيشون ساعتهم وينسون غدهم وما بعده، أما أنا، فلم أكن أفكر فقط بالموت قتلاً بالرصاص، كان ثمة ما هو أبشع من هذا الموت. موت، من أبشع أنواع الميتات. موت رهيب فظيع ولكن بوسعنا أن نتفاداه طالما لم يفت الوقت بعد.. إنه الموت جوعًا!

وذات صباح، وأنت عائد للبيت من الكنيس، والوقت ما زال صباحًا، صادفت المرأة المجهولة المرتدية ثيابًا بيضاء كالكفن. دفنْتَها في حضيض ذاكرتك يا أبا سلمان، حاولتَ أن تمحوها من خاطرك، لكن صبلاخ كلها كانت، بعد ذلك، تتحدث عن المرأة المجهولة. وصفها الناس تارة بالشابة الجميلة، وطورًا بالعجوز الشمطاء الدميمة. قالوا أن ثيابها كانت بيضاء ناصعة محضة. وقالوا بل كانت سوداء فاحمة. أجمعوا كلهم على أنها كانت تظهر فجأة، وتختفي فجأة، تمامًا كما ظهرت لك. توقفت أمامها يا أبا سلمان. إستغربت أن ترى امرأة تتسكع في طرقات صبلاخ المسكونة بالموت في هذا الوقت الباكر.

وسألتها:

- ماذا تفعلين هنا أيتها اليهودية؟!

لماذا قلت «يهودية؟!» لماذا لم تقل يا «مسلمة» أو «يا مسيحية» أو مجرد «يا فتاة» أو «يا امرأة؟!» لا تدري بالطبع أما هي فضحكتْ ضحكة عذبة،.. عذبة لكنها تحمل برودة الموت، وتنفخ الرهبة في الأعطاف.

- أنا لست يهودية ولا مسلمة ولا مسيحية! إني أنا المرأة - النذير! جئتُ أحذّر الناس في صبلاخ المبتلاة باللعنة!

كل جليد صبلاخ كسا فؤادك.. لا تنكرْ أنك فزعت أيها الكردي العنيد الشديد المراس. وأنك أخذت تتلو من المزامير ما يطرد الجان والعفاريت والقوى الغيبية الشريرة. بيد أن المرأة لم تختف. مكثت حيث هي، تطلق ضحكاتها الصقيعية النافذة إلى الحنايا. وقالت من خلال عاصفة ضحكها الشديدة البرودة.

Twitter: @ketab_n

- لا تحاول يا شلومو، فلستُ بجنية أو عفريتة، أنا أقوى من الجان والشياطين، أفلم تسمعني أقول لك إني أنا النذير، فاحذر.. وحَذِّر يا أبا سلمان!

واختفت عن أنظارك. فركتَ عينيك، نفضت رأسك، قرصت ذراعك. الكابوس كان حقيقة، حقيقة حاولت نسيانها أو كبتها، لأنها أخافتك كثيرًا، أفزعتك، جعلتك ترتعد هلَعًا. وخجلتَ، كبرياؤك تَخدشت فكتمت الأمر، لكن الناس في صبلاخ أخذوا يتحدثون عن المرأة التي تظهر على هيآت متباينة وبثياب مختلفة، فتنذرهم وتتوعد... ثم تختفي عن الأنظار!

* * *

قال لي شريكي مير علي:

- أتريد أن تحتكر كل طعام الدنيا؟ زريبتك اكتظت بالبهائم، وأقنانك اختنقت بالطيور، ومخازن طعامك في بيتك ضاقت بما فيها. إن لديك ما يكفي أهالي صبلاخِ بأسرها ستة شهور بالأقل وما يكفيك وأهلك وأقاربك أعوامًا!

قلتُ له:

- أريد المزيد. طالما الحصول على الطعام مازال بالإمكان فإذا حل القحط فلن يشفع لنا المال، ولن نستطيع أن نأكله عوض الطعام كما سبق أن نبهتك يا شريكي العزيز.

كأنما أقتنع. سألني بلهجة متهاودة.

- وماذا ستفعل يا شلومو والطريق إلى موسكو واسلامبول مقطوعة؟!

- طهران لا تحارب، ومنافذ التجارة منها وإليها ما زالت سالكة..

وسهمتُ لحظة ثم طرقتني فكرة لامعة.

- سأتسوق من طهران! نعم. سأتسوق من طهران!

وشاهدتني «أم البنين» أربط جوادين بالعربة الكبيرة فسألتني جزعة.

- إلى أين تنوي الذهاب في هذه الأيام المزروعة بالمخاطر يا أبا سلمان؟!

واصلتُ إحكام ربط الجوادين وأنا اقول،

- إلى طهران يا أسمر!

ضربت صدرها هلعة، شحب وجهها، إستنكرت.

Twitter: @ketab_n

- الموت يدور في الطرقات وأنت تعتزم السفر؟!

- مازالت بعض الطرق إلى طهران آمنة.. هما فرسخان من الخطر، لو تعديتهما، فكل إيران تصبح أمامي آمنة!

- وإذا لم تتعدهما، لا سمح الله؟!

فقلت مقتنعًا..

- الله معي يا أسمر، فإذا عدتُ بالطعام سالمًا كفيت أهل هذا البيت وكل الأقارب والأصدقاء ممَّن لا يريدون أن يفهموا، شر الجوع والموت جوعًا.

قالت، مندهشة، مرتجفة، جافة الريق وتحاول إقناعي بالعدول:

- البيت لم يعد يسعنا من كثرة ما به من خيرات.

فعدتُ وقلتُ بإصرار :

- أُريد المزيد من الطعام يا أسمر؟ أُريد المزيد. لكي أموت لو أراد الله ذلك، مرتاح الضمير!

* * *

هي ذي طهران، متألقة كما عرفتها، تسمع بالحرب ولا تراها. تفيض بحيوية السلام. لا يتحارب إلا المجانين! وصلتها بسلام، سالكًا طرقا شرقية جنوبية. ثلاثة أيام سافرت، مصحوبًا بدعوات أسمر الصادرة من حشاشة روحها، ورعاية الله. ضمني الأولاد، وظنني سلمان مسافرًا للمتاجرة كعادتي فأراد مصاحبتي. دائمًا توسمت في هذا الولد ميل أبيه إلى التجارة. وها هو ذا الآن كما كنت، تاجرٌ في الولايات المتحدة. رأيت إشفاقًا على وجوه الجميع لم ينجُ منه حتى وجه ناحوم الأعجم الصغير، بل حتى إستير رمقتني بنظرة خرساء فيها قلق وأشياء كثيرة أخرى. قلتُ لها:

- إن شئت فخذي الولدين وامضي إلى أهلك فامكثي هناك يومين أو ثلاثة.

رأيتها تبتهج، أما أستير الصغيرة فكانت مبتهجة بالطعام. رضعت حتى اكتفت وتجشأت فبدا عليها الارتياح. لعلها الوحيدة في هذا البيت التي لا تعبأ بكل ما يحدث ولا يهمها إن غاب أبوها أو بقي معها. إستير الكبيرة أمها، يسرها ذهابي أكثر من مجيئي.. إذ ستذهب لبيت أبيها، إنها تبتهج بذلك كما تبتهج الطفلة

Twitter: @ketab_n

بالطعام، أما طهران وسائر مدن إيران البعيدة عن الحدود الشمالية الغربية، فمثل إستير الصغيرة، تبتهج بحياتها ولا تكترث بما تحدثها الحرب من مآسٍ وفظائع، وأحمد شاه يرفل في ثياب مجونه واستهتاره ولا مبالاته، لا يهمه إن مات أهل أذربيجان وصبلاخ كلهم أو مضوا للجحيم! بيد أن اتخاذه موقف الحياد، لم يأت بسبب فطنة أو حكمة، بل بسبب نفوذ خارجي وانعدام المصلحة وصداقته للجانبين. وتساءلتُ «لماذا لا يترك أهل صبلاخ بيوتهم ويفرّون هاربين؟ لماذا لا يتدفقون على طهران بأسرهم، محتمين بعاصمة بلادهم مما يحدث ومما هو آت؟!» ولم أعثر على جواب، فها بي قد جئتُ إلى طهران مستبضعًا ولست قاصدًا فيها مكانًا يؤيني وأسرتي. في ذلك اليوم كنت، رغم فطنتي، على أكبر قدر من السذاجة، لقد كان يخيل لي أن الإنسان إنما يولد في بيت ليموت فيه، وأن بلد المرء وحيه وزقاقه وبيته، هي قدَره الملتصق فيه مدى الحياة. إلا أن ما جرى لي فيما بعد حطم بي مفاهيم وأوهامًا كثيرة وأكد لي على أشياء لم تكن تخطر على بالي وأنا أمضي بعربتي في شوارع طهران يومئذ، لأعود منها بالمزيد من الطعام إلى صبلاخ المنكوبة المعرضة للمجاعة.. دعني أضحك الآن وشاركني ضحكتي فأنت على علم بعدد البلدان التي جبتها والمدن التي حططت فيها رحالي. أفلم تصبح بغداد موطني الثاني؟! إنني يوم طُردنا منها شعرتُ وكأنني أُحْمَل ميتا بعيدًا عن بيتي ومكتبي ومرابعي وأهلي وأصحابي وشوارعي ومقهاي. في تلك الساعة، وأنا أدعي الذكاء وتغيب عن عيني حقائق غاية في الخطورة، كنتُ أجوب شوارع طهران وأفكر في بيتي وأهلي وأصدقائي وكل من يسكن في صبلاخ، أكاد لا اشعر بطمأنينة هؤلاء الناس المكتظة بهم المدينة الكبيرة. الطوبخانة، والقصر. والبازار يحفل بكل ما يشتهي القلب والخاطر. إرتفعت الأسعار، هذا صحيح، لكن الخير يغمر، ما فتيء، الأسواق. ولا مجال للتريث لتكحيل العين بمناظر الأمان والطمأنينة والسلام. إن صبلاخ كلها في قلبي وعلى كاهلي لن يفارقني كابوسها حتى وأنا أجوب أرجاء هذا الحلم الجميل. وتناهت إلي أخبار يعرفها أهل طهران، دون أن يحرك بهم ذلك مكامن القلق، إلاّ أنها زادت من متاعبي وأعبائي وحفزتني إلى إنهاء مهمتي كي أُسابق الريح عائداً إلى الأهل في

Twitter: @ketab_n

صبلاخ. إستبضعت أطنانًا من المؤن والغذاء واشتريت هدايا لكل أفراد العائلة، وفي يومين امتلأت العربة وارتفعت الشحنة بداخلها كالمنارة فربطتها بإحكام وتهيأت للعودة إلى صبلاخ، قمتُ في اليوم الثالث قبل طلوع الفجر، صليت وفطرت وركبتُ العربة متوكلاً على الله. ضربتُ الحصانين بالسوط محاولا الإندفاع، بيد أن العربة تأرجحت لكنها لم تتزحزح من مكانها. في تلك اللحظة فطنت إلى مدى حرصي وطمعي في الحياة، بيد أن الشهور القادمة أثبتت براءتي من الجشع. كنت كعراف صادق يقرأ الغيب. أشبه بعرافة دلفي وكنت كما قال مير علي شريكي، مستعداً لبذل كل ما لدي من ذهب من أجل الحصول على ما سنقذفه من أجوافنا في خاتمة المطاف. هذا الغائط المنبثق عن إكسير الحياة! تفحصتُ صُرّتي. الأصفر والأبيض مازال منهما شيء يلمع بداخلها. تركتُ العربة في الخان وأسرعت إلى سوق الدواب، إشتريت عربة وثلاثة جياد، وبحثت عن حوذي! الذهب في الصرة وأنا أبحث عن حوذي! في يومين اشتريت السوق بأسره وفي ساعة حصلت على العربة والجياد، ولكن هل من حوذي يصحبني إلى صبلاخ؟! حوذي يا ناس! حوذي يصحبني إلى صبلاخ المنكوبة.! ويعود إلى طهران بجواد، وبما يطلب من الذهب. ما أكثر الحوذيين في طهران، لكن اسم صبلاخ هنا أصبح بمثابة التميمة، إسم الله يطرد الجن والشياطين، أما اسم صبلاخ فيطرد من أمامي كل حوذيي طهران. إنهم ما أن يسمعوا اسم «صبلاخ» حتى يختفوا ويتواروا عن الأنظار! حكماء ويتشبثون بحياتهم بعيدًا عن خطر الموت.. صبلاخ المسكينة أصبحت تعني الموت، ولا يخرج منها أو يقصدها غير أمثالي والروس والعثمانيين والألمان!

بح صوتي في الطلب وما من مجيب. أفأستأجر مناديًا يطلب لي حوذيًا ينوي الإنتحار؟! اللعنة على من اخترع الحروب! أترى الشاه مازال يطلبني؟ وأين جلال رافضي الذي أخرجني من السجن؟! تعال يا رافضي وجد لي حوذيًا يرافقني لصبلاخ مقابل كل ما في صرتي من الفضة والذهب! إن في صرتي ما يكفي لشراء أطنان أخرى مما يسميه شريكي خراءً، لكنني مستعد أن أعطيه كله لحوذي يقبل الذهاب إلى صبلاخ! بل إلى حدودها ومشارفها وحسب. لا فائدة!

Twitter: @ketab_n

سأضطر إلى قضاء ليلة أخرى في طهران. فها باليوم الثالث ينقضي وأنا أبحث عن رجل، أي رجل، مجذومًا كان أو أحدب أو أعرج! رجل يرضى بقيادة عربتي الثانية حتى مشارف بلدتي صبلاخ. صليت العصر وأنا واقف بين جمع من شذاذ الآفاق وحثالة الناس! طوبى لشذاذ الآفاق وحثالات الناس في طهران. ما داموا ينعمون هنا بالطمأنينة والسلام!

كنت على لحم بطني، لم أتناول شيئًا منذ الصباح، إستخرت ربي ودعوته دعوة صادقة ناذرًا الاّ أضع في فمي طعامًا حتى أعثر على الحوذي المنشود.

وقبيل صلاة المغرب استُجيب دعائي ووجدت الرجل، كان شابًا إشتهته المنية فألقت به للجوع والإملاق، وامتصت لحمه حتى بانت عظامه من وراء ما رق من جلده.. أطعمته حتى رُدت روحه، ثم أخذته للحمّام وكسوته، نظر إلى نفسه في مرآة فأنكرها ولم يعرفها. ورأى الليرة الصفراء ترسل بريقًا يعشي عينيه. طار عقله وهتف:

– أنا معك يا خواجة، فإن متُّ فموتي خير من حياتي، وإن رجعتُ إلى طهران سالمًا فسأوظف ليرتك بعمل أقتات منه وأحيا في طهران حياة الملوك!

نسيت نفسي في عباس، إنه أملي الوحيد في عودتي إلى أهلي وبلدي ولا ينبغي أن أتركه لحظة واحدة كي لا يغير رأيه فيفر مني. ربطتُ «ذيلي بذيله» واصطحبته معي إلى الخان فصليت العشاء وأكلت وأطعمت معي رفيق طريقي، وبعد ساعتين كانت سلعتي قد توزعت على العربتين بالتساوي. وبعد أن ربطنا الجياد وأحكمنا شدّ السلع، تنفستُ الصعداء، أخيرًا سأعود إلى صبلاخ، إلى أهلي وأحبائي وسكان بلدتي. إلاّ أنني بعد هذا اليوم الطويل وجدتني أرتمي بين أحضان نَصَب قاتل. تمددتُ لأهجع قليلاً وأتحرر من تلك الأحضان الكريهة، فإذا الإرهاق والأرق يتنافسان على جفنيّ، نمتُ ولم أنم، إرتياح وقلق، حتى صدح ديك الفجر فقمت وصليت. أيقظت عباسًا فأطعمته شيئًا من زوادتي، وركبنا العربتين تاركين طهران وراءنا وأنا أتمتم بصلاة الطريق.

أقول لعباس مستعجلاً الوصول لصبلاخ الجنة – الجحيم الغالية:

– إفتح عينيك جيدًا وسر معي. فالطريق طويلة ومتعرجة.

فيقول لي:

Twitter: @ketab_n

- نكد طالعي لا يعني غباء في عقلي، العكس هو الصحيح، إذ لولا فطنتي وذكائي لما وافقت على المجيء معك، في محاولة لتغيير قدري.

رد عجيب لكنه الصواب في الأرجح، وربما كان من الصواب أيضًا لو وفّرت على نفسي وأهلي أهوال الحاضر والمستقبل فنيمّم كلنا شطر طهران، لكن أغرب ما في الأمر، أن هذه الفكرة ما كانت أبدًا لتخطر في عقل صبلاخي. لقد كانت في تلك اللحظة نطفة في رحم الغيب. وكان الحبل بها سيستغرق مساحة زمنية تفعمها الأهوال ويبشمها الموت، وحقائق هي والأساطير سواء. مسافة طوتها عربة كوابيس مفقدة للعقول، ولما وضعها الغيب جنينًا، كان معظم الأهوال قد استحال إلى صخرة جاثمة على الذاكرة والفكر والشعور. جزءًا من الماضي، لكنه دائما، الحاضر أيضًا والمستقبل. إنه يرفض أن ننساه، ويصر على أن نحياه بلحظاته وثوانيه. يستغرق حياتك في اليقظة، ويقض مضجعك عند النوم، وكنتُ أستعجل الوصول إليه، وكان عباس يريثني ويقول:

- لنرفق بأنفسنا وبهذه الحيوانات المسكينة، فماذا نفعل لو نفقت في الطريق؟!

صدق عباس. ولولا نكد طالعه لكان أصبح مستشارًا لدى الشاه ولكان داواه من عبثه واستهانته بالناس واستهتاره بمعاناتهم. لا. فهذا الذكاء في الأرجح، يبعد أصحابه عن مواطن السلطة وعن القصر. فلعل عباسًا سيحسن استغلال الليرة الذهبية، حين يعود بها إلى طهران، بعد أن نصل إلى صبلاخ برعاية ربي المصاحبني في سيري ووقوفي وقيامي وقعودي وصحوتي وهجوعي.

أشتري لعباس في قرى الطريق ما لذ وطاب من الطعام، وأشتري للخيل علفها المفضل، ولنفسي الفاكهة، وخضارًا تؤكل نيئة. أفحمني عباس إذ سألني عن هذا، قلتُ إنها حمية أوصاني بها الطبيب. كذبة بيضاء. أدفع بها شبهة يهوديتي وأنا معه في طريقنا المقفرة الطويلة، لكن فطنته غلبت كذبتي وقال:

- تفعل هذا لأنك «كليمي» يا خواجة. رأيتك تصلي، لكنك تخافني فتكذب علي. إني خادمك يا سيدي! واعتمد علي فلستُ بالذي يخون النعمة وينكر الجميل. لقد أطعمتني ونفحتني بما لم أحلم به طوال حياتي، وقد يتغير مصيري وقدري

Twitter: @ketab_n

بفضلك يا سيدي! وليت الله يبلغك بيتك بالسلامة، فتأكل فيه أحسن المأكولات وأطيب الطعام!

هذا الشاب المدهش يجب أن يستبدل شاه إيران، ويحكمها عوضًا عنه، فهكذا فقط ستتنفس شعوب إيران الصعداء. وقلتُ وكلامي يصدر من صميم القلب المنتعش بكلام عباس.

– ليتني استطعت أن أستضيفك في بيتي يا عباس، لكن صبلاخ الآن محتلة، وخارج نطاق إيران، تركتها وهي تحت الاحتلال الروسي ولا أدري من سيكون المحتل حين نصلها بعون الله!

وتمنيت في سري على الله، أن أجدها كما غادرتها، وإلاّ فقد يكون هذا آخر عهدي بها وبالدنيا. وها بخفقة الحنين والشوق تطرق صدري مع خفقات القلب. هذا الضعف المفاجيء يداهمني. من أين ولماذا؟! إني أنا النخلة الشامخة التي لا يلين لها مراس. وقلتُ لعباس بعد انقضاء ثلاثة أيام بلياليها التي كنا نقضيها بخانات الطرق أو «نعسْكر» في الخلاء.

– حان الوقت لأن نسرع يا عباس، فنحن الآن على أقرب ما نكون من صبلاخ، ولم يبق بينك وبين حياتك الجديدة غير ما تستغرقه العودة إلى طهران.

هدوء متوجس حذر على مشارف صبلاخ، وأنا مرهف السمع والبصر، أتوقع سماع انفجار قذيفة أو أرى وميضها، لحسن حظي خاب ظني فطمأنني الهدوء السائد، ورأيت على مشارف البلدة معسكراً للروس. خفق قلبي خفقة حنين أخرى. أخرجتُ صرتي وفتحتها. توهج الذهب من داخلها، وفي غرة من أمر عباس أخرجت منها ليرتين في لون سنابل القمح وقت الحصاد.

– توقف يا عباس!

– لماذا؟

لوّحتُ بالليرتين، رمشت عيناه طويلاً، بدا لي أنه لا يصدق، وأنه يحلم، بذل مجهودًا ليكبح جماح جفنيه المتراقصين، أخيرًا قال:

– لم نصل بعد!

– عندما نصل إلى معسكر الروس، بادر أنت إلى حل الجواد المربوط خلف

Twitter: @ketab_n

عربتك، فهو لك مع الليرتين، وستعود به إلى طهران! والآن خذهما، وضعهما في مكان أمين، وهذه أيضًا ليرة فضية تشتري بها طعامك في الطريق!

تناول الذهب والفضة وهو في أحشاء الحلم، خرج منه بسرعة إلى واقع اليقظة فسأل:

- وكيف ستصل إلى بيتك يا خواجة؟!

قلتَ باعتدادك المعروف يا أبا سلمان:

- لا تخف علي، وسترى ما سأفعله بعينيك!

* * *

خرج الحي بأسره على ضجيج عجلات العربتين، كان أحد الجنود الروس يقود العربة الثانية.. رشوت قائده بثلاثة مخروطات من السكر المعقود وبكل ما تبقى بصرتي من المال. زغردت أسمر وقشنك وعدا الأولاد إلي. اجتمع الجيران والأصدقاء وأهل البيت. تعاونوا جميعًا على إفراغ المؤن من العربتين، ومعهم ديمتري، الجندي الروسي قائد العربة الثانية. وقلتُ لقشنك:

- عجلي إلى قبو المشروبات وهاتي قنينتين من أفخر النبيذ.

ديمتري كعباس لم يصدق عينيه. بداخله استيقظت فجأة قوة تعادل قوة الجياد الأربعة، شمر عن ساعديه المفتولين وعمل بمثابة ستة رجال، وسرعان ما احتضن الزجاجتين بولَه من يحتضن حبيبة القلب وقفل راجعًا بالعربة الجديدة وجواديها إلى المعسكر.

* * *

لم أر إستير والطفلين فسألت أسمر:

- ألم تعد إستير بعد من بيت أهلها؟

قالت أسمر، وهي والأولاد يشكلون دائرة كهالة حب من حولي:

- عادت البارحة، وخرجت تتنزه مع ناحوم وإستير، ولعلهم ذهبوا إلى البستان.

البستان! كم مرة حذرتها من الذهاب إليه منذ نشبت هذه الحرب الملعونة؟!

لولا الهدوء السائد في صبلاخ لأرسلتها لبيت أبيها إلى غير رجعة. تذكرت أن

Twitter: @ketab_n

موسم قطاف الفاكهة قد حان ومعه موسم تحضير مؤونة الشتاء. غداً سآخذ العمال لقطف الثمار. أسمر! هذا العام سنضاعف المؤونة، أما النبيذ والعرق فسنعد منهما خمسة أضعاف.

نظرتْ إلي أسمر مستغربة فقلت لها:

– ألا تعرفين أن للخمرة مفعول السحر في كسب ود الروس؟! أفما رأيت ما فعلت القنينتان بالرقيب ديمتري؟

وسهمت أسمر، فسألتُ وقد شابني بعض القلق،

– ماذا ياأسمر؟

نظرتْ من حولها، وإذ رأت الأولاد قد ابتعدوا مع قشَنك، تمتمت بخوف باد:

– فاطمة يا أبا سلمان! رضا يتلاحقها، وقد بلغت به الوقاحة أنه أمسك بيدها.

فقلت جازماً:

– فاطمة شريفة وقوية يا أسمر، والشرف كالذهب المحض لا يصيبه الصدأ حتى لو تعرض للماء والرطوبة.

ودخلت إستير تحمل إستير الصغيرة وتسحب ناحوم وهو يحجل كالسمانة ويتعثر، هرعتُ إلى الطفلين ألثمهما، ورددتُ على تحية زوجتي الصغيرة، رداً فاتراً ولم أضف شيئاً.

* * *

وعاتبني مير علي قائلاً:

– ما عدت تأتي للمكتب ولا تتفقد المخازن منذ نشبت هذه الحرب. تركت كل شيء علي، أما أنت فمشغول فقط بتكديس الطعام.

فضحكت، ثم سهمتُ ثم تمتمت:

– لا سوق لبضاعتنا في الحرب يا مير.

وكأني قلت نكتة أضحكته، لكن ضحكته كانت ضحكة السخرية على ما يبدو، إذ أخرج من عبّه صرة من المال وقال:

– بعتُ خلال غيابك مائة طاقة من الخام والزري والحرير وخمسين دزينة من اليشامغ وعشرين طقماً من الصيني وعشرة سماورات، وهذا نصيبك من الأرباح.

Twitter: @ketab_n

تناولت الصرة منه ووضعتها في جيبي وقلت:

- الناس مازالت غافلة يا أبا محمد، ولو عقلوا لاشتروا عوض الكماليات ما تسميه أنت بالخراء!

فقال ساخرًا:

- دعهم يهنؤون بالكماليات قبل أن يقتلهم الروس.

غضبت وعلا صوتي حاسمًا قاطعًا:

- الموت قتلاً أرحم بكثير من الموت جوعًا.

- إنهم يأكلون كفاف يومهم، رغم أن الطعام قد قلَّ في الأسواق.

- أرأيت يا أبا محمد؟! قد قلّ الطعام في الأسواق. وما هذا غير البداية، ويرحمنا الله مما سيأتي بعدها!

* * *

Twitter: @ketab_n

(الجولة الرابعة)

يعرف شلومو كتاني أن هذا الهدوء في صبلاخ، هو هدوء زائف خادع، غادر، وأنه هدوء ما قبل ارتجاج الزلزال المدمر، وتقيُّئه حممه الجارفة. يقترب الشتاء وتقترب معه العاصفتان. عاصفة جليدية باردة، وأخرى ساخنة تمطر النار والحديد والدمار، كثيرون في صبلاخ لم يستوعبوا، بعد، ما يحدث، لكننا لو استثنينا المجانين، وضعاف العقول، يبقى ثلاثة أشخاص، يمرون بأحداث البلدة ولا يكادون يرونها، أو لا تهمهم على الإطلاق. فأمرّ، أنا الزمن، بهم فلا يحسون بوقع أقدامي الثقيلة في هذه الأيام. هؤلاء الثلاثة هم ألماس إبنة عزريا الصائغ، وحسن بوزورك، ورضا علي.

كانت ألماس تختال في ثياب عزّها في الدروب، وهي تأنف من أن تدوس الأرض بقدميها. مزهوة بشيء، حتى والدها عجز عن تشخيصه. كانت تبصق، تعاليًا وخيلاء، على الرجال والنساء، وعلى اليهود والنصارى والمسلمين، وظنها جنود الروس ذات يوم مسلمة، تعلن ببصقتها، عن احتقارها لهم، فأشهر جندي ثمل بندقيته، وصوبها نحوها. ولولا أن زميله حال دونه ودون إطلاق الرصاصة، لكانت الخيلاء والنفاجة قد لقيا مصرعهما متجسدين بألماس، على يد جندي روسي سكير. لم ترضَ ألماس بعريس. كان أكثرهم حظًا يحظى منها بإدارة ظهرها وإشاحة وجهها وبسحنة تعبر عن الإستهزاء والإستهانة. فإذا كان قليل الحظ، فإن الماس كانت تطرده مع أهله من بيتها معفرًا بتراب المهانة، وكرامته تنزف من جرح فغرته كلمات ألماس الجارحة البذيئة. أبوها، كثيرًا ما تخرسه تصرفاتها. فيفحم باكي القلب، معول الفكر، ثم عندما يكفكف دموع قلبه ويمسح عن عقله عبرات الألم، يفكر في أمر ابنته الوحيدة. يحاول أن يعرف: من أين ورثت ابنته هذه الغطرسة الكاذبة، وهل هي غطرسة حقًا، أم ظاهرة تكاد تتاخم الجنون، أم هو شر جبلت عليه رغم مظهرها الجميل؟! لم تكن أمها الراحلة هكذا، كانت نقيض إبنتها، والأب يأنف من سلوك الإبنة وينفر من سيرتها نفوره من قيء

Twitter: @ketab_n

المُهاض، كانت أول العنقود وآخره، ماتت أمها وهي تضعها، خالاتها كرهنها ودعونها «قاتلة أمها!»، هو، أحبها حبين، حب الزوجة الميتة وحب الابنة، اشفق عليها إذ وُلدت يتيمة. نذر نفسه لها وحدها، حرّم على نفسه الزواج ثانية كي يتفرغ لقاتلة أمها، ألماس. أغدق عليها من كل ما أوتي من نعمة. عاش لأجلها وعمل لأجلها، وكسب لأجلها. الرفق والدلال، كانا نصيبها من هذه الحياة. أما اليتم، فأمر أراده الله، ولا مردّ لإرادته، سؤال ظالم كان يحفر في دماغ عزريا الصائغ وجنانه دائمًا «هل أفسدها الحرمان من الأم أم أفسدها فرط الحب والدلال؟!» ألح هذا السؤال وسيظل يلح عليه حتى يصيبه القدَر بأجله المحتوم، وإذّاك أيضًا سيبقى فاغر الفم بهذا السؤال المحيّر. كانت ألماس واحدة من ثلاثة صبلاخيين، ليسوا بالحمقى ولا بالمجانين. لكنهم يدوسون علي، أنا الزمن، ويهزؤون مما يجري من حولهم من أحداث جسام. إلا أن الحياة لا ترحم أحدًا ولن يبقى أحد سادرًا في الغفلة على غفلته، لم توقظ هؤلاء جعجعة المدافع ولا أرتال القتلى. كانوا منشغلين بشيء ما داخل ذواتهم، نرجسيين، لا يرون غير أنفسهم.. ولكن..

وتبهرج المراهق حسن بوزورك، وتبختر في أفخر ثيابه، ولم يعجبه الخنجر المرصع بالماس، فتمنطق بطبنجة أبيه التاجر الكبير، وهي طبنجة كان والده قد اشتراها من شلومو كتاني، بعد عودته من رحلته التجارية إلى موسكو، رحلته التي حاسبه عليها الشاه أحمد، وعاقبه بالجلد وأرسله لزنزانة منسية، حتى خلصه منها رجل يُدعى جلال رافضي!

وُلد حسن ذكرًا بين بنات أربع، يقبعن دائمًا مع أمهن في خدرها. لا يغادرنه، بأمر من الأب، إلا لمامًا، إنه الوريث الشرعي ورجل البيت من بعد أبيه. أيام رحلات الوالد الطويلة، كان هو ولي أمر أمه وأخواته، رغم صغر سنه. تعلّم معنى السلطة وهو ناعم الاظفار، خيِّل لحسن بوزورك الصغير، أنه يمتلك الدنيا وكل ما عليها. كان يلعب بالذهب حقيقة وليس مجازًا، ومن كان في مركزه ومركز أبيه لا يختزن الطعام، كما يفعل هذا المجنون شلومو كتّاني اليهودي جاره. إن شلومو كتّاني ينذر الناس بالويل والثبور. إنه نبي الغضب، لكن حسن بوزورك، ما زال

Twitter: @ketab_n

يسمع من أبيه الثري الكبير، أن السحر يكمن في وهج الذهب، وأن هذا المعدن الأصفر، كما يقول الأب «المصداق» يصنع المعجزات ويأتي بحليب العصافير، مثلما يأتي بحسناوات صبلاخ، زرافات وأسرابًا. إنه مثل ألماس ابنة الصائغ، ورضا علي. إنه يدوس الأحداث ويتخطاها ويطمسها في وعيه. إنه يتحداني، أنا الزمن، ويقول «أنا الأحداث والزمن، وأنا القدر والمصير. كل شيء طوع أمري، وأُحرّك التاريخ كالخاتم في أصبعي! أنا.. !أنا.. أنا!» إن الخنجر المرصع بالماس فيه الفخامة والأبهة والغرابة، أما المسدس فيحمل الموت، يحمل الخطر.. والقوّة، فلقد وُهب البهاء والفخامة والجاذبية. فليتزين، بعد هذا، بالقوة والرهبة لتكتمل فيه كل الصفات الجالبة للصبايا الحسان. إني - يقول لنفسه - أخرج إلى ظاهر البلدة.. أرتمي بكل فخامتي على حصير اصطحبه معي، تحت السنديانة بجوار النبع. هناك تجتمع الحسان، وَهناك يحل المحظور، هناك تتناثر القُبَل وتتلاصق الشفاه، بمنأى عن عيون الرقيب، هناك تُهصَر الخصور وتمسح يداي على الأثداء الناهدة. وسيأتي اليوم الذي تُحَلّ فيه التكك وتهبط السراويل تحت جنح الظلام، هناك، تحت السنديانة، بجوار العين بدون عيون ترى ولا آذان تسمع. ونسي حسن بوزورك أن عينيّ شاهدتان، وأن ذاكرتي لا تمحى، نسي أيضًا أن الأحوال لا تدوم، والغرور لا يدوم، وأن عمى القلوب قد تداويه الأحداث بصدفة تعيده إلى وعيه، ربما، بعد فوات الأوان.

وينتحي رضا علي طرفًا آخر من سنديانة أو بلوطة ولا يرى القتلى ولا الجرحى ولا العين ولا الصبايا ولا الحرب، ولا الجنود. فمنذ تلك الليلة، قبل ثلاثة أعوام فرغ عقله وقلبه وضميره إلا منها. فاطمة الثمرة المحرمة.. فاكهة أخيه التي لا نظير لحلاوتها ولذتها. ينكت الأرض بغصن يابس، فيرى فاطمة، كما رآها ليلة واتته أجمل صدفة. ينكتها ويستحضر الشيطان، يعيد له الشيطان تفاصيل تلك الليلة لحظة لحظة، فاطمة العارية كما خلقها ربها. مثّال ماهر هذا الخالق، أم أن من خلقها إبليس، هذا الخدن الوفي الساكن في أعماقي؟! سبحانك يا من سوّيتها، إلهًا كنت أو شيطانًا، سبحانك يا خالق الغوايات والآثام، ومحلل المحرمات، إذ جئتني بهذه الفتنة الخلاّبة المعشية للأبصار، المبددة للحد

Twitter: @ketab_n

الفاصل بين الحرام والحلال، ومن قال أن ثمة حلالاً وحرامًا؟! هيهات! ربي لم يحدد كنه الفضيلة وماهيَّة الرذيلة. وإن كان هناك حلال وحرام، فالحرام هو الجمال والدمامة هي الحلال. أوليس من الظلم أن يستمتع بالسحر الحلال ويحتكره إنسان فرد يسمى زوجًا، وأن يحظره طقس سخيف على الآخرين؟ بل أنا وحدي هؤلاء الآخرون! سبحان الشيطان خالقك والمبدع في صنعك يا فاطمة.

لا! أنت لست آلهة جمال يونانية، فأنت تزرين بحسنك بكل آلهة اليونان والرومان. ما أنت إلا غجرية أذربيجانية إكتمل فيها جمال الكون بأسره، ووضع فيها مبدعها قسطا من ألوان السحر، فجاءت تجسيدًا للكمال. وإذا كان الكمال هو الخالق، فإنك قد نافسته وزاحمته ونحيته جانبًا حتى حللت في مكانه، وإن كان إبليس هو الكمال فإنك زرعته في كياني ليبوح لي بالحقيقة، ويقول لي دائمًا «أنت جبان!» وكيف خطر لمن سوّاك أن يجبل بشرتك من الحليب الناصع البياض، لا تشوبه صفرة دسم، ولَوّنَ وجنتيك بلون وردة حمراء فاتحة ثم خطَّ بالفحم حاجبيك ورمشيك، ووضع في محجريك هاتين العينين الدعجاوين، وفي وجهك لوزات أربع. أنفك لوزة، وفمك لوزة من حولها شفتان كفلقة رمانة، وعيناك لوزتان ونضد في فمك صفين من اللآلىء فطوبى لمن يلثم هذا الفم الفياض بالكوثر والفواح بالعنبر، وقد صبغ شعرك بالقار وأرسله خيوطًا حريرية فاحمة السواد يؤذيها النسيم العليل فترتجف وتتأوه باكية مستندة إلى ردفيك وها بهذا الشيء اللعين يتوتر ويتصلب بين ساقيَّ حتى وأنا بعيد عنك، في تلك الليلة أوشكت شرايينه أن تنفجر، وتتصدع عضلته الصلبة كالحجر، ليلة ظلماء حندس كانت تلك الليلة.

أخي اللعين مسافر، والعجوزان يشخران مبتلعين في جوف الموت الأصغر. وولداك اللذان زرعتهما بصقات احليله المولج في رحمك، تهدهدهما ملائكة أو أبالسة على شاكلتك، وحميد ما زال بويضة لم تنزل من مبيضك وحوينة منوية لم يقذفها أخي الوغد بجوفك بعد، وكنتُ أظنك هاجعة بجوار الولدين، وأنا أتقلب فوق سريري، تقلّبني بيديها أشباح ناشرة أجنحة بلون شعرك ولها أظافر مشحوذة تنشب في لحمي حتى تبلغ روحي، وعقلي تتقاذفه أفكار غامضة شبقَة موجهة إلي علامات سؤال لها أجساد ذات أثداء وفروج. غُلْمة غير محددة

Twitter: @ketab_n

المعالم، تعتصر بدني وتسرق من عينيّ وسني وتبث في أعطافي سهادًا مضطربًا ملعونًا، وأظل في أوج يقظتي، ألوج معذبًا ويدركني ظمأ لاغب لأشياء مختلطة شتى. كنت ساعتئذ أفرّق بين الرحمن والشيطان. أكبت إنجذابي المبهم إليك، كلما طالعني وجهك المعشي نوره كالشمس الساطعة. كان في وجداني شيء دعاه الناس ضميرًا، حتى سرقته مني أو سرقته الصدفة الملعونة – المباركة. وسوسات إبليس كانت تشربني. عطش الدنيا يغمر كياني. ماء الكون كله لا يطفيء بي الغلة، قمتُ لأشرب، أوقدت شمعة وخلّفتُ معها الغرفة ورائي. أصبحتُ في صحن الدار. أتجه نحو المطبخ، وفجأة هب هواء، أخذ معه روح الشمعة. طوّح بالنور الشاحب، قلتُ «سأتلمس كالأعمى طريقي إلى المطبخ.» أقترب منه كالأعمى، لكني فجأة شُدِهت، أطل من شباك المطبخ نور، نور داخل المطبخ؟!، اقتربت حذرًا أتوجس ثم تجمدت بمكاني قرب الشباك. في المطبخ نور «لوكس» والشمس؛ فاطمة عارية كما خلقها الشيطان، أو الرحمن! سبحان من سواك شيطانا كان أو رحمانا بل هو بالتأكيد الشيطان فالرحمن لا يخلق غواية فاتنة قتّالة، واقفة منتصبة تغتسل داخل طست. خوطا بان مرتفعان إلى الشعر الفاحم. أصابع كشمع عسل تدلك ليلاً مخمليًا بصابون رغوته بيضاء. الإبطان تجويفان بيضاوان لا أثر فيهما لشعر محفوف أو محلوق. الرقبة أسطوانة عاجية لدنة هشة. عنق غزال بلون حمامة بيضاء يحركها نابض. الثديان نافران منتصبان كأنهما ثديا طفلة قد نبتا في التو. لا أثر فيهما لهبوط ولا قيد أنمله فكأنهما لم يمتلئا بحليب يوما وكأنك لم تلدي ولا أرضعتِ طفلين. سبحان الشيطان! الحلمتان ورديتان مسدّدتان مشهرتان وسط هالة تميل لسمرة الخبز. كم مرة رضعهما شقيقي الملعون؟ ليس زوجك منذ الآن. إني أكاد أصرخ! يداي تكمّان فمي. أريد أن أنطلق إليك كرصاصة لأضمك، لكن شيئًا في الأرض يسمِّر قدميّ، أخور. أتشبث بالحائط.. كل ما بي يندلق منصهرًا إلاّ هذا الشيء المتصلب المتفقع من فرط توتره في أعلى ساقي! سبحان من سوّاك! يداك تعبثان بالثديين، هذا بطنك كوسادة بيضاء يتوسطها ثقب، كأس صغيرة. لعابي يسيل.. أتمنى أن يملأ هذا الثقب، ها بيديك تنزلقان إلى بروز ينفر فجأة تحت عكنك. لماذا يعلو ما

Twitter: @ketab_n

في أعلى ساقيك الشبيهين بقطعة فنية أبدعها أحسن نحاتي الدنيا؟!، هنا، سنامان يفصل بينهما شفرا بعير قطعة من بدنك، سيسجد لها، لو شاهدها، العالم، قطعة من بدنك، يقال أن لكل بنات العالم عضواً يشبهها. كذب من قال هذا! أُقسم، أني لم أشهد غير فرجك، لكنني أُقسم أيضاً انك وحدك ذات الفرج في الدنيا! لا زغبة هناك، لا جذر شعرة، خُلقت، وحق من سواك، بلا شعر يستر فرجك. كمال أنت، فلا عورة لك. لكن ميراً يولج إحليله بين هذين الشفرين، وها بيديك تلجانهما. يد، تدعك شفراً والأخرى تفرك شفراً. وأنا قلبي يُدعَك. يُعتصر، خفقاته تسمع في أطراف صبلاخ. فرغ الماء من السطل. فها أنت تنحنين نحو المرجل وتصببين الماء في السطل. وها أنت تمزجين الساخن بالبارد. تولينني، بلا علم منك، ظهرك، فتبان فقرات يمكن إحصاؤها كعروقك. إنها تنحرف في شبه تقويسة، ثم تهبط نحو كثيبين مدوَّرين يشقهما غدير يصب في نهر ما بين الشفرين، إني لو طوقتك من خلفك وزحلقت يديَّ مروراً بنهديك إلى بطنك ثم إلى ذاك الحرّ المعبود، لكنت استطعتُ أن أروي قصة إسرائي إلى الجنة، وها أنت تنتصبين ثانية والطاس بيدك يرتفع إلى رأسك. الماء يقطر من هذا الجسد المعبود، كل عضو فيك مكتمل طاهر ويقطر ماءً حَلاَّه جسدك بالشهد، هذا جسمك لا يهب الماء غير قدسية وطهارة، فلماذا تغتسلين؟!

وها بيدك تتناول «حجر الرجل» الأسود. فتنحنين أخرى، ويسقط شعرك الفاحم حتى يلامس الأرض، ويختلط بالحجر الأسود، والحجر يدعك باطن قدميك، ما الحاجة وهما ألين من وجهي أنا؟!إنهما قدما طفل قد وُلد تواً، ولماذا تسكبين ماء الطست في البالوعة، وهو ماء جسمك المضمخ بماحبا خالقك هذا الجسد المعبود من طهر العالم؟..! هاتيه لأكترعه مع خمرة بدنك، بل وزيديه طهارة ببولك ليكون فيه شفائي من كل أدواء الدنيا. ها أنت تتنشفين، يا فاطمة الآن، وعما قليل ستغطين هذه الفتنة الساحرة بثياب. غطيها! فهي بدون ثيابك تصرع كل البشرية. أستغرب كيف يبقى زوجك الوغد حياً حين يراها؟! وكيف سأعود إلى فراشي بدونك؟ وكيف سأظل حياً بعد الآن؟!

وابتعد عنك بحذر اللص. كان رضا علي يترنح وكأنه أُترعَ كل ما في الكون من

Twitter: @ketab_n

خمرة. نشبت صورتها في رأسه، بكل دقائقها، إحتلت كل فراغ في هذا الرأس من بعد أن نزعت منه دماغه وأحالته فراغًا كله. هناك، بقيت مزروعة كشجرة تنمو باستمرار، وتحتل كل جارحة فيه وتضيق بها جدران رأسه فيكاد بها ينفجر. هناك تثمر الشجرة صورًا وخيالات فيرضي نفسه بخيالاته هذه، يعانقها، يلثمها شبرًا شبرًا، لا يترك بمساحات جسدها خلية إلاّ ويطبع عليها قبلة. وبخيالاته هذه يمتص رحيق فمها، ويولج إحليله في كل ثقب فيها يهصرها يعتصرها. يلتصق فيها. يحاول أن يواري وجوده بداخلها.. وأن ينصهر في بدنها ليصبح جزءًا منها، ويقطن فيها. وتمتزج روحه النجسة بذرات روحها الطاهرة، فلا يصبح بالإمكان، من بعد، الفصل بين النجس والطاهر. يعرف أن كل ما يتمناه بخيالاته، يحققه أخوه.. هو يحلم وأخوه الملعون يفعل. تقتله أفكاره والجبن والعجز، لكنه يظل يحلم ويتمنى، ولا يوجد شيء في العالم. لا بشر ولا حرب ولا صبلاخ. لا يوجد غير شجرة تكلكل في رأسه، وتضرب باستمرار، جذورها في روحه وكيانه، أنها فاطمة. عذاب يكبر وأمل يكبر، إنها فاطمة الحلم الأكبر والخيال الأعظم، ولابد أن يحققه يومًا بمعونة الشيطان!

ثلاثة أشخاص في صبلاخ تمر بهم الأحداث وهم شبه نيام عنها. ويدوسونها بالأقدام. لكن يوم اليقظة آت.. آت ولو بعد فوات أوان.

* * *

وحجر الرحى يدور وأنت مطحون بداخلها، مسحوق بين الحجرين. ويتحدث الناس عن المرأة- النذير، ويرونها بأشكال شتى وبأزياء شتى. إنها تنذر ولا تفصح، وأنت مكسور الظهر بحمل صبلاخ الباهظ. وترى الأهوال جنينًا ينمو في رحم الغيب. كلا. الأهوال ما عادت نطفة، بل جنينٌ إتضحت معالمه، عن مسخ منظره يذهب بالعقول. ويتجاهله الناس ومنهم من يتغاضى عنه استهانة. وهذا البعض يقول «هذه سحابة صيف!» ويقولون «ما صبلاخ غير ممر يجتازونه.. وسيُنسى كل هذا، في ظرف شهور أو عام» والبعض الآخر ما زال يؤمن بالمال، وبأن الذهب الأصفر هو المعجزة والأعجوبة. يعتقدون أن هذا الذهب المتوهج المعشي للأبصار، يمكن حتى أن يقهر الأعداء. أنا، لست بنبي ولا بحكيم

Twitter: @ketab_n

العصر، لكني سمعت وقرأت عن أهوال حروب الحمقى. إن الجوع قادم يا أهل صبلاخ! كنتُ أدعو الناس لشراء ما أمكن من مؤن إستهلاكية. صادفتُ أخي الأكبر بنحاس بكنيسنا فقلت له،

- أُدْعُ داود ودانئيل إلى بيتك سآتيك قبل صلاة العصر.

لا أرتاد كثيرًا بيوت أشقائي. أما أن يجتمع الأخوة كلهم في بيت واحد، فأمر آثار وبحق، دهشة أخي الأكبر.

- أخفتني يا شلومو، فما الأمر؟

قلت في الحال.

- إن كل ما يجري من حولكم لا يوقظ فيكم الخوف، فلقاؤنا عندك أو عندي، أمر ضروري لابد منه.

كانوا إذا تحدثوا عني قالوا «شلومو، أصغرنا وأنبهنا وأرجحنا عقلاً»، وكان تعييني على شؤون الطائفة والكنيس، أمرًا جعلهم يتباهون بي. ولم أكن أرغب في هذا. ولم افرح بما عهد به الروس المحتلين اليّ، من مهام كنتُ أنفّذها على كره مني ومضاضة، كانوا أمروني بإيصال أوامرهم وبلاغاتهم إلى أبناء طائفتنا في صبلاخ. وأن أكون الوسيط بين الطرفين، أما حفر قبور القتلى المسلمين فكان أمراً بذر سوء الفهم حتى في عواطف ومشاعر شريكي وحبيبي مير. وصيّرنا بنظر أمة الاسلام، عملاء أو متعاونين مع الأعداء. ولكن، سيثبت لهم في الآتي من الأيام أننا ما زلنا إخوتهم وأهلهم كما عهدونا من غابر الزمن وسالف العهد. ولا يمكن أن تغيرنا حرب أو محنة.

قال لي بنحاس وبيته مكتظ بأشقائي وعوائلهم:

- لم ترتدْ بيتي إلاّ عند وفاة أمي وأبي، رحمة الله عليهما، ولم تزرني إلاّ عند ختان ولد أو الإحتفال ببلوغه سن الرشد، فعسى أن تكون زيارتك الآن خيرًا يا شلومو.

ترحمتُ على أبي يهودا، وأمي مريم، مات أبي بعد ولادة صيون، أما مريم فتملأ عليَّ بيتي مع أخوتها. قلتُ لنفسي «نحن في أيام يُحسد فيها الموتى والأطفال» وأضفت بصوت سمعه كل الموجودين:

Twitter: @ketab_n

- جئت لأمر جلل يا إخوتي. أنا لست بتلك المرأة - النذير التي يراها أبناء صبلاخ، تنذرهم بأشياء غامضة لا تفصح عنها. إني أخوكم الأصغر وسأبالغ في الايضاح لدرجة أني قد لا أُفْهم أو ربما يُساء فهمي.

- أنت تبُهم ولا تفصح يا شلومو.

قالها دانئيل وقد ضاق بي ذرعًا منذ البداية. اختلفت سبلنا حتى ونحن تحت كنف الأبوين. كان أبي قد جمع بين الزراعة والتجارة. كان يصطحبني معه في رحلات تجارته، وليس لأني صغير ومدلل، بل لأني كنتُ كسلمان ولدي، أهتف وأنا مازلت داخل البيضة مناديًا بميولي. أما هم فقد فتنتهم الأرض.

رائحتها سحرتهم، لمستها وحراثتها. الثمر بعد المجهود المضني، رومانسية كادحة. وبساتين أبي الشبيهة بالجنة، لم ينقصهم المال، إلاّ أن أفكارهم ظلت لاصقة بالأرض التي فلحوها مع أبي. أفكارهم لم تحلِّق في السماء كأفكاري و لم تشطّ بعيدًا في الآفاق. لم تجُب الدنيا بل ظلَّتْ قريبة قرْبَ هذه الأرض. إرتبطوا بها بوشائج من صلُب. لم يتركوها حتى في ساعات خطر الموت. إني أشرح لهم أبعاد الوضع، أكشف لهم عما أراه في رحم الغيب. لولا خوفي عليكم ما كنت لأسرق من وقتي وآتيكم. فعلى ظهري أحمل كل هموم صبلاخ وأهاليها ولكن..

قال أحدهم يجادلني،

- ومن قال أن العثمانيين الأتراك سيأتون ثانية؟ أفلا تراهم يحتضرون؟

أنتم، إذن، صمٌ عُمْيٌ! وقلتُ

- للأتراك، يا إخوتي، منجم بشري لا ينفد بسهولة، إنهم يجيِّشون الجيوش في العراق ويرسلونها إلى الشمال. الحرب يا إخوتي ما زالت في ذروتها. والإنجليز، إن كنتم تتابعون الأخبار، قد فتحوا جبهة بجنوب العراق مستخدمين جيوشهم في الهند وكتائب من السيخ.

قال بنحاس ببلاهة.

- وماذا يعني هذا؟

- معناه، أن الحرب ستستمر طويلاً، وأن الحرب لو احتدمت من ناحية الجنوب

Twitter: @ketab_n

كذلك، فقد تسد مصادر الطعام القادم إلى إيران من البحر.

صمتوا جميعًا. لا أدري أَذُهُولاً مما قلته وخوفًا صمتوا، أم ليستوعبوا هذه الأقوال. أخيرًا تساءل بنحاس:

- أهو إذن الجوع الذي ما زلت تبشر به، ولهذا يعتبرك معظم أهالي صبلاخ، مجنونًا؟!

فقلت كالمنذر المحذر:

- الجوع قادم لا محالة.. وبوادره قد بانت للجميع..

وفكرت قليلاً ثم تنهدت،

- ويا ليته الجوع وحده...

درأت عن مخيلتي هذه الأهوال بروعة.. ليتني أكون مجنونًا كما يسمونني! ليت ظنوني تخيب كسهام طائشة.. ليتني شخص يتخيل ويهذي.. ليت ما يراودني سراب يخلقه أمامي جنون الخوف،

- ماذا تقترح؟!

- لم يفت الأوان بعد، مازال في طهران طعام فكدسوه مع المؤن اللازمة، ونقودي كلها تحت تصرفكم.

ضحك الثلاثة ضحكة الإستهانة، فأردفت مستنكرًا استهانتهم:

- لن تخسروا عدا السفر إلى طهران شيئًا. فكل ما تحتاجون من مال سأموّله لكم. فإذا أردتم ضمانًا أكبر لسلامتكم، فخذوا عوائلكم فورًا وارحلوا جنوبًا إلى أخوالنا في أصفهان.

أضحت قهقهاتهم، ضحكات مجنونة. لا بل أنا المجنون الذي يضحكون منه، وقالوا بصوت واحد.

- ومواشينا وطيورنا، وحقولنا وبساتيننا؟!

- وهل زرعتم هذا العام؟!

تلعثم الثلاثة حتى قال اكبرهم:

- الحق أننا جنينا محاصيل الصيف ولم نهيئ الأراضي لزارعة الشتاء!

- إذن خذوا عرباتكم فورا وسافروا إلى طهران واشتروا منها كل ما بوسعكم من طعام.

Twitter: @ketab_n

- أنت مذعور بلا سبب!

- إفعلوا هذا دون إرجاء طالما لم يفت الوقت بعد.

- بل أنت مهووس.!

- وهذه صرر ثلاث، لكل منكم صرة فيها من الذهب ما يكفي مؤونة اكثر من عامين.

قال أوسطهم دانئيل:

- وفرّ نقودك يا أخي فلدينا الكفاية، ولكن ماذا لو تجشمنا كل هذا العناء وأنفقنا كل هذه الأموال الطائلة واتضح فيما بعد أن مخاوفك مجرد وهم؟!

- إني أرجو أن تكون مخاوفي أوهامًا، لكن الاحتياط ينفع ولا يضر. فخذوا بنصيحة أخيكم الأصغر، وما هي غير نزهة لن تندموا عليها، أما النقود فنقودي كما قلتُ في خدمتكم.

تحاجينا وتجادلنا طويلاً. في النهاية أقنعهم أخوهم الأصغر. كانت تجربتي في الحياة تفوق تجاربهم مجتمعين، رغم ما بيننا من فارق السن. وفيما بعد، حين ستلد الدنيا أبناء الحرب الممسوخين، ويجابه الانسان في صبلاخ، مَا لا يتصوره عقل إنسان، سيشهد بنحاس ودانئيل وداود ومعهم جيش من النساء والرجال، والشيوخ والأطفال. رجاحة عقل من سموه مهووسًا. وليس ببعيد أنهم ساعة حَاجَيْتُهُمْ خافوا أن يقسموا بالصوت العالي على جنوني!

وقلت، وأنا أترك بيت بنحاس أخي، واضعًا صرر الذهب الثلاث على مائدة:

- وليصطحب كل منكم ما بطاقته من عربات، وخذوا أولادكم يقودونها معكم، لا سيما بطريق العودة. هذه نصيحة مجرب، وكما يقول شمّاش الكنيس وهو يزايد على ثمن قراءة التوراة، وليزد الله في عمر من يزيد!، فزيدوا قدر استطاعتكم ولا تبخلوا بالمال على طعامكم!

وتركتهم يحضرون لرحلة الشراء المنقذة.

* * *

لجاجة مير علي صفعات ولطمات ورفسات تهري بدني، إلحاحه المجرّح سحبني من خناقي الى المكتب صاغرًا. ماذا نفعل في المكتب وسلعتنا كما قلتُ له نافقة في سوق الحرب؟! تلقيت الرد على شكل صفعة أخرى. تجار صبلاخ

Twitter: @ketab_n

ونواحيها ما زالوا يملؤون «الحجرة.» أذهلني أن يكون الصيني، سلعتنا الرائجة في هذه الأيام المجنونة بالذات. هوَسي هو إشفاقي على هؤلاء الناس. إن النعاس مازال يغزو عيونهم رغم سطوع الشمس وإكثار المرأة - النذير من ظهورها.

كيف لا يرون الحقيقة وهي تضرب عيونهم وتغمر أسماعهم، وماذا يفعلون بأواني الصيني بدون طعام؟! سألت تجار المفرد متهكمًا:

- ماذا ستفعلون بالصحون بعد نفاد الطعام؟! هل بوسع أسنانكم أن تقضمها؟ وهل تقدر بطونكم على هضمها؟!

من الطبيعي، ألا يعجب هذا الكلام شريكي. إنه يتمنى أن تمتلىء الحجرة بالمشترين، وأن تفرغ المخازن من البضاعة.

قال لي بعد أن خلا المكتب من الزبائن:

- أتدري يا شلومو أن غيابك عن المكتب كان خيرًا من مجيئك إليه؟ فكأنك تتعمد أن يهرب الناس ورزقنا معهم!

رزقنا؟! آه لو أعطونا الطعام بدل النقود! لكن هذه ستكون جريمة. بضاعتنا نافقة في هذه الأيام! فياليتهم يعرفون هذا ويقتنعون به مثلما اقتنع أخيرًا اخوتي، فتمضي قوافلهم إلى طهران وتشتري كل ما بها من طعام، كي تغرق صبلاخ بما يشبع البطون، وبالحياة التي يسميها شريكي «خراءً.»

- ألم تقتنع بعد بأن المحنة ستتكاثر وتصبح محنًا؟!

فقال باستهانة:

- شاء الله أن «يستبلد» الكفار في هذه البلدة وأن يبعد عنها جيوش المسلمين.

قلت ما أصبح الناس يتهامسون به، وكأني أبوح له بسر خطير:

- جيوش الأتراك المجندة من العراقيين عند جبل حمرين، أو قد تعدته شمالاً، ولهم، للعثمانيين، في جارتنا الغربية من احتياطي العساكر ما يكفيهم لإطعام المدافع عدة سنين!

أشرقت طلعة مير علي. قال الآن جادًا، ومبتعدًا كل البعد عن التهكم والسخرية.

- إذن، فليبشرك الله خيرًا يا أبا سلمان، فلو طرد المؤمنون العثمانيون، هؤلاء

Twitter: @ketab_n

المشركين من صبلاخ، حقًا، فلا يهمني أن أموت مع كل أهلي جوعًا.

أُفحمت لحظة. ماذا أسمع من مير علي؟! كأني الآن أتعرف على شريكي بعد طول سنوات العشرة. كأني لم ألعب معه في صحن الدار، ونحن أطفال حفاة، ولم نلعب في الزقاق يوم كان أبي شريكًا لأبيه وإلى أن خلفناهما في كل شيء!

– ليس هذا ببعيد يا شريكي. لكن الحرب سجال، ولن تنتهي بحدوث ما تتمناه،

– أتعني أن صبلاخ ستصبح كرة بيد الجانبين، يتقاذفانها ويركلانها ونحن بداخلها؟!

– أنت ترى بعينك يا صديقي. لقد تقاذفاها مرتين، والله يعلم كم ستستغرق هذه اللعبة، حتى تُحسم الحرب.

– لا أُصدق أنك أصبحتَ نبي الغضب والشؤم يا شلومو!

فأردفتُ:

– ولذا ينبغي أن نعد العدة كي لا تدوسنا أقدام الطرفين بقوة أشد مما هو حاصل. ولهذا كذلك، لا ينبغي أن تتكرر غلطة مُسلمي صبلاخ مع الروس فيما لو اضطروا ثانية على ترك البلدة.

فصاح غاضبًا:

– أتسمي ملاحقة القتلة الكفرة بعد هزيمتهم غلطة؟!

قلتُ باقتناع، حزين:

– سم ذلك ما شئت، لكن النتيجة، لو تكرر هذا، ستكون هلاك بلدتنا البريئة المبتلاة رغم أنفها.

* * *

حين ولج باب البيت، خيل له لسبب كان ساعتها يتستر في غياهب المجهول، أن هذا المنزل الواسع الكبير قد ضاق بأهله فجأة، وصغُر حتى أصبح وكأنه يمكن أن يدخل في سم الخياط. نفض رأسه، فسقط منه الكابوس، وعاد البيت فامتد صحنه الواسع، بحيث بدا كحلبة لسباق الخيل. كان الوقت، وقت القيلولة.. تأخر قليلاً عن موعد الغداء، وأسمر لا تسمح لأحد بأن يأكل ما لم يفتتح رجل البيت كل طعام. لا بد أن الأولاد قد جاعوا. أما إستير فلا تتقيد بمجيئه وتأكل متى

Twitter: @ketab_n

ما أحست بالجوع. رآها ترضع الصغيرة، وتلقم فم ناحوم بملاعق من حساء الأرز بالحليب. وكانت قشنك تلاعب الأولاد لتريثهم ريثما يصل الوالد، وأسمر تخرج دلوًا ممتلئًا بماء البئر لتملأ حبّ الماء بعد أن نفد ماؤه. حيّ بصوت مرتفع. ترك الأولاد قشنك وعدوا إليه، حتى ناحوم الصغير ترك حساءه ومضى يعدو إليه ويتعثر. هشّت قشنك بوصول سيدها، وردّت أسمر عليه مرحبّة وسعيدة بوصوله، وعلت طلعتها بسمة عريضة تقطر حبًا ومودّة. إلاّ إستير، فهي بكماء صماء، لا ترفع عينيها عن ابنتها المنهمكة برضاعتها، وتعبث بشعر الطفلة الحريري القصير الأسود. نظر إلى أسمر باعثًا لها مع نظرته كل الشكر والعرفان. والتقت النظرات. كلاهما محب لكنه متعب، سعيد، بيد أن خيطًا من مرارة مبهمة تشوب سعادته مذ بدأت هذه الحرب المفروضة، تفرّس فيها، شابة منمنمة القسمات والأعضاء، سمراء البشرة، يداعب النسيم ضفيرتيها السوداوين الطويلتين فتميدان عند أسفل ظهرها. جمالها هادئ، وديع كطباعها إلاّ أن طباعها هذه، صاغت منها دمية لا ينافسها سحر ولا تضاهيها فتنة. إستير أصغر سنًا وأجمل مظهرًا، كان وجه إستير يحمل تلك الحبائل المجرمة. حبائل سلبت كل صلابة روحه وأسقطته في شباكها. هو، شلومو كتاني، الموصوف على كل لسان بالحكمة والفطنة والعقل. كيف سقط؟ وكيف أمعن في سقوطه حين تزوجها؟ وهل كان سيتزوجها لولا أسمر وتضحية أسمر؟! أسمر افتدت عذابه فزوجته من إستير، فعلة لا تقدم عليها زوجة إلا أسمر! وهو الآن لا يلوم إلاّ نفسه، ويلومها مرتين.

فمن كانت له عقيلة كأسمر، وأولاد كسلمان وصيون ومريم، لا يعشق امرأة أخرى، لكنه خان أهله فعشق إستير الغريرة الحمقاء، لقد سمح لأفكاره بأن تنحرف وتتحدى نطاق العائلة المجدودة لتتسكع في حارات متعرجة مسكونة بمخاطر جمة، ثم رضي بتضحية أسمر الكبرى، ولم توقظه تضحيتها فتمادى وتزوج إستير. ويتفرس بها الآن فيرى الوجه الفاتن وقد شوّهه ماء طويّتها النتن الآسن.. وتعكر صفوه أكثر فها بالرائحة المزعجة قد فاحت وغمرت أرجاء هذا البيت! طرد الفكرة ومضى فغسل يديه وغير ثيابه وجلس يأكل مع أسمر والأولاد

Twitter: @ketab_n

وقشَنك. مخلصة هذه البنت ومطيعة! وإستير لا تهتم إلا بنفسها وتضرب بأصول هذا البيت عرض الحائط.. بل عرض جدار الإستهانة الإستخفاف. ولعلها أيضاً تشاكس أسمر، مَنْ جاءت بها وزوجتها بزوجها. لو حدث هذا فمحنة بيته ستنافس محنة صبلاخ، لكن هل تتكلم أسمر؟ أهي التي تضرم النار بهذا المنزل؟ إذن، ما كنه أطياف هذا الحزن الهادىء المكتوم؟ هذا الحزن على طلعتها. إنها تحاول طمسه وإخماده فيأبى إلاّ أن يطفو على هذا الوجه الطاهر الشفاف.

ووضع الملعقة في الصحن وتساءل،

- ما بك يا أسمر؟

دارت أفكارها. ووضعت ملعقتها مثله، همست،

- لا شيء يا أبا سلمان. أكمل طعامك يا أبا الأولاد.

فأصر، وقد شاب صوته قلق متطفل،

- لست كعادتك يا أسمر، فماذا يشغل بالك يا أعز الزوجات؟

همست بصوت شجي كنواح حمائم،

- تذكرتُ أهلي. ترى ماذا حل بهم في الغربة؟

فقال وهو يتنهد،

- قد سبقوا هذه الحرب الملعونة ورحلوا إلى العراق.

- أتذكرني بما أعرف يا أبا الأولاد؟ لكن لماذا رحل أبواي يا شلومو؟

فاسترسل، وكأنه لم يسمعها،

- أختك يا أسمر تزوجت في بغداد.

قالت،

- لكني أنا تزوجت بصبلاخ.

- وأخوك هو الآخر تزوج ببغداد.

- فلحقا بالاثنين وتركا الواحدة.

واندهش قليلاً. فهل معه بدأت أسمر تشعر بالوحشة والعزلة؟

لكنه قال،

- عرفا بيَدِ من يودعان الواحدة أيتها العزيزة الغالية.

Twitter: @ketab_n

تنهدت. قالت،

- لو كنا لحقنا بهم، لوفرنا علينا أهوال هذه الحرب.

فقلتُ وأنا أضحك،

- هل تعرفين يا أسمر؟ حين ذهبت إلى طهران لأتسوق خطرت لي فكرة أن أفرَّ بكم إلى عاصمة إيران فنمكث فيها إلى حين يزول الخطر وأهوال الحرب!

- لم تخبرني بفكرتك هذه يا أبا سلمان!

- لأنها كانت أسخف فكرة. لا بديل لبيت الإنسان يا أسمر مهما لاقى به من ويلات، لا سمح الله.

فقالت شبه معتذرة،

- لكنهم آمنون من هذه الحرب يا أبا الأولاد.

فضحكتُ مرة أخرى، وبحتُ لها بالسرّ الذي لم يعد سرًا بعد.

- العثمانيون، أقحموا العراقيين أيضًا في هذه الحرب وقد جندوا كل من يقدر على الخدمة، والأخبار تقول أن الانكليز قد فتحوا جبهة أخرى في جنوب العراق، نعم يا أسمر، العثمانيون يجندون كل ذكر قادر على الخدمة في العراق ويقذفون به إلى قلب المعمعة، في الشمال والجنوب.

فقالت بقلق واضح في الصوت وعلى السحنة.

- أتراهم قد جندوا أبي وأخي كذلك؟

ضحكتُ ثانية وتمتمت،

- لا يستطيعون يا أسمر. لا يستطيعون، فعمي وأخوك يحملان الجنسية الإيرانية، وإيران دولة محايدة، والقانون الدولي يحظر تجنيد الأجانب والغرباء.

- قلبي يحدثني بأنهم جندوا أبي أو أخي أو الاثنين معًا.

لم أضحك هذه المرة، بل غرقت في لجة من الأفكار، لعل مخاوف أسمر في محلها. إنها هي الأولى بأن يشار إليها برجاحة العقل، وليس أنا.

قلت وكأني أحدث نفسي،

- ربما، فالعثمانيون لا يراعون قانونًا. كما أن الحرب لا تبقي على قانون. إنها العلة لحلّ الإنسان من كل محظور. وما دامت تجتاحنا هذه الحرب الملعونة فكل

Twitter: @ketab_n

شيء جائز يا أم البنين.

* * *

تعرف كم يلذ لي أن آكل الخبز المشرب بالدهن الحر. أنت بنفسك رأيتني أكثر من مرة أضع كتلة من السمنة في مقلاة وأُذيب الزبد على النار فإذا ساح أنزلته وغمستُ به الخبز «البربري» وتناولته بشهية فائقة. عادة بل قل شهية حقة لم تبْلِها الأعوام المتلاحقة، في تلك الأمسية العاصفة أذبتُ هذا الدهن الحر وشرعتُ أغمس، تحلقني الأولاد. لسبب لا أعرف كنهه. تضايقت عوض أن تنتابني السعادة، طلبت من قشنك أن تأخذهم إلى غرفتهم وأن تدثرهم جيدًا، وأن تأخذ ناحوم إلى أمه كي تدثره هو الآخر. كانت إستير معتكفة في غرفتها مع إستير الصغيرة، وكانت تلاعبها أو ربما تلعب بها طوال الوقت، ولا أدري حتى اليوم إن كانت إستير قد وعتْ حقًا أن الولدين كانا بشرًا من لحم ودم، أم أنها اعتبرتهما مجرد لعبتين، ولدتهما لتتسلى بهما. وهبّ هواء غربي جبلي يحمل برودة تنذر بمقدم الشتاء، كنا قد اعددنا المؤونة وضاعفناها، منذ حين، وخصصنا غرفًا إضافية للبراني والمجففات، وقسائم من الأرض جديدة لما ندفنه من براني القلية، اقتحم الهواء البارد ثيابي واندس في عظامي، إجتاحتني رعشة ثم سمعتُ شيئًا حملته الرياح من بعيد، أرهفت السمع وأنصتُ، كانت أسمر الجالسة أمامي مرآة لوجهي فلمحتُ على وجهها كربًا فأيقنتُ بأن هذا شحوبي، قلتُ وقد ازداد ضيقي الطاريء.

- أَرهفي السمع معي يا أسمر؟!

سألتني،

- وهل تسمع شيئًا يا أبا سلمان؟!

فكررتُ، وقد بلغ بي الضيق ذروته،

- تنصتي يا أسمر، تنصتي وخبّريني بما تسمعينه قادمًا من الغرب أو الشمال!

بدا عليها إرهاف السمع واضحًا، مكثت تتنصت طويلاً حتى قالت،

- أظنها نذر الشتاء يا أبا سلمان، إني أسمع رعودًا شديدة قد تكون إيذانًا

Twitter: @ketab_n

باشتداد العاصفة!

وتفقدني حزن طغى على ضيق نفسي المجهول الكنه،

- أجل، هي العاصفة يا أسمر، لكنها عاصفة الحرب لا الشتاء، وربما تتحد العاصفتان فتزوران صبلاخ متشابكتي الأيدي يا أم البنين.

الآن لم يكن شحوبها شحوبي وحده. اختلط على طلعتها الشحوبان، سألت بجزع،

- وماذا تسمع أنت يا أبا الأولاد؟

- أسمع «ضربًا شديدًا»، تحمله الرياح من الجانب الغربي يا أسمر.

- ماذا تعني؟!

كانت مرهفة الصوت خائفة، ليتني استطعت أن أُعيد إليها هدوءها، لكنني لا أعرف الكذب. وحتى الكذبة البيضاء لم تعد ذات فائدة.

قلت، كنذير الشؤم، رغم كراهيتي لأن أكونه.

- أعني أن أتون الحرب الساخنة تقترب ثانية من صبلاخ!

في الصباح حصلت مخاوفي على تصديق رسمي، الجنود الروس الكسالى استيقظوا بعد أن أصابتهم همة غير معهودة، فدبت بهم حركة نشطة شملت شوارع صبلاخ بأسرها، عُزِّزت التحصينات القائمة وأُنشئت تحصينات جديدة ولم يتوقف طرير السيارات العسكرية والمجنزرات.

ووجهت فوهات المدافع نحو الغرب والشمال الغربي، حيث مصدر الإنفجارات، ولم يتوقف القصف، وكان يعلو وينخفض. أحيانًا لا تسمعه إلا إذا أرهفت سمعك وتسمعه أحيانًا بوضوح بحيث إنه ينبهك إليه إن كنتَ ساهيًا عنه بأمور أخرى. لا ريب بأن هذا الشتاء سيكون ساخنًا حتى لو دُفنت بيوت صبلاخ كلها بالجليد. اطمأننت على عودة أخوتي، وغيرهم، بالطعام من طهران. وقررتُ أيضًا ألاّ أبعث بالأولاد إلى المدْراش، وأحبسهم في البيت. وقال لي مير علي وهو مستبشر الطلعة.

- أصحابك الروس بدؤوا يستعدون للهزيمة.

نشب كلامه في لحمي كمخالب مدبّبة مشحوذة. قلت مستنكرًا أبتلع ألمي

Twitter: @ketab_n

وغضبي،

- أصحابي؟! والعثمانيون أصحابك؟! بل أنت صاحبي يا مير وكل أبناء هذه البلدة المسكينة. إننا إيرانيون وأكراد، رغم أن الشاه القابع في طهران نبذنا وأشاح عنا بوجهه فأعطانا دبره وسلح علينا . أما العثمانيون والروس فقد جعلوا بلدتنا موطئًا لأقدامهم وممرًا لأهدافهم وغاياتهم الشريرة. ولن نجني من أي منهم غير الدمار والخراب، وستشهد عيناك وتتأكد من هذا يا صديقي.

أفحمته، أما أنا فصمتُ لحظة ثم سألته،

- أين أخوك رضا؟!

تنهد ثم قال،

- كأن مسًا من جنون قد أصاب هذا الفتى، إنه ذاهل طول الوقت، ويقضي معظم وقته قرب العين في ظاهر المدينة!

تذكرتُ ما قالته لي أسمر عن تطاول رضا على فاطمة، لو انكشف أمره فلن تكون الكارثة في بيت مير بأقل من كارثة صبلاخ! الحل الوحيد إذن، أن تحمل رضا قذيفة روسية أو عثمانية إلى العالم الآخر، فيعامل كالشهيد، وتنتهي المشكلة ضاربة صفحًا على الحقيقة المؤلمة. أما أن أبوح لشريكي بما شَكَتْه فاطمة عن أخيه لأسمر فذاك هو الحمق الذي يليق بإستير وحدها، أأقول له إذن «زوِّجه واسترح منه؟!» سأجعل مير يضحك فوق ابتهاجه بقرب وصول جيش المؤمنين، وخروج الكفار من صبلاخ، أفيزوج أخاه، تحت تصفيق المدافع وزغردة الرشاشات وهتافات المتحاربين، ويخضب يده ويد عروسه بالحناء البشرية، إذن،

- إحبسه في البيت يا مير، فالقذيفة العثمانية أو الروسية لا تفرق بين العدو والصديق.

تسرعتُ وقلتُ ما لا أريده.. وهذا هو الحل الأسوأ من موته أو زواجه. مسكينة فاطمة لو مكث رضا معها في البيت، وأسرعت أستدرك قبل أن يفكر مير باقتراحي،

- بل دعه يفعل ما يشاء إذ يقال أن الأحداث الجسام تصرع الأحياء وتحيي

Twitter: @ketab_n

الموتى.

فتدخل الزمن لحظة مقاطعًا أبا سلمان،

- كنتَ شاهدًا على النتيجة، وتعرف جيدًا أن من الناس ما لا تحييه حتى القيامة.

وابتسم أبو سلمان بسمته الصغيرة المتحدية وواصل متنهدًا.

- في ذلك اليوم لم أكن أعرف كما لم يكن مير يعرف، ما أعرفه وما تعرفه أنت الآن.

* * *

بعد يومين، إنقشع الضباب عن اليقين وغمر المنطقة ضباب الحرب والشتاء. أصبح الآن بالإمكان أن نفرق تمامًا بين رعد السماء ورعد المدافع، وبين وميض البرق وشرارات القذائف والرصاص. أصبح القتال قريبًا والضرب متواترًا. قرار وجواب وأخذ وعطاء. تسقط قذيفة هنا تعقبها أخرى تنفجر هناك، مثل تقاذف حجارة لا تشج الرؤوس بل تمزق الأجسام وتختطف الأرواح. مباراة كُتِب فيها النصر لمن يقتل العدد الأكبر من الناس، ويُتوج بطلاً من يكون السبّاق في بث الدمار في الزرع والأحياء والعمار. تستحيي السحب أحيانًا فترمي جليدها في هدوء وحياء ثم تهرب مخلية مكانها لشمس جامدة تضيء كفن الجليد فتزيده نصاعة وبياضًا، كان هذا الجليد، رغم مَشَقَّاته يرمز في الماضي إلى الطهر والجمال، ثم ابتلينا بالحرب رغمًا عنا فأصبح يرمز إلى كفن يكسو صبلاخ بأسرها. أجل. تلقي الغيوم جليدها أحيانًا في الليل خلسة وتفرّ في حياء لكن الحرب لا تستحيي، إنها تكشف عن عورتها من بعيد وتطبّل وتزمر معلنة عن مقدم حصّادات الأرواح وجرّافات المباني. عرف أهل صبلاخ جميعا أن العثمانيين قادمون وأن الروس ينهزمون للمرة الثانية.

حضّر المسلمون «جمارهم» وعصيهم وبنادقهم واستعدوا لرحيل الجيش الروسي بفارغ من الصبر. شعر حسن جاقماق ورفاقه بالحزن، وراود يهود صبلاخ ومسيحييها ترقب مشوب بالقلق والخوف. أما الماس ابنة الصائغ، وحسن بوزورك ورضا علي فقد مكثوا داخل محاراتهم، يمارس كل منهم حياته ويعيش هَوَسَهُ بوتيرة، آمنين من شرور الحرب ما داموا لا يرون ولا يسمعون ولا

Twitter: @ketab_n

يعون غير ما توسوس لهم به شياطينهم. إن هطول الجليد قبل موعده بعدة أسابيع قد بشر بثلج كثير في الصيف القادم ويعد آل بوزورك بالمزيد من الذهب ويتيح لحسن ابنهم المدلل، أُبهة مضاعفة وصبايا حسانًا يضمهنَّ إلى مجموعة المعجبات به من عذارى صبلاخ.

ألححتُ على إستير بأن تعتكف في البيت وحذرتها من الخروج وحيدة أو مع الطفلين فاحتجّتْ عليَّ قائلة،

– إني لا أطيق القعود في البيت حتى لتكاد تزهق روحي، فهلا تركتني أذهب للميدان على الأقل للتفرج على ما يحدث؟!، كم أريد أن أرى القنابل وهي تسقط والجنود وهم ينهزمون؟!

فرقع شيئان، واحد في صدري والآخر في دماغي وصحت،

– وهل تظنين القنابل كعاباً تلعبين بها؟! وأن الموت غفوة يستيقظ منها المرء وقد زال عنه التعب؟ حقًا أن من الأطفال من لا يكبر حتى لو بلغ الرشد وأنجب عشرة بطون!

عادت تحتج، وتستنكر،

– أنا لم ألد عشرة أطفال، ولدتُ ناحوم وإستير ومازلتُ صبية، انظرْ إلى البنات في سني، أفما زلن يلعبن الكعاب في الشارع، وأنا جالسة في البيت مبتلاة بطفلين؟!

سامحك الله يا أم البنين، ولكن لماذا ألومك وأنا الملوم؟! إني أنا العاشق الولهان، منْ أرويت ظمأه وأطفأت غليله وبرّدت له حرارته وأعدت له اللهفة.. .فيا لي من أحمق رغم كل ما يقال عني بين أهل صبلاخ!

في المساء بدأت القذائف تتساقط على البلدة مع الجليد، القذائف بشراسة تعلن عن ذاتها مزمجرة ومفرقعة، والجليد بوداعة وهدوء بارد صامت، تزايد اللغط في الخارج، وسرعان ما تنَاهت متمازجة صيحات بلغات عديدة مرفقة بصليل رنّان موقّع ووتيري. وقلت لنفسي «إنهم ملتحمون وإن الحرب الآن تدور قريبة منا بالسلاح الأبيض.»

عرفتُ أن الروس قد خسروا الجولة وأن العثمانيين قد جاؤوا، ومعهم في

Twitter: @ketab_n

الأرجح ضباط وجنود من الألمان، تناهى كلام بالألمانية والتركية والآذرية والكردية والارامية. أما الروسية فكانت تتصادى من بعيد على شكل هتافات تدعو للنجاة ثم تختفي مع بُعد المسافة، ولا أُخفي عنك أن اعتصارة من الخوف خنقت روحي. لم أخف على نفسي بل على هذا البيت. خشيت على أسمر وإستير، على عزريا الصائغ وابنته، على حاخام ناحوم وآل بيته، على أخيه الحاخام ميخائيل، خفت على إخوتي وعلى أهل إستير، خفتُ على كل يهود صبلاخ وكل نصاراها، خفت على مسلميها المستقبلين العثمانيين بالزغاريد. وكانت هذه الزغاريد تتناهى من بعيد مع أصوات الضرب واستغاثات مجهولة المصدر. وتوقف الصليل لكن الرصاص ظل يدوي واللغات الشرقية تمتزج بالألمانية خارج البيت، وبداخله صمت رهيف مضطرب، مفحم، أخرس، وعيون تتبادل في صمت نظرات ثرثارة فزعة. واختبأ الأولاد في أحضاني وأحضان أسمر وإستير. صمت في هذا البيت مطبق. صمت عدم لا يقطعه بين الفينة والفينة غير خوار ثور أو صهيل حصان، أو قوقأة دجاجة.. مع ترجيع أنفاس متواترة مشحونة بالهلع من المجهول المفعم بالموت.

وظلت السماء تلقي على صبلاخ مزق أكفان ناصعة البياض تلتحم وتتراكم من تحت، فتشكل كفنًا واحدًا عملاقًا يلفع البلدة بما فيها. ومكثتَ أنت يا أبا سلمان تَنْظر أصوات الشؤم المنبعثة من بلدتك المعتوهة. وكنت ترى هذه الأشياء ببصيرتك، إلاّ أنك لستَ نبيًا فترى تفاصيل الصورة ودقائقها. جلست بوجوم مطلق، تمامًا كما تجلس أمامي في بعض الأحيان، صامتًا على مدى دقائق، تتأمل شيئًا، أو تتذكر شيئًا، أو تتمنى شيئاً أو تشتمني في سرك، لأني أشعلتُ سيجارة في يوم سبت، أو تلعن أم عزيزة، لأنها ظلت تشتمك وتتمنى موتك بسبب سمكة اشتريتها لها بثمن غالٍ. في تلك اللحظة، بصبلاخ، كان وجومك يخضع لعلامات استفهام تتقافز وتتنافر في رأسك، تهفو كلها لمعرفة ما جرى وما يجري في تلك اللحظات. ومصطفة برمتها برهبة وقلق. كان الموت والحرب محور فضولك واستفسارك. وكنت ترى الناس في تلك الساعات الحجرية الملقاة على كاهلك بكل ثقلها، أنواعًا ثلاثة. أناس يزرعون الموت والدمار بلا خلجة رحمة أو وازع

Twitter: @ketab_n

ضمير أو رادع، وأناس أُقحموا رغمًا عنهم إلى حلبة اللعنة، فيعانون منها دون ذنب، ويعاقبون بلا جريمة ارتكبوها، واناس توّج الحظ رؤوسهم فأفلتوا من بين أقواس هذه الحرب - المسخ - القاتلة، فهم الآن يرتمون في أحضان الأمان ويرفلون في ثياب الطمأنينة! طوبى لهم فهم المحسودون أو المغبوطون، ولكن ألم يكن الأمان والطمأنينة من نصيب صبلاخ، حقيقة نعم بها أهل هذه البلدة كما ينعم بها الآن أهل طهران؟! وماذا اقترف أهل هذه البلدة المظلومة لتحل عليهم اللعنة؟ وتجيء إليهم تسعى من حيث لم يحتسبوا؟! أهل صبلاخ لم يطلبوا وما أرادوا حربًا فلماذا يجدون أنفسهم يصطلون في أتونها وليس لهم فيها ناقة وليس لهم فيها جمل؟! وغريب أن بعض أهالي صبلاخ المنكوبة البائسة قد قبلوا هذا الوضع واتخذوا منه موقفًا ينحاز لأحد الطرفين المتحاربين المعتديين، فتنطلق الزغاريد أحيانًا مستبشرة ومرحبة بالمحتل الدخيل وتستبشر له الوجوه، بينما كان من الحري بكل فرد في صبلاخ أن يحزن لما آل إليه أمره ولعجزه عن أن يقول للدخلاء من كلا الطرفين: إننا بلدة آمنة ورعايا لدولة لا ضلع لها في حربكم المجنونة هذه فارفعوا عنا أيديكم وحاربوا في مكان آخر بعيد عنا، فدعونا نحيا حياتنا كما كنا نحياها قبل مجيئكم، بهدوء وسلام.

ولم يغمض لي جفن في تلك الليلة، فها نحن قد أصبحنا في جوف العاصفة. والحرب تدور خارج بيتي وفي رأسي. ووزن العبء الرازخ على أكتافي يزداد ثقلاً، بل يتضاعف. هذه أول مرة أركع فيها تحت حملي، ولكن لا يا شلومو. أنت كردي، وُلدت ونشأت على صخور صلبة، عنادك ومراسك من قوة هذه الجبال، فسر قدمًا ولا تعترض على مشيئة ربك الذي في السماء، الله المصاحبك في كل محنة، الذي نجاك وسيظل ينجيك في الملمات. لكنك أنت هؤلاء الممحونون جميعهم، انك عرق نابض في جسم صبلاخ المثخن بالجروح، عصب في هذا الكيان المتوجع المتألم، ولن تنفصل عن آلامه ما لن تصرعك المحنة.. فتموت.

متُ داخل أفكاري المبرحة هذه ساعات، ثم نهضت. قد بقي هذا الدثار من البرد لكنه لا يدرأ الموت المتربص في الدروب. والفانوس يدلّ على الطريق ويقشع بعض الظلام لكنه يقينًا سيجمع من حولي المخاطر، مثلما يجمع الفراش

Twitter: @ketab_n

والبراع.

وقطع أفكاري صوتها الحنون المتوسل،

- لا تذهب يا أبا سلمان! أرجوك!

سمعتها تتوسل بمثل هذا من قبل، لكنني سألتها،

- أأنت يقظة يا أسمر؟!

- وكيف يواتيني نوم وأنا أراك تتقلب على فراشك طول الليل؟!، لا تذهب!

لابد أن أُفهمها ما لم تفهمه من قبل وأذكّرها بما نسيت.

- الوضع أخطر من أن أتهرب من مسؤولياتي يا أسمر.

فقالت بتوسل،

- ولكن...

- لن يصيبني إلا ما كتب الله. وهو حصني وحماي.

- سيتقطع قلبي حتى تعود.

لا رد لدي. عكفتُ على الأولاد. تأملتهم نيامًا وطبعت على جبين كل منهم قبلة. ثم عرجت على غرفة إستير فقبلت ناحوم والصغيرة إستير. وكانت أمهما تغط في نوم عميق.

وفتحت الباب، كشف نور الفانوس عن بياض في كل مكان. اللهم إني أُودّع ذاتي بيد أمانك، فأعدني سليمًا إلى أهلي.. ومشيتُ مرهف السمع، مرهف البصر مرهف الإحساس، لا شك في أن أرواحًا قد أُزهقت الليلة بدروب وأزقة صبلاخ. ولا ريب بأن المتحاربين من الجيشين قد حملوا قتلاهم وجرحاهم، أما الدماء السائحة، فلا بد قد غطاها الجليد الذي انهمر، ولا أحد هنا. إن من عادة الجنود الروس أن ينتشروا في كل مكان، أما الأتراك والألمان فيعتصمون في مبانٍ عامة، وتجوب دورياتهم الدروب والأزقة والعقود. وأكيد أنهم الآن منشغلون بنفض الغبار عنهم وتنظيم شعثائهم... أو لعلهم كالروس يحتفلون بدخولهم صبلاخ، باكتراع الكؤوس من دماء أهلها. مسكين يا هواء بلدتنا! قد كنت نقيًا، طلقًا وعليلاً، تأتينا من الجبال البيضاء فتردّ بصفائك الأرواح المتعبة، فحكموا عليك الآن بأن تتشبع بدخان ورائحة البارود وشحنوك بأرواح القتلى! هيا!، أسرع

Twitter: @ketab_n

بخطواتك يا شلومو، فالموت يتربص في كل ركن زقاق أو في منعطف حارة. أسرع، ولكن ما هذه الكتلة الممددة وسط الطريق، هناك؟ رفعتُ المصباح، خطواتي تسارعت ماضية نحو الإنسان الممدد فوق الجليد الهش، ومعها تسارعت نبضات قلبي، إقتربت، وفي الحال شُدهت، أتغرر بي عيناي؟ أأصابني ما يحدث في البلدة، الهلاس؟ قربت المصباح أكثر.. خفقات قلبي المتسارعة توقفت تماماً، ثم عادت وأصيبت بالجنون، جثوت بجوار الإنسان الممدد، بلا حول، الإنسان الميت.. الغارق ببركة شبه حمراء تصبغ الجليد الناصع، الذي حبس أنفاسه حزنًا على هذا الذبيح العزيز.. حاخام ناحوم أيها التقي الورع الصدّيق! لماذا يذبحونك والخير يرشح من كل مساماتك؟! هل آذيت نملة في حياتك فيحكمون عليك بهذا الموت البشع الدميم؟ كيف تخلى عنك ربك فأباح دمك في وسط الطريق؟ كيف سقط الأبرار والصدّيقون؟ مسحت على لحيته المخضبَّة بدمه، كانت لزِجة دافئة لم تزل رغم الصقيع، فتفجر أيها الدمع وأبكِ خيرة الرجال! وانبعث أيها النشيج وأندب الذبيح ندٌ الذبيح! انطلقي أيتها الإجهاشة الناشبة بين الصدر والحلقوم! أيتها المآقي ما بالك لا تبللين جفونك ولا تسيلين؟ كان نبع العينين قد استحال إلى صخرة جافة ناضبة فهل جمّد دموعك، يا عيني المارقتين، هذا الصقيع فاحتبست فيك كلآلىء لم تبرح محاراتها؟

لم تبك، بهتتْك الصدمة وجمَّدَكَ الحزن الطاريء يا أبا سلمان. كلما سمعتك تروي لقاءك مع موت الحاخام ناحوم، رأيتك تندفع في لجة الحزن فيغمر وجهك بخار اللوعة وتمحي بسمتك الساخرة المعهودة. لا مجال هنا للابتسام أو التهكم، الصدمة والحزن والذهول عناصر تبجحت في تلك اللحظة، لكنك سرعان ما نفضت عنك كل ذلك بسرعة. كان يجب أن تتصرف، والهواء لا يحمل فقط رائحة دم الحاخام ناحوم الطرية، بل وينذر بمخاطر قد تجلب الموت في كل لحظة، كان يجب أن تتصرف وبسرعة. ماذا تفعل؟! حملت الجثمان المضرج بدمائه. أين ستمضي بالفجيعة؟ كانت إحدى يديك تتشبث بالفانوس والأخرى تحنو على ساقي حاخام ناحوم الميت. إلى أين ستذهب به؟ كان يربض على كتفك ثقيلاً كجبل يتبارى مع كل أعبائك ويقهرها. إن منزل أخيه الحاخام ميخائيل قريب.

Twitter: @ketab_n

وهو مثلك شاب وقوي الشكيمة وكنت أنت تحمل هذا الجسد الثقيل، الثقيل. ولم يكن الحاخام الشهيد جسيماً. ولم يكن هذا الثقل الباهظ ثقل البدن، كنت تعرف أنك تحمل ثقل الحكمة والمعرفة والتقوى.

كنت تحمل الخير والطيبة، وأجمل الخصال! ما أثقل العلم وما أبهظ الخير والتقوى؟! كل هذا كنت تحمله ميتًا وتلقي أقدامك المتأرجحة بالأسى والحزن في أعماق الجليد الهش.. تمضي وقد تضخم في صدرك القلب حزنًا وأضحى رأسك محارة خاوية، بعد أن جف بداخله دماغك من هول الفاجعة.. ويلي على العلم والطيبة اللذين سيواريان التراب! ويلي على النقيض الذي يغتال نقيضه! أفتساءلت لماذا في تلك الساعة؟! على مدى سني الفاجعة في صبلاخ، كانت «لماذا» كلمتك المفضلة. قطعْتَها من كثرة الاستعمال ولم تعثر على رد.. ولا تعرف كيف بلغت دار الحاخام ميخائيل.. كيف جرت الثواني الرصاصية المروعة. جفل الأخ المتأهب للذهاب للصلاة إذا رآك تحمل جثة أخيه الذبيح. لم تقو يومًا على وصف لقاء الحاخام ميخائيل بأخيه المحمول هامدًا على كتفك. كنت دائمًا تترك لي فسحة من الوقت تتيح لي أن أتخيل الموقف.

سأحاول أن أتخيله في ألف شكل. ميخائيل تصعقه المفاجأة، ينفجر في بكاء مرير. ميخائيل، يتجمد مثلكَ مشلول الفكر والشعور، أمام الفاجعة، ميخائيل لا يفهم فيسألك عما حدث؟ هل يتعلق ميخائيل بخيط الأمل الواهم في أن شقيقه ما زال فيه رمق.. «قل لي يا شلومو، أما زال قلبه ينبض؟ أمازال بالإمكان إنقاذه؟» لا. لا. لم يحدث شيء من كل هذا في الأرجح. وسدّتما الجثة سريرًا داخل البيت وغطيتماها بشرشف.. أبلغ ميخائيل عقيلته بما حدث ثم سرتما صامتين معًا إلى الكنيس.

مازال باب الكنيس مغلقاً، لكن أفواه المنتظرين في الخارج فاغرة مفتوحة. الرعب ينبح على وجوههم، والألسن تتساءل عما حدث، بل وتتحدث عما حدث. مذابح في صبلاخ. أخوتي الثلاثة كانوا هناك، لكن إيليا بابايي وخوشَنك كوهن وأولاده لم يأتوا اليوم إلى الكنيس.. ولن يأتوا بعد الآن، سوف لا يُشاهدون وكثيرون غيرهم من يهود صبلاخ ونصاراها، ولن تسمع أصواتهم، حتى قيام

Twitter: @ketab_n

الساعة، قتلت عدة عوائل في عقر دارها، كانوا نيامًا في مضاجعهم، وقيل أن مطران الكنيسة قد ذُبح هو وعدة أُسر من النصارى السريان في البلدة. المجموع خمسة عشر يهوديًا وثلاثة وعشرين مسيحيًا.. والسبب، الثأر لشهداء المؤمنين ضحايا مذبحة الروس الكفار. عرفتُ! عرفتُ! وليرحم الله كل أهلك يا صبلاخ، مسلمين ويهودًا ونصارى، مادامت ستظل تدور الدائرة.. ولكن أين الحاخام ناحوم؟!

كان فمك مختومًا، وبيدين ترتعدان ألمًا وغضبًا توجهت إلى منصةّ الصلاة، إنتظرت ريثما ينقطع الضجيج ويجلس المصلون في أماكنهم، تريثت وتريثت على أمل أن يهدأ الذعر وينقطع اللغط. لا فائدة! كيف تهدأ القلوب وصبلاخ تموت موتًا «بطيئًا؟!»

والفاجعة شدقا تمساح مفتوحان لابتلاع الكائنات.. هوة فتحها تحت صبلاخ، زلزال مروع، فأبتلع البلدة المسكينة مع كل ما فيها. إن الحيوان الخرافي الكاسر يفتح فمه حتى آخره وينتظر الفريسة تلو الفريسة.

ضربة على منضد المنصة تنادي بالهدوء. العادة غالبة دائما. الصمت يخيم فجأة، صمت شجن مطلق يشق قلبه فجأة صوت يندب. ها بالفم المكموم المختوم، يندفع فجأة يتلو مرثاة من مراثي يوم الغفران،

«رجال الإيمان قد ضاعوا، أولئك المتجلّون بفعالهم..
يُبطلون بشفاعاتهم ما كتب الله علينا من النوائب
قد فقدناهم إذ أمعنا بارتكاب المعاصي
ففارقونا بسبب آثامنا.
هم رحلوا ليحظوا بالراحة
تاركين إيانا مع آهاتنا.»

كلا! لم نعد إلى أيام طلب الرحمة وصوم الغفران! ولكن ما أحرانا بمواصلة الصيام بالصيام ومدّ أيام طلب الرحمة. قد شاء مولانا الذي في السماء يا إخواني أن يصطفي لجواره إنسانًا عالمًا من أكثرنا ورعًا وتقوى. إنسانًا لم يعرف بحياته إلا عمل الخير. لقد سقط الحاخام ناحوم يا إخواني وهو بطريقه إلى هنا ليصلي لربه ويباركه على نعمه الكثيرة الموهوبة للإنسان. سقط وسقط

Twitter: @ketab_n

معه خمسة عشر يهوديًا وثلاثة وعشرون مسيحيًا لحقوا بإخوانهم المسلمين ممّن ذبحهم الروس من قبل.. كل هؤلاء من أهالي صبلاخ المحروسة التي ويا للأسف لم تعد محروسة. وكلهم سفكت دماؤهم هدرًا. لم يقترفوا ذنبًا، ولا ارتكبوا جريمة، عدا أن المعتدين على بلدتنا يتنافسون في ضرب أحدهم الآخر، على قتلنا نحن، فليثأر الله لدماء الأبرياء جميعًا. أما من قتل من أبناء طائفتنا الصغيرة في صبلاخ، فضربة قاسية لنا. وإذا استمر الحال على ما هو عليه الآن، وظلت صبلاخ كرة يتقاذفها الروس والعثمانيون، فإن طائفتنا الصغيرة هذه سوف لا تفنى وحدها. إن أحدًا من أهل صبلاخ لن يبقى على قيد الحياة، ولقد قدّمت بلدتنا من الضحايا، كما قلت، من مسلميها ويهودها ونصاراها، في حرب لم نستشر فيها بل ويخوضها الأشرار على أرضنا عنوة، فلا بد إذن أن يتكاتف كل أهالي صبلاخ، على هذه المحنة، ويتعاضدوا معاً كي نقلل من حجم الكارثة، ولأننا جميعًا أخوة في القدر والمصير. أعينوا إخواننا المسلمين إبان محنتهم فيعيننا إخواننا المسلمون في وقت محنتنا، وليكن الله في عوننا جميعًا، وليحرس بلدتنا صبلاخ رغم كل ما يحدث. أما هذا الكنيس فلن يغلق بسبب ما يجري، العكس هو الصحيح. في هذه الأيام العصيبة علينا أن نكثر من الصلوات والدعوات وطلب الرحمة، وهذا خير مكان وأقرب مكان إلى مولانا عز وجل. إن أمواتنا ما زالوا مسجين أمامنا وسندفنهم في وضح النهار وسنقرأ، القديش، صلاة راحة الميت على أرواحهم طوال العام. ومن فرض عليه الحداد والقعود ببيته سبعة أيام، فليقم بواجبه وستزَوَّدُ العوائل الثكلى بأسفار التوراة ومصاحف الصلاة والمصلين، لكن هذا كله سيتم بعد طلوع الشمس. إن الطغيان والقوة لا يخيفان الضعفاء، لكن الظالم أبدًا ينزع إلى ضرب ضرباته في الخفاء وتحت جنح الظلام، كان الله معكم حيثما حللتم وتبارك سبحانه إلى الأبد آمين ثم آمين.»

إستقبلته أسمر حين عاد للبيت وقد أفقدها القلق عقلها. رأته مختوم الطلعة، كالصخرة الصماء، لا يفصح وجهه عن شيء أبدًا، تمتمت، وقد انفرج عنها بعض القلق،

– الحمد لله على عودتك سالمًا يا أبا سلمان.

قال هامسًا متشكيًا،

– لقد قتلوا الحاخام ناحوم يا أسمر.

Twitter: @ketab_n

عقدت بشرى الشؤم لسانها فأردف يقول،

- وقتلوا خمسة عشر يهوديًا وثلاثة وعشرين نصرانيًا، ومن بين القتلى عائلتي بابايي وخوشنك كوهين. لم ينجُ أحد من أبناء العائلتين.

دار رأسها، سقطت على تخت، أجهشت بالبكاء، لطمت صدرها، قالت وهي تنوح.

- ويلي على صبلاخ! لن يبقى أحد من أهل صبلاخ! ويلي على صبلاخ! ماذا تراها جنت فحلت عليها لعنة الباري؟!

فقال بإحباط

- تهيئي يا أسمر، سنشيّع موتانا وندفنهم قبل صلاة العصر.

وشاهد ناحوم الصغير يحجل كالدراجة بين إخوته في الحوش، غير واع بشئ مما يحدث، وهو يحاول تقليد إخوته بتقاذف كتل الجليد المكوم بزوايا الحوش، فهبَّ إليه، واحتضنه بقوة وحرارة، ثم أمطر على بدنه تهتانًا من القبلات. وأصابت عينيه، إستير المندهشة فتوجه إليها بلهجة حاسمة محذرة،

- الموت يحصد الأرواح في الدروب، فإياك أن تغادري البيت وحدك أو مع الأولاد.

هزت رأسها ببلاهة فتساءل في سره:

- أتراها حقًا تفهم هذا الذي يحدث في صبلاخ؟!

وازداد العبء على كاهله «وزنة» أخرى.

* * *

دورك يا زمن!

لقد صَمَتَّ طويلاً أفحتى أنت تفحمك الأحداث؟!

قال: إني أطويها وتطويني، فَأُمْتَدَحُ بلا استحقاق وأُلعَن من غير ذنب. أنا لا أكثر من شاهد. لي عيون ترى، كثيرة لا حصر لها. لا أعرف النسيان. لا يد لي ولا قلب، فلا أدري لماذا تتمحكون بي وتتوسلون أحيانًا «رحماك يا زمن!» أو «اللعنة على زمن...» أو تحنون إلي «رحم الله زمنًا...» كل هذا وأنتم السبب والعلة والمعلول.

Twitter: @ketab_n

احتججتُ واحتج معي أبو سلمان،

«صبلاخ، خذها مثلاً! لم يكن لها يد فيما حل بها. هتك الأشرار حرمتها. كزلزال ماحق ضربوها. وكإعصار مجنون. كالطوفان أو كالوباء الجارف.»

«هيهات» قال الزمن «لا تخلطوا بين أمور ليس فيها للإنسان إرادة. وبين أمور كلها من صنع الإنسان. وما حدث لصبلاخ أمر من صنع الإنسان. وهذه حكاية كل الأماكن والأزمان.»

حكاية، أنا والأزمان نشهدها ولكن صانعها الإنسان، بحمقه وبقسوته اللامتناهية. لذا فبسمة السخرية والتهكم لا تترك شدقي، وهي تبتلع الكون المشغول بحروبه ونزاعاته ورغباته الموسومة كلها بالسخف، وهو مع ذلك يحيلها قدرًا منتفخًا بمآسي العالم. حكاية أبدًا لا تنفد لأن دروسها رغم وخامة عواقبها لا يتعلمها أحد.

«لم تجدد يا زمن شيئًا، فعد إلى حكاية صبلاخ المسكينة، ولا تكرر أشياء قد قيلت حتى ابتُذِلت وأثارت حتى ملالة الحمقى من الناس.»

«كلكم حمقى وكلكم أشرار وكلكم.. أو معظمكم ضحايا كذلك!»

«أنت تتفلسف. إذ أنت تقرر أشياء ستظل لغزًا لا حلّ له، ما دام ثمة بشر على وجه الأرض، ومادمت لست بأكثر من شاهد، فأروِ القصة ثم تهكم ما شئت، ولكن دعك من اتخاذ قرارات ثابتة حتمية، فهي فوق علمنا ودرايتنا جميعًا»

- إذن، لكل فرد من سكان صبلاخ حكاية، ولكل جندي أو ضابط ينزل فيها رواية. الاف حكايات، صغيرة وكبيرة، تنسج كلها قصة صبلاخ المنكودة في سنوات هذه الحرب، لكن قصتنا محدّدة مرسومة، تقتصر على من ذكرهم شلومو الكردي لك، وثمة أحداث مر بأبطالها لكنه لا يعرفها وأناس سيأتون لتروي حكايتهم محنة أهل البلدة. قد مر عليهم شلومو الكردي بخطوط تجريدية عامة. إنّ بوسع الفنان - المستمع لأبي سلمان، أن يضفي عليها ملامح تمنحها الشخصية، لكننا بصدد أشخاص معدودين. ثلاثة ما عتموا منغلقين على أنفسهم يحيون خلف الأجداث، خلف الدنيا، خلف الواقع، موتى، لن تأتي قيامتهم إلا إثر رجة الزلزال.

Twitter: @ketab_n

ألماس، وحسن بوزورك، ورضا الهائم بحليلة الأخ الجاهل للأحداث، مصطاد داخل صورة عريها ليلة الحمّام، صورة تجهلها المرأة الحسناء المتلفعة برداء العفة. تتحاشى رضا وتخشى نظراته. مكرسة ذاتها لبعل وثلاثة أولاد، مسكينة كبلدتها، تنكشف عورتها بمخيلة شاب أضحى عبدًا لجسدها. ويعريها بخياله، كل ساعة، ويراها في أوهامه مطواعة سلسة، يتغنج لحمها بين يديه، ويراها، تمنحه أعضاءها عضوًا عضوًا، يفعل فيها كل ما يحلو له، غير مكترث بكل محظور ومحرّم. ويتمنى للوهم أن يغدو حقيقة، وإذ تتعرض الدنيا لظروف تجعل زوجها شبه مقيم في البيت، يُنبتُ مضجع رضا أشواكًا ومدىً. ويفرخ ثعابين وعقارب. فيجن جنونه ويكاد يندفع إلى غرفة أخيه وغريمه، ليغتصب عرضه، ويزني بمحارمه إذ خنق ملاكه طوعًا، وأحل محله الشيطان، ويحلم حسن بوزورك بشتاء آخر وافر الثلج، يدر على أبيه مالاً أكثر ولينعم هو بعذارى جديدات يضمهن «لحريمه» ولكي يعتد بنفسه ويقول «ها أنذا مالك كل بنات صبلاخ، كل صبية في بلدتنا تسقط صريعة عند حذائي، إني أنا ملك الجنس الآخر، الفاتن الحلو!»

وهو إذ تستولي عليه طموحاته هذه، ويغرق في أحلام مراهقة عذبة، يزداد غيرة على أخواته، وحرصًا على حبسهن مع الأم داخل المنزل، وينفذ وصية أبيه وأمره في أن المرأة خلقت للمنزل، وإنها ولدت فيه وستبقى فيه حتى تتزوج، فتسير لبيت الزوج وتبقى في خدرها فيه حتى تخرج منه داخل تابوت. والأم والأخوات يطعن فلا يتركن المنزل، وحين يغيب الأب يصبح حسن الإبن في بيته الآمر والجلاد. إنه يتمنى أن تخرج كل نساء صبلاخ إلاّ شقيقاته وإلاّ أمه.. وإذا كان الزاني يبيح لنفسه أعراض الناس، فهو أشد الخلق قلقًا على عرضه، إنه يتباهى بشعاره «الأبهة والبنات زينة الحياة الدنيا!» ويزداد فخرًا في «أن أشرف نساء صبلاخ، أمي وأخواتي، فعيونهن لم تقع حتى على هيأة رجل غير أبي.. وأنا!»

إنه كسليمان، سيرث الكنوز وألف جارية، إذ لن ينافسه في الميراث أخ ملعون، لكن أخواته الأربع منغصة لا تنفك تشاكس أفكاره، فماذا سيحدث لو انسلت إحدى شقيقاته خلسة إلى ظاهر البلدة وفُتِنت بصبي مثله يُدنس فمها بلعابه،

Twitter: @ketab_n

تحت شجرة بعيدًا عن أعين الناس، وماذا لو عبثت يد رجل بجسم إحدى شقيقاته، كما تفعل يده بأجسام بنات الناس، ولو من خلف ثياب؟! وهل يعقل أن إحدى شقيقاته لم تبتسم يومًا لشاب من شباب صبلاخ، سرًا؟ ولم تبادله، واحدة منهن أو ربما كلهن، نظرات تحمل معنى يخشاه؟! أفهن شواذ؟! وهل تختلف نوازعهن عن نوازع باقي صبايا العالم؟ أشواذ هن بحيث لا تنتابهن شهوة لرجل ولا تجتاحهن عواطف نحو الجنس الآخر؟! يا للمصيبة! إذن، أصيّرت العزلة أخواتي سحاقيات؟! أم أن اعتكافهن في البيت خنق في أعماقهن لواعج الشوق إلى الرجال، وكبتها في لحد مجهول بذواتهن، بمعنى أنهن غدون باردات، وأحس حسن بوزورك بخوف لا يمت بصلة إلى الحرب الطاحنة الدائرة من حوله وتحت أقدامه.. ولم يكن شريرًا، فالحب خير والغيرة على أخواته خير، وكان خوفه على أخواته، يزداد كلما دهمته هذه الأفكار. أحس بأنهن في مأزق، بل ربما كان هو من يعاني من المأزق، فكل الاحتمالات تحمل صفات مسخ دميم الهيأة. وهذا احتمال آخر يحط على رأسه كالباشق ثم ينتشل دماغه من رأسه، فلعل مشاعر أخواته الجنسية قد أججتها العزلة القهرية، وسيرتمين، لا بد، في أحضان أي رجل يتفق لهن في غفلة، أو على حين غرة؟ لماذا إذن لم يخلقهن الله رجالاً؟! صبيان يفتكون ببنات صبلاخ ونواحيها، بل ويمنحونهن المتعة واللذة القصوى؟ والماس هذه الجارة المغرورة، لابد سيطوعها مع من طوّع، ويجعلها تستسلم له في يوم قادم. يومئذ سيجهر وسيفخر وكأنه لم يمتلك صبلاخ فقط بل قد ملك الدنيا، «أنا من روّض النمرة الشرسة» وسيعلن للعالم «حسن بوزورك وحده من استجابت له اللَّبُؤَة المفترسة، ألماس من غسل يده منها كل رجال صبلاخ!» وسيقول أيضًا إنها قد جثت تحت أقدامه من دون الناس فاتحة له الحضن والساقين.

واستيقظ حسن جاقماق فوجد الكابوس قد أضحى جزءًا من صحوه، إذ لم يكن جاقماق، بعكس أبي سلمان، يعتبر هذه الحرب كابوسًا، طالما الروس هم الذين يملكون أمرها.

كان الصراع بين الرجعيين والبولشفيين على أشده. وكان حسن جاقماق على

Twitter: @ketab_n

يقين لا يتزعزع من انتصار أصحابه الشيوعيين، وأن المسألة لا تعدو مسألة أيام أو أسابيع، أو أشهر في الأكثر! الآن يستيقظ على الكابوس. كابوس من أول حروف أبجدية الحرب إلى آخر حرف منها، ما زال يتخفى وراء جبال أذربيجان ويتعداها حتى يصل إلى موسكو وسان بطرسبورغ، كان جاقماق رغم قذارة هذه الحرب يقسمها إلى أحلام وردية وكوابيس سوداء. وعلى رغم أنه مسلم والعثمانيون الأتراك هم خلفاء الإسلام، على الأرض، فقد كانوا بنظره هم الكابوس. وخلاص الدنيا برمتها لا يتحقق بيد الظلمة العثمانيين، بل بالجيش الروسي. في هذه الساعات يهز الزلزال أراضي روسيا بقوة. والناس هناك ينضمون بجموعهم إلى حركة العمال والشعب. المارد يتململ ويوم الخلاص قريب. والعثمانيون، ما زالوا وهم يحتضرون، يعيثون في الأرض فساداً. إن قروناً من الفساد والظلم قد آن لها أن تلقى نهايتها. لكن «الرجل المريض» يرفع رأسه. إنها صحوة ما قبل الموت، ولا تخش من الظالم أكثر من صحوته هذه! فأبشع أنواع الشر يمارسه قبل خموده..

أنا لا أعطي الحق للروس في مذبحتهم البشعة، إذ مازال فيهم أعوان للقيصر الفاسد شبه المهزوم، لكن الطامة الكبرى هي أن قائدهم الملعون من أعوانه، ولستُ أُحل الحمقى من أهل صبلاخ من الذنب، إذ لحقوا بأذناب الجيش الروسي وأصابوا مؤخرته، فحق لهم العقاب ولكن.. واحتار.. حقاً إن الحرب محيرة بشاعتها!

لكن ماذا كان سيفعل العثمانيون والألمان لو اندحروا وفعل بهم أهل صبلاخ نفس ما فعلوه بمؤخرة الجيش الروسي؟! يقيني أنهم كانوا سيقتلعون صبلاخ من الجذور بمن فيها، ولهدموها على رؤوس أهاليها. الثأر إذن جاء ليعظ أولئك النفر الحمقى من أهالي صبلاخ، ولكن هل اتعظوا لا بل ازدادوا غباءً وحماقة وخرجوا ثانية في أعقاب الروس. وهؤلاء العثمانيون والألمان! ما حجتهم في قتل يهود صبلاخ ونصاراها؟! لقد جَبُن يهود ونصارى صبلاخ في هذه الحرب، حتى ملّتْهم منازلهم، لا يخرجون منها إلاّ لصلاة أو دفن ميت، ولو خرجوا فسيدبّون كالحشرات لصق الجدران. ولو قدروا، لغابوا داخل حيطان أزقتنا وحوارينا،

Twitter: @ketab_n

وإذا تخطُّوا الشارع الرئيس أو الميدان فإنهم يتلفتون ألف مرة خوفًا من مكروه متربص، بل وسمعت أن فيهم من يتخطى الشارع إلى طرفه الآخر وهو يدور حول نفسه مثل الكرة الأرضية، فما حجة الألمان والعثمانيين إذن في قتل مساكين بلدتنا، أعني يهودها ومسيحييها؟! هم لم يمسّوا برؤوسكم شعرة، أفتقتلونهم حبًا في القتل فقط؟ هو ذاك بالتأكيد، بيد أن السفاحين يبررون جريمتهم في أنها ثأر لتقتيل المؤمنين على أيدي الروس. انتقموا من الروس لو استطعتم، ولكن هيهات، فأنتم تقدرون فقط على الضعفاء والعاجزين من إخوتنا، هاتوا شيئا معقولا يا قتلة! أفتقتلون الأبرياء بذنبِ غيرهم بذريعة الثأر الكاذب؟! بل هذا ديدنكم على مدى عصور سلطانكم الأهوج!

كان حسن جاقماق يمعن في مثل هذه الأفكار ويحس بأن كابوسه يطبق على قلبه ويكتم أنفاسه، ويعتصره بأذرع أخطبوط شرس عملاق، انقض على فريسته بكل قوة.. لم يرتح حتى تقيأ دعوته في آذان أتباعه، وبكل حرف فيها خلية من خلايا بدنه.

«يا رفاقي! ضمير العالم يؤرقني، منذ هذه اللحظة إحتشد سهاد الدنيا في عيني. لا ريب عندي، وماشككتُ لحظة، في أنكم تشاطرونني الألم مما يحدث. في قاموسنا تنصهر الملل والشعوب والطبقات والأديان إلى كلمة «الرفيق»، وكلها تغدو كتلة بشرية واحدة متراصة. لكنهم مازالوا يكحلون عيونهم بألوان غيارات عفا عليها الزمن، العسلي، والأحمر، والأخضر.. مِن قبْل جاء أناس وقسموا البشرية إلى شيع وأحزاب وطوائف سنعود نحن ونوحدها. يا رفاقي، لا فرق بين يهودي ونصراني ومسلم. إننا نؤمن بالإنسان، فأجيروا إخوتكم في الإنسانية، أهالي بلدتكم، أصحابكم وجيرانكم وأصدقاءكم منذ سالف الأيام. إحموهم من سيف العثمانيين والألمان المسلول. ويا «ملل» العالم اتحدوا!

كان هذا، ما ينادي به أيضًا شلومو كتاني. ولم يكن قد قرأ تعاليم ماركس ولينين ولا حتى تروتسكي. ولم يتقيد بعقيدة أو مذهب غير الإنسانية. فالإنسانية أم العقائد والمذاهب جمعاء. على أن مسيرة الأحداث في صبلاخ لم تكن تترك خيارًا. وكان هذا الخيار. هو دعوة شلومو ونداء حسن جاقماق، فكان يمضي

Twitter: @ketab_n

بأهل صبلاخ إلى بوتقة ينصهرون بداخلها كلهم، ويندمجون كي يرتبك القتلة في الجيشين، ولكي ينجو من أهل البلدة كثيرون، سيروون أحداث محنتها ويشيدون بتلاحم أهلها من شتى المعتقدات والأديان.

* * *

إلا نفر قليل، هم أخوة في الأرجح!

ينفث فم مرتضى حاجي زادة، عوض البخار، نارًا كالتنين، فتتصاعد إلى السماء وتصدها الغيوم، فيتبخر ماؤها وتنقشع، وترتطم أقدامه المتلظية بالجليد فتذيبه، ويتحول تحته إلى مستنقع يكبر حتى يغدو بحيرة، تغمر أرجاء صبلاخ، ثم ما أن يدخل غرفته ليقطعها ويقطِّعها بأقدامه، حتى يعود كل شيء في الخارج إلى سالف عهده. البرد والثلج والحرب والذبح والعثمانيون والألمان. بطنه الهائل يترجرج حنقًا، وشارباه الشبيهان بذيل سنجاب يرقصان على إيقاع طبلة السخط الجارف، كيف سبقه أخوه هذه المرة وأغدق على القائد العثماني هدايا ورشاوى وأتاوات مما يستخلصها من أهل صبلاخ المظلومين في مدة عام كامل، وتمادى فأقام له جناحًا في السراي يتخذه له مقرًا وقيادة. يخطف وهج المعدن الأصفر عقل القائد العثماني مع أبصاره فيصادق على كل صلاحيات ولي المدنيَّة في صبلاخ ويرسل لمرتضى يحذره من الكيد لأخيه وينذره ليس بالفلقة والعصا، لو كاد لولي، بل وبتقطيع لحمه وشيّه وإطعامه منه!

نذل يناصر نذلاً، لكن أخي يتمادى في التنكيل بي وإذلالي، فلننتظر دورة الفلك وتقلّب الأحوال. واستوقفته كلمة «أخي» هذه، فتبحر في معناها، وألفى الزيف يغمر هذا المعنى، أو أن الزيف يغدو هذه الكلمة لو نسبت إليه وإلى أخيه الوغد ولي. إلا أن من غير المشكوك فيه أنهما هبطا من نفس الرحم، ولكن ما أدراك أن كان الصلب الذي أنجبهما هو صلب أب واحد؟ وتحيّر، لكن هذا الجسم الهائل كان يملك في رأسه بعض العقل، فأدله هذا العقل إلى حقيقة ليس من السهل أن يعترف المرء بها، لكنه بشجاعة قال «وهل أنا أقل من ولي شرًا ونذالة؟!» المسألة إذن مسألة مواقع قوة وليست مسألة كفاءات بحتة. إنهما لا يختلفان عن الروس والعثمانيين إلاّ أن أولئك، قد حظي كل منهما بفرصته ووطئت أقدامه أرض

Twitter: @ketab_n

صبلاخ، ومارس فيها السلطة بل وقتل من أهلها ما شاء أن يقتل.

هو، لم تواته هذه الفرصة بعد، وقد أُذِلَّ وأهين بيد ولي الظالم، وقال متوعدًا «حين أتربع على كرسيّك يا ولي فستجدني أظلم منك.. وسأُبدع، في إهانتك وإذلالك حتى يمحي يوم الإصطبل من ذاكرة الناس، فيلهجون بفعالي بك وإهانتي لك. وأُقسم على أن ما سأصنعه بك سيتعدى كل خيال ويتجاوزه إلى عالم الأسطورة، لكن كيف ومتى؟! إن وليًا مازال يتحداه من موقع القوة، وهو يتفحص جسمه وثيابه فيرى في كل شبر منهما وصمة عار ومهانة.» إمض إليه فاطلب منه مهادنتك، وأسْعَ في السر لجمع الأعوان كي تضرب ضربتك إذ تتأتى الفرصة. فكرة داهية إلاّ أن الكرامة تعترض عليها بشدة وتمانع. «المسلم لا يرضخ ما لم يغسل عن جسمه العار!» «لكنها مكيدة من تدبير العقل» «وما قيمة العقل بمقابل ما يَرويه الناس؟ سيقولون: قد رضخ مرتضى حاجي زاده لأخيه ولي رغم ما فعله به في يوم الإصطبل وتوابعه.. لا قرّت عيون الجبناء!» إذن امض إليه وكلمه بحزم وصرامة وحذِّرْه من أن يتمادى بإهاناته لك، ثم امض أنت بمكيدتك في سرية وهدوء تام!، وسيقول الناس: وَاجَهَهُ أخوه مرتضى، رغم ما تلقّى الآخر من مساندة العثمانيين، فكلّمه بحزم الأبطال! لم تقنعْهُ كلمة «الأبطال» هذه، لكنه تبنّى ما اقترحه عليه عقله: سأمضي إليه وأتحداه! سأمضي إليه وأوقفه عند حده! مرحى!..

ترجّل مرتضى حاجي زادة عن حصانه الأشهب قرب السراي، كان حجمه يبدو ضعف ما كان عليه بالأمس. لقد انتفخ اعتدادًا وكرامة. وحرص على أن يراه النفر القليل المار بالصدفة بجوار السراي، بيد أن معظم الناس كانوا مختبئين ببيوتهم تلافيًا للجليد المتراكم والحرب. في الأرجح لم يره غير جنود عثمانيين وأعوان أخيه من الأشرار وحثالات الناس، إقترب منهم، كانوا من صفوة السفاحين وقطّاع الطرقات، ومعهم الأخَوان أكبر، وكان مجرد ذكرهما يحدث الرعدة بقلوب وأطراف أجسر رجال أذربيجان وكردستان، إلا أنهما الآن قد صغرا شأنًا أمام رجال أنجبهم الشيطان وأرضعهم ثدي الجريمة وأسبغ عزرائيل حليفهم الأكبر على هيأتهم الهول والرهبة، أوغاد، أنفاسهم تسمم هواء

Twitter: @ketab_n

صبلاخ الطاهر، ووطأتهم على أهل البلدة أشد من وطأة هذه الحرب. ها قد جمع البوم من حوله كل الغربان، نَجِس يرفع أنجاسًا ويرجم أخاه بهم، ولكن رويدك يا ولي ومعك أحط حثالات الناس أولاء. وتقدم متصنعًا بشاشة كاذبة، سرعان ما بانت على حقيقتها إذ استوقفه أعوان أخيه عند الباب. وفي الحال تجهم، وأحدهم جأر بصوت دوّى كقذيفة روسية أو عثمانية،

– ماذا تريد؟

– أنا أخوه.

عجُّوا بضحك خشن فظ، ويل للناس من متصرّف هؤلاء حماته! إذ خير لأهل صبلاخ إذن، أن ينتحروا أو يقتلوا في الحرب! وقال أحدهم،

– لقد منع ولي آقا دخول الحيوانات، فعد أدراجك أيها الحصان المنفوخ البطن!

تمالك نفسك، فأنت تواجه أخسّ المخلوقات، وويل لك مني يا من كذبوا فسمّوك وليًا!

– لا بد أن أرى أخي... وسوف أراه!

غمز أحد شذاذ الآفاق لجعفر أكبر، فدخل جعفر ثم عاد وصاح به،

– أُدخلْ إلى سيدك وتاج رأسك.. يا حصان!

كان وليّ متربعًا على «عرشه» وجسمه الشحيم يكاد يهوي بمقعده إلى الأرض، إستعرض أخاه باشمئزاز من أعلى إلى أسفل، قال، وصوته يخرج من أنفه.

– ماذا تريد؟!

المقدمة ليست مشجعة لكنك وعدت نفسك بالحزم والصرامة يا مرتضى.

أضفى على صوته مسحة من القسوة وسحبه من حلقومه كأنما برافعة،

– جئتُ أُحذرك يا ولي...

تراقص كرسي ولي وتراقص جسمه، وتراقصت قسمات وجهه وشارباه وكأن شخصًا لا يكف عن دغدغته فيقهقه ويتأرجح ويشهق ثم يسأل متفكهًا،

– تحذرني؟! ممّ تحذرني... يا نملة؟!

غضب مرتضى، لم يحتج هذه المرة إلى صبغة ولا إلى رافعة، إن الغضب يلغي

Twitter: @ketab_n

الكوابح والعقبات..! ولكن إياك ثم إياك أن تفقد عقلك يا مرتضى!

- أنت أخي، لكنك مازلتَ تتمحك بي وتهينني دون هوادة، فأرفع يدك عن أخيك يا ولي!

سمع الآخر نكته أخرى، إبتلع ضحكته وقال هذه المرة بسخرية،

- أمرك مطاع يا حمار..! سأرفع عنك يدي ولكن ما دمت قد جئت بنفسك إلى هنا، فلن تخرج وأنت صفر اليدين؟

وصفق بيديه وصرخ،

- أنت يا شرير!

ظهر في الحال كائن عملاق بشع المظهر، ليس في مظهره ما يشبه الإنسان بشيء، ولم يُعرَف له إسم سوى «الشرير.» ورمقه مرتضى حاجي زادة فأدركه خوف لم يشعر به من قبل، هو مرتضى حاجي زادة بسطوته وقوته، يرى الشرير فيساوره الخوف. حقًا إن الشر بذاته درجات وهذا الكائن، هو بالتأكيد، أقصى درجات الشر. ومن يدري فلعل وليًا قد سوّاه وشحنه بالشر المطلق المحض، كان مخلوقًا بشعًا جبارًا لكنه لا يملك ذرة عقل بالتأكيد. فكان شرًا محضًا يسخره ولي كيفما شاء، الآن أمر وليّ «الشرير» بأن يأخذ مرتضى إلى الطاحونة، وأن يفك رباط البغل الدائر حول حَجَرِهَا فيربط مرتضى عوضاً عنه، ثم يعصب عينيه، ويضع العليقة في عنقه، وأن يرغمه على الدوران حول المدار وهو على أربع، حتى يُكمل طحن عشرة أكياس من القمح «فإذا توقف أو توانى أو استرخى فعاجله بالسوط ولا ترحمه، وأحرص على أن يأكل كل ما في عليقه، رغمًا عن أنفه، ثم حين يكمل طحن الأكياس العشرة إرم به في الشارع كما تُرْمَى القمامات!»

هبطت بقايا كرامة مرتضى حاجي زادة المكلومة إلى الدرك الأسفل. إنها لإهانة لا يحتملها إنسان، وهذا عذاب يفوق طاقة المخلوقات، وفي لحظة ضعف بكى مرتضى حاجي زادة.. إن كان هو شرير، فهذا هو الشر في أشد حالات ضعفه. وأخوه الآن الشر في صولته وعنفوانه، نسي مرتضى يوم الإصطبل. وما اعتاد أبو سلمان الكردي تسميته بيوم «الطولة»، نسيه إذ كان ذاك الشرف بعينه أمام هذا اليوم المشؤوم «يوم المدار...» لا مجال للمقارنة لكن الناس ظلوا

Twitter: @ketab_n

يتحدثون عن «يوم الاصطبل»، فذاك يوم جرت أحداثه على مرأى ومسمع من أهالي صبلاخ. أما يوم المدار المهين المشين، فلم يشهده غير مرتضى وأخيه وعدد من أعوان ولي. ولقد حظر ولي على هذا النفر، التحدث عن «يوم المدار» وأمرهم بكتمانه، كي لا يؤلب الناس عليه ويدفع بهم إلى أحضان أخيه المهان، الملطخة كرامته بوصمة العار، بيد أن مرتضى أقسم ونذر على أن يبقى جرح مهانته مفتوحًا حتى يلتئم بالثأر. ومنذئذ أخذ يجمع الأعوان سرًا، ولقد كان من شأن يوم المدار أن يكون له وزن كبير في مجريات أحداث صبلاخ المروعة، فيما سيأتي من أيام.

Twitter: @ketab_n

(الجولة الخامسة)

تاهت كول زوجة مرتضى حاجي زادة في مجاهل أحداث تفوح منها روائح غريبة. روائح بخور كأنها تُطلق لممارسة سحر أسود.

ذات مساء دخل مرتضى بعد يوم طويل غاب فيه عن بيته. وكان معفرًا متسخ الثياب والجسم، مشعث الشعر، المشوب بغبار أبيض، يبدو به وكأنه قد شاب فجأة، مرضوضا، منهكًا، مهانًا، غاضبًا، حاقدًا، صامتًا. وكان يخفي بين ثيابه المشوشة شيئًا كبيرًا، يلوح من خلف الثياب وكأنه مفتاح ضخم. سألته عما دهاه مستغربة، فلم يجب. دخل غرفته وأغلق الباب وراءه، لم يطلب طعامًا ولم يردّ على سؤال. ثم فجأة جلجل صوته يطلب من زوجته أن تعدّ له ماءً ساخنًا وثيابًا نظيفة ومرهمًا للجروح. ولأول مرة في حياتهما الزوجية أبدى عن رغبته في الاستحمام لوحده. إمتثلت كول إذ أن رغبات زوجها أوامر، لاحظت أنه يسدل ستائر المطبخ ويطيل المكوث بداخله. لاحظت أيضًا أنه أتى على كل ماء المرجل الساخن، ولم يترك ماء الاستحمام في الطست، لتسكبه في البالوعة، بل ولقد وفر هذا عليها وفعله هو ذاته. غريب، لكن الأغرب من هذا، أنها حين جاءت لتأخذ ثيابه الوسخة كي تلقيها بثياب الغسيل، لم تجد لها أثرًا. ولاحظت أن مرهم الجروح قد فقد جزءًا محسوسا من كميته. أفرخ كل هذا في عقلها أسئلة شتى، ولكن متى كانت كول تتجرأ على طرح أسئلة بمثل غرابة أسئلتها هذه على مرتضى؟ إلاّ أن ما حدث لم يكن سوى فاتحة لأحداث أشد غرابة، ستجعل فضولها ينتفخ بمزيج من الأسئلة حتى ليكاد ينفجر لها عقلها، وتفحمه بالحيرة. لم يتعش في تلك الليلة. طلب من كول أن تنتقل مؤقتًا من غرفة الزوجية إلى خدر النساء حتى يعود ويأمرها بالعودة. إمتثلت. ولكن ما السرّ؟!

أطفأت المصباح في الخدر ومضت تراقب من ثقب في الستارة، رأت غرفتهما في الطابق الأول مضاءة. لم ينم مرتضى. لم يتعش، لم يرتد حتى ثياب الليل وقبيل منتصف الليل. رأته ينسل بلا فانوس، يفتح باب البيت في العتمة ويخرج. ماذا

Twitter: @ketab_n

يجري؟ ألقى بها السؤال في بركة من الدهشة. في البدء، توقعت أن يعود بعد قليل، خاب ظنها، والوقت يمر. وبركة الدهشة تتحول إلى بحر أُجاج يعصف بالخوف، ارّق هذا الخوف عينيها. مازال الوقت يمر ومرتضى غائب، في أحشاء غيب يعج بالأخطار. ظلمة ما بعد منتصف الليل، والحرب، وأخوه، إلى أين تراه ذهب، ومتى سيعود؟ إن ساعات الليل تسقط في بؤرة الماضي، لم يبق على انهزام الظلام غير ساعة. أين تراك تكون يا مرتضى؟!، السؤال ينهش في قلبها وديكة الصباح تصدح، إصطفق جنانها بعظام صدرها. وإذا بباب البيت يُفتح ويصطفق هو الآخر بهدوء. لم تتأكد كول من أن الداخل زوجها، حتى رأته يدخل الغرفة ويشعل المصباح، ولما رأته من الكوة هجعتْ. سكن كل ما أقض مضجعها، مخاوفها وقلقها وسهادها. وحتى فضولها صرعته جولة الكرى، فأخذها النوم حتى تسللت شمس الضحى إليها فهبت مستيقظة، فزعة.

قامت ملهوجة مسروعة لتعد له طعام الفطور. وإذ جاءت به وبابريق الماء والطاس، وجدته مهموماً. ولم يتكلم ولم يأكل بل طلب منها بإشارة من يده أن تُبْعد ذلك كله، كانت سحنته صارمة وكتومة. تردع ولا تفضح، أرادت أن تقول شيئًا إلا أن لسانها جف داخل فمها. عادت أدراجها، وصادفت، خديجة الخادمة فشكت لها ما يقلقها.. ولكن ماذا بوسع خديجة أن تفعل وقد كانت تخاف سيدها خوف الحملان من الذئاب؟! أغلق مرتضى عليه باب الغرفة ونام. وفي الظهر كان نصيب الغداء كنصيب الفطور. ورأته خديجة وهي تمر بغرفته عصرًا، يقضم كسرة خبز جافة ويتمتم بكلمات مبهمة. وفي المساء ظل يقضم الخبز اليابس ولم يتعشَّ، الصمت أشبه بسور حديد لا ينكسر، والدهشة تفور، ويغدو مرتضى فجأةً شخصًا آخر لا تعرفه زوجته ولا يفهمه بنو بيته. إستحم كالبارحة لوحده رافضًا أن تدلك له كول ظهره. وطلب أيضًا مرهم الجروح، ولما ترك المطبخ ودخلتْ لتفرغ الطست وتأخذ الثياب الوسخة لتلقيها مع ثياب الغسيل، وجدت الطست فارغًا وقد اختفت ثياب الغيار. ماذا يحدث لمرتضى منذ البارحة؟ إن ما حدث بالأمس يتكرر اليوم. نسخة مطابقة، ففي حوالي منتصف الليل تسلل مرتضى من غرفته وفتح الباب ثم اطبقه وراءه ولفعه الظلام والباب المسدود، إنه يذهب بلا فانوس. فإلى أين وكيف يتدبر أمره في الظلام؟ وغلب كول النوم فلم تنتظر عودة زوجها

Twitter: @ketab_n

كالبارحة، بيد أن خديجة الخادمة أخبرتها بأن سيدها عاد إلى البيت عند صياح الديكة.

وما حدث في اليومين الأخيرين حدث في اليوم الثالث أيضًا، لكن مرتضى حاجي زادة استيقظ في اليوم الرابع كعادته قبل هذه الأيام الثلاثة. تناول طعامه وتكلم، ولاح بعض البشر على وجهه. وطلب من آل بيته أن يذبحوا خروفًا ويطهونه كاملاً محشوًا بالأرز ليقدمه لضيوف سيحضرون في الليل، ومع ذلك فقد طلب من كول أن تبقى في الخدر وألا تحضر إستحمامه، رغم أنه لم يطلب مرهم الجروح، وترك ماء الغسيل والغيار لها وللخادمة.

بدأت الآن مرحلة أخرى من الأحداث الغريبة، صعدت بفضول كول المنتفخ إلى السماء. لم تحتمل ما يحصل من ألغاز، جلست في خدرها ومن فرجة صغيرة في الستارة راحت تراقب. ولى المساء ولم يأت أحد. صلَّتْ العشاء وما من ضيوف. ومرتضى معتكف في الغرفة الكبيرة، ثم قبل منتصف الليل بقليل خرج من الغرفة وسار نحو الباب، فتح باب البيت فتحة صغيرة وعاد إلى الغرفة ووقف ثَمَّ ينتظر، كانت الغرفة الكبيرة مضاءة باللوكسات، كأن في داخلها وضح النهار. وانسل من فرجة الباب رجل فأشار إليه مرتضى بدخول الغرفة. إستطاعت كول أن ترى في دائرة الضوء عند باب الغرفة هيأة الرجل وسحنته. كان صعلوكًا من الصعاليك، مخيف الوجه، خلِق الثياب، لا تتذكر أحدًا يشبهه في صبلاخ. مضت تتأمل لكن تأملها قطعه صرير في باب البيت، رجل آخر يدخل البيت، صعلوك آخر ذو وجه غريب مخيف وثياب رثة بالية. وتواصل انسلال الصعاليك من باب البيت الموارب حتى بلغ عددهم ثلاثين صعلوكًا، وصلوا في نحو نصف ساعة. وعندئذ أغلق مرتضى باب البيت ثم دخل الغرفة الكبيرة المسدلة الستائر وأوصد عليه وعلى ضيوفه بابها. ظل باب الغرفة موصدًا نحو ساعتين، ثم فجأة انفتح بابها وظهر مرتضى ومعه اثنان من ضيوفه الصعاليك، ساروا إلى المطبخ وعادوا منه إلى الغرفة حاملين الصينية النحاسية الكبيرة وعليها الخروف المحشو بالأرز.

أقسمت خديجة لسيدتها في اليوم التالي على أنها اختلست النظر، يحجبها

Twitter: @ketab_n

الظلام، من فرجة صغيرة في الستارة المسدلة ورأت ما يجري داخل الغرفة. رأت هؤلاء الرجال يتناهشون الخروف كالوحوش ويحتفنون الأرز الممزوج بالزبيب واللوز بأكفهم ويلقمونه أفواههم، ثم حين فرغت الصينية إلا من العظام راحوا يتناهبونها ويلحسونها لحسًا ويمتصون نخاعها ثم يمسحون أيديهم بثيابهم القذرة وأفواههم بالأكمام، وعند صيحة الديك، قال السيد مرتضى،

– لا تنسوا أيها الرفاق! سأفتح الباب، يخرج أولاً من كان طريقه إلى اليسار، وبعد دقيقة يخرج من كان دربه على اليمين، يتبعه بعد دقيقة من كان دربه إلى الأمام وهكذا دواليك، وموعدنا كلنا بعد ثلاثة أيام في نفس الموعد. أغلقوا أفواهكم! وانسوا حتى أسماءكم وسيكون جزاؤكم جزاءً عظيمًا!

وبعد نصف ساعة خلا البيت من ضيوف مرتضى حاجي زادة، فأغلق الباب وعاد إلى مرقده ونام.. وكان الآن راضيًا مطمئن البال والخاطر!

وقام مبكرًا ورأته زوجته يغادر البلدة بعربته ثم يعود ومعه قطيع من الخراف والعجلان، وعدد من أكياس الأرز. لم تدر كول من أين جاء مرتضى بكل هذا وقد شح الطعام ونقصت المواشي في صبلاخ وجوارها. وازدادت استغرابًا لأن الزريبة كانت مليئة بالمواشي ومخازن الطعام، مطنبة حتى سقوفها. فكرت بقدر ما أسعفها عقلها فاستنتجت شيئًا واحدًا، لا بد أن الولائم ستستمر وهذا يعني أن هؤلاء الضيوف المخيفي الهيأة سيواصلون المجيء، وإن مرتضى يحرص على إطعامهم دون المس بمؤونة أهل بيته، سيما والطعام لا يكاد يتوفر في صبلاخ، ولكن من أين؟ مرة أخرى تساءلت، فضاع سؤالها هذا مع باقي أسئلتها الكثيرة في دنيا من الضباب الكثيف.

وبالفعل أمر مرتضى بإعداد وليمة كوليمة البارحة. وأكل واستحم، ثم جاء الليل. اعتكف مرتضى بغرفته كما فعل ليلة الأمس، وظلت كول مسهدة قلقة تنتظر من خدرها العلوي، ثم قبيل منتصف الليل، غادر غرفته وفتح باب البيت فتحة صغيرة وأضاء الغرفة الكبيرة باللوكسات، وتمامًا كليلة البارحة أخذ الصعاليك يدخلون منسلين من فتحة الباب، كل واحد منهم بفارق دقيقة، كانوا كلهم دميمي الخلقة مخيفي الطلعة، إلاّ أن من المؤكد، أنهم ليسوا بصعاليك البارحة. أولئك

Twitter: @ketab_n

كان معظمهم نحيفا أعجف، أما هؤلاء فطوال عراض كالبهلوانات الذين كانوا أحيانًا يتفقدون البلدة قبل نشوب هذه الحرب. نامت كول قبل ذهابهم، لكن خديجة الخادمة رأت سيدها يخرج إلى المطبخ مع اثنين من هؤلاء البهلوانات ثم يغادرونه حاملين صينية الخروف المحشو بالأرز والزبيب واللوز إلى الغرفة الكبيرة، في هذه المرة لم يكن بخديجة حاجة للمجازفة ومتابعة ما يحدث من شق الستارة، سمعت من مرقدها القريب من الغرفة الكبيرة أصوات هراش ومجاذبة وكأن حربًا أخرى كانت تدور داخل الغرفة.

وندّ صوت أحد الأجلاف الغلاظ يبدي عن التذاذه بالطعام من خلال فم مليء وأسنان تمضغ، وحكت الخادمة لسيدتها أن هؤلاء الأجلاف الاعلاج، أخذوا مع صيحة أول ديك يغادرون البيت فردًا فردًا بفارق دقيقة، وإنها أحصت من وقع أقدامهم نحو ثلاثين فردًا. وفي الصباح بكر مرتضى حاجي زادة إلى الخروج ثم عاد ومعه حمّالان ادخلا للغرفة الكبيرة أكياسًا وحاجيات لم تعرف الزوجة ولا الخادمة كنهها. وطلب مرتضى إعداد قاعة الاستقبال الكبرى، وأن يُذبح عجلان، يطهيان كاملين ويحشيان بالأرز والمكسرات والأفاويه. وفي المساء اعتكف في القاعة الكبيرة وأوت كول إلى خدرها العلوي، وقد أخصبها الفضول بسبعة توائم، وأكمل لها حملها في ثلاثة أيام وإذا بمخاض من نوع عجيب ينتابها على شكل أسئلة مفقدة للصواب. كانت تعلم بأن طلقها القاتل هذا لن يتخلى عنها ما لم تعرف الحقيقة، وقررت بجسارة الليث الشجاع أن تستجلي الأمر بنفسها، حتى لو تحوّل طلقها هذا العجيب إلى طلاق!

كانت السماء مكفهرة بسحب سوداء. وكأنما الحرب قد أصابت السماء بحرارتها فلم تُسقط السحب ثلوجًا كثيرة وكانت أمطار نادرة الهطول في صبلاخ بهذا الموسم، تنهمر أحيانًا فتكتسح قشرة الجليد المكسوة بها البلدة المحتلة. في هذا المساء ذرفت أعين السماء جليدًا ممزوجًا بالمطر. أمر نادر الحدوث حقًا، بيد أن مرتضى حاجي زادة بدا بشوشًا راضيًا عن هذه الظاهرة. راقب نثار الجليد في صحن داره الكبيرة تكنسها الأمطار. كان راضيًا لكن رضاه شابه القلق والترقب. في أعماقه دفء مختلط ببرودة، كالطقس الغريب هذا العام. متى

Twitter: @ketab_n

حدث بشتاء صبلاخ الا تتدنى الحرارة إلى درجة الإنجماد؟! أمر غير معقول، لكنه الحظ الحسن كما يبدو، فلتجف السماء وليتصاعد بخار مرجل حقده ليحرق البرد والجليد ويجفِّف السحب السوداء المحروقة. واقترب منتصف الليل، وفتح مرتضى باب البيت المضاء باللوكسات فتحة صغيرة، مواربه وعاد إلى غرفة الإستقبال. كانت السحب تتناطح في أعلى الدار، والرذاذ الهاطل، يبدو كدخان يتراقص في مجال ضياء اللوكسات، ثم شرع الوافدون يدخلون تباعًا. أشباح بشر تكتمل بشريتهم في دائرة الضوء القوي. أو يبدون كهجائن وحشية- بشرية. نحاف، عجاف، طوال، عراض، قامات معتدلة. منهم من جاء البارحة، ومنهم من جاء ليلة أول أمس، ومنهم من يأتي اليوم لأول مرة. أحصت كول الصعاليك القادمين، ثم تاهت في الحساب. تسعون صعلوكًا، ربما مائة ربما بين التسعين والمائة، أو لعلهم أكثر من ذلك. شذاذ آفاق، حثالة الحثالات، أشقياء يأنف من معاشرتهم أحط أهالي صبلاخ. فهل جُنَّ مرتضى؟! وما هذه المعميات؟.. !واشتد عليها طلق الفضول وتواتر بالام لا يحتملها بشر. أجل. إنها ستعرف الحقيقة ولو كان ثمن طلقها هذا، الطلاق!

انتظرت حتى حُمِل الطعام من المطبخ، وحتى أعيدت الصواني إليه فارغة إلا من عظام ملحوسة. ولأول مرة، مذ أخذ مرتضى يستقبل ضيوفه المشبوهين هؤلاء، جيء بأباريق ماء الغسل والطوس والمناشف. لا ريب بأنه يريد أن يعلمهم أصول الأدب والنظافة ولكن حتى متى تنتظر؟! إنها ستنزل الآن، وانحسرت أضواء اللوكسات وتركزت كلها داخل القاعة الكبيرة.

كف المطر عن الهطول ولم يبق غير سحب تمضي صامتة من فوق صبلاخ. إنها ستكتسي بالظلمة وسترهف السمع والبصر. على حذر نزلتْ. ستائر القاعة مسدلة وبابها مغلق. بحثت عن ثغرة تنفذ منها أبصارها إلى الداخل. الثغرات دائمًا موجودة. يتركها المرء أو يهملها إذ يشعر بالأمان. الخطر يكمن في الخارج، فهل ثمة من يضمن عدم تسلله إلى الداخل بنفس طريقة هؤلاء الضيوف الشديدي الغرابة؟! لن تدع لهذه الأسئلة أن تسرقها الآن. عليها الآن إسكات مخاضها الموجع. كي تحذر وكي تعرف. بتوجس اخترقت أنظارها المحظور،

Twitter: @ketab_n

رأت زوجها يخدم الصعاليك بنفسه، يصب على أيديهم الماء وثمة من يساعده فيمسك بالطاس، وآخر يقدم المناديل، ها قد جن مرتضى ولاشك، إنه يخدم إناسًا تعافهم حتى الأرض، وتطردهم من فوقها العفراء. وهو فوق هذا يسميهم «يا رفاقي.»

– يا رفاقي، والآن وقد أكلنا وغسلنا أيدينا وأفواهنا، فلنُقسم على الإخلاص والكتمان، وليبدأ عقيدكم «ليث الجبل» بذلك.

قدّم له مصحفًا غلافه من الفضة المطعمة بالياقوت والفيروز، فامسك الرجل الضخم بالمصحف وأقسم.

– أقسم بكتاب الله هذا على أن أخلص لسيدي مرتضى آقا حاجي زادة وأن أكون من أعوانه وأن أكتم السر.

أي سر يا ترى؟ هل أنشأ زوجها جماعة أو مذهبًا سريًا؟

راودتها طلقة فضول مؤلمة أخرى. هل تراها ستعرف الحقيقة؟!

إنتقل المصحف من يد إلى يد، القسَم، نفس القسَم، واللهفة للعمل صادقة. أي عمل هذا يا ترى؟ هل سيقاومون المحتلين؟ وهاهم يفرغون من القسم. صمت يسود ومرتضى يقف بين الحشد الجالس. سحنته تتلبد بمثل السحب المكلكلة فوق رأسها وثمة غضب مشوب بالألم يخيم على القاعة وأخيرا،

«هذا لقاؤنا الأخير في هذه المرحلة، علمتم ما علمتم وتحالفنا وأقسمنا على الولاء والانتقام من وليّ الظالم، وسأعود وأذكّركُم»

ويصمت مرتضى ثم ينزع ثيابه العليا، هالها ما رأته على ظهره العريض، كان ثمة آثار سياط، عرفت الآن سر استحمامه لوحده ولماذا طلب منها مرهم الجروح، إستدار مرتضى حول جمع الصعاليك وهو يقول:

– هذا ما فعله بشريف القوم، أخس مخلوقات الله، بأمر من وليّ الظالم، يوم صيّرني حمارًا ودار بي حول حجر الطاحونة، وهو يسوطني حتى امتلأت عشرة أكياس من الدقيق. لقد اندملت جروح السياط، ولكن هل يندمل جرح المهانة؟ وهل يسكت ظل الإنسان المداس بالأقدام؟

كادت شهقتها تفضحها، كمت فمها بيدها وأجهشت رغمًا عنها؟ أفحقًا

Twitter: @ketab_n

يفعلون بزوجها ما يفعلونه بأحط الحيوانات؟! على مهل، رأته، يعود ويرتدي ثيابه، عمّ القاعة لغط غاضب أسكته مرتضى بصفقة من يده،

- حملني الشقي المدعو بالشرير بأكياس الدقيق وسار بي وأنا أمشي على أربع إلى مخزن الطعام، وفي لحظة نسيت ألمي، ومهانتي، رأيتني داخل مخزن لا أول له ولا آخر، مخزن يمكن أن يضل المرء طريقه، بداخله، متاهة متعرجة لا تقل مساحتها عن عشرة آلاف متر مربع والأطعمة مكدسة حتى السقف. رأيت ثمّة من المؤن ما يكفي صبلاخ برمتها عدة من السنين. أدركت أن وليًا الظالم قد جمع كل هذه السلع ليبيعها بأغلى الأثمان لأهالي البلدة حين يتعذر الطعام ويستبد الجوع القادم لا محالة. ولكي يستحوذ على أموالهم التي لم يسرقها منهم بعد. علمتُ أيضًا أن ذلك الوحش الضخم المسمى بالشرير قد خرج عن أوامر سيده فأدخلني إلى هذا المخزن. إن مفتاح هذا المخزن هو الذي رأيتموه بحوزتي، ففي لحظة نحس للملعون ولي، إستحوذت على هذه النسخة من المفتاح. وهناك نسخ كثيرة منه مودعة لدى «الشرير» وأمثاله. هذا هو مفتاح المخزن الذي ستدخلونه في ليلة المحاق. إني أودعه بيد عميدكم. وهذه نسخة أخرى صنعها لي حداد من أعواننا، سأودعها لدى نائب عميدكم. وهاتان نسختان من مفتاح المخزن القريب من مخزن ولي. مخزننا الذي ستنقلون إليه كل ما تستطيعون نقله من مخزن المجرم قبل إحراقه. سأودعهما بيد «ليث الجبل» ونائبه. الطعام سيعينكم وأهالي قراكم على المجاعة. إنه سيستخدم في الخير وسينقذ أرواحًا عوض احتكاره وسرقة الناس وإضافة ثراء على ثراء المجرم ولي، والآن ليختر كل منكم ما يلائمه من هذه الثياب السوداء، ومعها قناع الشيطان. وليتزود كل منكم بالبنج السائل والبنج الطيّار وبكمامة وقصبة.

اللغط يعم القاعة مرة أخرى وكول معقودة اللسان بالدهشة. مجمدة بالخوف والبرد. وصفق مرتضى بيده فخرس الجميع، كانوا جميعًا قد حصلوا على الثياب السوداء والأقنعة والبنج والكمامات والعصائب وجلسوا في أماكنهم.

- والآن سأكرر عليكم خطة العمل بعد أن ألقيتها على أسماعكم عدة مرات. إنسوا أسماءكم وألسنتكم، الصمت التام أهم شروط الأمان. لحسن الحظ، يعتم

Twitter: @ketab_n

العثمانيون البلدة في الليالي بعكس الروس. وبخلافهم أيضًا يجتمعون في مراكزهم ولا ينتشرون في البلدة. يوم الأربعاء القادم ستصادف ليلته المحاق. في تلك الليلة وكما اعتدنا تعلّمه في الاجتماع هنا وعندكم، سيفتح عقيدكم مخزن ولي وستدخلون الواحد تلو الآخر، تحملون ما تقدرون عليه وتفرغونه في مخزننا القريب، يفعل كل منكم هذا عدة مرات حتى انقضاء أسبوع. كل شيء يتم كالخطة، منذ منتصف الليل وحتى صياح الديكة. أنتم منذئذ، صم بكم غير مرئيين، إجمعوا أكبر قدر من المؤن وحولوها لمخزننا، طوال أسبوع، ويوم الثلاثاء، بعد مرور أسبوع على ليل المحاق، ستكون غزوتكم الأخيرة، ففي نهايتها سيحرق عقيدكم المخزن بما فيه. وسيحرق في عدة أماكن لنضمن إبادة كل ما فيه. إن كل ما ستنقلونه من هذه المؤن سيحول رويدًا رويدًا إلى أهاليكم وأبناء قراكم وسيتم ذلك بهدوء بعد مرور فترة من الزمن على احتراق مخزن الظالم ولي. إن أحدًا من أعوانه سوف لا يشعر بالنقص في المخزن فكل ما سيؤخذ منه سوف لا يعادل أكثر من قربة ماء تؤخذ من نهر، أما البنج الطيار أو السائل فلن يستعمل إلا إذا اعترضكم أحد. فلو حدث لا سمح الله وسقط أحدكم بيد عون من أعوان ولي فاستخدموا وإياه كمامات البنج السائل وسيسقط في الحال. تذكروا قسَمكم على المصحف وأياكم قبل الأسبوع المذكور وبعده أن تقتربوا من بيتي أو تحاولوا الاتصال بي. إن أمامكم أسبوعًا لدراسة الطريق إلى المخزن الكبير والطريق منه إلى مخزننا، وتذكروا أن كل انحراف عن الخطة، قد يؤدي بنا جميعًا إلى الهلاك. والآن، امضوا وليكن الله في عوننا جميعًا.

مع رذاذ المطر والجليد المتجددين، عادت عينا كول وهَمَلَتا، وفي حذر اللص رجعتْ تسترها الظلمة واعتلت الدرج إلى خدرها العلوي. ليتها استطاعت الآن أن تعانق زوجها وتذرف الدمع على كتفه وتواسيه ثم... تتمنى له النجاح. لقد استراح فضولها، لكن حزنا وألما انتاباها على زوجها. وكانا أقوى وأشد من آلام طلق الفضول.

وأخذ الأعوان يخرجون، مع صياح الديكة، وبين كل منهم فارق نصف دقيقة، كما علمهم زوجها مرتضى.

Twitter: @ketab_n

وسكت الزمن- الثرثار لحظة استرجع فيها أنفاسه ثم استعار ابتسامة أبي سلمان المستهينة الساخرة ومضى يكمل الحكاية.

عادت كول إلى غرفة الزوجية في الطابق الأول. بدا وكأن الحياة قد عادت إلى سيرتها الأولى، لكن أحداثًا كانت تعتلج سرًا في المواطن الكامنة الخافية من نفوس الزوجين، زال طلق الفضول وخطر الطلاق عن كول، لكن فضولاً من نوع آخر شرع يلح عليها، هل ستنجح الخطة؟ من كل قلبها تمنت التوفيق لزوجها. أما هو فقد عاد إلى حياته الطبيعية، أو ربما تظاهر بذلك، كان ينتظر ليلة المحاق انتظار المريض للشفاء. ولما حان الموعد، ظل ساهرًا متوترًا، مرهف الأحاسيس، يلهج إلى ربه بالدعاء حتى سمع صدحة الديك. الليلة الأولى إذن مرت بسلام، ولم يدر مرتضى بأن كول كانت تشاركه نفس المشاعر، وأنها كانت تسانده في السر بكل قلبها. في أسبوع «الحملة» اعتكف في بيته ولم يخرج منه، وكان القلق والسهاد ينتابانه كل ليلة، وإذ يطلع الصباح دون جديد يتردد في صبلاخ، كان يتنفس الصعداء ويحمد الله، واقترب يوم الثلاثاء... يوم الحريق وأخبر مرتضى زوجته بأنه سيدعو لبيته صفوة أعيان صبلاخ، والقائد العسكري العثماني، ولتذبح الذبائح ويعد من أصناف المآكل أطيبها مع الفواكه والمشروبات والمكسرات، والحلويات. عرفت كول سر هذه الدعوة واكتشفت الآن أن الرأس المنتصب فوق جسم زوجها الضخم لم يكن يُطبق على ذرة صغيرة فقط من العقل بل أن تلك الجمجمة كانت تنطوي على جسم داهية، أو لعل الحقد والرغبة في الانتقام يوقدان في الدماغ شرارات تضيؤه؟! من كل قلبها كانت كول تتمنى أن تُردم الهوة المحفورة في جسم كرامة زوجها الممرغة في الوحل. ولم يكن في نظرها ونظره شيء يردم هذه الهوة سوى الانتقام!

في الليلة الموعودة استبد الأنس والطرب في رؤوس ضيوف مرتضى، فلم يلحظ أحدهم عليه، علامات التوتر والتوجس والاضطراب وأقسم على ضيوفه ألا يغادروا بيته حتى مطلع الفجر، ولما كان يودعهم عند الباب شم رائحة الحريق ورأى في الأفق ألسنة اللهب تتصاعد إلى السماء، وتكاد تضيء صبلاخ كلها.

أغلق الباب وراء ضيوفه وهو يتمتم وعلى وجهه ابتسامة تشف وارتياح «الحمد

Twitter: @ketab_n

لله! الحمد لله! أحرقت الآن قلب ولي، وما سيأتي سيكون أعظم وأدهى!»

ولم يجد ولي ما يكفي من الأدلة لتوجيه أصبعه المتهمة إلى أخيه، لكنه في قرارة نفسه المحروقة مع مخزنه وأمواله كان موقنًا من أن يد مرتضى كانت في الحريق. فعاهد نفسه على الإنتقام في الفرصة السانحة!

دائرة مفرغة ولكن، بهذه الطريقة من الحقد الأعمى، تحالف صراع الأخوة حاجي زادة مع الروس والعثمانيين والألمان، على تدمير البلدة البريئة الملعونة، ومع احتراق المؤن الغذائية اللامتناهية في مخزن ولي حاجي زادة، أصبح القحط والجوع قدرًا محتومًا لصبلاخ متحالفًا عليها مع القتل والدمار.

لكن ما أنقذه اعوان مرتضى من المخزن، أنقذ آخرين خارج البلدة وفي ضواحيها من الموت المحتوم جوعًا.

* * *

في ذلك اليوم وما تلاه، انتابت صبلاخ نوبة من الخيال أو اليقين المشوبين برهبة طاغية. ظهرت المرأة - النذير لكثير من أهل صبلاخ وكانت تتغول. وأحيانًا تجلت في نفس الساعة والدقيقة لأكثر من فرد، وفي أكثر من موضع. وشاهدها الناس على أشكال مختلفة، صبية، امرأة، عجوزًا، حسناء، دميمة، لطيفة، مخيفة، ترتدي البياض، تكتسي السواد، تتلفع بحمرة أو بخضرة، أو صفرة، لكنها في كل حالاتها وأشكالها كانت تنذر بالويل والثبور، وتحذر من لعنة ستشمل البلدة المسكينة، وكأنها لم تشملها بعد.

تساءلوا: أحقا ما رأينا أم هو وهم زينه لنا الرعب مما يحدث؟!

استغربوا: أويوجد بعدما ابتلانا به الله من لعنة، لعنة أدهى وأمر؟!

وصادف أن ولدًا خرج من بيته ليلعب في طرف الزقاق، وفجأة اقتربت منه بنت صغيرة، لم يرها من قبل. وسألته الصبية،

- أتلعب؟

فتلعثم حياءً، ثم سأل

- ماذا؟!

فردت عليه بجواب غريب، قالت له مبتسمة بخبث ودهاء،

Twitter: @ketab_n

- لعبة الكبر!

فاحتار الولد وقال متسائلاً،

- لعبة الكبر؟ وما هي لعبة الكبر هذه؟!

ضحكت البنت وقالت،

- مباراة، يكبر بها الانسان بسرعة، الآن، خلال اللعبة. والفائز من يستطيع أن يكبر أكثر من الآخر!

زادت حيرة الصبي. لم يفهم. قال غاضبًا ومقتنعًا،

- أنتِ تسخرين مني أيتها الصبية، إذ ما من أحد يستطيع أن يكبر في لحظة بأكثر مما قدّر الله سبحانه للإنسان!

قالت البنت بيقين وإصرار،

- أنا أقدر! أتريد أن ترى؟!

وأخذت تنمو أمامه، وفي ثوان تحولت من بنت إلى صبية إلى فتاة، والولد يرتعد أمامها كالنخلة التي تؤرجح سعفها عاصفة، إنعقد لسانه، همَّ أن يهرب، إبتعد عنها نحو عشرة أمتار، لم تلحق به بل مكثت في موضعها ومدت يدها. شرع ذراعها يطول حتى أصبح أمامه وصده عن الفرار. وفي الحال أحس بقبضة أقوى من الحديد تمسك به ثم تعيده إليها. أراد أن يصرخ فكمّمَتْ فمه كرة من فولاذ، لا مناص إذن من أن يغمض عينيه،حاول، بيد أن جفنيه تجمدا وحدقتيه تسمرتا رغمًا عنه في وجهها. كان يراها، حتم أنفه، وهي تتخطى مراحل العمر بسرعة جنونية، ها هي الآن امرأة في خريف العمر. لا بل عجوز شمطاء. البشرة التي كانت غضّةً قبل لحظات قد ذبلت.. إنها تتغضن وتجف، البنت الحلوة غدت في لحظات عجوزًا هرمة في أرذل العمر، الثياب الزاهية تحولت إلى ألوان شتى، في سرعة تخطف الأبصار. ألوان تلائم كل مراحل العمر، وها هي أخيرًا بيضاء بلون الكفن، أما البشرة الجافة من فرط الشيخوخة فقد أخذت تتقشر وتتفتت ثم تتساقط عن الوجه، وما بقي أخيرًا أمام الولد المسكين، لم يكن بأكثر من جمجمة فوق هيكل عظمي مكفن.. تاه عقل الصبي، لكنه كان مصطادًا لا قدرة له على الإفلات. أما الهيكل العظمي، فقد فح فحيحًا يشبه فحيح الأفعى وبلسان كلسانها

Twitter: @ketab_n

كان يتدلى من فجوة ما بين أسنان الجمجمة،

- أنا المرأة النذير، جئت أحذّر مما سيقع في هذه البلدة من شرور مستطيرة، أخبر أهلك وذويك بأن أرض صبلاخ ستتقيأ قبورها، وأن اللحم سيختلط باللحم، وستهضم العورات عوراتها.

عندئذ اختفى الكابوس، وأخذ الولد يصرخ، يبكي، يعدو نحو بيته.

يطرق الباب بجنون. ويرتعد كالسعفة في مهب عاصفة هوجاء. إنفتح الباب. سقط في أحضان أمه وكان يلهث ويرتجف، زائغ العينين، معتوه البكاء، واجتمع أهل الدار من حوله «ماذا حدث لك يا ولد؟!» «ماذا صادفت يا علي؟!» حاول النطق فعجز، دثروه فلم تتوقف في أعطافه الرجفة، جاؤوه بالماء فغص في حلقه. لم ينقطع بكاؤه، وظل متشبثًا بأمه، وبعد ساعات، عندما هدأ روعه قليلاً سألوه، عما رآه، فتحدث عن طفلة كبرت أمامه وشاخت في لحظات ثم استحالت عظامًا. وإن العظام تكلمت وقالت أشياء لم يفهمها، مثلاً: أن القبور ستتقيأ، والأرض ستختلط باللحم، أو إن الأرض هي التي ستتقيأ وإن اللحم سيمتزج بأشياء لم يفهم معناها، ثم عاد يبكي بكاء من شاهد أهوال الجحيم،

أصاب أهله من الرعب ما أصابه، قالت أمه وهي تلطم صدرها،

- قد فقد الولد عقله، قد ضاع مني علي!

فطمأنتها الجدة،

- إنه مهبوط مفزوع، لا ريب أن كلبًا نبح في وجهه، عجلوا فهاتوا الشيخ يرقيه ويكتب له تميمة تزيل الخوف عنه.

القبور والقي، واللحم والأرض، وكل هذه المظاهر الغريبة على الصبي، أهذا فزع أم جنون؟!

لم يصدقه أحد، واعتبروا كلامه هذيانا، رغم أن المرأة - النذير كانت تتجلى لمعظم أهل صبلاخ، وتحذرهم بجمل مبهمة لا يفهمونها.

* * *

كشفت الدنيا عن عورتها يا صبلاخ، فبان كل مخز شائن، بيد أنني ما زلتُ ابنك البار، أنتزع الخير من معادنه مهما ندر. الحلكة دماء ولكن، هو ذا الجانب

Twitter: @ketab_n

الآخر يسطع بمجابهة العتمة، وكثير من أهلك يتنادون لبعضهم في يوم الغوث. هذا ينجد ذاك، فإذا دار الفلك فذاك ينجد هذا، ألقى العثمانيون والألمان مرساتهم هنا معظم شهور الشتاء الذي لم يتراكم فيه الجليد «قامات»، كعادة طقسنا منذ قديم الزمان. تركت مير علي وعدت إلى البيت، ظهرًا. وجدت فيه وجومًا غير معهود زاد من همومي وكآبتي. جلستُ لأتغدى مع أسمر والأولاد. لاحظت أنها لا تأكل، تفحصتها فألفيتها مكدرة الصفو. أمعنت النظر في وجهها فلاحظت في عينيها آثار بكاء، رفعت يدي عن الطعام وسألت،

- ماذا حدث يا أم البنين؟

- لا شيء يا أبا سلمان، لا شيء!

حتى صوتها كان ينبيء بأن «اللاشيء» هذا كذب، وأسمر لا تخفي عني شيئًا، فإذا كذبت علي فذلك يعني أنها تكفيني منغصة أو تبعد عني شرًا، لكنني أنا «شلومو الكردي» قد كتبتُ هذا على مكتبي ببغداد، بعد سنوات طويلة من إلقاء سؤالي عليها ولن أتخلى عما أريده بسهولة، وكنتُ أريد أن أعرف، وسأعرف، لكنني باللين سأعرف، إذ كيف أعامل كل هذه الرقة والطيبة بالشدة؟!

- أقسمتُ عليك يا أسمر بهذا الخبز ألا أخبرتني!

قاومت انهمار دمعها، وتصدّتْ لصوتها كي لا يخونها ويفلت الحقيقة من صدرها، كلا، لا أحتمل حزن أسمر، حزني عليها الممهول بجهلي بما حدث، أخذ يستحيل إلى غضب، صرخت.

- قولي لي ما الأمر يا أسمر؟!

- أنا المذنبة يا أبا سلمان!

إحتددتُ أكثر، الطعام أمامي نيران متلظية، أفكاري التي شطّت إلى أهلها في العراق للحظة بَحْث عن الحقيقة، عادت بسرعة إلى هذا البيت

أفحقًا ما أفكر به؟! أحقًا؟!

- قشنك! أنت يا قشنك!

وجاءت تعدو فبادرتها:

- خبريني بما حدث يا قشنك.

Twitter: @ketab_n

جفلت المسكينة. سقطت بين بين، وجدتها حائرة لا تدري ماذا تصنع،

- أأخبره يا سيدتي؟!

فصرخت بها ونار الحنق قد شبّت في أعطافي،

- أتطلبين الإذن من سيدتك لتخبري سيدك بما حدث؟

شرعت تحكي، خائفة، مترددة، مُتلعثمة. صدق ظني إذن، رغم نهيي المتكرر لإستير، إنتظرت خروجي وأخذت الولدين للبستان، قلقتْ أسمر عليها. وإذ عادت قبل موعد رجوعي، ذكرتها أسمر بأنها عصت أوامري وعرضت نفسها والولدين للخطر. عندئذ كسرت إستير حاجز الحياء وأطلقت للسانها العنان في شتمها وشتمي.

إستعرت نار سقر في جوفي وأمام عيني، وكحيوان هائج، إنطلقت إلى غرفة إستير، كانت جالسة على سريرها مقطبة مكفهرة السحنة في كبرياء نفاجة كاذبة، صوتي أرعد جدران غرفتها،

- كيف هبطت إلى الدرك الأسفل أيتها المرأة؟!

فقالت، صلفة، وقحة، لا حياء لها،

- أنا حرة، ولم تتزوجني لتحبسني في البيت!

- كسرتِ أمري، وعرّضت ولديّ ونفسك للخطر، وشتمتني وشتمت المرأة التي جاءت بك إلى هنا...

سكتتْ، فأضفتُ،

- لا يهمني أن تذهبي أنت إلى الجحيم، ولكن يهمني الطفل والطفلة. إنهم يقتلون اليهود والنصارى لو صادفوهم في مكان معزول. وأنت بحمقك تمضين إلى حتفك وحتف الطفلين،وفوق هذا تشتمينني وتشتمين صاحبة الفضل عليك!

ظلت صامتة عبوسة، فقلت،

- أنا لا تهمني شتائمك لي، لكن من حق أسمر التي أهنتها أن تعتذري لها. فهلمي إليها وقبّلي رأسها واطلبي منها السماح..

.. ضحكت الآن، مستهينة ساخرة،

- أأنا أطلب السماح من تلك المرأة؟ هيهات! هذا لن يحدث حتى لو سقط هذا

Twitter: @ketab_n

البيت حجرا فوق حجر.

كدتُ أجهز عليها، لكنني عوض الإندفاع نحوها، عدت إلى أسمر وأنا أصرخ كالمجنون.

– أنت جئت بها إلى هنا يا أسمر، فأعيديها إلى أهلها في الحال!

جثت المسكينة عند أقدامي، مجهشة، معولة، ومتوسلة،

– قلت لك إني أنا المذنبة، لقد تدخلت في أمر ما كان يجب أن أتدخل فيه، ولقد سامحتها، فسامحها أنت أيضًا يا أبا الأولاد.

أُسقط بين يدي، سمتْ أسمر في نظري إلى مرتفعات لا يدركها تصور، من الحب والتقدير والإعجاب. لم ألُمْ إلاّ نفسي، ما أكثر الأخطاء التي يرتكبها الإنسان، ثم يدّعي الذكاء والحكمة! وما أكثر الأغلاط التي تسمى كل منها «غلطة العمر!»

عدت كبغل هائج إلى غرفة الملعونة، ملأ صوتي فضاء الغرفة حتى كادت تنفجر به، وأقسمت،

– إني أحرّم على نفسي دخول هذه الغرفة منذ الآن، ولكنني لآخر مرة أحذرك من الخروج دون إذني. لقد غفرت لك أسمر، أما أنا فلن أغفر لك ما دُمنا، أنت وأنا، على قيد الحياة!

* * *

إشتد القصف وأنا أصلّي بالجماعة في الكنيس، في الآونة الأخيرة كانت أصداؤه ترتطم بمرتفعات صبلاخ، فيتوقع الناس أشياء، ثم تخبو أصوات القصف فتخبو معها التوقعات، توقعات مصطبغة بالرعب... وصبلاخ كرة ويتقاذفها الغرباء، فتنزف دمًا، وتفشّ رويدًا رويدًا حتى ينتابها الهزال. كان الكنيس يغص بالمصلين، قد نسينا أعيادنا، فأخذنا نمارس الصيام ونتلو صلوات طلب الرحمة والمغفرة، كما يأتي كثيرون لتلاوة «القديش» صلاة راحة الميت، على أرواح أمواتهم وقتلاهم في هذه الحرب الظالمة. وعلى هؤلاء المغدورين في الأشهر الأخيرة. كان المصلون من قبل، يقومون قبل الفجر، فيصلون ويبكرون لأعمالهم. أصبحنا لا نفتح الكنيس إلا بعد أن تضاء البلدة بنور

Twitter: @ketab_n

الصباح، ثم نخرج متأخرين. معظمنا لم يعد له عمل. والطعام يندر باستمرار، ومن لم يخزن الطعام ويتأهب كالنملة للشتاء، أخذ يتساءل بضيق ذرع ورهبة «متى تنتهي هذه الحرب؟!»

ودوّى القصف ونحن في منتصف الصلاة. ومن الخارج تناهى لغط عثماني – ألماني غير معهود. عرفتُ أن شيئًا سيحدث. وعرف المصلون أن الأمر قادم لا محالة، فتعدى اللغط الخارج وتسلل إلى داخل الكنيس. إنه الوجل المضاعف، تأهب الجميع ليُسرع لائذًا إلى بيته ليطمئن على أهله وعياله، لكنني استوقفت المصلين مريثًا، بضربة على منصة الصلاة. كانت الضربة على المنصة تعني «انتبهوا، فثمة أمر مهم!» أرهف الجميع سمعه وأفكاره المشتتة، ولما تأكدتُ من الصمت المطبق، أن الكل منصت، بدأت كلامي، وكان يتعدى شؤون الطائفة والكنيس. لقد كان أهم من ذلك بكثير، لقد كان كلامي يتوخى بلدتنا صبلاخ وأهلها أجمعين:

«لا يخفى على أحد منكم يا إخواني، أن بلدتنا المحروسة صبلاخ، تعاني منذ زمن محنة عصيبة لم نسمع من أسلافنا عن محنة تضاهيها ألمّتْ بها من قبل، ولولا أن إخواننا المسلمين قد جمعوا وأجاروا الكثير منا في صبلاخ، لملأت قبورنا، مقبرتنا، ولتضاعف عدد قراء صلوات الميت «القديش» في كنيسنا هذا. والآن، وكلنا يسمع رعود المدافع المقتربة واللغط الشديد في الشوارع القريبة، ندرك أن الجيش الروسي قد أصبح على أبواب صبلاخ حفظها الله، وهذا يعني، أن محنتنا وإخواننا النصارى، ستنتقل، لو دخل الروس البلدة، إلى إخواننا المسلمين. ومحنتهم كما تعرفون أشد وأقسى من محنتنا، فللروس معهم، كما يزعمون، ثأر يريدون استيفاءه، ولقد سبق ورأيتم ما حلّ بهم، حين احتل الروس صبلاخ في المرة السابقة، فسارعوا يا إخواني كلٌ إلى جاره المسلم وصاحبه وصديقه. فآووهم ببيوتكم قبل فوات الأوان. كان الله في عونهم وعوننا وعون صبلاخ وكل من بها. وليبارك الله كل من يؤوي جاره الساكن في وسطه، آمين.»

إرتسم القلق على وجه أسمر، إستغراب وعلامة سؤال، لكنها كعادتها تطيع ولا تسأل، طلبت منها أن تعاون قشنك في ترتيب الطابق الثاني، كانت القذائف

Twitter: @ketab_n

تتساقط كالبَرَد الثقيل والوقتُ ينفد، وهو يكمن في قبضة من قبضتين، قبضة محمودة وقبضة مشؤومة. وكان «السعد» الموهوم ربما يكمن لأول مرة، بنظر يهودي صبلاخي هو أنا، في إرجاء خروج من قتل اليهود في صبلاخ، من صبلاخ، فترة أخرى من الزمن، ساعات معدودات أخريات. كلا، لم أكن مجنونًا ولا غريب الأطوار. كنتُ أفكر كإنسان يملك كامل عقله. وأسمر تطيع ولا تسأل إلا في أمور تتعلق بسلامتي. ورأتني أهم بالخروج في ذروة المعمعة، فخرج صوتها من حلقومها هائبًا يشفق علي،

- يا ويلتي؟ إلى أين يا أبا سلمان في هذا الجحيم؟!

فقلت بهدوء تام،

- يجب أن أعجل لآتي بضيوفنا الذين نرتب لهم الطابق الثاني. مير علي يا أسمر وعائلته كلها.

إلاّ أن أسمر تجرأت كما في كل مرة، لكن طلبها هذه المرة كان مشفوعًا بالضراعة والتوسل.

- لا تخرج يا أبا الأولاد، الجحيم في الخارج، أفتسعى إليه بنفسك؟

. أناني حبك هذا لي يا أسمر، إذ بحبك هذا الكبير، تحاولين دون وعي منك، أن تمنعي نجاة تسعة أرواح، تسعة أرواح يا أسمر، وتحرميننا كلنا من فرحة الإغاثة؟! فرحة ربما حظي بها الآن كثير من المصلين، بعد أن خرجوا من الكنيس مسرعين إلى إيواء جيرانهم وأصحابهم. لو أن حبك هذا يُفرخ في صبلاخ لهلكت صبلاخ وأنت لا تدرين! أفما عرفت يا أم البنين أن حماية إخوتنا فرض علينا؟! وأن مير علي، رغم نزوات عاطفته أحيانًا، لا يختلف عن بنحاس أخي، وأن فاطمة لا تختلف عن أختك البعيدة في العراق وأن محمدًا وأحمد وحميدًا لا يختلفون عن سلمان وصيون وناحوم؟! وأن أخاه كأخيك ووالديه كوالديك يا أسمر؟! كانت في الأرجح، هي هذه الابتسامة الهادئة المعبِّرة. ارتسمت ساعتئذ على شفتي، وأنا أفجّ مخاضات الهول في البلدة، وفي كل خطوة فرقعة قذيفة، وفي كل لحظة صلية رصاص. وها هو ذا أخيرًا بيت مير شريكي. أراه أمامي وأنا غير مصدق، كلانا، بيته بمن فيه وأنا، لم يمسنا سوء حتى الآن. هو الآخر لم يصدق حين رآني.. حملق بعينيه وهتف معنفًا،

Twitter: @ketab_n

- أنت مجنون يا شلومو! فما الذي يأتي بك في هذه الساعة؟!

- وأنت مجنون يا مير! إذ كيف تُبقي العائلة كلها هنا، في مثل هذه الساعة؟!

فقال متعسر الفكر والإدراك،

- وماذا تريدني أن أفعل أيها الشريك الغريب الأطوار؟!

لم يبق وقت للتعنيف ولا للجدل والمزاح. إني أسمع لغطًا يترامى إلى أذني من بعيد، بل وأسمع أيضًا رطنًا بالروسية قادمًا من مشارف البلدة.. ها هم يدخلون الآن صبلاخ!

- كلكم ستمضون معي الآن، وإلاّ فسنهلك جميعًا في غضون ساعة.

لا. لم يكن مُهَيَّأً لهذه الفكرة، صاح مستنكرًا،

- مما لا شك فيه أنك جننت يا شلومو!

فقلت والقلق قد غدا بحرًا في نفسي في ساعة مدّه،

- الجنون أن تمكثوا هنا، وأنتم تعرفون وحشية الإنتقام الروسي.

الخوف أحيانًا يفعل المستحيل، إنه يُلين الصلب حين يسيطر،

- وإلى أين ستأخذنا يا أبا سلمان؟

- إلى بيتي. بل هو بيتكم يا أبا محمد!

- والعجوزان؟! ومحتويات البيت العامر هذا؟!

- احمل أمك، وسأحمل أباك، وفاطمة تحمل الولد الصغير، وآمنة الخادمة تحمل الولد الآخر، أما محمد ورضا أخوك فيمكنهما السير الحثيث!

فقال مرة أخرى قلقا على أشياء، لو قورنت بالخطر المحدق بالأرواح لبدت تافهة، لا قيمة لها،

- والبيت؟ ومحتوياته؟!

فضقت به ذرعًا وصحت،

- لا وقت الآن للتفكير بهذا، عجل بهم، فلو مكثت مترددًا تفكر بالبيت ومحتوياته فسيدركنا الموت هنا، ولا يبقى بيت ولا صبلاخ، ولا دنيا!

وقدتهم، يا أبا سلمان، كقطيع سوام يحاول الفرار من المسلخ، لماذا أنجبك والداك وأخاك رضا على كبر يا مير؟! ولماذا كل إخوتك، من هم أكبر منك

Twitter: @ketab_n

مشتتون في البلاد، إلا أنت وهذا الغلام الذي يحاول المس بعرضك؟ أبوك ثقيل يا مير ويجعل من المسافة مسافتين فكيف وطأة أمك على ظهرك يا أبا محمد؟.. إن ما تفعله يا مير سيجعل رضوان يفتح لك باب الجنة، أما أنا فالأعباء على كاهلي تتزاحم والدوائر تدور. وهانحن نتخطى القذائف برعاية من يحرسنا من السماء.

إنها بقدرة قادر، تقل وتكاد تتوقف. فلنسرع إذن قبل وصول الروس، أم تراهم سيلحقون بنا فلن نصل الدار، إلا يوم تقوم قيامة الموتى؟.. وها نحن نسير ونسير. الضجة تتوقف. تتباعد. أما هنا فصمت صلف يثرثر بحنايانا. لكن أباك يسألني من أعلاي فجأة «إلى أين نمضي؟!» ولهاثي وثقله يكمان فمي، فتخرج كلمتي من فم كأنه يقضم حجراً، وهنا لا أثر بعد لعثماني أو ألماني، فليتهم رحلوا إلى غير رجعة، ولكن من ذا سيُخرج الروس من صبلاغ هذه المرة؟ حكاية لا نهاية لها، ما دام الشاه يجلس على عرشه في طهران ولا يعبأ برحى الحرب هنا، فعلى الحرب إذن أن تضع أوزارها كي يمضي الغرباء المعتدون علينا إلى بلدانهم أو إلى سقر لو شاؤوا! أتسمع أصواتًا يا مير؟! يخيل لي، أن فرسخين فقط تفصل بيننا وبين مذبحة يقترفها الروس، لكنهم، في الأرجح، ستخيب سهامهم هذه المرة. إذ أن معظم بيوت المسلمين في البلدة أصبحت خاوية بلقعاً مثل بيتك يا مير. سيظنون أن المسلمين قد هربوا خوفًا من سطوتهم، فإذا بحثوا في بيوتنا، فسنخبئكم بعيوننا يا مير.. ثم أن أهل صبلاخ لا يختلفون في السيماء،كما إنك، على ما أذكر ختنت، في ساعة سعد، ثلاثة أولادك بعد ولادة حميد آخر العنقود. لم يبق إذن إلاّ أن أعلمك شهادتنا اليهودية، كي يرتبك الروس ونضيع عليهم كل فرص الدنيا في القتل والإجرام داخل بلدتنا. وهذا هو باب البيت، فافتحي الباب يا أسمر! افتحي، فلقد ذهبت وحيداً وعدت ونحن عشرة! إفتحي، فملائكة الله حرستنا، وإياك أن تفلت من فمك زغردة الفرحة، فتنقلب، لو أطلقتها، إلى صرخات فجيعة «الثأر!»

ومن ذا مثلك في النساء يا أسمر! قد أوصيتك بتجهيز الطابق الثاني، فجهزته، وها أنذا أشم روائح أطعمة الظهر تفوح من المطبخ! أعرف، أنك غير محتاجة

Twitter: @ketab_n

لوصية، وأني لو كشفت قدور غدائنا، فسأجد أنك طهيت ما يكفي ضيوفنا ويكفينا، ويزيد عن الحاجة يا أسمر! فما أسعدني بك يا أم البنين!

إلتقى الأولاد بالأولاد، أصدقاء مذ فتحوا أعينهم على الدنيا. أولادي وأولاد مير واللعب ثالثهم. كانوا فزعين وفرحين، ولم يكن اللقاء فقط مصدر الفرحة، أفتصدق أنها فرحة الأولاد بخوفهم من أشياء تجري من حولهم ولا يستوعبونها؟! إنهم يسمعون الأصوات، ويرون القلق على وجوه الكبار، ويعرفون أن ثمة أشياء مخيفة تجري في الخارج لكنهم لا يدركون فحوى هذه الأشياء. إنهم يتعاملون مع هذا الخوف من تلك الأشياء المبهمة في أدمغتهم، المصحوبة بالانفجارات وجلبة الكبار، كلعبة، لعبة لا ينقصها أبدًا جانب الفرح. إنه خوف مشوب بالفرحة. وعلى وجه فاطمة الجميل خوف وقلق وحشمة ممتزجة بانزعاج وجِل وضيق، وكان الضيق والوجل ناجمين عن سهام تصوبها إلى جسمها الفاتن عينا رضا الوقحة، ترشقها بها في غرة من أمر مير. كان مير مهمومًا مضطربًا. لاحظت أنه لا يهدأ ولا يقر له قرار، وإذ سألته، تذرع بحجج لا تثبت أمام محك دماغي، قال وطعام الغداء مصطفة صحونه بكثرة على السماط،

– ما أحوج الناس إلى الطعام في هذا الزمن الأغبر، وها أنتم تعطوننا طعامكم يا أبا سلمان.

فقلت مبتسمًا هذه البسمة الساخرة الملتصقة على وجهي في أحوال كثيرة من السراء والضراء.

– كل يا مير! كل! أفليس الطعام ما كنت تستهين به وتسميه «خراءً؟»

همومه هموم أخرى بلا شك، لكنه يقول،

– كنت على حق يا صديقي، وها أنذا أشعر الآن بأنه روح الحياة وأننا نغتصبه منكم!

وأكاد أثور. هاهو يهينني ليخفي عني همه الحقيقي.

– ماذا تقول يا مير؟ كأنني أسمع شخصًا غيرك يا أبا محمد! ثم هاأنت ترى بعينيك وتسمع بأذنيك. المخازن مطنبة بالمؤن والزرائب والأقنان تضيق بسكانها.. النعاج والبقر تلد ضعف ما كانت تلده، والطيور تبيض كل يوم والخير

Twitter: @ketab_n

يفيض عن حاجتنا وحاجات الأصدقاء والأقارب. وكل هذا بفضل ربي وربك يا مير!

ثم صربتلع لقمتي وأردف،

- ثم، عليك أن تعتاد على أن هذا البيت وما فيه سيظل في خدمتكم ما شاء الله، وحتى تنتهي هذه الحرب الملعونة، وإنكم منذ الآن غدوتم، كما أنتم في الحقيقة، جزءًا من أهله.

إنه يفحم ويسهم، تأخذه أفكاره إلى مهب زوابع الهجوم، العجوزان راضيان والأولاد سعداء بالصحبة والأحداث المهمة، وجهله يمحو نظرات أخيه المسمومة ويمحو أيضًا ضيق فاطمة القاتل. هذه النظرات العقربية. وأتفرس فيه فلا أرى غير أفكار مهمومة قلقة يرتعش وجهه في أرجوحتها. فأقول له،

- أقسمت عليك إلا أنّ تخبرني بالحقيقة يا أبا محمد. ما هذا الذي يسرق أفكارك ويأخذك عنا بعيداً فنراك ولا تكاد ترانا؟

الحقيقة! قال وكأنه في حداد،

- البيت يا أبا سلمان، البيت! فيه المال والحال، والصاية والصرماية. والخشل والجواهر والذهب،كلها هناك يا شريكي! سأنتهي لو سُرقت يا أبا سلمان!

لا أُخفي عليك. مسّ من قلقه أصابني في البداية، ثم غلبه تفاؤل معقول. إبتسامتي هذه تعمقت. أضحت أقرب إليه في الروح وفي الجسد. ربتُ على كتفه في ود خالص جمع بيننا منذ الطفولة.

- لا تقلق يا أخي، أعاهدك على أن آتيك بها بمجرد أن ينجلي غبار المعركة.

وعندما خيم الظلام انقشع الضباب. كان الروس ينتشرون في صبلاخ كالجراد. إنهم يفعمون شوارعها بمجرد أن يسيطرون عليها، هكذا يفرضون حضورهم في كل مكان، وفي الظلام لا يعتمون البلدة كما يفعل الأتراك بل يتعمدون إضاءتها، إنهم لا يخشون الحضور، بل ويريدون الإعلان للجميع عن وجودهم في صمت مُضاء، كان قلبي يلهج بالدعاء والفانوس يتأرجح في يدي.. لم يكن به حاجة رغم شحوب المصابيح الزيتية الموقدة في الشوارع، لكنني

Twitter: @ketab_n

مشيت ومشيت. وعلى مقربة من بيت مير، جلستْ مجموعة من الجنود الروس ومضت تغني. كأنهم لم يحاربوا ولم يقتلوا ولم يتعبوا. «يفري! يفري!» هتفوا ومنهم من عرفني، إذ كنتُ كما تعرف، همزة الوصل بين الروس والطائفة، فحيّاني باسمي. رددت التحية، ثم بعد خطوات كنت أمام باب بيت شريكي المهجور. قلبي خفق خفقة وجلة، فالباب لم يكن مقفلاً، كان منفرجاً قليلاً بحيث يمكن أن ترى من فرجته جزءاً من صحن الدار. يا إلهي! أتراهم كسروا الباب ليذبحوا أهله؟! أم أننا نسينا، في غمرة الإستعجال أن نغلق الباب؟! هل ضاع مال شريكي؟! أنهبوا محتويات البيت؟! لم أعرف بيد أن الجواب كان قريبًا ويكمن على بُعد أمتار مني. أعدتُ المفتاح، دون أن أستعمله إلى جيبي، ودفعت الباب الثقيل. وفي قفزة أصبحت في صحنه. فجأة، ضربت ظهري هبة هواء غريبة. كاد الفانوس ينطفيء. إلهي! إن شيئًا يسحبني من خلفي. يسحب ساقي. سقطت على الأرض، تشبثت بالفانوس بقوة. تأرجح مع نوره لكن النور تراقص ولم ينطفيء. غمرني خوف جارف! من هذا؟! تحاملت على نفسي، نهضت بحذر، والفانوس بيدي. تلفت حولي! دقات قلبي امتزجت بآيات مزامير، من هذا؟ منْ سحبني من ساقي وأسقطني على الأرض؟! لم يكن ثمة أحد. يقينًا أن من أسقطني هو عدوي الأكبر. الخوف! وإلاّ.. لا.لا. فلو تماديت في التفكير فقد تعود أدراجك دون أن تفي بوعدك لشريكك مير. ومير لم يشكُ لي يومًا من أن بيته مسكون بالجان أو الشياطين. ألاَ لعنة الله على الخوف. عاد لهب الفانوس وتوهج بعد أن لهث طويلاً وتراقص. صوّبته إلى كل جهات البيت. هاهنا صمت لا يطعن قلبه غير غناء الروس القادم من الخارج. بحثت عن غرفة النوم، الخزانة هناك، هكذا قال لي مير وأعطاني مفتاحها. المال والمجوهرات داخل الخزانة. دخلتُ يسبقني الفانوس، هاهي ذي الخزانة الثمينة جدًا، ومفتاحها في جيبي مع مفتاح باب البيت الذي لم أحتجه، كنت أتمتم بمزامير داود فاستبدلتها الآن بالذكر والدعاء. تمنيت على الله ألاّ يخذلني وأن أجد كل شيء في مكانه. مال مير، ومجوهرات فاطمة، بعض المال كان مال العجوز، بيد أن معظمه كسبه مير بعرق جبينه. إن بوسعي أن أشهد على ذلك. لقد رافقته في رحلة جمع ثروته، جزءًا جزءًا، في رحلات الصيف والشتاء،

Twitter: @ketab_n

طويلة كانت وتعج بالمخاطر. أقصرها رحلاتنا إلى طهران. ثم شططنا بعيدًا إلى موسكو واسلامبول، وما بينهما. إلهي! لو أن ثروة مير قد سرقت فمعنى ذلك أنه لم ينجُ من الروس، وأنه قد لقي حتفه على أيديهم بطريقة محكمة وبدون أن تمس جسمه هو أيديهم، اللهم سأفتح الخزانة فأشرح صدري برؤية" حشاشة روح "شريكي، دون أن تمسّها يد اللصوص. اللهم، إني أشهد على أنه كسب ماله بعرق الجبين والكدح. مال حلال من أوله إلى آخر قطعة فيه، فتحتها. في لحظة قصيرة سقطت كل أعبائي عن كاهلي، ونسيت المحنة والكارثة. الحمد لله! الحمد لله! هذا هو صندوق المال، وهاهي ذي علبة مجوهرات فاطمة. الخزانة مليئة بالصرر والشراشف. أبشر يا مير! ولكن عليك اللعنة! اذ ما أثقل الصندوق والعلبة. أفلهذا يُقال «ما خف حمله وغلا ثمنه؟!» ما أشد حرصك على المال يا أبا محمد. وما أحرص هذا العدد الكبير من أثرياء صبلاخ عليه! إنهم سيأكلونه يوم تنفد آخر فتاتة خبز من أسواق صبلاخ، أما أنت يا مير فمن حسن حظك أنك شريك شلومو أبي سلمان، وأنه سيضمن لك ولأهلك الطعام. وسيسعفك أيضًا بهذا الذي أمضيت هذا اليوم كله لا يقر لك قرار من أجله. فمن الصادق إذن؟! هل الذي يقول مثلك «المال من الروح» أم القائل «الفلوس وسخ الدنيا؟!» لا يا مير! أنا لست بهذا ولا ذاك. فأنا تاجر مثلك، لكن الأرواح أقدس ما خلق الله وقد أوصانا بصيانتها! اللعنة عليك يا صاحبي وشريكي فمالُك قد انتزع قلبي من جذوره..! حملتُ الصندوق والعلبة وخرجت، إنهما يكادان يضاهيان كل أعبائي! عند الباب توقفت. وضعت العبئين الثقيلين على الأرض وأخرجت المفتاح. هممت بقفل باب الدار، لكن إشراقة ومضت في رأسي، ردت يدي والمفتاح إلى نحري، لماذا لا أنقل إلى مير كل محتويات داره؟! فكرة مجنونة لكنها ليست بمستحيلة التنفيذ. وفي بيتي من النبيذ والمشروبات الروحية ما يحقق المعجزات، وعلى بعد أمتار من هنا يجلس نحو عشرين جنديا «روسيا» ويغنون بلا مشروب. ولو سمعوا بمجرد إسم النبيذ، لطار صوابهم «فما رأيكم بزجاجة نبيذ بيتي معتق، يحصل كل منكم على واحدة، بشرط أن تنقلوا محتويات هذا البيت إلى منزلي؟!» سيقولون «قد فرّ المسلم من بيته خشية انتقامنا وهذا اليفري اليهودي إبن

Twitter: @ketab_n

الشيطان يريد أن ينهب داره!» نبيذ بيتي معتق. كلمة سحرية تجذب إليها كالمغناطيس أفكار أي روسي، وتملأ رأسه بخيالات نشوة الخمر والثمالة. هبوا جميعًا على أقدامهم وعدنا كلنا إلى بيت مير. يفجيني! أربط الجياد إلى العربة! هناك في المخزن عربة أخرى قديمة، ما زلتُ أذكر متى استغنى عنها مير في رحلاته التجارية الطويلة «اربط إليها ثورًا يا بوريس! وأنت يا نيقولا فابدأ بالشحن!» ديمتري! ديمتري! حاذر على الخزانة! انقلها وهي منتصبة بمحتوياتها إلى العربة! لا بد من تفكيك السرير يا ميخائيل! لكل شيء أجل، وها قد استفدنا من العربة القديمة! ديمتري! ألست الذي قاد العربة الثانية يوم عودتي بالمؤن من طهران؟! حاذر على المرآة يا يوري، وأنت يا جنادي، ضع الكراسي النادرة هذه برفق داخل العربة! يفجيني! ديمتري! بوريس! نيكولا! يوري! جنادي! ميخائيل! نيقولا! وأنت، وأنت وأنت! لغط شديد أقض مضجع الصمت السابق، لغط لا يهدأ. وعلى ضوء المصابيح والمشاعل إنتقلت معظم محتويات البيت إلى العربتين. بقيت أشياء قديمة أو تافهة، والبهائم والطيور، قال نيكولا إنه كان يرعى الطيور مع أبيه في القرية. يفجيني قاد البهائم، وحمل الآخرون ما تبقى من محتويات البيت القيِّمة. أبشر يا مير! فبيتك أضحى بلقعًا إلاّ من حاجيات قديمة! إن مالك ومحتويات بيتك قادمة إليك! أما هؤلاء الأجلاف العلوج فيعتقدون أنني أسرق بيتًا مسلمًا بعد أن فرّ منه أصحابه كي ينجوا من الذبح! لا يا نيكولا! صبلاخ ليست قريتك الروسية البعيدة. وها بطيور مير علي من بط وديوك رومية ودجاج تتفرق فزعة هاربة في مسارب وأزقة صبلاخ. فهنيئًا لكل من يصطاد منها طيرًا من أهل بلدتنا الجياع! وهؤلاء الروس مطيعون وينفذون المهمة وكأنها أمر عسكري، لا بل إنه داعي الخمرة ونشوتها! أفلم أقل لك يا أسمر يا أم البنين، إننا سنحتاج النبيذ؟.. لا ريب في أن القلق يتناهشها الآن، وأن الخوف على «الصرماية» قد أجهز على مير. لقد مر على غيابي من الوقت ما يبرر فكرة أني قد لقيت مصرعي في أحد أزقة الغيب الحبلى بالمخاطر. وإن كل شيء قد ضاع، بيد أن جلبة العربتين والحيوانات توقظ فضول الناس المعتكفين مع رعبهم في بيوتهم. من النوافذ والكوى وجوه وفوانيس. وها بنا نقترب فأرى أسمر واقفة في

Twitter: @ketab_n

الباب تتفرس في الظلام باحثة عني وعن مصدر الضجيج! هدئي من روعك يا أم البنين، فأنا ما زلت حيًا أُرزق! إدخلي وطمئنيه بأن.. لا، فلعل أحد هؤلاء الذين معي يفهم جبيليتنا، فتتضح الحقيقة ونمضي كلنا إلى الجحيم! سيأتيكم النبيذ ريثما تفرغون الحاجيات! كلا. لا تدخلوها للبيت فنحن سنتكفل بذلك، ضعوها عند عتبة الدار فذلك يكفي. أنا، سأدخل بهذين الصندوقين لأرد بهما روح شريكي، ثم أهبط إلى القبو.

رُدت أرواحنا جميعًا. الروس بما حصلوا عليه من النبيذ المعتق، ومير باستعادة «صرمايته» وكل حاجيات بيته. فاطمة بحليها وأدوات مطبخها. أسمر بعودتي سالمًا، أنا بفرحتي بما فعلتُ. العجوزان بسريرهما. الأولاد باجتماعهم بأقرانهم ولعبهم، إلاّ رضا.. كانت روحه في قبضة أخيه ومن حق أخيه. وكان الشوق والشهوة يحرقان أفكاره ودمه.. وكان يبدو كقذيفة مدفع على وشك أن تنفجر.

لماذا تجنح عقول بعض الناس عند فكرة واحدة لا تستطيع الفكاك منها؟! انه هوس يتاخم الجنون، وجحيم ينفخ ناره الشيطان..

ولم أدر، هل يستحق رضا هذه اللعنة أم أنه أجدر منها بالرثاء؟!

* * *

إبشروا بالخلاص، فهو الآن أقرب إليكم من ظلالكم!

القيصر وكل الجلادين الظالمين الفاسدين يلفظون أنفاسهم الأخيرة!

و قد أثبتنا أننا أكفاء لتحمل مسؤوليتنا إزاء إخوتنا في صبلاخ. لقد أجَرْنا إخوتنا اليهود والنصارى، فأجارونا وقت الحاجة. وأثبت تلاحم الجماهير شجاعته أمام قوى الشر والطغيان.

لقد نجا الجميع بفضل هذا التلاحم، غير عدد قليل ممن لا يؤمن بهذا التلاحم، أو ممن قادته الصدفة إلى حتفه. فأما الذين لم يؤمنوا بتلاحم الجماهير فقد أبوا إلاّ البقاء ببيوتهم فأصابهم الإنتقام المزدوج!

إني لا ألوم الروس وإنما ألوم الذين ينكلون بالروس ساعة المحنة والانسحاب، هؤلاء يخدّرهم أفيون التعصب الديني، والتفرقة. وأقول لهم رأيي «إنكم تستحقون العقاب!»

Twitter: @ketab_n

أما وقد انتصر التلاحم الشعبي في صبلاخ وصمد بوجه الطرفين المتحاربين، فإن على هذا التلاحم أن يثبت نفسه في تطبيق عقيدتنا الإشتراكية البولشفية. يعرف الجميع أن النقص الخطير في المؤن والغذاء أخذ ينذر بلدتنا بخطر أشد فتكًا من الحرب ذاتها.. خطر المجاعة.

وقد تكهن بهذا الخطر عدد من المواطنين حبتهم الطبيعة بالقدرة على رؤية الآتي من الأحداث، فتزودوا بالطعام. وعلينا أولاً أن نقتصد في هذا الطعام، كما وأن اشتراكيتنا تقضي علينا بتقاسمه بيننا بالتساوي. فاقتصدوا بالطعام وتقاسموه فيما بينكم ومن كانت له القدرة على شراء المزيد من أي مكان ما زال يوجد فيه مواد غذائية، فليعجل بالشراء، فالآتي كما يبدو سيكون أقسى وأفظع ولتحيا الاشتراكية وليعش تظافر الشعوب.

وانشرح صدر حسن جاقماق وهو يرى تهافت الرفاق وانضمام المزيد والمزيد إلى البولشفيين. فتل شاربيه وجلس مقلدًا لينين في جلوسه وقال لنفسه باعتداد «لقد انتصرت الاشتراكية! ما عاد في ذلك شك على الإطلاق!»

* * *

تأمل حسن بوزورك السحب المنساقة بسياط الريح وقال يخاطبها «ملعونة! ملعونة! قد حرمتنا الكثير من الجليد مؤخرًا!» لم يمتليء الجبل هذه السنة، ولكن ما شأن هذا بمائدة الطعام؟ فجأة، بدأ إبن بوزورك، زير النساء المدلل، يتغير، فجأة بدأ يفكر. إن أشياء من حوله تتغير. يرى ما على المائدة! يتأمل أصناف الطعام، هذا طعام الفقراء. أبدًا ليس ما كان يأكله من قبل، والذهب ما زال يتوهج في خزانة أبيه وعلى جيد أمه وأخواته وعلى أيديهن ويطوق كواحلهن، فلماذا يشح الطعام إذن؟ وكيف يصل إلى تكة ألماس ويحلّها؟ ولماذا أصبح يلقى معارضة بل حظرًا من أبيه بالخروج إلى ظاهر صبلاخ وعرض أبهته وفخامته على صبايا البلدة كما كان يفعل البارحة وما قبل البارحة؟ وأخواته عالَم وباري ودنيا وجهان، هل جبلن من طينة تختلف عن طينة من يلقاهن من الصبايا؟! تلح عليه أسئلة غريبة. يقينًا أن أشياء تتغير من حوله، وفيه كذلك؟!

إنه يعافُ الطعام البائس، ويحرم من مداواة روحه بمشاهدة طلعات الحسان

Twitter: @ketab_n

الصبيحة والالتصاق بأجسامهن اللدنة. والجليد يشح مع الطعام وتنهمر عوضًا عنه القذائف ويبدو الخوف على وجوه أهله وسكان صبلاخ. لكن السؤال الملحاح المنغص عليه في هذه الأيام، ليس قلة الجليد والطعام، ولا القذائف بل أخواته بالذات، تقتله غيرة شعواء عليهن، إن ما يعرفه عنهن أنهن لم يغادرن المنزل وانهن انتهين من تعلم القراءة والكتابة في الكتّاب. ولكن، أحقًا لا يغادرنه خلسة أحيانًا؟! وهل حقًا لا يعرفن من الرجال غير أبيه وهو؟ ألا يفكّرن بالرجال؟ ألا يحلمن بأجسام الرجال؟ بلمسة أيدي الرجال؟ برشف رضابهم؟ وبلذة تنزُّه أصابع الرجال على شعرهن، هبوطًا إلى أثدائهن فأردافهن؟ يلهث غيرة مسعورة. يضع نفسه في محل جواد أو حمزة أو غيرهما من أقرانه. ويُحيل شقيقاته إلى كل صبايا صبلاخ. أيعقل هذا؟ لا. لا. أخواته نسيج وحدهن، ولا شك لديه في أنهن يختلفن عن سائر البنات. إنهن أشرف إناث العالم، يقينا إن النشأة والتربية هما العامل الحاسم في سلوك الإنسان وتفكيره. قد ربين على العفة والشرف والحلال والحرام. أفيمكن لشيء ما أن يقهر التربية؟! الغرائز ربما، إذ لو لم يكتم الإنسان جماح غرائزه لعاش في غابة. ولساد قانون الغاب كل شيء. إلا أن قتل الغرائز أمر لا يبلغه غير ذوي القدرات الفريدة. ثم أن الجنس ضرورة لتواصل البشرية. إنه، لا ريب، لا يعرف التفكير ويخلط بين الأشياء. بين صيانة الشرف، والحفاظ على المحظور والزواج وممارسة الجنس المشروع، وبين كسر المحظورات والجنس اللامشروع. ولا ريب في أن معظم النساء يصنّ شرفهن، الماس اليهودية مثلاً، إن أيًا من الرجال لا يستطيع أن يلمس لها ظفرًا. وأُمهنّ، ألم يأخذها أبوه من خدرها قبل أن تدنسها نظرات شبِقَةٌ؟! لكن حسن بوزورك لم يحظ بالراحة. الأفكار والتساؤلات كثيرة ومتشابكة وتلح عليه. تبرحه وترهقه وتعكر عليه صفوه هذه الأفكار. إنها تنصب عليه كماء الثلج في كانون أو كمراجل تغلي في تموز! إنه ليس هو من يخلقها، بل هي تداهمه وتأتيه متطفلة كجنية ممسوخة الخلقة تظهر للناس فجأة وتجعلهم يرتعدون رعبًا، وقد تسرق عقولهم من رؤوسهم وتصيبهم بالجنون. وهذا ما تفعله به أفكاره. وهي دبقة لاصقة لا يستطيع طردها، مثلما لا يستطيع قمع شهواته، كما استطاع بعض الناس أن

Twitter: @ketab_n

يفعل ذلك. الداهية الدهياء، إذن، إحتمال قائم دائما. ومن الجائز أن شقيقاته لا يستطعن، مثله تماماً، كبح جماح أفكار محظورة، خيالات الجنس الآخر.. يقظة الغريزة، الحنين إلى شيء حظره الله في الحرام، وفي نفس الوقت جعله ألذ ما في الوجود. وتميز غضباً. فلعل أخواته قد عرفن في خيالهن الرجال، وسحن بين أعضائهم، كما تفعل مخيلته في الصبايا الفاتنات. لعلهن أيضاً يمارسن العادة السرية كما يمارسها هو، يمارسنها وصورة رجل ما عالقة بأذهانهن.

كيف سيعرف الحقيقة؟! لا سبيل إلى الحقيقة، لكن دافعاً جباراً قاده إلى غرفتهن فاقتحمها دون استئذان. ترى بماذا كن يتهامسن قبل دخوله؟ ولماذا سكتن إذ شاهدنه، وانهمكت كل واحدة منهن في تطريزها أو حياكتها أو أمسكت بكتاب؟! هذه الكتب الرخيصة الملعونة، إنها كثيراً ما تروي مغامرات الرجال مع النساء، فلماذا علمهن أبوه القراءة ويحضر لهن الكثير من هذه الكتب اللعينة، وقد حظر عليهن التسكع بالدروب؟ التقط كتاباً كانت تقرؤه أخته جهان، كتاباً بالفارسية، نسخة مبسطة من شاهنامة الفردوسي، ملحمة الأبطال والملوك. أفتتخذ جهان من أحد أبطال هذه الملحمة، نموذجاً لفارس أحلامها؟ والأخريات، باري ودنيا وعالم؟! لماذا اختاروا لهن هذه الأسماء المترادفة، التي تعني كلها شيئاً واحداً هو «أُمّنا الأرض هذه؟!» أسماء تدل على هذه الأرض التي تضمنا وتحنو علينا كلنا! البشرية بأسرها. لكن الأسماء كثيراً ما تخدع، وما يهمه الآن هو أن يرتاح وأن يُسكن وجع الضرس هذا الممضّ داخل رأسه وليس في فمه. كيف يبدأ؟ وعن ماذا يتحدث؟ وهل من سبيل إلى المعرفة؟ أيبدأ بحديث عادي. بأسئلة لا تمت بصلة إلى ما يريد؟ رددن عليه وهن معتكفات على ما في أيديهن. كرديات أذربيجانيات يملن إلى السمرة. دعجاوات الأعين فاحمات الشعر المضفور، ثم فجأة

– ألا تشعرن بالضجر أحياناً؟

تطوعت باري بالرد وهي تسحب خيط التطريز عن آخر درزة،

– في النادر يا أخي. وسبحان من لا يضجر ولا يمل.

وبدون مقدمات سأل،

Twitter: @ketab_n

– الا تفكرن بالرجال؟ ألا تتحدثن عنهم؟

إنه وقح صلف! من أين لك هذه الجرأة بل القوة الظالمة فتلقي على أخواتك بالصاعقة المبيدة؟ إنك تواجههن بالمحظور وتعرف انه مرغوب أيضا، والمحظور المرغوب يصيب الناس أحياناً بالجنون، ولو واجهوك به لفرضوا عليك ربما الغضب والثورة. كلا! لن يتورد وجهك حياءً مثلما يتماوج الشحوب على وجناتهن. لن تطرق كما يطرقن. ثم تعبّر عن حيائك وارتباكك بهذه الضحكات الخفية التي انجرفن معها في النهاية، مسكينات! محرومات من رؤية الرجال! هذا يريحك ولكن هذا الشحوب على طلعات الاربع، العوالم الأربعة، اهو نتيجة هذا الحرمان من ابناء جنسك، أم هو نتيجة الطعام الذي يقل باستمرار؟!

وسألتْ باري، أكبرهن وقد اوشكت على البوار إذ أشرفت على العشرين!

– من تقصد بالرجال؟ أنت وأبي، أم الرجال الذين سنتزوجهم؟

– أقصد الرجال عموما، الجنس الآخر.

ضحكن مرة أخرى، في خفر جذاب. وجهان قالت

– نراهم من ثقوب النافذة ولا يروننا و..

– وماذا يا جهان؟

فقالت باري وقد بدأت تغضب

– لا شك في أنك جننت يا حسن وإلاّ لما سألت هذه الأسئلة!

– إنه مجرد الفضول يا شقيقتي.

فقالت شبه زاجرة

– تعرف اننا منذورات لأبناء عمومتنا. أما إذا كنت تشك بنا فاطمئن. نحن لا نرتكب العيب. واعلم يا اخي بأن البنت التي تريد إرتكاب العيب ترتكبه ولو وضعوها داخل قلعة لا منفذ إليها، على جزيرة معزولة في بحر هائج لا يستطيع اقتحامه أحد.

فقاطعتها دنيا

– كفي يا باري. إن حسن يحبنا ويريد الأطمئنان علينا.

– لا يا دنيا. حسن يشك بنا، وهذا يعني أنه بذاته يرتكب الفحشاء. فيعتقد أن

Twitter: @ketab_n

النِّساء كلهن يشبهن اللواتي يشاركنه في ارتكاب العيب معه.

أفحم حسن بوزورك. ترك خدر شقيقاته. دخله والفضول وحش ينهش في أعماقه وغادره والخزي وحش آخر يقطعه إرباً.

لكن الأسئلة مازالت تضرب في رأسه كمطارق ألم الضرس.

لماذا إذن لا يزوجكن أبي ويريحكن ويريحني معكن؟ ومتى اصل الى تكة سروال ألماس؟ وحتى متى يستمر الحظر على خروجي إلى العين؟ وهذا التقتير في الطعام؟ وإذن هل الذهب لا يحقق الامنيات كلها ولا يخلق الطعام من العدم؟ أفلا يرى أبي هذه الصبغة الصفراء على وجوه أخواتي وأمي، وعلى وجوهنا كلنا. صبغة لا يمحوها غير سؤال محرج أطرحه عليهن عن الرجال، او الطعام؟!

منذ انقطع عن الذهاب إلى العين، بدأ يفكر.. ولا شك في أن التفكير يغير الإنسان.. لقد تغير! ولا بد أن ينقذ أبوه هذا البيت من الشحوب، ليس بالذهب بل بالطعام!

* * *

استدعاني القائد الروسي إلى مقره في الكنيسة وألقى عليّ نكته لولا حرصي على الامتناع عن إثارة غضبه، وحذري من افتضاح أمري، لجعجعت ضحكتي ولاستحالت إلى قذيفة تنفجر بيننا وتدمر كل ما حولها من أشياء.

- يا خواجة شلومو كتاني، أنت الرجل المعتمد في هذه البلدة سواءً على أمور طائفتك أو بيننا وبين هذه الطائفة وعليك أن تكون قدوة للجميع، وللأسف وصلتنا أخبار تضر بسمعتك ولا تليق بشخصك ومركزك. فمن كان في مثل مركزك وشخصيتك لا ينهب بيوت الناس مستغلا غياب أصحابها، ولو كانوا من المسلمين.

ابتلعت تلك الضحكة القاتلة. قلت

- ثمة سوء فهم يا سيدي

- وأي سوء فهم يوجد في أن تنهب حاجيات بيت هجره أصحابه وتذهب بها إلى بيتك؟

- بل نقلت تلك الحاجيات إلى بيتي خوفا عليها من النهب.

Twitter: @ketab_n

فقال،

- وضّح إذن إن كان لديك حجة معقولة!

- هذا البيت بيت شريكي وصديق طفولتي. وقد ذهبت إلى بيته للإطمئنان عليه، وإذ وجدت الدار مهجورة خشيت أن تنهب محتوياتها فحولتها إلى بيتي للحفاظ عليها ريثما يعود.

- وما الذي يجعلني أصدق كلامك هذا؟

- إسأل يا سيدي عن بيت شريكي من شئت، وسيدلك إلى ذلك البيت بعينه.

فسهم لحظة ثم قال،

- ألم يخبرك إلى أين هرب؟

- لو كان أخبرني لما ذهبت إلى بيته للإطمئنان عليه وعلى آل بيته؟

نكت مكتبه بأصبعه ثم قال،

- ان كانت حكاية «النهب» هذه كما رويتها، فأنت إذن جدير بمهامك ومسؤوليتك. إذهب يا شلومو، وساتحرّى روايتك!

هل ارتكبت إثما بكذبي على القائد الروسي؟!

لا. لا فديننا يحل المرء من كل فريضة إن كانت تعرض ممارسها أو غيره إلى خطر الموت!

* * *

ورضا علي تفترسه أفكاره، ثم تفترس ذاتها فيعود ويحملها بيد شياطين لا تعرف الرحمة، ويغدو بعد زواله شبه بشر، شبه شيطان. ليس في دماغه غير فاطمة العارية أعضاء المرأة وخيالات محورها هذه المرأة بالذات. إنه حبيس بيت ليس بيته.. معها في بيت غريب، وغريمه وهي لا يكادان يفارقانه لحظة. لا السنديانة ولا البلوطة ولا النبع او العين ولا المساحات الشاسعة من الطبيعة الجبلية الصفراء - الخضراء - البنية - الحمراء - الرمادية، الملونة، حيث يرى فاطمة في كل جزء منها، وهو ينكت التربة بقضيب جاف ساقط من الشجرة، يوم كان يخرج إلى ظاهر البلدة، ويجعل من أفكاره هالة ومن فاطمة جرما سماويا يطوقه بهذه الهالة. أياماً وأسابيعَ تصليه هذه الأفكار وتأكله ثم تتقياه وبقدرة قادر

Twitter: @ketab_n

إبليسي يُعاد تركيبه وقد ازدادت أفكاره ضراوة وهمجية. يطرقون عليه باب غرفته ويدعونه للنزول للأكل. إنه ممتلىء بها. ليس جائعًا. حرمانه منها يختم على معدته بسدّادة من غثيان. كم تخيلها وأنزل منيّهُ على وهم يدور في خياله؟! وهو ينزل إلى الطابق الأول لا لكي يأكل بل ليراها وحسب. كم اتسعت حلقة الآكلين.. في بيت يهود.. يأكلون ويتجاذبون أطراف الحديث في حذر، خوفًا من أن يقتحم الخطر باب البيت فيكتشفهم الموت على حين غرّة. أبو سلمان يروي حكايته مع القائد الروسي ويضحك! هذا الملعون يتفكه. وأخوه النذل يقهقه، وهو يتقلّب في أتون جحيمه، فيُصلْى وينضج حتى يصبح بالإمكان ان يُضاف إلى صواني الطعام. لكنه لو أضيف للطعام حقاً فإن الجميع سيعافه لأنه سيدنس هذا الطعام بالتأكيد. إنه لحم خنزير.. بل شيطان رجيم. إن أطباق الطعام تمتد بين عينيه وفاطمة. خيط رؤيته تسحبها إلى مخيلته فيبدأ بإنزاعها ثيابها، ثم عوض عن أن ينهش الطعام، ينهشها هي بنهم معتوه. إن أحدًا لا يفطن إلى نظرته، حتى فاطمة لا تشعر بها. بنظرته هذه، ولو حدث وارتطمت عيناها به فجأة فإنها تسحبهما بسرعة، وكأن زنبورًا قد لدغها. بل هذا عقرب بل هو ثعبان زعافه قاتل. يستغرب لماذا تمقته كل هذا المقت وتحب زوجها رغم أنه أصغر سنًا من ذلك اللعين، وأكثر منه وسامة وجمالاً؟! وهل يوجد في أخي أصلاً شيء من جمال يجعلك يا الهتي تتمسكين به تمسك العبادة؟ لعلك إذن تعشقين فيه عضوًا معينًا يفتنك به كل ليلة وأنتما في فراش واحد، فهلا جربت عضوي أنا، فوحق جمالك القاتل، لأجعلنك، لو تذوقت من ذلك الشيء التابع لي، تعافين زوجك ودينك وأولادك والدنيا بأسرها وتتمسكين بي وحدي! لا. لا. يا رضا، فالأمر عند هؤلاء الجهلة هو غير ما تظن. لقّنوها مذ وُلدتْ أن الزواج حرمة وأن الزوج بمثابة الله، وحتى لو كان عنّينا عاجزًا، أو كان يثير الغثيان، فعلى الزوجة الا تنظر إلى سواه، فمجرد نظر المرأة المتزوجة إلى رجل غير زوجها، يعتبر في نظرهم خيانة. وفاطمة لسوء حظك من هذا الصنف المخلص للزوج بكل جارحة من جوارحها. ومن سوء حظك أيضًا أن الزوجة التي رأيت أعضاءها شلوًا شلوًا فعشقتها ليست من أولئك الزوجات اللواتي يعتبرن الخيانة الزوجية، مجرد جرعة ماء يرتشفنها ليرتوين، ولا من

Twitter: @ketab_n

النوع الذي يقتحم المحظور لما فيه من لذة. لسوء حظك أن فاطمة لم تجبل، مثلك بيد الشيطان، ليست بشراً على شاكلتك لم يودع الشيطان في روحها حرمة ولا ذلك الوهم المسمى ضميراً، وتصاعد الدخان من أنفه، ويحك يا رضا! فلو بقيت فريسة خيالاتك وحرمانك المزمنين. فلن تختلف عن أي عاجز عنّين وجبان وستفقد صوابك لا محالة، وتساءل «وما العمل إذن؟!» فرد عليه الشيطان بصوت الحرمان والجنون «خذها! خذها عنوة من زوجها رغمًا عن أنفه وأنف الدنيا!» زوجها، من مارس كل ما أبدعه خيالك، معها على وجه الحقيقة لا الخيال، والتذّ بها واستمتع حتى أنجب ثلاثة أولاد ذكور. وتخيل اعتقادًا يدعي أن إنجاب الذكور يعني هيمنة الرجل عند مواقعة زوجته وإخصابها، فازداد جنونًا وحيرة، وتحرّق، وتسلل بصمت صاعدًا الدرج إلى غرفته في الطابق الثاني. دخلها ومضى يكيل اللكمات للجدار. هذا الجدار هو الفاصل الوحيد بينه وبين فاطمة وغريمه في الليل، هذه الشريفة القديسة المصونة، تصبح عبر هذا الحائط مومسًا عارية كما ولدتها أمها ومعها رجل مباح له أن يفعل بجسدها كل ما يشتهي بمجرد أن شيخًا معمما ورجلين شاهدين قالوا بحضور ولي أمر الطرفين عدة كلمات مشفوعة بالفاتحة. فلأقل لها «زوجتك نفسي» ثم ألتهمها مثلما يلتهمها الخسيس الوغد، إن شهقاتها ستتناهى إليّ بعد قليل، من خلف هذا الجدار. لهاث لذة مسعورة. صيحات مكتومة أحيانًا، يفلت زمامها إذ تزداد حدّة الشبق والنشوة ماسحة حياءها هذا الذي تسوقه على الرجال، مومس مشروعة يحتكرها رجل واحد باسم الخرافة المدعوة بالزوجية؟ فإن كان هذا ما يريده الناس فليطلقها ويعطنيها وأنفه في الرغام! سأقول له هذا غدًا. سأُرغمه على طلاقها وسأبصق في وجه الجبن والحرمان. الجبن والحرمان..! مرادفان لاسم واحد. أو شيئان لنتيجة مرادفة! وها هما يصعدان فتحتويهما الغرفة جامعة الأسرار والعرايا، بابها ينطبق عليهما. لماذا اختار اليهودي أن تكون غرفتي بجوار غرفة المومس المعبودة وناكحها الغريم الكريه؟ ألأجل أن يزيد من عذابي جعل بيننا هذا الجدار غير الكتوم البائح بالأسرار؟ الذي كلما اقتربت منه يزداد حريقي وجنوني، حريق لا يطفئه غير مائها، وجنون لا يشفيه سوى سكبي لمائي

Twitter: @ketab_n

في أحشائها. وهذا الوغد هو الذي يفعل ذلك. جشع طماع لا يُبقي لأخيه المعذب فضلة. وأنت يا معبودتي أفلا تملين طعامًا تناولته، هو بعينه، كل ليلة، لا يتغير؟! أفلا تعافين هذا «الحساء» الذي أفسده طول العهد فيثور فضولك لصنف آخر من الطعام، بل، ولأقلها صراحة، ليد أخرى تمسح على ثدييك، ولفم آخر يرشف رحيق فمك وشفة أخرى تسوح بين شعرك وباطن قدميك، وتلثم كل خلية من خلايا جسدك الفاتن، متوقفة عند سنامي البعير، تولج لسانها بين شفري هذا البعير الحبيب؟! وهل خطر لك يومًا، إن كان طبق زوجك اللعين يوافق شنَّك وهل يضيق الشن عن الطبق أو يصغر عنه؟!، أيوجعك أم لا تشعرين به أبدًا؟ أكل شيء بينكما متطابق، أم لا وفاق يجمعكما ابدًا؟! وهل يفرغ قربته في خابيتك ويخرج، أم يلتقي الماءان كما توجب القواعد المذكورة في كل كتب الباه؟! ولماذا أتساءل وهاأنذا اسمع أصداء قبلاته أو، ربما، قبلاتك تأتيني من خلف هذا الجدار الظالم؟! أليستْ الثياب تنضى عنكما الآن؟! والعراء بجواري كافر زنديق. إذ يشمل معبودتي وأخي ويلقي بي إلى جحيم أبخرة الخيالات المحرقة؟! وها أنذا أسمع الشهقات واللهثات والصيحات! كفى! كفى! فوالله لأنتزعنك منه ولو سُفكت دماؤنا نحن الثلاثة. قد أقسمت، وما أنا برضا إذا لم أفعل هذا وغدًا موعدنا.. يا فاطمة، ويا مير الخنزير!

* * *

كنا في قلب الكابوس.. كابوس مروع طويل لا تبدو له نهاية، وكان الموت نهاية النهايات، وما من أحد آمن من هذه النهاية. الطعام في الدكاكين يكاد يكون معدومًا. وجفّت الحقول خارج البلدة، ولم يعد أكثر الناس يخرج إلى عمله.

والذين سمعوا تحذيري أو تكهنت عقولهم بما سيحدث، فخزنوا الطعام منذ البداية، نجوا من غائلة الجوع، لكن المعدمين ممن لم يصلهم ذوو القربى والمحسنون، والمؤمنين بسحر الذهب وبقدرته على الإتيان بحليب الطيور، فقد أخذوا يبحثون عن الطعام بكل وسيلة، وحتى بخلاء الأثرياء في صبلاخ شرعوا يبذلون مالهم بسخاء للحصول على اللقمة. كانت تلك أيامًا سوداء كالفحم نقشت في الذاكرة سطورًا داكنة لا تمحي، وانضمت تلك الليلة المشؤومة إلى طابور

Twitter: @ketab_n

طويل من الليالي السوداء وكادت تودي بكل من كان في بيتنا.

أُحيط لجوء أسرة شريكي مير إلينا بكتمان شديد وبكامل السرية. لم يغادر أحدهم باب المنزل ولم يُبد نفسه لأحد في الخارج. وينام الأولاد، فنجلس، نحن الرجال والنساء في موضع من الدار، نعالج بالسمر هذا الكابوس المستطيل. وكالعادة جلسنا، مير وأبوه وأنا، في تلك الليلة نتحدث بصوت خافت وعلى ضوء مصباح خافت، عن هذا الشيء الوحيد، حديث الناس كلها، محنة صبلاخ. فجأة ساد صمت. أرهفنا كلنا السمع. أصبحتْ آذاننا تسمع كل همسة وسكنة. حاسة جديدة زرعتها بأنفسنا، هذه الأحداث المروعة في صبلاخ. وإذا بوقع أقدام تهبط السلّم، بآلية اتجهت أنظارنا نحو مصدر الصوت. كانت تلك أقدام رضا. وكانت مسروعة، ضاجة مجنونة، قطعت خيط حديثنا وجذبتنا إليها. رضا ينزل، حركاته. غير طبيعية. حين لاح وجهه ضمن إطار الضوء الشاحب لاحت قسمات وجه رهيبة. محروقة بغضب لا مفهوم وبأشياء مبهمة أخرى. كانت عيناه تحملقان في وجه أخيه، وهو يندفع إليه كالسهم المرشوق، أو كالأجل النافذ، خلجاتنا تجمدت بالدهشة، كان رضا يمرق بسرعة جنونية. ثم يمسك بخناق مير، ويصرخ،

– أُريد فاطمة! أُريد فاطمة!

جاذبه لينقذ نفسه، وهببت لنجدة شريكي. يقينًا أن رضا قد جن، بل جن كل شيء في تلك اللحظة.. كنت قريبًا جدًا من سحنة مير، رأيت عسر الإدراك مرتسمًا عليها مع علامة سؤال كبيرة بلهاء لا تفقه شيئًا. تبلع ريقه بعد أن حررتُ رقبته من قبضة أخيه رضا، كان ذاهلا لا يفهم شيئًا، والآخر يصرخ،

– طلق فاطمة يا نذل وزوجنيها!

أنا تحفزت! مير كان يصارع زوبعة الجنون ولا يفهم. حيرة، قاتلة تصدمه، تصعقه، تصرعه في مكانه،

– ماذا تريد أن أفعل يا كلب؟!

– أريد فاطمة! كفاني حرمانًا منها وأنت تترع من نبعها كل ليلة.!

تحفزت أكثر. تحفز مير وأبوه. قلت لمير «المجنون»

Twitter: @ketab_n

- يبدو أن أخاك قد جن يا مير!

لكن ميرا لم يعد يعي. كأن جرح المهانة ينزّ نفطًا ويضرم النار فيه. ماج كالحرب الطاحنة هذه. أمسك بأخيه وهو يشتم وعيناه تجوسان. تبحثان عن شيء ما، وأخوه لا يكف عن الصراخ،

- طلقها، فأنا أعرف كل خلية من خلايا بدنها، لقد رأت عيني كل أعضائها، لكنك أنت تستمتع بكل ذلك، يكفي هذا! يكفيني حرمانًا من المرأة الوحيدة التي أعبدها!

ويصبح مير كلبًا مسعورًا،

- ماذا يقول هذا الوغد يا أبا سلمان؟! هات لي سكينًا! هات مسدسًا! والله لأقتلنه وأقتل معه الفاجرة!

- أخوك يهذي يا مير! قد جن أخوك ولا شك! أُقسم أن رضا قد جن!

لكن رضا يهتف،

- هيهات يا كلاب! لم أُجَنّ وليست فاطمة بالفاجرة! فلو كانت فاجرة لحظيت بها دون أن يعرف هذا المأفون، فليطلقها الآن ويهبها لي!

- هات مسدسك يا أبا سلمان! أقسمتُ ألا ينجو مني هذا الكلب أبدًا!

- أُخرج يا رضا من بيتي، أما أنت يا مير فاعقل وفكر بأولادك وأولادي وبأهل البيت، ولا تتسبب بهلاكنا كلنا يا أبا محمد!

- هات المسدس حالاً يا أبا سلمان وليحترق العالم كله...

فهتفت برضا،

- أُخرج من بيتي! أُخرج يا رضا من بيتي ولا تعد إليه!

فتحتُ الباب. رأيته ينصاع، كان قد جن فعلاً. مضى يعدو وهو يصيح،

- سأُبلّغ الروس! سأُبلّغ الروس! سأُبلّغ الروس!

كان نشيج فاطمة يُقطع القلوب، فتحتضنها أسمر وتحاول أن تهدئ من روعها بلا جدوى، كنتُ وأسمر نعرف ببراءة فاطمة، وكانت هي تقسم بأغلظ الإيمان،

- بحق الله ورسوله، وبحق أولادي محمد وأحمد وحميد. كذب هذا المجنون، أُقسم بالله على أنه لم ير شعرة من شعر رأسي، أُقسم أنه لم ير شيئًا تستره

Twitter: @ketab_n

ثيابي. ويشهد ربي على أني لم أهب لسواك يا مير، نفسي وفكري وشعوري...

إعترض الزمن، وعلى وجهه إبتسامتك هذه الباهتة وكأنها تتهكم على كبائر الأمور،

– أقسمت فاطمة وهي لا تعرف أن رضا لم يكذب، فهل كانت ستقسم زورًا لو عرفت بأن نظرات رضا قد افترستها وغاصت في كل خلاياها فعلا في «ليلة الحمام»، سبب محنته ومرضه هذا المزمن؟

لم أرد على الزمن، كنت منهمكًا بإنصاتي لأبي سلمان وهو يواصل سرد القصة.

«وبعد نحو خمس أو ست دقائق سمعنا دوي طلقة، تناهى صدى الطلقة إلى رؤوسنا الهائجة المائجة المشوشة الوعي. إقتنع مير علي ببراءة زوجته الوادعة الباكية بعد تردد طويل. غفر لها في أعماقه لكنه ظل مشيحًا عنها وكأن الوصمة التي نالتها من أخيه، ظلمًا وبالباطل، هي وصمة خزي دبقة. وفي تلك الليلة أخذ مير فراشه إلى خارج الغرفة، رغم برودة آذار. لقد كان لا بد أن يسيح دم كي يغسل آثار هذه الوصمة عن فاطمة البريئة المسكينة. ولا أدري أمن حسن الطالع أو سوئه أن يحدث هذا في التو. ففي صباح اليوم التالي، وأنا عائد من الكنيس دعاني جنود روس كانوا جالسين عند مفترق بعض الأزقة وقالوا،

– شلومو، على بعد مئة متر من هنا، تستلقي جثة شاب مسلم. خذها، وليتكفل أصحابك بدفنها.

سرتُ على هدي أيديهم المشيرة إلى الاتجاه المقصود. رأيت رضًا ممددًا على الأرض بلا روح. كان وجهه معتوهًا وكأنه لا زال يحلم بأشياء لم يستطع نيلها، لأنها كانت محرمة عليه. حملته على كتفي وسرتُ به إلى البيت. دخلتُ من الباب وأنفاسي تلهث ووجهي يلهث. وشاهده مير، ففرح وتأسف في آن

– ليتك تركتني أقتله بنفسي، لحرمته إذن من شرف الشهادة.

فقلتُ مواسيًا،

– ومن قال أن أخاك مات شهيدًا؟ فهل جاهد في سبيل الله؟ هل حارب من أجل صبلاغ؟ بل هل حركت فيه هذه الحرب ساكنًا؟

Twitter: @ketab_n

أطرق طويلاً، على صوت بكاء الأم ونشيج الأب،

- إرمه للكلاب أو تكفل أنت بدفنه يا أبا سلمان!

فقلت،

- لا يا مير، أخوك لم يكن في وعيه. لقد وسوس له الشيطان أو انتابه مسّ من جنون، ومهما يكن فلا عقاب يفوق هذا العقاب، إن كان يستحق عقابًا.

فتساءل،

- ماذا تنوي أن تفعل إذن؟

- نغسله، ونكفنه، وآخذه بنفسي إلى الجامع، ليُصَلّىِ عليه وليتكفل الشيخ بدفنه وفق كل أصول الدفن الإسلامية، وليلق عليه والداه نظرة الوداع الأخيرة!

وقبل أن أحمله إلى المسجد، توسلت بمير،

- إقتد بربك الغفور الرحيم وسامح أخاك، إنها فرصتك الأخيرة يا شريكي!

أشاح بوجهه، لا ريب أن الإنسان يعجز أحيانًا عن عمل الخير.هذا الحقد، هذا الغضب، هذا السخط العارم، كلها من عورات الإنسان وضعفه. قال،

- وربي أيضًا، منتقم جبار، ولو كان أحد قد دُنِّس عرضه كما فعل بي هذا الكلب رضا، لرجحت كفة المنتقم الجبار على الغفور الرحيم، لقد غفرت الآن لفاطمة. أما هذا الذي آنف من أن أسميِّهُ أخي فوالله لن أغفر له حتى يوم القيامة!

هذه الحرب الملعونة، قد كشفت لي في شريكي وصديق طفولتي عن جوانب كنت أجهلها، وما أخطرها!

شريكي يحمل كل هذا الحقد الأسود! ومع ذلك...

* * *

Twitter: @ketab_n

(الجولة السادسة)

الحزن كلمة صغيرة على الأحداث الجارية. وهذا الظلام لا يبدو له آخر، ورغم إيماني العميق، أصبحتُ أتمنى الموت. لحظات الترويح الوحيدة هي ساعة جلوسي مع الأولاد أو حديثي مع أسمر، وما أقل ما يحدث ذلك. ناحوم الصغير بدأ يتكلم وإستير الصغيرة شرعت تحجل، بمعونة المحجلة. ولم تعد ليالي السمر بأكثر من ليالي التشكي والتذمر. لم يطل بقاء الروس هذه المرة، فجأة، داهم صبلاخ، بعد أن احتبس فيها الجليد والمطر، مطر من نوع آخر.. مطر النار والموت والدمار.

قال مير علي مذعورًا،

- فقد الأتراك على ما يبدو صوابهم. إنهم يقصفون البلدة قصفًا عشوائيًا لا يميز بين الأشياء.

فقلت متهكمًا،

- المفروض أن تهلل بقرب دخول جيوش المؤمنين.

فقال،

- أشهد الآن على أن كل ما قلته يا أبا سلمان حق. ليس في الحرب مؤمن أو كافر، وكلا الفريقين المتحاربين يقودنا إلى الهاوية.

فسهمت ثم غمغمت وكأنني أُكلم نفسي،

- كل هذا ونحن على الحياد، لم نعلن الحرب على أحد، ولم ننحز لأحد من المتحاربين، لكنهم يستخدموننا ممرا لجيوشهم ويرتكبون بنا فظائعهم دون وازع أخلاقي وبخلاف كل القوانين والأعراف. هذا يقتلنا وذاك يقتلكم وكلاهما يحرق ويخرب ويدمر. وها بالمجاعات قد اقتربت من صبلاخ، وسترى ماذا سيحل بأهل بلدتنا المسكينة.

فقال مستغربًا،

- سأرى ماذا سيحل؟ وهل ثمة بعد ما حل بها ما هو أدهى وأمر؟

Twitter: @ketab_n

- هو ذا!

صم آذاننا دوي انفجار قريب، واهتزت جدران المنزل، وندّ عن النسوة صراخ مجنون. أما الأولاد فقد جمدهم الفزع، وفر كل منهم إلى أحضان كبيرة تحميه، ثمة شيء قد حدث هنا. على بعد ظلالنا منا. وهذا صوت أنثى يعوي عواء حيوانيًا. واللغط يشتد قرب بيتنا قادمًا من بيت عزريا الصائغ. خرجتُ رغم تلاحق الإنفجارات وسرعان ما هبطتْ علي الصاعقة. بيت الصائغ استحال في نصف لحظة إلى نصف خرابة، أطلال من الجانب البعيد من بيتنا، وفي الجانب الملاصق لنا ما زالت الغرف قائمة. بيت أشبه بنصف ثمرة قد نهشت أنياب وحشية نصفها الآخر. نصف جسد، نصف شيء، أي شيء، وصوت الماس يعوي عواء أعجم، لكنه يشي بشيء أكبر من الرعب والكارثة. فججت زحام أهل الحي والفضوليين المتجمعين ودخلت. كانت ألماس متشنجة ترتعص كالمصروعة، لكنها واقفة على قدميها. سحنتها قد تغيرت تمامًا. لا عجرفة ثمّ، ولا أنفة ولا غرور ولا كبرياء. بل عجمة بهيمية غارقة في الرعب. عته مصبوغ بالهلع. العينان محملقتان مدحورتان. وفم فاغر كفوهة مغارة ويصرخ ذلك الصراخ الحيواني المعبّر عن الانكسار، ويداها تشيران إلى موضع ما في الجزء المهدم من البيت. كان يجب أن أتصرف، في الحال دعوت بعض رجال الحي المحتشدين وشرعنا بإزاحة الأنقاض، هنا، في هذا الموضع.. حيث تشير يدا ألماس المرتعدتان، من خلال صراخها المعتوه الذي لا يتوقف. راودني إحساس بأن كل هذا الركام يقبع على قلبي وكاهلي. وكان ثقيلاً. أثقل حتى من الرصاص. فهذا الحجر المتراكم فوق شيء ما عزيز على الماس، لا ريب في أنه إنسان، ربما كان والدها، الشخص الوحيد في حياتها، هذا الحجر كله كان يتراكم على كتفيّ. وكان يزداد مع الأيام ويبلغ الآن ذروته فيغدو أثقل من كل عبء في العالم. لا يكاد يزحزحه أكراد الدنيا المعروفون بشدتهم. كان كل حجر نزيحه عن الركام، يُضاف إلى عبء كاهلي، فأنوء تحت وطأته وأُلامس الأرض، وأشم منها رائحة البارود والموت.

وإذا بالموت يظهر رويدًا رويدًا، على شكل رجل.. عزريا الصائغ، يده أولاً ثم رأسه ثم باقي الجسد.

- لا تحركوه!

Twitter: @ketab_n

صرختُ مع صراخ ألماس المجنون. وكانت تعوي بشبه كلمة لو تمعنا بها لوجدناها «أبي!» وكنتُ أنا أصرخ في صمت، أتساءل «أفيه رمق؟! هبهُ حياة يا إلهي من أجل هذه المسكينة!» وكنت أعرف أن الدعاء لا يجدي نفعًا لو حل الأجل. تحسسنا صدر الرجل. أنصتنا بإرهاف. لا نبض فيه ولا نَفَسَ. لم يكن في عزريا الصائغ «رمق!» ويا للأسف! كان ذلك أجله وأجل ابنته المحتومين! عندئذ رفعته، كان أشبه بخرقة مصنوعة من الصلب. وكانت ألماس مجنونة تمامًا، وهبتْ كإعصار متوجهة إليَّ. وسرعان ما انهالت علي تنشب بي أظافرها ككلبة مسعورة وقد انفتحت، للحظة، عقدة لسانها فأخذت تصرخ «لا تدعوه يسرق أبي! إنه يسرق أبي!»

لأول مرة خارت قواي، فكدت أسقط على الأرض. لقد تراكمت علي الأحمال وهي توشك أن تقهرني. قاومتها، هذه الأحمال الباهظة، وطلبت بصوت خافت وحزين،

– أبعدوا المسكينة عني واسقوها جرعة ماء!

كان الفتى حسن بوزورك من احتضنها وحاول إبعادها. وكانت تقاومه وكإعصار شديد تفلت من بين يديه. وأنا أحمل الميت. رباه! أكتبتَ علي أن أحمل القتلى؟! وكم تراني سأحمل منهم حتى تنتهي هذه الحرب الملعونة؟ آه يا إلهي، لماذا جعلتني «حفار قبور» هذه الحرب؟! وأي ذنب اقترفته صبلاخ، لتعاقبها هذا العقاب المرير؟! دخلت بهذا الحمل البشري إلى بيتنا يلاحقنا عواء ألماس المعتوه وانفجارات القذائف ورعب الحاضرين من أهل الدار وضيوفنا. قلت لأسمر أن علينا أن نقضي «حاجة» الرجل وأن ندفنه قبل دخول العثمانيين والألمان. توسلت بي كعادتها تطالبني بعدم الخروج. وقال لي مير جازماً

– أنت مجنون!!

فقلت آمرًا من بالبيت من الكبار،

– غسلّوه، وكفّنوه، وسأخرج لأجمع عشرة رجال.

في أقل من ساعة كان كل شيء جاهزًا. كانت المقبرة بعيدة عن الجهة التي ياتي منها العثمانيون عادة، وابتهلت أن يهبنا الله الوقت لنقضي حاجة الرجل

Twitter: @ketab_n

الميت ونعود من قبل وصولهم. وكانت القذائف تلاحقنا ومعها عواء ألماس المجنون «لقد سرقوا أبي! سرقوا مني أبي!» وقلت لنفسي «ليت المسكينة ماتت مع أبيها! أو ليتها افتدته بنفسها! لقد فقدتْ بموته أعز الأشياء بل كل الأشياء!» وعدتُ وتساءلت «هل تراها ستستفيق من الصدمة؟!» وتساءلت أيضًا «أيوجد لعزريا الصائغ من سيقرأ على روحه صلاة راحة الميت، القدّيش، طوال العام؟!» ونفضت يدي من تراب القبر ومن الرد على أسئلة بدت مستعصية للغاية، وقررتُ أن أقرأ القديش بنفسي على روح الميت، واعتزمت في الوقت ذاته إيواء إبنته اليتيمة المسكينة عندنا. كان بيت الصائغ قد أصبح معظمه أطلالاً وما أثر منه غدا آيلاً للسقوط، ولم يعد ثمة باب له يحميه. كان الناس يتناهبون حاجيات بيت الصائغ الميت دون رحمة. وكانوا يبحثون عن مخازن الطعام، المدفونة بالأنقاض. أما الماس فلم تستجب لرغبتنا في إيوائها. ظلت متشبثة بقضبان نافذة في غرفتها التي لم تصب بسوء. ولم تبرح سحنتها تلك الملامح من الرعب المجنون. بقي خوف هائل يسحقها بقبضته الجبارة. وكانت تتراجع على أعقابها كلما اقترب منها إنسان. كان غرورها العاقل قد استحال إلى أنفة مجنونة. أما صراخها فقد تحول إلى صمت عنيد.. قاومتني وأسمر وقشنك. ونحن نحاول أخذها لبيتنا، حتى كادت تنخلع قضبان النافذة، وكنا كلما أفلحنا بالسيطرة عليها وجرها إلى بيتنا مستعينين بالمزيد من سكان الحي، كانت تعود وتختفي في أقل من لمح البصر. لقد كان معظم عقلها قد تحول إلى جسمها قوة ورعبًا هائلين، لكن شبحًا من كبرياء ونقطة من عقل سوي، مكثا في ألماس المتعجرفة المغرورة، وكانا يحملانها إلى موضعها الطبيعي كلما أُبعدت عنه قسرًا وإرغامًا. كانت منذ الآن قد أصبحت شبه مجنونة، وتعيش في شبه خرابة لا يحميها باب أو حاجز، خرابة لا حرمة لها، ومفتوحة بوجه أي كان. خرابة خالية من الأمان والطعام. وفي هذه الدوامة من أهوال صبلاخ، أصبحت البنت المدللة، شبه مجنونة مشردة معرضة لمخاطر لا حصر لها.

دخل العثمانيون والألمان صبلاخ للمرة الثالثة. بيد أن ملاحم أهل البلدة، بفضل تعاليم حسن جاقماق، ونداءاتي، أنا العبد الفقير، بل وربما بحكم ضرورة

Twitter: @ketab_n

الظروف، قُيدت الأيدي المتشوقة إلى الحناء البشرية، وتوقفت المذابح الجماعية خلف سياج التضامن الراسخ، فكان عدد حالات القتل بين يهود ونصارى البلدة محدودًا. ولم يتعد الأماكن المظلمة أو المواقع الخالية البعيدة عن الناس، وكان الخطر يحيق بألماس من كل جانب. ولما نفد الأمل في إيوائها بدارنا قررت الذهاب إلى خالاتها.

قلن لي بصوت واحد وبالإجماع على رأي ظالم واحد.

- هذه البنت مشؤومة منذ وُلدت. قتلتْ أُمها وهي تلدها، وها قد دفنتْ أباها وقد كان يعزها ويعبدها عوض الله.

فقلت مستنكرًا،

- اتقين الله فيها! كيف تقلن ما تقلنه والمسكينة دفعت عقلها فداء مصرعه؟! الحرب هي المشؤومة الحقيقية وهي التي قتلت أباها وتحصد الكثير من الناس، أما أُمها فتلك مشيئة الله سبحانه. وما أكثر الحوامل اللواتي يمتن عند الوضع!

أجل يا أبا سلمان. لقد استطعت أخيرًا إقناع خالاتها بالمجيء لأخذها، لكن محاولاتهن، كمحاولتك، كانت فاشلة. ظلت الماس مصرة على البقاء في موضع مصرع والدها. وكانت بعد الحادث تُشاهد جالسة على الأنقاض، في نفس المكان الذي «سُرق» فيه منها. كانت قشنك تأتيها بالطعام والشراب، وتضعهما لها خلسة في مكان معلوم، ولا تبرح مخبأها حتى تراها قد اكتشفت الطعام وأنها بدأت تتناوله بنهم شديد، فكانت قشنك تعود للبيت، ثم ترجع بعد فترة لتعيد الصحون فارغة تمامًا. لم تكن الماس تسأل أو تتساءل عن مصدر الطعام والشراب، وكنت تعودها أحيانًا من بعيد فكانت آلامك تتضاعف وأنت تراها على حالتها الجديدة. أفحقًا هذه الصبية التعسة المحطمة هي التي كانت قبل وقت غير بعيد ألماس المعتدة الأنوفة الغنجة؟ ألا لعنة الله على الحرب!

* * *

حسن جاقماق...

لا الرجل المريض يموت، ولا ثورة الشعب في روسيا تستقر! لكننا أثبتنا وجودنا، ولن يمضي وقت طويل حتى تشرق شمس الاشتراكية على كل شعوب

Twitter: @ketab_n

روسيا وعلى شطري أذربيجان، البولشفية في الطريق إلى النصر، الرجلان يعملان في كل أنحاء العالم، رغم القوى الرجعية والتحزبات القومية والاسلامية، الداعية لنصرة العثمانيين أو الأنضمام إليهم.

لكننا، يارفاقي، نستبق الزمن قليلاً وربما المكان كذلك، فصبلاخ اليوم تشهد إحدى النتائج المروعة لهذه الحرب القذرة. وقد أخذت مظاهر الجوع تبدو واضحة في بلدتنا البائسة. إن الناس جياع. دكاكين الطعام فارغة. والشحوب يصبغ الوجوه، وعظام الناس تبرز بوقاحة بعد أن ذاب الشحم واللحم. إن كثيرًا من أهالي صبلاخ يترنحون في مشيتهم كالسكارى!

قننوا ما لديكم من طعام، أُخرجوا وابحثوا عن الطعام خارج صبلاخ واجمعوا منه ما استطعتم أن تجمعوه مهما عز ومهما بذلتم فيه من المال. إن مالنا مال واحد وطعامنا طعام واحد، وعلينا إغاثة الملهوفين والفقراء ومن حرمتهم الحرب من إشباع البطون.

لقد أثبتنا، كما قلت، انتصار تظافر الجماهير على تعطش الدخلاء إلى الدماء، فلنواجه الآن عدونا الأكبر... الجوع! ولنكبح جماح بعبعه المتحفز قدر المستطاع. والنصر أولاً وآخرا للشعوب!

* * *

وتتجاذب حسن بوزورك نزعتان. ويمزقه همان. إن الوصول إلى الماس و«حل تكتها» أصبح الآن أسهل بكثير. لكن الذي يزداد عسرًا وصعوبة هو الصمود بوجه الجوع الظالم. هيهات. لقد تغير. أصبح يعرف أن هذه الصناديق المكتنزة بالذهب المكدس، عاجزة أشد العجز عن الإتيان بالرغيف. لقد أصبح يشعر بالوهن. ذهبت أيام كان يتجشأ فيها تخمة. كانت التخمة من مظاهر ومقومات دلاله وتغنجه. كان يتجشأ ثم يخرج لغزواته. الآن أخذ بطنه يصفر ويقرقر فلعل من حسن الحظ أن الخروج إلى ضواحي المدينة غدا محظورًا عليه، وفكر فيما تفعله الأخوات في خدرهن. لا ريب في أنهن يكتمن جوع البطن كما يكتمن الجوع إلى الرجال. أو ربما أصبحن يتهامسن بالحرمانين. فإذا كان الرجال خطرًا في عرف هذا المجتمع فإن الطعام حق مشروع، والحرمان منه كفر. الحرمان منه

Twitter: @ketab_n

جريمة. وتساءل إن كان «حل تكة» ألماس سيستغرق من أيامه شهراً أو شهرين أو ثلاثة أشهر، فهل سيعيش حتى ذلك الحين، ولو عاش وذلّل كل العقبات إلى فرجها، وستكون حتماً أوّل فتاة ينالها في اليقظة وليس في أحلامه، فهل سيمكّنه الخور والوهن من اقتحامها فيعود مكللاً بالنصر و الظفر وكبرياء الرجولة، أم أن تجربته الحقيقية الأولى ستُحبَط أمام سلطان الجوع الظالم؟!

لا! إن على أبيه أن يجد حلاً. أقنعه بأن الذهب يأتي بحليب العصافير وحتى بالقمر، وها بهذا الذهب متراكم كالتراب، وفي قيمة هذا التراب، لأنه أعجز عن أن يأتي بكسرة خبز جافة أو حتى بقشرة بصلة، ولأول مرة في حياته تمرد على هذا الأب. لأول مرة أخذ يشعر بأنه كان مخدوعاً، وأن الحقائق التي كانت قد بدأت تأتيه على دفعات أخذت تتكشف أمامه بمعظمها، ولولا أنانيته، لولا جوعه، ولولا حلمه بالاستحواذ على ألماس، لولا حبه لأخواته، ولأمه، لما أفضت له هذه الحقائق بذاتها. أبي! هل ترى هذا اليهودي شلومو كتاني، جارنا؟ إنه أحكم حكماء الدنيا. لقد كدّس الطعام حتى دعاه بعض الناس مجنونا، أما هو فقد دعا هؤلاء الناس إلى أن يقتدوا به، فمن استجاب لدعوته، يجلس الآن متكئا ببيته يسنده الطعام لا يخشى جوعاً أو هزالاً، أو جفاف المعدة حتى الموت. ومن دعاه مجنوناً، من آمن بقوة الذهب السحرية، يتضور الآن جوعاً ويجابه خطر الموت.

إعترف يا أبي بأننا نحن المجانين! ومع ذلك فربما لم يفت الوقت بعد. خذ عربتك. خذ صرر ذهبك، وافتدينا بمالك! إمض جنوباً إلى اصفهان، أو شرقاً إلى طهران لو استطعت. واستبدل هذا المعدن الأصفر التافه بقوت الحياة..! هيا يا أبي، من أجل بناتك وأمي، ولأجلك وأجلي. الرغيف بعشرة أضعافه؟! وماذا يهم؟! أفلا تتبصر يا أبي، مثلي، وتظلّ سادراً في هذا الجنون؟! أستحلفك الله في أمي وباري وجهان ودنيا وعالم. بنا نحن. إمض وهات لنا الطعام. وإلا فلسنا أغنياء يا أبي بل فقراء يقتلهم الجوع!

إمتثل بعد تردد. رأى الزهور اليانعة في مراحل الذبول. رقّ قلبه. شفقته علينا وعلى ذاته غلبت ثقته بالمال وحبه الشديد له. غاب أسبوعاً لم تفارقه خلاله دعواتنا. ولما عاد، عاد بعربة نصف خالية، عدة عدول وصفائح، لا تشفي من الجوع القاتل غليلاً،

Twitter: @ketab_n

- ما هذا؟

زفر زفرة كاد لهيبها يحرق العربة بما فيها، كان متذمرًا. منهكًا، متعبًا، جائعًا.

- عدتُ بعربة مطنبة لا تكاد الجياد تقوى على سحبها، فاغتصب المحتلون في مدخل البلدة معظمها ولم يتركوا لنا غير هذا!

قالت أمي مغضبة،

- كنا نستقبلهم بالزغاريد وهاهم يغتصبون طعامنا ويقتلوننا جوعًا. فما الفرق بينهم وبين الروس إذن؟

قال أبي،

- أولئك يقتلوننا بالرصاص وهؤلاء يسلبون قوتنا، ألا لعنة الله على الطرفين.

قلتُ بأسى،

- لو اقتصدنا فسيكفينا هذا شهرًا أو شهرين.

وخطرت لي خاطرة فطرحتها عليه في الحال،

- لمَ لا تعيد الكرة قبل فوات الأوان؟!

فقال،

- وما الفائدة؟ سينفد كل ما لدينا من مال، ثم يحظى «بالهريسة» العثمانيون والألمان!

ترى هل سنقهر الجوع في النهاية، وأخوض التجربة مع الماس بكفاءة الفحول من الرجال؟

اللعنة على الجوع وجالبي الجوع!

* * *

وواصل الزمن حديثه وهو يلهث.

في وضح النهار، وعلى مرأى من الناس في صبلاخ، طرق عدد من أعوان مرتضى حاجي زاده بابه، وكان لهاثهم يفوق لهاثي. لقد عادوا من معركة. أدخلهم مرتضى بلا تكتم أو سرية، لقد ولى عهد الحذر والتكتم، وحتى كول كانت الان ترى وتسمع كل شيء بحرية. توسمتْ في طلعة الصعاليك شرًا مستطيرًا. أما مرتضى فكان كنبي يتكهن بوقوع هذا الشر ولكن أي شر هذا يا ترى؟ وفي الغرفة وطلعته عبوسة مكفهرة سألهم بصرامة،

Twitter: @ketab_n

- تكلموا! ماذا فعل وليّ النذل هذه المرة؟!
قال أحد الأعوان الصعاليك،
- حاول أعوانه إضرام النار في بعض حقولك وبساتينك!
وقال آخر،
- أتت النار على مزرعة قمح واحدة وأفلحنا في إخماد النار بباقي المزارع والبساتين.
وقال الثالث،
- قتلنا أربعة من أعوانه، وأُصيب اثنان منا بجروح!
أطرق مرتضى حاجي زادة طويلاً ثم رفع رأسه وغمغم،
- أحمق مجنون! فمن كانت جدرانه من الزجاج لا يقذف الناس بالحجارة! وأنتم تعرفون أن بوسعنا أن نرد عليه الصاع بعشرة ولن يكلفنا ذلك غير القليل من النفط وبعض عيدان الثقاب، لكننا أعقل وأذكى منه لذا سننتظر اللحظة المؤاتية لنشعلها حرباً نذيقه فيها ما يلقاه أهل صبلاخ من حرب الروس والأتراك. والآن إلى الطعام والشراب!
وتوجه إلى صندوق خشبي أحدب الظهركبير الحجم ففتحه وأخذ يخرج منه صرر الذهب وينثرها على أعوانه قائلاً،
- أعرف أن بوسعكم الحصول على الطعام لو توجهتم جنوبًا أو شرقًا وأن ما يعوزكم هو الذهب. فتقاسموا هذا المال فيما بينكم وتمتعوا بالطعام، بعد أن نفدت لديكم مؤونة «يوم الحريق.» إن هذا المال سيكفيكم وأصحابكم الطعام طوال أيام الضيق والمجاعة، وحتى تحين لحظة المواجهة وهي قريبة بإذن الله. وهذه صرة كاملة لعميدكم ليث الجبل وأخرى لنائبه، واقصدوني كلما دعت الحاجة فأنتم تستحقون كل خير. إنما كونوا لأعدائكم في المرصاد، وأحبطوا مكائدهم، وردوا سهام أخي إلى نحره وليكن الله في عوننا.
وتركهم يأكلون بنهم، مزبدين، مصدرين من أفواههم أصواتًا همجية وهمهمات كهمهمات حيوانات متضورة جوعًا، ومضى مع أفكاره الحاقدة المسمومة.
آثار السياط على ظهري لم تزل، قد ضربني بها أحط خلق الله، ما زالت ترسم

Twitter: @ketab_n

هناك أشرطة من الندبات. تغوص عميقًا في أغوار كبريائي فتحفر الهوة التي لا يردمها غير لحمك العفن يا ولي! لقد أرغمتني على الركوع ولا أركع لغير ربي، وصيرتني حصانًا وحمارًا، وقد خلق الله سبحانه الإنسان على شاكلته، فكفرت بربك وأهنت كرامة الإنسان. ولقد أصبتك بطعنة في صميمك إذ عرفت أنك تعبد المال والجاه من دونه تعالى، فتحرق لي حقلاً أو بستانًا لا يضاهي مترًا واحدًا من مخزنك المخنوق بالسلع والطعام؟! احرقته فأحرقتُ قلبك، ولم أُسيء إلى جياع صبلاخ إذ عرفتُ حين جعلتُ كل ما احتكرته يا ولي، هباء منثورًا، إنك كنتَ يا أوْغد المخلوقات تدخر ما أصبح بفضلي رمادًا كقلبك، لأثرياء صبلاخ، لتمتص منهم آخر قطعة من ذهبهم ولكي تلحقهم بأفواج الجياع ليموتوا معهم في النهاية. أحبطتُ حلمك ولسوف أُحبط كل ما تبقى من خيالاتك الرجسة حين تحين ساعة الحساب الحقيقية، ساعة ستلقي بك وبأعوانك إلى أحضان منكر ونكير، يقذفان بكم جميعًا إلى الجحيم بإذنه تعالى. فلتتنته إذن حرب الغرباء، ولنبدأ على رؤوس الأشهاد، حربنا نحن اللذين يسموننا بالأخوة، ونحن أشد بعدًا من بعد الروس عن العثمانيين. ورفع رأسه وتساءل بصوت مرتفع،

- أليس كذلك أيها الرفاق.

ارتبك «الرفاق» فوضعوا الطعام عن أيديهم وتساءلوا ماضغين ما في أفواههم منه،

- ماذا أيها السيد؟

فقال بإصرار،

- أن الغلبة ستكون لنا وليس لولي الظالم اللعين.

هتف الكل بصوت واحد،

- بعون الله يا سيدي! ولن ينجو الظالمون ممن يرتدون بسببهم الأسمال ويبيتون على الطوى!

لم يكن كلام هؤلاء الصعاليك ليختلف عن كلام حسن جاقماق وأعوانه ولم يكن نهج تطبيقه ليتغاير أيضًا مقدار شعرة، ومع ذلك فإن مرتضى وأعوانه كانوا يخوضون حربًا شخصية، أما جاقماق وأعوانه فكانوا يعتقدون أنهم يحاربون من

Twitter: @ketab_n

أجل العموم. فروسيا، وأذربيجان من ضمنها، ستكون لها أرجل أخطبوط ستلتف حول العالم لتطوعه لتعاليمها، تعاليم «الخير» الصادقة.

* * *

كان اسمه ناجي باريزات، وجدته مرتديًا ثياب امرأة بدوية، منطرحًا عند باب الكنيس وكأنه ينازع الرمق الأخير. أحمر الشعر ومنمّش الوجه، صبي في نحو السادسة عشرة من عمره. كلمته بكل ما أعرف من لغات فكلمني بلهجة يهود بغداد. يومئذ لم أكن أعرف كلمة واحدة من العربية. فتحت باب الكنيس وأنا أتلفت حولي، وحين لم أجد أحدا غريبًا، أدخلته. أومأ لي بالإشارة بأنه ظامىء وجائع. سقيته وأطعمته مما كان متوفرًا في خزانة الكنيس. واجتمع المصلون. وكان يونا أغاسي قد أقام في بغداد فترة وأجاد كلام يهودها. ترجم لنا ما قاله الفتى اليهودي البغدادي. كان ما قاله مؤلمًا، بيد أن رائحة الأمل فاحت من وراء الكلمات. قال إن العثمانيين ببغداد شرعوا يجندون الطلاب من المدارس بعد أن نفد احتياطي الكبار. وإنهم يحاربون الإنكليز في الجنوب، وإن الإنكليز يقتربون من بغداد بخطا حثيثة. أما الذين يرحِّلونهم إلى الشمال، فإنهم يقطعون المسافات الشاسعة إلى الجبهة سيرًا على الأقدام، سواء في البرد القارس أو الحر الملتهب. وقد أفلح كثيرون في الفرار والعودة، أما الذين لا يجدون سبيلاً إلى ذلك فإن العثمانيين يستخدمونهم درعًا بشريًا حيًا يقي جيوشهم من نيران الروس. إنهم يسيّرونهم أمامهم في المقدمة، فيبادون عن بكرة أبيهم. تظاهر ناجي باريزات بالموت وسقط مع مئات الساقطين عند أبواب البلدة. ولما ابتعد الجيش العثماني نهض واستبدل ثيابه بهذه الثياب. كان قد حصل عليها وهم بعد في العراق. حاول أن يهرب حين تتاح له الفرصة فيرتديها ويعود أدراجه إلى بغداد. لكن الفرصة لم تواته. ولم يحالفه الحظ. كانت عيون قادته تتربص به وتترصده. أهرى السير المتواصل قدميه، وقتلته تقلبات الطقس فمن برد صاقع إلى شمس ملتهبة. ولم ينله نصيب من طعام أو شراب. كان العثمانيون يسرقون كل ما يؤكل في طريق مرورهم بالضياع والبلدان والحقول والبساتين. تسكع وحيدًا على مشارف صبلاخ مختفياً عن أعين القوات المحتلة. أكل بعض الثمار

Twitter: @ketab_n

من البساتين القريبة، واضطر في أحيان أخرى إلى أكل ما ترعاه البهائم. حالفه الحظ أخيرًا في الوصول إلى صبلاخ، بعد أن أفلت مرارًا من رصاص الجيش. كان مقطوع اللسان، لا يعرف لغة القوم. والحديث بالإشارة يمكن أن يعرضه للخطر. تسكع مخفيًا ذاته عن الأنظار، حتى رأى العنوان العبري على واجهة الكنيس. ابتعد عنه متسترًا بالظلام وبكل وسيلة ممكنة، ثم جاءه بالصباح الباكر، خائر القوى. تحامل على نفسه حتى وصل الباب، وارتمى عنده مستفرغ الطاقة تمامًا. ووجدته في الرمق الأخير ينازع الموت على عتبة باب الله الذي يأتيه الأبرار والأتقياء!

همومي تصاعدت، بيد أن مثقب الأمل حفر في قلبها ثقبًا نفذ منه شعاع ضعيف من النور. فكرت في ضم الفتى البغدادي اليهودي إلى رهط المجتمعين في بيتي، بيد أن حاجز اللغة حاجز لا تهدمه إلا معاول تضربها سواعد قوية. وقد وهنت سواعدنا، فاخترتُ من ذللّ هذا الحاجز من قبل. يونا أغاسي، أنت والعجوز في البيت وحدكما. وبوسع لسانك أن يخاطب هذا الفتى البغدادي وأذنيك أن تفهماه. فخذه إلى بيتك وسأتكفل بمعيشته ومعيشتك ومعيشة العجوز.

نعم، شح الطعام في البلدة وفي بيتك، لكن بيتي ما زال ممتلئًا بالخيرات، وبفضل ناجي باريزات أو حتى بدون ذلك سينالك وعجوزك من هذا الخير نصيب! وعدتُ للبيت أحمل أخبارًا تفوح منها رائحة الأمل «الحرب تقترب من نهايتها!» أحقًا؟!

وبالطبع تسرعتُ. فقد كان علينا، قبل أن نبلغ شاطيء الأمان، أن نخوض بحارًا أخرى من الدم والرعب القاتل.. وفظائع يشيب لها الطفل في مهده.

* * *

كان الطعام في بيت بوزورك يتقلص، كل يوم كان يقل. وبخلاف الذهب الذي أصبح في رخص التراب، استحال الطعام إلى عملة نادرة ينبغي المحافظة عليها ومعاملتها بالرفق واللين والحذر! وحسن بوزورك يستبق القدر ويحاول الاقتراب من ألماس. إنه لن يتجشأ مبنودًا بالطعام بعد الآن. وهو مع ذلك يريد امرأة. وقد غاب كل إناث صبلاخ عن عينيه ولم تبق غير ألماس. يأتيها مرتديًا الظلام، يراقبها

Twitter: @ketab_n

وهي تلتهم طعام شلومو اليهودي بنهم شديد. ألاَ ينفد الطعام في بيت هذا اليهودي؟ وكيف ينفد وأهالي البلدة يعرفون أنه أفنى خزينة من الذهب مقابل مخازنه من الطعام؟ أفلم يسمه البعض مجنونًا واتهمه آخرون باحتكار الطعام؟ وهاهو ذا يبذله بالمجان. في بيته أسرتان متراميتان، وعوائل خارج بيته يبذل لها هذه المؤن بسخاء، خسِيء الذي اتهمه بادخار الغذاء لبيعه وقت الحاجة بعشرة أضعاف تكلفته! ها هي ألماس تأكل اليوم من طعامه وهي في الأرجح لا تدري. وفكّر وهو منها في حذر وتوجس، بأن يطرق الباب على شلومو كتاني ويقول له «نحن جياع فأعطنا من مخازنك طعامًا يبقينا على قيد الحياة وخذ من مالنا ما تشاء!» وفي الأرجح أن شلومو كتاني سيستجيب فيعطيه الطعام، لكنه حتمًا سيرفض أن يأخذ المال. إذن، سيكون هذا استجداءً بالتأكيد. ومنعته أنفته من أن يستجدي الطعام.

وقال: يجب أن أحل تكتها قبل نفاد ما جاء به أبي من طعام قليل، وكان عليه أولاً أن يكسب ثقتها. وأن يجعلها لا تخافه، بل وتطمئن إليه، ولو استطاع أن يفوز بودها فذاك عزّ الطلب. وكان يجيد فنّ التقرب من المرأة بيد أن وضع ألماس كان محبطًا، أفكان غرورها لا يزال يختبيء تحت هذه اللجة المقيمة من الذعر المزمن؟! أم قد مضى ذهولها شبه الهاديء على كل ما كان بها من عجرفة وتعال؟! إنه يقترب منها شيئًا فشيئًا وهو يطلق همسًا يفتت الصخر وكلاماً يحيل الصلد ماءً زلالاً يتدفق من شلال رقراق، نبرته تلقي في روعها الطمأنينة. إن وجوده بقربها سينسيها وقع الصدمة المدمرة طوال لحظات حضوره، وسيرمم بداخلها، ربما لأجل مسمىً، هذا الحطام المشابه لحطام بيتها، همساته إليها كهمس الندى للزهور. يقترب وهو يهمس. تبتعد عنه كحيوان غير أليف.. لا، لا تهربي يا ببغائي الجميلة! ها بالجدار يصدك كما تصدّ جدران القفص، الطائر الغريد. سأروضك كما يُرَوَّض الحصان الوحشي. يومًا بعد يوم. ستألفين همسي ورقة كلماتي، وعذوبة أنفاسي على جيدك. ويومًا بعد يوم، يبر بوعده. لا ييأس لكنه يسابق القدر، ونفاد الطعام، والهدف من كل هذا تكتها! الهدف، تكتها! بعد أسبوع من الترويض الشاق تآلف صوته، ثم أخذت همساته تخدّرها حتى

Twitter: @ketab_n

أنها أصبحت تبدد عنها هذا الذعر الهائل. إنها ما عادت ترتد حتى يوقفها حاجز الحائط. إقترب منها، كان محرورًا متلهفًا. في الظلام يقترب. تمغنطها نبرته الرقيقة. هذه النبرة، ما أشبهها بالتنويمة، تصرع خوفها وتجعله يغط في سبات. إنها ما عادت تكعّ كالحصان الجافل. وفي شبه الظلام خيّل له أن على وجهها طيف ابتسامة تشق أشباح العتمة وتأتيه كخيط من شعاع تبثه طلعتها. بيد أنه ما أن مدّ يده إليها وحاول لمسها حتى عاد الرعب واستيقظ فيها. تراجعتْ عنه. لم تصرخ لكنها عادت وانحشرت بالحائط. لا! لا تخافي يا ألماس! فأنا لا أنوي أن أؤذيك! كم كان بودي أن أُعيد أباك لك، لكن الله اختاره لجواره. ونحن بشر يا ألماس، لا نملك أن نفعل شيئًا أمام القدر وإرادة الله. والموت!

وتساءل «أتراها ما كانت ستعود لغرورها وخيلائها لو حظيت ثانية بذلك الأب؟!» الرجل الوحيد الذي أحبته، وأحس برأفة شديدة تنتابه. «صحيح أني أعبد النساء، والمرأة نقطة ضعفي، لكني إنسان، وكنتُ أفضل أن تبقى ألماس على تيهها وعجرفتها مع والدها، على أن أحل تكتها وهي يتيمة، وشبه مجنونة، وتحيا بعد ذلك العز في خرافة» وكان يريد أن يقول خرابة، فقال خرافة، ولم يجاوز الحقيقة في الواقع، وازداد عاطفة إليها. وكان شبه متأكد من أن ملامستها ستجود عليها بلحظات من السعادة، سعادة، ربما تكون غامضة ومبهمة بيد أنها ستطيب لها دون شك، وستنسيها حزنها الدفين قليلاً. وستقصم ظهر هلعها هذا المستحوذ اللعين، وقال لها بهمس حنون «سآتيك غدًا يا حبيبتي» وطرقه سؤال أخر محيّر «أتراها ما زالت تدرك فحوى الكلمات؟!» أجل. غدًا موعدنا يا حبيبتي! وانتظر اليوم التالي بنفاد صبر، كي يأتي فرسه الجميلة النافرة. ببغاءه السجينة في قفص الخوف العارم، ولم يعد ينتظر خوض التجربة الشهْدية لأجله بقدر ما يريد أن يخوضها من أجلها هي. فيقينًا إنها ستستمتع. أفلا تستمتع الحيوانات والطيور وحتى الحشرات والهوام حين تخوض هذه التجربة؟! حتى المخلوقات الأكثر انحطاطًا تلتذ بهذا ولا عقول لها! وتجشأ، دون أن يشبع، وسار إليها مجازفًا لأول مرة باصطحابه علبة ثقاب. وأشعل عودًا أمامها فارتعبت. ثم سمعت صوته ونبرته فساورها الهدوء. واقترب منها وقد لسع عود الثقاب أصبعه، فندّت

Twitter: @ketab_n

عنه آهة ألم كتمها خوف الافتضاح، وأشعل عودًا آخر وهو لا يكف عن صب كلماته الرقيقة في أرجاء روحها. وفي النور الشاحب شاهد طيف الابتسامة الشاحبة. هذا النور على طلعتها. واقترب منها. لم تهرب ولم تتراجع. الفرس النافرة بدأت تطمئن إليه. وضع يده على كتفها فاختلج جسمها لكنها لم تنفر. ظلت جامدة كتمثال، وأحس بصعود صدرها وهبوطه. بل حتى دقات قلبها تناهت إلى يده. وظل يهمس.. كلمات كالسحر. كلمات محبّة.. كلمات قريبة جدًا من العشق. حسن بوزورك! أتعطف على هذه المسكينة أم بدأت تحبها؟! و قد كنتَ بدأت بالغلمة البهيمية وحدها؟ كلا. لن تكون الغلمة الآن بهيمية، رغم أنها تجربتك الأولى الحقيقية. إنك ستكرسها لها، تجربتك الأولى هذه وستضع فيها حبك وعاطفتك، وشوقك إلى أن تراها تتعالى على كل هذا العذاب المعتلج في كيانها. ولكي تحلّق هي، من قبلك، على جناح النشوة في لحظات من نسيان الواقع الكابوس! مجرد لحظات! وإذن، فالغد موعدنا يا حبيبتي! حبيبتي! أحس بأنه يقولها بصدق وحرارة. وعاد ينتظر الغد. حياته في الآونة الأخيرة أضحت إنتظاراً وتقرباً من ألماس. حياته، الآن، صراع، سباق مع الجوع والحب، فعجل! فالوقت ليس بصالحك يمضي، الأكل ينفد بسرعة وهناك أمور لا متوقعة بخلاف الجوع!

وإذ بدأ يعابث جسم ألماس وهي مطمئنة إليه مستسلمة له، ناسية خوفها ونفورها، شعر هو بهذا الجسد الذي كان يتلفع برداء غرور يصدّ عنه كل قاصد. كان لدنًا نضرًا، رجراجًا. وأخذ بيدها. كانت مطواعة الآن. سارت معه إلى غرفتها وهي ممتثلة. غرفة لم يهدمها زلزال العدوان. أنامها على السرير فأطاعت ممتثلة على ضوء شمعة. كان يخشى أن يشي هذا النور الخافت بهما. لكن خوفه هذا تبدد إذ شم في ثياب الماس وبدنها رائحة عرق وسهوكة. يطعمونك إذن ولا يهتمون بنظافتك! ووجد ما يبرر هذا، إذ لم يكن لهم في جسدها بغية.. وربما حاولت خادمتهم أن تنظفها ففرت منها مذعورة وأصرت على الرفض. مسكينة، كيف تحتملين الرائحة القذرة هذه فيك، وقد كان عطر بدنك يفوح بشذاه حتى يملأ الشارع كله؟! إني سأغير لك الآن ثيابك، وغدًا سأسخن لنا الماء، فغدًا سنستحم

Twitter: @ketab_n

معًا تحت ستار من شبه ظلام. واستغرب كونها تتشبث به بقوة وهما معًا على السرير. ولم يشعر بالفخر بنفسه ولا الاعتداد لكن عواطفه نحوها تعالت كلهب رووه بالنفط. وقال لنفسه «ربما تحقق المستحيل!» وداهمته أفكار إنسانية محضة حتى نسي أنه مقدم على خوض أول تجربة حقيقية له، وكانت هي التي ذكرته بذلك. أجل. لقد حقق المستحيل، وما سيفعله الآن، سيكون من أجلها أولاً.

إن الماس تنسى ذعرها وتطوقه. إنها على سريرها، تعود فتاة عاقلة سوية، ولكن من دون كبرياء ولا غرور. إنها تلتصق به التصاقة من يريد اللجوء إلى لحمه فكأنها تبغي أن تتلاشى فيه، في جسمه، وأن تنصهر إلى شيء تتشبع به كل مساماته. وإذ كان يصب ماءه في جوفها وليس بين يديه كما اعتاد أن يفعل حتى الآن، كان يراها في ذروة النشوة والسعادة، فتمتزج فيه نشوتان، نشوته الجنسية ونشوة عطاء حقيقي. أيقن أنه كان يهبها شيئًا من ذاته، ودليل ذلك أنها ظلت متشبثة به، حركاتها تدل على أنها تطالبه بالمزيد، وثمة دليل آخر هو أن وجهها اصطبغ بوداعة وراحة ولذة لعله الوحيد الذي لم يُحرم من رؤيتها، مذ حلّ الهلع على هذه الطلعة الجميلة، ولما هدأت ومسح عنها السوائل المختلطة وألبسها ثيابًا نظيفة وجدها بخزانتها، قبلها بصدق وإخلاص. لقد كانا يعيشان عوالم بعيدة عن دنيا الحقيقة - الكابوس. هي، تحررت من رعبها مؤقتًا وهو نسي الجوع وكل ما أصبح الآن يثقل على قلبه من هموم الدنيا. همس بصوت خافت «سآتيك غدًا وسنستحم معًا..» وكان على يقين كامل من أنه سيبذر في رحمها النظيفة من قبل أن ينفد الطعام وتستجد أمور غير متوقعة.

* * *

هنا، في هذا الموضع، دائمًا يربدّ وجهك يا أبا سلمان. بسمتك، هذه الصغيرة الساخرة من كل ما في الدنيا تذوب تمامًا عند هذه النقطة. إنك تقلب صفحات كتاب الذاكرة. كتاب ضخم يحنو عليه رأسك. تضيق به. تضغط على أنفاسك، حين تتوقف عند صفحة معينة، تشع الكلمات أحيانًا بالهول، بالدم أحيانًا، وأحيانًا بالفجيعة، أحيانًا بكل هذا، وأحيانًا تغدو كالمطارق، تنهال على كيانك كله، وأحيانًا كمعاين تتفتق عن أشياء رهيبة، وهل في حرب صبلاخ شيء غير

Twitter: @ketab_n

مضمخ بالأهوال والرهبة، ولم يصطبغ بالدم، ولم تكسه الفجائع بثياب حدادها السوداء؟!، أتساءل وأنا أسمعك تروي كل هذا، من أين واتاك كل هذا الإحتمال؟!، هذا الجسم الفارع الذي ناء بأعباء الدنيا، كيف لم ينقصم؟! فتقول أنت بفخر واعتزاز. «أنا شلومو الكردي! كردي عنيد أنا، صلب كجبال كردستان، قاس كأشجار أذربيجان»، لكنك إنسان مؤمن، متدين، مفعم بالعواطف الخيرة، بكيت بعد بلوغك الرشد مرتين، فاستغرب كيف جمعت بين النقيضين؟! فتتنهد وتمضي في روايتك، تكررها، متقطعة، على أسماعي عشرات المرات، كأنك بالفعل تقرأ من كتاب مطبوع، لا تغيّر ولا تبدّل، لكنك هنا، تكفهر. الحزن الكامن في الأحشاء يصعد إلى الوجه فجأة، البسمة تزول، يحل محلها الشحوب. الكلمات متجبجبة، مقتضبة، لكنها تعبّر عن كل شيء. إسمح لي إذن، بأن أُقيلك كلما عثرت في هذه الطريق الوعرة المنتشرة فيها الحفر والعقبات والمصائد.

في ذلك اليوم، تأخرت في الكنيس، أول الشهر، نشرنا سفر التوراة وقرأنا فيه، وتلونا أيضًا صلاة الراحة على أمواتنا. كم يزداد عدد أموات طائفة صبلاخ الصغيرة!

خرج المصلون، وبقيت وحدي أُسجل ميزانية الشهر الماضي من مدخولات ونفقات، مدخولات الكنيس من التبرعات لم تتلاءم مع نفقاته. أمر يحدث أحيانًا. وأمامي كل وقت الدنيا. مر زمن، لم نذهب فيه، أنا ومير إلى «الحجرة» مكتبنا التجاري. نفقت تجارة الصيني والثياب والتحف! والناس تنقب عن الطعام، تنقيبها عن معدن ثمين. وتبحث عنه في وضح النهار، بالشموع الموقدة. مير يجلس في البيت مع النسوة. يلاعب الأولاد ويتحدث مع والديه وفاطمة، وأنا هنا أبحث عن الغلطة. شيء عادي، أحمل هموم صبلاخ وأبحث عن الغلطة، لا أقرأ تفاصيل الغيب، لكنني أعرف أن الكوارث لم تنفد من جراب هذا الغيب الحاوي بعد. فإن الحرب المفروضة علينا ما زالت تطالب بالمزيد من أرواحنا، وراحة بالنا. وهمومي أخذت تبلّد حواسي، وتنفث آهاتها المشبعة بأبخرة الحزن على مرآة روحي فتعكر شفافيتها وتكدرها. إني متعب. مرهق مما يجري، أحمل الضحايا على كاهلي رغمًا عن أنفي. أبتهل كل يوم وأنا أدخل الكنيس وأنا

Twitter: @ketab_n

أغادره إلى الله سبحانه أن يكف عنا هذه اللعنة. أفعل هذا ويفعله معي سائر أبناء صبلاخ، ولا جدوى. كانت إرادة الله تقضي باستمرار اللعنة في صبلاخ، وقضت إرادته أيضًا أن أبحث ساعة وبعض الساعة عن الغلطة. ولم أكن أعرف أن الغلطة في الميزانية اليوم تختلف عن غيرها من الغلطات. سحبت سلسلة الساعة فانبرت من جيبي وأصبحت في يدي. ما هذا؟ الوقت يسير حثيثًا نحو الظهيرة، لا شك أن أهل البيت قد جنّوا قلقًا عليّ. وأن مير، قد نفد صبره من جلوسه وحده بين الأولاد والنسوة.

عجلّتُ. لم أفكر بشيء سوى الوصول إلى البيت، فتحت الباب. كان الكل في انتظاري، هرع سلمان وصيون ومريم إلى أحضاني تاركين أولاد مير، في صحن الدار. تشبثوا بي، ولكن أين ناحوم؟ أين الصغيرة إستير وهي تدرج متعثرة وراء الأولاد لترتمي معهم في أحضاني؟ ولماذا أسأل وعيناي تبحثان في لهفة وقلق؟! تركت الأولاد وعدوت إلى غرفة إستير. الغرفة خاوية بلقع، وفجأة اعتراني إحساس غريب. كأنني كنت نائمًا ثم هببت مفزوعًا من نومي. كأن مارجًا من جان تلبسني ومضى يشحنني بجنونه. خرجت من غرفتها، أصرخ،

- أين إستير؟ أين ناحوم؟ أين إستير الصغيرة؟

تلعثمت قشنك، إقتربت وكأنها تقترب من فوهة بركان يقذف حممه،

- خرجت يا سيدي!

صحت وقد طار نصف صوابي،

- متى وإلى أين؟

فتدخل مير علي صائحًا،

- ماذا جرى يا شلومو؟ ألم تخرج أنت؟! ألاَ يخرج الناس؟

فكررت بنصف وعي، وكأني لم أسمع مير،

- ردي يا قشنك! متى خرجت سيدتك وإلى أين ذهبت؟!

فقالت المسكينة بصوت قطّعه الخوف،

- إرتدت ثيابها بعد خروجك في الصباح، بساعتين، وقالت: ما عدت أطيق الإحتباس في البيت. سآخذ الولدين وأخرج لأشم الهواء..!

Twitter: @ketab_n

وخزني قلبي. تذكرت المرأة النذير، لا بل عاد إلى قلبي شيء من شفافيته فوخزني. ربما هذا هو التوتر. ربما الوهم الناجم عن الفظائع المزروعة في كل مكان. ماعتم كاهلي يشعر بوطأة جثث الأبرياء، حاخام ناحوم.. !ترى أين أنت الآن يا فلذة كبدي، يا سميه ناحوم؟! وأجزمت وقلبي يعتصرني.

- سأخرج الآن للبحث عنهم!

فقال أكثر من صوت،

- كل ثم أخرُج!

صمتُ،

- بل سأخرج في الحال!

فقال مير،

- إذن رجلي على رجلك!

فقالت أسمر بتوسل، كالعادة،

- إذن كُلا واخرجا،

فرددتُ عليها وقد أخذت أَفقد صوابي،

- قلتُ سأخرج الآن وسأخرج. أما مير فإن كان يريد الإستغناء عن طعامه فليأت معي، أما أنتم فكلوا كلكم ولا تنتظروا عودتنا.

خرجنا. مير علي وأنا. وكان وجهه يحدِّجني بدهشة واستغراب. لم يرني يومًا بمثل هذا الجزع. عهده بي أنني صلب كالسنديانة. فقدت ثلثي عقلي ونحن خارج الدار. ضللت هدفي حتى اضطر أن يسألني عن وجهتنا. جمعت شتات عقلي وحاولت أن أُنظم تفكيري. وفجأة قررتُ أن نقصد أهلها أولاً. هذا هو الاحتمال الأول. كثيرًا ما تذهب إليهم لو خرجت، وقد حذرتها من البستان ولكن مالي أقدِّم ساقًا وأؤخر أخرى؟! هذا التردد يعني الخوف بلا شك. الخوف من أن يخيب ظني. إذا لم أعثر هناك على إستير والأولاد، فالويل لي والويل لحياتي ومستقبلي. سألني مير عما دهاني فقلت له إنه هاجس مشؤوم أخذ ينهش بكياني منذ وصولي إلى البيت واكتشافي أن إستير قد خرجت ومعها الأولاد. اتهمني شريكي بالجنون. ولما وصلنا إلى بيت متتياهو جونه ولم نجد ابنته وأحفاده هناك، غدت

Twitter: @ketab_n

تهمة مير لي، حقيقة مطلقة. قلق أبوها لكنه حاول مع مير تهدئتي. قال،

- سأخرج معكما للبحث عنها وعن الأولاد.

أما أُمها فقالت بعدم اكتراث ذكرني بها.. بإستير الحمقاء.

- ماذا جرى لكم، الاحتباس بالبيت كتم لها أنفاسها، فخرجت تتنزه مع الأولاد. وأكيد أنها قد عادت الآن إلى البيت، وستجدون الجميع هناك.

لم تسمح لي الظروف بمقارنة الأم بابنتها. واقترح علي الرجلان أن نعود إلى البيت، فلعل إستير والأولاد قد عادوا بالفعل.

اقتراح معقول، بيد أن جزعي يتضخم في أعماقي، المجهول دائمًا في مثل هذه الظروف يترك مع الجزع وميضًا من أمل. وها بالأمل الأول قد تداعى مع عقلي حين لم أجد الأولاد وإستير في بيت جدهم. فماذا لو سقط الإحتمال الثاني كذلك، سيما والوقت يمضي دون أن يرحمنا؟! رضخت، رغم هذا لاقتراحهما وكلي ابتهالة إلى الله. صلاة ترعشها ارتجافة قلبي، دائمًا كنت أعرف أن المكروه لو وقع فلن تمحوه كل صلوات العالم، فهكذا علّمنا فقهاؤنا وحاخامونا، كانت أشياء كثيرة تنفخ في كياني الجنون. وكنت أُحاول أن أحبس هذا الجنون المارد في قمقم، لو وجدتها في البيت فهل أُعاقبها على تعريض حياة الولدين وحياتها للخطر وعلى كل هذه المنغصة النهّاشة في قلبي ومشاعري؟ هل أُسامحها شكرًا للمولى على إعادتهم لي سالمين؟ كم أشتاق إلى عناقك يا ناحوم يا بني؟ وأنت يا صغيرتي إستير، كم أهفو إلى طبع قبلاتي على وجنتيك الموردتين المشوبتين أحيانًا بالوسخ؟! ألا ليت حلمي هذا يتحقق. قد نذرت ألا أعاقبك يا إستير على ما فعلته بي وبأولادك وبكل هذا البيت، لن أعاقبك لو وجدتك هناك الآن. اللهم أشهد على إني نويت أن أفعل هذا، وأن أذكّرها بالخطر الكامن في الخارج وأن أحذرها من الخروج والذهاب إلى...

أجل يا أبا سلمان. ها بوجهك قد أخذ يحتقن وصوتك يختنق. كم مرة تعيش هذه الحكاية؟! أتساءل إن كانت فارقتك في حياتك لحظة؟! وهل تخلتْ عنك ذكريات صبلاخ وأنت في بغداد تنزح مراحيض الإنكليز والهنود، وأنت فيها تاجر تسير أمامه سمعته الحسنة ويحظى باحترام الناس؟ وأنت في الهند تبحث

Twitter: @ketab_n

فيها عما يعيد لك العز الآفل، وأنت في طهران بعد الطرد من بغداد، وأنت فيها قاصداً العودة إلى بغداد لاسترداد أموالك منها، وأنت في رمات كان تمضي فيها شيخوختك ومراحل العمر الأخيرة؟! لا. إنها ذكريات كالوشم المنقوش. كوحمة الولادة، كالخال، أشياء تلازم المرء وترافقه إلى قبره. وما أشد العذاب والألم. فدعني إذن أُغنيك مرة أخرى هبوطك إلى فوهة هذه الذكريات المتلاطمة الحمم والنيران.

نعم، البستان!

أيعقل أنها أخذت الولدين إلى البستان؟! إلى خطر الموت الداهم؟ إلى المحظور، في ظاهر البلدة؟! وتنازعك عاملان، مدمران، الجنون المنطلق من عقاله كالثور الهائج، والهلع المثبط لكل تلك الطاقة المتولدة عن الجنون في جمحته الكبرى. أردت أن تعدو فتداعيت في مكانك، جف الريق، فطلبت الماء. بعد الماء ارتوى الجنون. كدت تقول للرجلين «إسنداني!» قلت لهما في الواقع «أتركاني!» وكانا يمسكان بك خوفا من السقوط. ربما خوفا من أن تنطلق من بندقية جنونك كعيار ناري نحو البستان!

– إلى البستان! لا ريب أن المجنونة ذهبت إلى البستان!

وكعادتها توسلت بك أسمر، لكنها الآن كانت ترتجف خوفا،

– أنت على ريقك منذ الفجر وشريكك لم يتغد، وربما لم يأكل حموك بعد، فتغدوا ثم اذهبوا، فديتك لا تخرج بدون طعام!

قلت بصوت منهزم خائر،

– لن آكل شيئًا حتى أجد أولادي وإستير!

كان خورك يصد اندفاع جنونك وكان جنونك يقيل عنك تداعيك. توازنك في تلك اللحظة، كان من أغرب الأشياء، والرجلان يمسكان بك. خوف انطلاقك، أو خوف تداعيك فسرتم أنتم الثلاثة باتجاه البستان. إنه الإحتمال الأخير، والأمل الأخير، هذه الدروب الخربة الملتوية، شبه المهجورة، في الطريق إلى خارج البلدة، جنود عثمانيون مسلحون يقومون بدوريات عند حدود العمار.

تلك هي البساتين. وذاك هو بستانك يلوح من بعيد.

Twitter: @ketab_n

عند هذا الحد تقاطعني، شاحب الوجه، مكفهرًا، مطرقًا، تتمتم، بهدوء شديد، ثم يخفت صوتك أكثر حتى يغدو همسًا لكنك بنبرة حاسمة تقول،

- هنا تبدأ القصة الحقيقية. لا الزمن ولا أنت يحق لكما روايتها. فما أنتما غير شاهد ومستمع، لا أكثر. أما أنا فصاحب الحق. فأنا من عاش التجربة والمعاناة.

لقد عشت اللحظات ومازلت أعيشها. كعشرات وكمئات اللحظات والساعات التي لم تمت ولم تتحول إلى مجرد ذكريات تُروى. بل هي مواقف أستحضرها فتُبعث في الحال حية تتنفس وتحشرني في أعماقها. وإذا بالماضي يغدو حاضرًا، بكل دقائقه وأحاسيسه وأفكاره وآلامه وعذابه.

وها أنذا أعيش ساعة البستان، مرة تلو مرة، وأمل شاحب يثقب جنوني ووعيي. يحتال على إحساسي الأسود. إحساسي المستيقظ متململاً بين طيات أحمالي وأعبائي وتبلد مشاعري وأحاسيسي المنذرة بالفاجعة. وأنا أكاد أطلق صوتي صارخًا صرخة الجزع مستبقًا الكوارث والفواجع. أأقول مستبقًا الكوارث والفواجع، ولم يبق غيرها مذ أخذ الغرباء يتجاذبوننا من الطرفين؟! بيد أن الأنانية لا حد لها، لذا فالفواجع والكوارث درجات، ورغم أنها متشابهة، رغم أني حملت على كتفي أجسادًا هامدة عزيزة، حبيبة، لم أذرف، في كل ذلك دمعة. عيناي تحولتا إلى نبعين خربين ناضبين ومشاعري إلى رقّة تلطف من اندفاعي وجنوني. الآن، هانحن في أحضان الطبيعة. طبيعة كانت فاتنة الحسن يومًا. البستان رمز العطاء والجمال، يغدو مجاهل تقطنها الأخطار، وتفغر كل خطوة بداخلها في الأعماق هوّة رعب،... ثم تأتي الصرخة المعتوهة...

هي ذي ثلاث خرق بشرية ملقاة تحت شجرة. خرقة كبيرة وخرقتان صغيرتان، كلها مضرجة بالدم، كأنها خرق حيض، الصرخة انطلقت عاتية. أفلتُ من إسار الرجلين، كهبة ريح عاصفة تولول. إنحنيت فوق الخرق الحبيبة! ناحوم! ناحوم! إستير الصغيرة! أُمّكما! هل ما زال في أحد منكم رمق، خلجة حياة، روح؟! رفعت الأيدي ثم حررتها. سقطت، مجرد خرق. إنحنيت أكثر. لاصقتْ أذناي الصدر بعد الصدر وأنا ألهث، لم أسمع شيئًا، لا نبض ولا أنفاس. لماذا أفعل هذا والحناجر كلها منحورة كأعناق السوام؟! صرخاتي توالت. ما عدت، ذلك شلومو

Twitter: @ketab_n

كتاني، من لم يعرف بكاءً منذ بلغت رشدي. نشجت كثكلى لا تقبل العزاء. إختلط دمعي بدماء فلذات كبدي. فجأة، أصبحتُ نادبة تنوح في المأتم... وياله من مأتم!

إلهي! كيف وافقت؟ كيف قبلت؟ ثلاثة أعضاء من بدني، قلبي، كبدي وكليتاي! هل أبقيت لي جنانًا لتشحنه بجروحك؟ أفتحرس نفسي وتفجعني بمن هم أعز من نفسي؟! فما جدوى نفسي من بعد ناحوم وصغيرتي إستير والأم الغريرة الحمقاء؟! ناحوم يا قرّة عيني كيف سأواريك ترابًا يأكلك من تحته الدود؟ كيف وبالأمس كنت تملأ علي الدنيا، وتعدو مع إخوتك نحوي لتلف ساقي، فتزول في تلك اللحظة كل الأعباء من على كتفي. أتحبني يا بابا؟ تسألني بلسانك الغض المتعثر، أفلا ترى عين روحك كيف قتلني حبك الآن وأنت ممدد قدامي لا تنطق، لا تضج، لا تضحك، لا تتحرك؟! أجل يا فلذة كبدي! قد أحببتك. وأحببتك حبين مذ قتلوا سميك الصديق. منذئذ لم تبق مجرد ابن لي، منذئذ كنت أراك أكثر من هذا. كنت أراه فيك فتتسامى روحي، أتعزى وأقول لها، لروحي هذه «لم يمت الحاجام ناحوم، فأستاذي يجسّده ولدي ويقطن في بيتي!» وها قد رحل الإثنان، الرجل الورع الصديق، وسميه الطفل، القطعة من نفسي! ناحوم! صرخة تحاول أن تستلّ روحي لتلحق بالروح الطفلة إلى السماء. وأنت يا إستير الصغيرة البريئة النقية من كل ذنب! ذنبك الوحيد كان فرحة الطفولة في عالم ظالم لا يرحم الطفولة! كنت تحجلين، لم تتقني حتى المشي. لم تعرفي الكلام، فلم تدنّس فمك كلمة بذيئة أو فاحشة، لا قول شرير ولا حديث باطل. كل ما عرفت قوله هو كلمة «بابا.» الكلمة الحلوة المزيحة عني همومي في أحلك الساعات. المخففة عن أعبائي المحمولة على كاهلي المتعب للحظة، لدقيقة، تنسيني أن العالم فوق أكتافي. وها أنت مسجاة أمامي سابحة بدمك. الرعب مجمد في عينيك. قد أغمضتهما لك. فأنا المستغيث الذي لا يحتمل الإستغاثة! فأين ترى الآن روحك يا قلبي المذبوح؟! هل ستمضي هذه الروح البيضاء كحليب إلى الجنة، أم ستهيم معذبة، كما يقول البعض عن أرواح المقتولين والمغدورين، أم أنكما، ناحوم وأنت ستظلان في قبريكما، إلى أن أتلو على روحيكما «القدّيش» لمدة عام كامل، أطهّر به روحيكما من آثام لم تقترفاها ولكي تجدا في عالمكما الجديد الراحة؟! أما أنت يا أُمّهما، فبالطبع ستحتاج روحك إلى هذا «القدّيش» ليغسل عنها آثامها المرتكبة رغمًا عنك بيد الفجاجة والحمق. أفأحاسبك وأنت مسجاة أمامي ميتة؟،

Twitter: @ketab_n

وهل أُحمِّلك خطيئة مقتل الطفلين المعبودين، والمحاسب ربي وحده؟ لقد كنتُ آليتُ على نفسي ألاّ أغفر لك حتى مماتي، فوا أسفاه، قد كان موتك السباق فأنت حريَّة بالصفح والغفران. هاأنت أمامي هامدة في فورة صباك، قد أنجبت الطفلين المسكينين ولم تبلغي رشدًا. لم يكتمل عقلك وما أخاله كان سيكتمل يومًا حتى لو كنت حييت حتى يحدودب ظهرك ويكل بصرك وتمشين فيسندك في مشيك العكاز. «القدّيش!» كم ميتًا ستستوعب صلاتي هذه وقد شرعت بقراءتها على روح والد ألماس؟! وكم زادت صلواتنا على أرواح موتى صبلاخ مذ قلبتم حياتنا الآمنة إلى ثكل وحزن وفواجع إذ وطئتم بلدنا واقتحمتموه كبيت مباح للصوص والسفاحين؟!

كان الرجلان يجهشان في صمت. أحدهما على ابنته وحفيديه والآخر عليّ أنا، في الأرجح، وأنا، العنيد، الصلب، كسنديانة الجبل، أنصهر إلى سائل متلظ يحرق ذاته وما تحته. والوقت، هل يمرق كمروق دمعي وكياني المنصهر، أم هو جامد كقلوب القتلة؟ كان لابد أن أستعيد إحساسي بالزمن ليتسنى لي أن أُواري فلذات قلبي التراب، بما يليق بها من طقوس، ولكي أستطيع جمع عشرة رجال على الأقل، لأتمكن من تلاوة «القدّيش» فوق الأجداث المحفورة فور مواراة هذه الجثث العزيزة التراب، هذه الأجسام الغالية! كم من جدث في أعماق ذاتي يواري أحبتي! «الإستيران» و«الناحومان»، آخر المصائب وداهية الدواهي. هذا القلب، الذي كم فخرت بقوته ورباطة جأشه، هل فقدته؟ أم هل قد أصبح مقبرة لأحبائي وأعزائي؟ إنه يحتوي الأجسام فقط، أما الأرواح فملك خالقها. قبضها ليفعل بها ما يشاء أن يفعل. إنهمرت عيناي مدرارًا، ثم راودها الجفاف. وظلتا ناضبتين، حتى افتدت أسمر يهود بغداد في الفرهود، إذ كانت تبحث عني في متاهات الموت هناك. ويومئذ عاد وتفجر الدمع، وبكل جبروته تدفق. ولما توقف، بقي نزف القلب، تحجبه عن العيون، ضلوعي. فهناك يرقد الأحبة، تحيطهم هالة من حزن لن تبرحهم حتى يجمعني الحِمام، بهم، وما أسعد تلك اللحظة!!

Twitter: @ketab_n

(الجولة السابعة إلى الثالثة عشرة ومجاعة صبلاخ)

صفر اليدين أنا. خضت الأهوال ولم يسقط جناني. أدفن تباعًا أحبائي وأصحابي. ينزف القلب دمًا، عوض دموع العين، أقع ثم أقوم. أودعت اليوم ثلاثًا من فلذات القلب. من بقايا التراب نفضت يدي وعدتُ إلى البيت يشيعني أصدقائي. ولما فكرت في أسمر الباكية دون هوادة والأولاد الحزينين على أخيهم وأختهم، جفلت، كلا! لستُ صفر اليدين أنا. ربما كان الولدان وإستير حلمًا، منامًا لذيذًا أهدته لي أسمر، ثم شاء ربي أن ينتزعه من بين يديّ. إني أهذي! قد كثرت المصائب، لكن هذا مصابي أنا، مصاب في حجم الدنيا، هذيان كهذيانها، ومير أُفحم، والمشيعون من إخوتي وأصحابي نقلوا الكنيس إلى بيتي ليتيحوا لي «القعود» فيه طوال سبعة أيام الحداد.

حين دخلنا البيت، وقد نقص ثلاثة من أعز سكانه، عانقتني أسمر بحزن عميق، وعادت دموعها وانهمرت كالمطر، وأخيرًا وهي تتنهد همست كاللائمة نفسها والمعتذرة لي في آن،

- لم أحاول منع المرحومة من الخروج تلافيًا لإثارة المزيد من المشاكل لك!

هززت رأسي وتنهدت، فقالت وإجهاشتها تقطع صوتها،

- كيف أغفر هذا لنفسي؟ كان يجب أن أقف سدًا بوجهها، حتى لو مزقتني إربًا!

تحاملت على نفسي وتمتمت،

- لا تلومي نفسك يا أسمر على شيء أراده الله سبحانه!

فعلا نحيبها وقالت،

- أردتُ إسعادك، فجلبتُ عليك، أخيرًا، الويل والعذاب. فقل لي بماذا أفتدي أحزانك يا أبا سلمان؟

فغمغمت مع أصوات المدافع المزمجرة من بعيد،

- لا تتعذبي يا أسمر. فالرب سبحانه قد سلّط علينا اللعنة. وهو الذي أعطى

Twitter: @ketab_n

وهو الذي أخذ فليكن اسمه مباركًا.

والروس يقتربون وسيصلون غدًا. لم يصلوا البارحة. هكذا شاء الله. أن أدفن ناحوم والإستيرين قبل وصولهم، ولما سيصلون غدًا سيأتون إلي بمجرد أن يلتقطوا أنفاسهم، وسيقيمونني من «قعدة» حدادي، يخرجونني من بيتي ويخرجون بي إلى ظاهر المدينة، قريبًا من بستان الفواجع، أو المقابر، وهناك ستنعقد محكمة ميدان عسكرية لمحاكمتي. إذ سيتهمونني بالخيانة، وسأسألهم عن ذنبي، وسيقولون «إنك تؤوي المسلمين في بيتك، وقد طلبت من سائر يهود صبلاخ أن يخفوا المسلمين في بيوتهم، لذا فقد أُدنت بالخيانة وحكمت عليك المحكمة العسكرية باسم صاحب الجلالة الامبراطور نيقولاي الثاني بالإعدام شنقًا، وبحرمانك من شرف الموت رميًا بالرصاص، وسأُقاد إلى المشنقة، ويدخل رأسي في كيس أسود فيعم حولي ظلام العدم. وتضغط الأنشوطة على عنقي، فأشهد بوحدانية ربي وأتذكر أحبائي قبل أن ألفظ آخر أنفاسي. وأتأهب للموت. وإذا بهم ينزلونني فجأة، وتستحيل خيانتي إلى بطولة أستحق عليها وسام الإنسانية. إذ لا فرق بين إنسان وإنسان، وقد طبقت أنا هذا المبدأ بإيمان مطلق. وهو ذا الوسام. وسأحتفظ به حتى ألفظ آخر أنفاسي. ولكن لماذا يُقتل ولداي وإستير؟! ولماذا يستمر قتل الأبرياء بصبلاخ الوادعة المسكينة؟ قد استهلك هذا السؤال من فرط ما طرحته في الهواء، وقطّعته ألسنة سكان هذه البلدة وما من رد معقول..

خفت من أن تمنع المعارك الضارية المصلين من الوصول إلى بيتي في أوقات الصلوات، بيد أن حبهم لي خيب ظني وجندل هذه الخشية، وكانت فاطمة تساعد أسمر وقشنك في إعداد وتقديم الكعك والشاي والقهوة للمصلين على أرواح موتانا الضحايا الجدد. وقلتُ لأسمر بعد أن أسهاني الحزن عن الماس المسكينة ليلة ونهاراً،

- لا تنسي الماس يا أسمر. ولتأخذ قشنك الطعام لجارتنا بمواعيده ولتضعه بمكانه كالعادة.

أفكر بأبيها عزريا الصائغ. أُفكر بالحاخام ناحوم. أفكر في كل قتلى صبلاخ.

Twitter: @ketab_n

قتلوا جميعًا دون جريرة. ماتوا موت الغفلة بلا معنى وبدون سبب. تتراكم الأسماء وتتزاحم في ذاكرتي، من كل الأديان والأعمار والأجناس، يجمعهم شيئان- أنهم من أبناء صبلاخ وأنهم لم يقترفوا ذنبًا مهما كان - ، أقصدهم، وأنا أتلو صلاة الموتى «القديش.» كيف أصبحوا أثرًا بعد عين؟ سؤال رهيب يحاول كالحربة أن يخترق أفكاري ويثقبها. يرتعش بدني وتعانق أنظاري الأولاد. لا أدري وأنا أراهم يلاعبون أبناء شريكي، إن كانوا قد فهموا حقًا فاجعتنا أم يعتبرون حدادنا والطعام المقدّم للمصلين المجتمعين في بيتنا طوال أسبوع الحداد، حفلة، كحفلة الحرب والدمار. حفلة متكررة من الحزن العميق المبهم الذي يسبب لهم المرح أحيانًا. لكن سلمان يأتيني وجلاً في يوم من أيام الحداد السبعة، بعد أن يراني جالسًا على الأرض، مع والدي إستير وإخوتها، لا أغيّر ثيابي، أرسل لحيتي ولا أستحم، ويرى جموع المصلين تأتي إلي ولا أذهب للكنيس إليهم. يأتيني، حاملاً معه تساؤلات شتى، وينوب فيها عن إخوته وأبناء مير، ويسألني،

– لماذا يأتي الناس ويصلون هنا؟ لماذا لا تغادر البيت ولا تبرح مكانك على الأرض؟ لماذا لا تحلق ذقنك؟ ولا تستبدل ثيابك و..؟

ويتردد حتى يحشد جرأته الهائبة ثم يواصل سؤاله،

– وهل سوف لا يعود ناحوم وإستير وأمهما بعد؟ ولماذا تبكي أمي والنساء جميعًا، طوال الوقت؟!

أعرف إنه يعرف. قد اشتد ساعده ونشأ في أحضان هذه الحرب. لن يتلقى إذن، ردًا هو للأسطورة أقرب. كان لا بد أن أكلمه كلام رجل إلى رجل، رغم صغر سنه، وليقل ذلك لاخوته الأصغر سنًا منه ولأولاد مير. لقد رأوا الموت بأعينهم. شاهدوه أكثر من مرة على شكل أجسام هامدة، أحملها على كتفي. وقلت لسلمان،

– كل ما تراه هو من أجل أخويك وإستير.

فتساءل مرهف الصوت،

– ما هذا الذي حدث لهم بالضبط؟

Twitter: @ketab_n

فقلت بصوت متحشرج،

- ماتوا يا ولدي. والميت لا يرجع.. مثل رضا وعزريا الصائغ والحاخام ناحوم.

- وكيف ماتوا يا أبي؟

- قتلهم جنود الغرباء يا ولدي!

- وهل فعلوا شيئًا، فقتلهم جنود الغرباء؟!

- لا يا ولدي، لم يفعلوا أي شيء يستحق العقاب.

- إن كانوا لم يفعلوا شيئًا يستحق العقاب، فلماذا قتلوهم إذن؟

أفحمني، نفس هذا السؤال أطرحه على نفسي ويطرحه أبناء صبلاخ كل يوم فلا نعثر له على جواب.

- ليتني كنت أعرف يا ولدي، لكنني مثلك أسأل نفسي: لماذا يقتلون امرأة شابة، وطفلين، خرجوا يتنزهون في بستاننا؟!

تمنيت أن يكتفي بما سأل ويتركني، بيد أنه فكر قليلاً ثم سألني،

- ونحن، أليس لنا جنود يدافعون عنا ويطردون الغرباء من هنا؟!

فقلت،

- جنودنا في طهران، ولا يوجد من يدافع عنا في صبلاخ.

واستمر سلمان يسأل،

- ولماذا لا يأتون من طهران لحمايتنا؟

- لأنهم لو جاؤوا لحمايتنا، فعليهم أن يحاربوا الغرباء. وملكنا الشاه لا يريد ذلك.

فقال باستنكار،

- ولماذا لا يريد؟ أليس من واجبه الدفاع عنا، وعن الوطن؟!

أسئلة سلمان ذكية لكنها معقدة. قلتُ له،

- الأمر ليس بسيطًا يا بني. فلو أرسل الشاه جنوده للدفاع عنا، فإن الحرب ستنتشر في إيران كلها، وسيضطر آنذاك إلى الدفاع عن سكان إيران بأسرها. ويحارب دولتين عظميين، كلا منهما صديقة لإيران و...

Twitter: @ketab_n

- وماذا يا أبي؟

- هناك أشياء أخرى لن تفهمها أنت ولن نفهمها نحن الكبار كذلك. وعلى كل حال فإن شيئًا لا يحدث إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى!

تأمل سلمان هذه المتاهة ثم سألني،

- وهل يعني هذا أن الغرباء قتلوا ناحوم وإستير وأمهما لأن الرب أراد ذلك؟

هذا أسهل الأجوبة والحلول.. فلماذا لم أختصر الطريق منذ البداية فأقول لسلمان «إن الله سبحانه قد اصطفاهم بحواره لأنه أراد ذلك» وأكتفي متجنبًا المتاهة التي أدخلني إليها أكبر أولادي؟!

هززت رأسي، وغمرت لجة عارمة من حزن آخر نفسي، وحاولت مقاومة اختناق صوتي،

- نعم يا ولدي. نعم. إذ لا شيء يحدث إلا بمشيئته تعالى!

راح يعدو. أنا رميت ذاتي في لجة الحزن الجديدة. أطلقت العنان لأفكاري المرهقة. كلا! لن أتورط بالكفر فيما لو تحفظتُ من ردّي الأخير على سلمان. أفلم يهبنا الله اللعنة والبركة وخيرنا بينهما؟ هذا يعني أن الله سبحانه قد أهدانا حرية الإختيار. ولو أن إستير اختارت البقاء مع الغاليين الصغيرين في البيت، لما كنتُ الآن جالسًا في حدادهم! ولكان الطفلان، يملآن الآن علي البيت ويشاركان باقي الأولاد اللعب، و«بهجة الطفولة» وليس «فرحة الحزن!»

ومع ذلك، وللمرة الألف، لماذا حلّت علينا، نحن بالذات لعنة هذه الحرب الدخيلة المعتدية؟! أجل.. لماذا نحن بالذات؟!

أُسكتْ! فما أحوجك الآن عوضًا عن الكفر إلى أن تطلب الرحمة على أرواح من ماتوا وعلى نفسك وعلى الأحياء من أهل صبلاخ؟!

* * *

الأسراء اليومي، أمسى فريضة كصلاة العشاء. يتربص في الظلام، قرب شبه خرابة ألماس. ينتظر الفرج، وصول الطعام. يراها مثله قد استبدت بها العادة. تأخذ الصحن ثم تشرع بالتهام الطعام. يتحاشى مداهمتها وهي تأكل. الظلام يخيم على غرفتها الآيلة للسقوط. يراها شبحًا من خلال ظلال فوانيس الشارع

Twitter: @ketab_n

المنسلة إلى الغرفة من الشباك، يسمع أيضًا أصداء المضغ وصوت ارتطام الملعقة بالصحن. يريد أن تفرغ بسرعة ليأتيها. يثير فيه الطعام، وهو في موقع ترصده افكارًا، كيف لا ينفد الطعام في بيت شلومو كتاني اليهودي! كيف لا ينفد وهو يطعم، عدا أبناء بيته وعائلة شريكه المقيمة معهم، كثيرين من أبناء صبلاخ؟! فضلاً عن الحبيبة ألماس؟! أفهو الذي يخلق الطعام عوض الله؟! ألديه آلة سحرية تنتج له كل ما يطلب من غذاء؟! لا بل هو إنسان سوي، كسائر البشر، إلاّ أنه رأى بعين عقله ميلاد الأحداث وهي في رحم الغيب وتكهن بمسارها، فأفتدى بماله نفوسًا كثيرة. أبوه هو، لم ير إلا الذهب ولم يؤمن إلا بالذهب. أفسيأكل، وأسرته، هذا الذهب حين يفرغ ما تبقى من الطعام النزر اليسير؟! نفس الأسئلة المعتادة، أقنعه بالسفر مرة أخرى في فرصة أنتهزها عند استتباب أمر العثمانيين، قبل آخر هزائمهم. لم يذهب معه لأن ألماس بحاجة إليه، وهو الآخر، بحاجة إليها. عاد أبوه، كالعادة، بما أبقاه له الجيش العثماني. أما هو فيخرج كل ليلة. في البيت يتساءلون «أين يروح؟» يتذرع بأصحابه المراهقين من أمثاله. يقولون له أن الروس قد دخلوا فدخل الخطر معهم. ولكن متى كان حسن بوزورك يحسب للحرب حسابًا؟! لا ريب في أن ألماس قد فرغت الآن من تناول طعامها. إن الصمت الذي ساد لا يحمل له غير همهمات الشبع. لا. لا يمكن أن تكون ألماس قد استحالت حيوانًا. إنها ما زالت ذلك الإنسان الذي أصيب بالمكروه الأعظم ويأبى أن يتزحزح عن موضع فجيعته. إنها ملتصقة بصدمتها ليس إلا. لكنه يزحزحها رويدًا رويدًا عن موقع الصاعقة. تقدم بخطًا حذرة. أصبح يعرف المكان ويميزه حتى لو لم يبق في الدنيا سوى الظلام الدامس. حتى لو فقد بصره وغدا ضريرًا. حين وصل إلى غرفتها أوقد الشمعة. يراها فيخفق قلبه. وهذا، ويا للعجب، الحب وليس الشفقة، وهي ما عادت تنفر كحيوان وجل. على قسمات وجهها الفزعة ترتسم ابتسامة. تراه فتذوب الرهبة وتتلاشى عن سحنتها. وعوضًا عن أن تبتعد، أضحت تقترب منه. تفتح له ذراعيها، تعانقه، تشعر في ملامسته، بلذة، ربما لم تشعر بمثلها مذ وُلدت. يهمس في أذنها «ألماس يا حبيبتي! في فمك رائحة ذفر الطعام، وعلينا أن نستحم قبل أن نتحد في جسد

Twitter: @ketab_n

واحد!» أضحى تسخين الماء، والاستحمام في الطست واستبدال الثياب من طقوس صلاته المقدسة. غياراتها القليلة المنزوعة عن بدنها يغسلها بيديه. من كان يصدق؟! لكن هذا لا يستغرق وقتا، في حين أن القلق قائم دائمًا. لو داهمهما أحد فجأة. ربما. لكن البلدة مشغولة بمصائبها وشلومو كتاني، لو فكر بالاطمئنان عليها فهو يفعل هذا في وضح النور، إنه إنسان متدين، ولن يثير من حوله الشبهات، بل هو لا يجيز لنفسه الاختلاء بأنثى في مثل هذه العتمة، حتى لو كان يحمل فانوسًا. هو الآن لا يغادر بيته، فهو يقيم العزاء على زوجته وولديه. وفكر إذ كان يغسل ما نزعته ألماس من ثيابها باحتمال جعله يجفل حينًا. ماذا سيحدث لو أن أحدًا، أقتحم مثله على ألماس غرفتها؟ لا. لا. مر شهر ولم يحدث شيء من هذا، والحبل الذي ينشر عليه ثيابها اختاره في موضع خاف عن الأنظار. صحيح أن الشمس لا تشرق على ذاك الموضع، وإن الثياب تستغرق أيامًا حتى تجف، إلا أن لألماس ثيابًا كثيرة بخزانتها، تخلفت عن أيام العز الراحل مع والدها. وسيقول من سيشاهدها من الخلق، إن هو لاحظ تغير ثوبها يوميًا، أنها لا شك تفعل ذلك بنفسها، إنها تدرك حاجاتها بالتأكيد، فهي مصدومة وليست مجنونة. أجل لست بمجنونة يا ألماس، وقد فرغنا الآن من طقوس نظافتنا وحان وقت توحدنا. هل تذكرين فزعك ونفورك مني في الأيام الأولى؟ كم تغير الحال الآن؟ ها أنت تهرعين إلي بسعادة. تهمسين باسمي كما أهمس باسمك. كلا. أنت عاقلة يا ألماس. وستعودين كما كنت في وقت قريب. إلاّ العجرفة والكبرياء، ومسح على بطنها وكان واثقًا من أن هذا البطن يحمل بداخله نطفة جنين منه. «أأنت حامل يا ألماس؟! وهل لم يأتك الطمث في موعده؟!» بيد أنه حتى لو أخصبها فإن الوقت لم يحن لأن تعرف، وهل تراها ستعرف؟ تفرس بها فرأى على ضوء الشمعة الشاحبة حمرة في وجهها. ولاحظ أنه ما زال يواقعها منذ نحو شهر ولم ير لها حيضًا. إذن؟! وخفق قلبه خفقة مليئة بالحنان والعاطفة. ضمها إليه بقوة. اعتصرها. إذن، هل سأُصبح أبًا في غرة من أمر الدنيا؟! فليتطاحن العالم، إذن، هم يموتون بيد البغضاء، وأنا أُنتج الحياة. أخلقها، وأي حياة تخلق يا بن بوزورك؟! وغمره إحساس عرم كماء العين في ظاهر صبلاخ. وتفاعل رغم

Twitter: @ketab_n

الظلام والموت وخطر المجاعة القاتل، ولأول مرة فكّر بجدية جديرة بالحرب، في هذه الحرب الطاحنة، ولأول مرة لعنها وتمنى نهايتها، وأن تنتصر الحياة على الموت.

* * *

متى تنتهي هذه الحرب؟

سؤال كان ينطلق في كل مكان من العالم، حيثما كانت تدور طاحونتها، وحيثما لم تدر. وفي صبلاخ لهجت به الألسن المنهكة المفجوعة. وتساءل مرتضى حاجي زادة «متى ستنتهي هذه الحرب؟!» وأضاف «لأستطيع القضاء على ولي النذل وأعوانه؟!» وتساءل ولي أخوه «متى تنتهي هذه الحرب لأجعل مرتضى الوغد عبرة سيرددها التاريخ ويتعلمها الصبيان في كتاتيبهم ومدارسهم؟!» وكان يأمر أعوانه بإحراق مزارع وبساتين وكل ما اتفق من أملاك أخيه كلما سنحت الفرصة. وكان أعوان مرتضى بالمرصاد فكانوا يطفئون الحرائق ويبلغون مرتضى بما يفعله أخوه. وكان مرتضى يجند المزيد من الرجال تأهبًا للحظة الحسم. وتساءل حسن جاقماق مع المتسائلين «متى ستنتهي هذه الحرب؟!»

وكان يمني رجاله باستتباب عقيدتهم في روسيا وانضمام صبلاخ وكل أذربيجان الإيرانية إلى الدولة الأم البولشفيكية، ويعلقهم بآمال العدالة والمساواة والاشتراكية بمجرد أن تضع هذه الحرب أوزارها. وإلى حين يتحقق هذا فإن عليهم، كما آووا اليهود والنصارى، أن يتقاسموا الطعام وأن يأتوا به من كل مكان يوجد فيه.

ولهث الزمن العارف، طويلاً، ثم واصل سرد القصة، قائلاً: بيد أن الحرب كانت ستستمر شهورًا طويلة أخرى أو حتى أعوامًا وتقطع طريقًا مليئة بالأهوال مصطبغة بحمرة الدم وسواد الحداد. وعاد الناس يتحدثون عن المرأة النذير بعد أن كادوا ينسونها. رآها كثيرون على هيأة سعلاة تتربع على نواصي الأزقة، وأمامها ولائم من الجثث البشرية. وشاهدها حسن بوزورك وهو يمضي في موعده المعتاد إلى ألماس. وكان يخوض بحرًا دامسًا تزمجر في أرجائه المدافع ويئز الرصاص في كل جانب. وفجأة شع أمامه نور باهر. وظهرت المرأة النذير

Twitter: @ketab_n

من أعماق هذا النور، غانية فاتنة، إقتربت منه كالقمر البدر محاطًا بهالته. ضحكت له وهمست بصوت هرم كأنه ينبعث من أعماق قبر: لن يتقيأك القبر ولن يعرفك اليتيم، أما هي فستظل تحلم فيك طول العمر! إرتعدت فرائصه وسألها: أتعنين الماس الحبيبة وولدي؟! «أفصحي يا عاهرة الليالي، المشؤومة!» بيد أن النور المجهول خبا وتلاشت «عاهرة الليالي» في الحلكة السوداء.

خاف حسن بوزورك. أسرع خطاه ليتغلب على خوفه وتشاؤمه وليدفنهما في أحضان ألماس.

إنه واثق من أن رحمها يحمل طفله، ولكن أحقًا سيموت قبل أن يرى طفله هذا ويسمعه؟!

غريب ما رآه وسمعه في الطريق، لكن أغرب منه ما يحدث في الدنيا. وأغرب من هذا وذاك جهله المطلق بما سيأتي به الغد وماذا سيحدث بعد ساعة. أسأعود إلى بيت أبي سالمًا ككل ليلة، وهل سأجد لو عدت سالمًا، أبي وأمي وأخواتي، كلهم، كما عهدتهم، لم ينقص منهم أحد؟! ولم تسقط من رأسه شعرة أو يُثلم له ظفر؟!

لقد كان عاشقًا مولهًا. ولم يكن حبه الآن يقتصر على ألماس وحدها بل كانت عواطفه تتعدى نصف الخرابة هذه إلى بيته الكبير وتظلله بمن فيه بجناحيها الرقيقين.

ولم يعد الرصاص ينقطع ولا انفجارات القذائف. سيمفونية للرعب لا تهدأ ولا تكل، يسهد الناس في صبلاخ ولا ينامون. صامتون، يفكرون، أو يتحدثون عن مخاوفهم المتصاعدة، ويحاولون التكهن بما سينكشف عنه الغد، ترى ماذا يخبئه لهم القدر في جعبته، جعبة الحاوي أولم تَكْفِ المسوخ التي استخرجها من هذه الجعبة حتى الآن؟

لكن الجوع أصبح الآن الخوف الأكبر، كان الناس يقتاتون حتى الآن مما اختزنوه بمنازلهم أو مما استطاعوا جلبه من خارج صبلاخ. الآن، ينفد المخزون، ومع تفاقم المعارك حول البلدة، لم يعد الخروج منها بالأمر الممكن، إنقطعت الطرق وغدت خطرة بل غير سالكة. إنها ساحة قتال مزروعة بجثث القتلى من

Twitter: @ketab_n

الطرفين. معسكرات ومدافع واستحكامات ومستشفيات ميدانية في كل مكان، أمست صبلاخ سجنًا لأهلها ومقبرة. صبلاخ غدت فخًا للصبلاخيين نصبه صيادون دخلاء غرباء.. ومعتدون.

قال أبو سلمان،

"كان الطعام متوفرًا في بيتي، قرأت المستقبل فملأت مخازني لكن العلف أصبح مشكلة، قننا العلف للبهائم وأخذنا نشاطر الطيور طعامنا.

قلت لأسمر،

– لنعجل بذبح بعض العجول ونصنع القلية للشتاء لنخفف من مشكله قلة العلف للبهائم.

قالت،

– مازال أمامنا شهر آخر حتى يميل الطقس إلى البرودة.

قال مير شريكي،

– لا أذكر أنك جلبت حين نقلت أثاث بيتنا إلى هنا، بعلف الدواب وحبوب الطيور. وما زالت مخازن أطعمة الحيوانات ممتلئة.

أسرعتُ، تحت قصف المدافع وطلقات الرصاص، بعربتي إلى هناك. وجدت الباب مفتوحًا على مصراعيه. دخلت فماذا رأيت؟ تحول البيت إلى إسطبل كبير وإلى مرحاض للروس. لم أجد فيه أحدًا، ولكن الروس بالتأكيد يأوون بداخله مع خيولهم. نزلت الدرج إلى المعالف. فتحتُ قفلها بالمفتاح فوجدتها مكدسة بحزم التبن، وبأكياس حبوب الطيور، لم يعثر المحتلون عليها إذن! ملأت العربة وأغلقت أبواب المخازن. لا ريب بأننا سنحتاجها كلها. إذ أن نهاية المحنة تلوح كالسراب.

قال مير مستبشرًا،

– أرى مما أتيت به، أن البيت بقي سالمًا كما تركته يوم «التحويلة.»

فضحكت وقلت له،

– بل ما عاد يصلح لإقامة بشر. المحتلون حولوه إلى زريبة كبيرة ومرحاض للإنسان والحيوان؟!

Twitter: @ketab_n

سب الروس ولعنهم،

- كم انتفعوا منا، ولم نجن منهم غير الموت والدمار؟!

فقلت على عجل،

- إنتفعوا منا وانتفعنا منهم، ثم صيرتهم الحرب وحوشًا. كل المتحاربين وحوش! كل المتحاربين!

- ولكن لماذا نحن بالذات؟ يقتحمون ديارنا وينكلون بنا ويذبحون الآمنين منا؟

تأوهت وقلت،

- لقد قطعنا هذا السؤال من فرط ما لاكته أفواهنا، ولم نجد جوابًا يقنعنا. إني أنا الأجدر بأن ألعنهم كلهم ليل نهار، أُنظر إلى لحيتي التي أطلقتها حدادًا على فلذات الكبد. إن عبرات عيوني لم تجف كما يخيل لك. لقد انتقلت إلى قلبي فهو يبكي طول الوقت دمًا.

أطرق طويلاً ثم غمغم،

- والأكثر من هذا نحن، لقد أثقلنا عليكم إلى درجة المبالغة، نسكن داركم ونأكل طعامكم في وقت لا يجد أهل صبلاخ فيه طعامًا! ثم تقول لي أن بيتي ما عاد صالحًا لسكن البشر؟!

ربّتُ على كتفه وقلتُ،

- هون عليك ياشريكي ولا تعد إلى هذا الكلام. فبيتنا بيتكم وطعامنا طعامكم. والمعمعة ما زالت على أشدها فلا تتعجل الأمور، فلنا كلنا رب كريم في السماء!

فتمتم حزينًا يائسًا،

- ولا يحمد على مكروه سواه.

* * *

مر شهر، والقتال يزداد ضراوة. لا يستقر طرف من المتحاربين في البلدة حتى يضطر إلى تركها. صبلاخ تحترق أطرافها وهي مطوقة بالنار. يصليها الرعب والحرمان والجوع. الآن، لم يعد ثمة داخل وخارج من البلدة. الموت يتربص في كل مكان. والإنسان يأكل ليواصل خوفه، وليواصل يومه، وليواصل فظائعه، مذبحته الكبرى. الفائزون قلة صغيرة، تكهنوا بالغيب وحباهم الله

Twitter: @ketab_n

بالمال. كانوا عرّافين أثرياء. إشتروا حياتهم بالثروة، لكن العرافة لم تنفع الفقراء، والذهب لم يفد الذين أسدلوا على عيونهم حاجزًا حال بينهم وبين رؤية ما سيأتي من أحداث. هؤلاء رأوا أنوفهم وأعشاهم بريق المعدن الأصفر. إستيقظوا بعد فوات الأوان. قرقرت بطونهم فبحثوا عما يسكتها ولم يجدوا سوى الكلاب والقطط السائبة. هي وحدها اعتاشت على قمامات المحظوظين. الطيور نزرت. فرت هاربة. ومن استطاع أن يصطاد حمامة وحتى غرابًا أو بعض عصافير، فإنه كان محظوظًا. أخذت الكلاب والقطط في بيوت صبلاخ تختفي تباعًا. ثم غدا من تسكن الفئران بيته يُعدّ من المجدودين، وإذ نفدت الكلاب والقطط والفئران من البيوت - وسرعان ما نفدت - ، أخذت حيوانات البلدة السائبة تختفي، ولم يعد يُرى بصبلاخ حيوان يتسكع في أزقتها ولا تُسمع في أرجائها زقزقة عصفور أو صوت غريد.. صوت الانفجارات والرصاص كان يُسمع وحده بلا انقطاع. وكالعادة كان الفقراء أول من دست الحرب في لحومهم أظافر الجوع الظالم.

شرع الجياع يتضرعون إلى السماء. يلعنون الأشرار. يتعللون بالآمال. لكن الجوع يصرخ بهم مستنجدًا «ها أنذا في داخلكم! أغيثوني تغيثون أنفسكم»، يحاولون عنه التغاضي فيكشر في وجوههم ويهتف «هيهات! فإذا لم تسكتوني بطعام، فإن معاولي ستهدمكم، ولا تنجون من عقابي الأوحد... الموت!»

أكل الجياع كل ما يؤكل. وما كانت تعافه النفوس، أصبح يُلتهم بنهم وشراهة كأشهى الولائم، ثم وبسرعة خاطفة لم يبق في صبلاخ سوى الخشب والحجر والحديد. فحتى الجلود طبخوها والتهموها. وشرع الجوع ينفذ وعيده بلامبالاة. وأثبت أن معظم الناس في صبلاخ لا يختلفون عن غيرهم من البشر في أرجاء العالم، وأن حالهم اليوم مثله مثل حالهم بالأمس البعيد وعلى مر العصور، وفي محك التجربة يمحي الحب، وتمحي القرابة، تمحي الصداقة، وتمحي الأمومة والأبوة، وتبقى الأنا في سباق البقاء. والناس، تغدو وحوشًا ضارية عارية من كل قناع. إلاّ قلة قليلة نادرة رفعتها ذواتها العليا إلى مصاف «الإنسان الحق» الثابت الرابض فوق ذروة الطود ألبشري، لا يهوي إلى قرار الوحشية الهاتفة بأنانيتها،

Twitter: @ketab_n

الصاعدة صرختها المروعة من أسفل الحضيض إلى أسماع إله يؤمن به كل أهالي صبلاخ، لكنهم في اللحظة الحاسمة ينسونه كي يحاربوا حربهم الفردية الضيقة، من أجل أن يبقوا أحياء على حساب كل شيء وكل إنسان. عاد حسن جاقماق فدعا أصحابه إلى التقنين في الطعام وتقاسم لقمة العيش. ودعا شلومو كتاني من على منبر الكنيس، طائفته إلى التعاون.. ومما قاله «إن الصمود اليوم بوجه هذا العدو الفتاك وتقاسم اللقمة، لهما من بعض فرائض الدين والعبادة» ومنعه التواضع من تقديم نفسه مثلاً، لكن مستمعيه كانوا يعرفون أنه يعول فضلاً عن أربعة عشر شخصاً في بيته والماس وناجي باريزات اليهودي العراقي ومن يؤوونه كثيرا غيرهم في السر. وكان مطمئنًا إذ أفلحت نداءاته في الإتيان بثمارها بين أبناء الطائفة وغيرهم. وكانت رحى الحرب تدور الآن بأقصى سرعتها، فتطحن الأجسام والأرواح. وكان أعوان مرتضى حاجي زادة يجازفون بأنفسهم ويغادرون قراهم مخترقين خطوط القتال جالبين له ولأهله ما استطاعوا شراءه من الزاد والرجال. وكانوا يسيرون من أجل الزاد أيامًا وليالي طويلة. أما ولي فكان يأكل من مخازن أخرى إكتنزها له ولرجاله، ويحرق الأرم على الكنز الهائل الذي التهمته النيران ويقول «هذه النيران ستلتهم مرتضى وأهله وكل ما لديه!» ولم يتوقف أعوانه، رغم اشتداد المعارك عن إحراق مزارع وبساتين مرتضى، وكان بوسع ولي حاجي زادة، لولا احتراق مخزن الطعام الهائل، أن يحيي مقابل الذهب أثرياء البلدة من أمثال آل بوزورك وغيرهم، لو مكث ذلك المخزن، لأمكنه أن يجعل وهم هؤلاء، في أن بمقدور المعدن الأصفر أن يحميهم من كل غائلة ويقف سدًا يحول بينهم وبين الموت، حقيقة، بيد أن «المجرم» مرتضى أحرق له المخزن فأحرق معه قلبه، وجعل أموال الأثرياء أوثانًا لا نفع فيها ولا فائدة. وفجأة بدأت مواكب الجنائز تتدفق في رحاب البلدة المنكوبة قاصدة مقابرها. وفي الطريق إلى المثوى الأخير لضحايا الجوع، كان يتساقط ضحايا من بين المشيعين. لقد كان الناس يتحاملون على أنفسهم مترنحين كالسكارى. وكان الجوع يفتك بما تبقى من بشريتهم وإنسانيتهم ليغدو خواء المعدة والإنسانية مرتعين لرغبات مفقدة للعقول. لقد أخذوا يشتهون لحوم موتاهم، وتحت جنح

Twitter: @ketab_n

الظلام، حيثما وارى التراب، أخًا أو زوجًا أو قريبًا، كان الثكلى ينهالون على التراب الرطب، يزيحونه بأظافرهم ثم يستخرجون أمواتهم ويقطعون أوصالهم ثم يلتهمونها وليمة شهية دسمة ستهبهم الحياة بعض الوقت وإلى حين تتسنى للمحظوظين وليمة اللحم البشري الأخرى. إنهم أولى بأحبائهم من الدود. بل هم ينقذونهم من العفن والتفسخ ويحمونهم من سطوة الدودة الحقيرة فيغيّبونهم في أحشائهم حيث يكمن اللحد الجدير بالأحباء. أما الآكلون فقد وهبهم أحباؤهم، شهداء الجوع، فرصة يحزنون بها عليهم، بامتزاجهم بهم وبتحولهم إلى جزء منهم. وفوق هذا فهم يقيمون عليهم ما يليق بهم من الحداد، إنهم الآن اللحد والحزن والعرفان، وبتفاقم القتال يتفاقم الجوع ويتفاقم الشره إلى اللحم البشري. وأخذت حشود الجياع – الثكلى تتنازع فيما بينها، وكلٌ منها يدعي ملكية الجثث وأحقيته في التهامها. واكتشفت امرأة أن جارتها تأكل زوجها، وحاولت اختطاف جثته من ترابها فدار بين المرأتين الواهنتين مشادة تغلب فيها الخور والضعف فسقطت المرأتان ميتتين وجاء الورثة فدار بينهم صراع حول الأحقيات والأولويات، وثارت مشكلة «لمن أوصت المرأتان بجثتيهما؟» معضلة قانونية، لم يخطر ببال واضعي القوانين البت بها. فلم يجدوا لها حلاً. إلا أن القانون الآن، كما كان دائمًا، ولكن بشكل عام لا تموهه أطلية التحضر الزائف هو قانون الغاب. وأصبح قانون البقاء للأقوى هو قانون صبلاخ. وكان الأقوى هو من نزع عنه كل قيمة إنسانية وكشر عن أنياب الأنانية فاستأثر بجثة إثر جثة. بل وقتل من أجل أن يأكل ويبقى حيًا. ونظرت امرأة إلى ابن لها ينازع الجوع، وقبل أن يذرف آخر أنفاسه، نفد صبرها فاحتزتْ رقبته واستحالت سحنتها إلى سحنة سعلاة معتوهة؛ فتلمظت وسال لعابها، ثم انهالت على «فلذة كبدها» بسكين، ومضت تقطع أوصاله وترمي أشلاءه شلوًا شلوًا في قدر نحاس كبير، يغلي ماؤه على نار متلظية، وشم زوجها المريض هو الآخر جوعًا، رائحة اللحم وهو ينضج فوق النار، فنضح الجنون من خلايا جسمه، خلية خلية، وراودته قوة طارئة مسعورة فهب قائمًا رغم الضعف والمرض وهتف عاليًا،

– أشم رائحة لحم ينضَج يا صفية؟ فمن أين جئت باللحم يا صفية؟!

Twitter: @ketab_n

ردت عليه صفية بصوت السعلاة الوحشي المتخشب،

- هذا لحم سرمد يا مخرف! سرمد ولدنا يا مجنون!

صعق الرجل لحظة. إحتبس صوته في حلقومه، أجهش بحزن تراكم فوق حزنه وقال،

- سرمد؟! ولدنا العزيز؟! أمات سرمد، وجسده العزيز ينضج على النار؟، أليس حرامًا أن تفعلي بابننا الوحيد هذا يا امرأة؟!

تخشب صوتها أكثر وهدرت بفحيح ثعبان سام،

- إخرس يا مخرف، يا مجنون! أو ليس حرامًا أن يموت الحي ولديه ميت يأكله؟ ألم تسمع أن الحي أولى من الميت؟

وبدا أنه اقتنع، فقال بنبرة إمتزج فيها الحزن والقرم إلى اللحم،

- إذن هلمي واجلبي لي قطعة من سرمد العزيز أحارب بها جوعي اللعين!

قهقهت صفية بصوت يعزف كعزيف الجان،

- ألم أقُل لك أنك مجنون ومخرف؟ أأنا أطعمك من لحم ولدي فلذة كبدي يا أحمق؟!

فعاوده الضعف وقال بصوت خائر حائر،

- أوليس سرمد ولدي وفلذة كبدي كذلك يا صفية؟!

ضحكت صفية ضحكة شيطان وقد أخذت تلتهم لحم الميت العزيز الناضج،

- كلا يا مجنون! لقد عشت طول عمرك مغفلاً ولكنك ستعرف الحقيقة قبل أن تموت! سرمد ليس بابنك! سرمد ابن خوشنك الحبيب، الذي التهمت جثته زوجته المجرمة، قبل أيام..

صعُق الزوج مرة أخرى. أبى أن يصدق. حال الجوع بينه وبين الغضب وازداد صوته تداعيًا، همس،

- أنت زانية إذن. وحد الزاني هو القتل ولولا أنني لا أستطيع النهوض، وخانتني قوتي، لكنت نهضت الآن وقتلتك. وطالما أني لا اقوى على ذلك، فافتدي نفسك إذن بقطعة لحم من سرمد، كان أبوه من كان.

تناولت المرأة قطعة أخرى من لحم سرمد، مضت تمضغها بشراهة الوحوش

Twitter: @ketab_n

المتضورة، وبجنون لا مثيل لبشاعته، وخرجت كلماتها من فمها رهيبة أودعت بها خلاصة الأنانية والشر،

- هيهات! هيهات! أأُعطيك قطعة من لحم سرمد يا شيخ المخرفين لأهبك من الحياة أيامًا أخرى؟ فماذا آكل بعد نفاد لحم سرمد يا مجنون؟ هيا! الفظ أنفاسك يا مأفون! لأستمتع أنا بالحياة...

شهدت صبلاخ الكثير من هذه الحالات المروعة. كان الجوع كثيرًا ما يلتهم إنسانية الإنسان قبل أن يلتهم بدنه. واتضح أن بشاعة الشر والأنانية البشريين لا ينتهيان عند حد. بيد أن الإستثناء قائم دائمًا فإلى جانب هذه المشاهد البشعة، برزت تضحيات وبطولات، دلت على أن الخير رغم ندرته مازال موجوداً، وأنه البصيص من النور، الواهب لبعض الناس لقب «الإنسانية» عن استحقاق وجدارة.

* * *

حتى وهو يترنح وتدور الدنيا أمامه في دوامة الجوع والضعف يتسلل من بيته قاصدها بلهفة أصبحت صوفية مذ أخذ الجوع يصيب هذه النفوس القليلة برقة مُرهفة. وعجيب أنه لم يفطن إلى هذا العنصر الخيّر في ذاته، حتى زمن قريب - الماس يا حبيبتي! تنهال عليه وتعانقه باعتصارة الشوق العرم والشهوة التي أصبحت شبيهة بعبادة. أنت مسنودة القلب بطعام الجيران، أما أنا فأصبحت عنّينًا في ذروة صباي!

يتلمظ أحيانًا إذ يراها تأكل. أيشاطرها لقمة؟ إنها تلتهم الطعام بشهية لم يعهدها فيها إذ كان ينتظر انتهاءها منه، في السابق، لا شك أنه الوحام! وهو يلمح شبه بروز في البطن. هناك، لا شك يرقد جنينك يا حسن ويتغذى! لا! لن أحرمها من لقمة تتقاسمها مع ولدي! ألماس! الناس تأكل أولادها لكنني مستعد أن أموت كي يولد هذا الجنين ويرى نور الحياة. أما ما تريدينه فما عدتُ قادرًا عليه. إني مريض يا حبيبتي، مريض بداء من أبشع الأدواء، هو داء الجوع. وبين بيتنا وشبه بيتك هذا، رجل يتجشأ شبعًا، مع من تبناهم من الناس، في الصباح والظهر والمساء، أجل! يتجشأ معه رجال ونساء وأطفال، من اليهود والمسلمين، وربما

Twitter: @ketab_n

من النصارى كذلك. حتى أنت يا حبيبتي تأكلين من طعام هذا الرجل، لكن أبي كان أعمى البصيرة، فلم يرَ هذه الساعة ولم يحسب لها حسابًا. ولقد دفعته أنا إلى شراء الطعام دفعًا، حين تيسر ذلك، فهو مدين لي بشهور من الحياة، أما الآن فهو وأمي وشقيقاتي يتلوون جوعًا، ويتساندون، وتقرقر بطونهم وينتظرون الموت. لا! لن أتركهم يموتون يا ألماس. عاد واكتشف في ذاته مروءة وشهامة لم يكن واعيًا بهما. كان مجرد مراهق زير نساء لا يهمه غير فرجه وأن يحل تكك سراويل البنات. الآن أصبح عاشقًا ورجلاً ومسؤولاً وأبًا! ألماس! أأنت من علمني الحب والإيثار والخير؟! حين كان أبوك حيًا كنت تثيرين الخوف في نفوس الرجال. عجرفة ترجمها الجميع إلى نوع عضال من الشر. الآن، رغم ذهولك وخوفك، تبدين من أرق الناس وأكثرهم حبًا. ها بشلال الحب الحبيس قد تفجر فيك مذ صُدمت بأبيك. أفتراني أُصبت بعدواك أيتها الحبيبة؟ لا تقربي أنفك من فمي، فرائحة الجوع نتنة لا تحتمل! بيد أنك تقبّلين هذا الفم وكأنه يبث رائحة المسك والعنبر. أتدرين يا ألماس؟ إذا لم يُكتب لي أن أرى ولدي فلا تخشي أحدًا، وجاهري بأنه ابن حسن بوزورك! غامت طلعتها وهو يوصيها بهذا. لا ريب في أنها تعرفه وتحبه وتتمنى له البقاء. أسكتته واضعة يدها على فمه. ثم سقطت قطرة على يدها، تبعتها قطرة أخرى، تسلقت يدها وجهه إلى عينيه ومسحت عبراته. من قال إنها ليست عاقلة؟! إعتصرته مع رهفة الجوع. رهفة مشاعر شديدة الإنسانية.كادت روحه تُزهق في الاعتصارة. من ذا سيغسل لها ثيابها وجسدها البض لو كتب عليَّ الموت؟ الجيران يأتونها بالطعام، لكنهم لا يسألون عن نظافتها وعن البرد القادم المقترب. هذه اللعنة الثالثة بعد لعنة الحرب والجوع! ما أكثر الأشياء، التي تقتل الإنسان؟! وأحس فجأة بقشعريرة باردة. أجاء الشتاء حقًا أم هي قشعريرة الاحتضار؟ وشعر بأكثر من همّ. ولم يشأ أن يموت في أحضانها فحرر ذاته منها، وقبلها، وعاد إلى بيته مترنحًا كما جاء.

ومر يوم ثقيل وأعقبه آخر. المعارك تزداد. والجوع يزداد، والموت يزداد، والآهات تزداد، والضعف يتفاقم، ويقترب الموت.

– أبي! إنها فرصتنا الأخيرة، خذ صرة من الذهب وامض إلى جارنا شلومو

Twitter: @ketab_n

كتاني وأشترِ منه بعض الطعام!

فنازع أبوه وهو يقول،

– أجننت يا ولدي؟! أأنا أفعل هذا؟! أأستجدي الطعام يا مجنون؟!

– بل تشتريه يا أبي.

– أوتظن أن الناس تستغني عن مرازيبها في يوم المطر؟

– إفعل هذا من أجل أمي وأخواتي يا أبي!

فيقول وهو يكاد يلفظ آخر أنفاسه،

– الموت خير لنا من أن أصل إلى الدرك الأسفل.

هو، اكتشف إنسانيته في شدق الجوع الفاغر، وإذ استحال كثيرون إلى وحوش ضارية، «مُسخ» هو إنسانًا يعرف الحب والعطاء والتضحية. دخل على أخواته. في هذا الخدر، إكتمل الحرمان الآن! لم يسمع غير كلمات على شكل أنات تقطر منها أجزاء من الروح.

«إني جائعة!» «أريد كسرة خبز!» «لا أريد أن أموت!» «هبوني حياتي أيها الناس!» جهان وباري ودنيا وعالم! بهذه الأسماء دعاكن أبي، وأمي صاغرة معكن وأنا سأصبح أبًا بعد شهور لو تعْلمن. وتعذب. من أجل أمه وأخواته تعذب. لا بد أن يعيش. يعيش كي يرين ويرى ولده، حتى الأب الأحمق المغرور بماله يجب أن يعيش. وتذكر الجار اليهودي، والأطاييب المقدّمة في بيت هذا الجار، وكان يلهث من شدة الضعف والجوع، لكنه همس بإصرار،

– سآتيكن بالطعام، لن تمتن جوعًا! سآتيكن وأبي بالطعام!

ثمل يمشي ويترنح. محتضر يمشي ويلهث. روحه تكاد تزهق فيريثها. تسلل إلى غرفة أبيه، أخرج المسدس من الدرج، أخفاه في جيبه. تحامل على نفسه. بحقك يا الماس، سآتي أهلي بالطعام، وبآخر قواه صعد إلى السطح.

* * *

وقلتُ لأسمر بين لعلعة المدافع المتواصلة منذ شهر ويزيد،

– أعدي الغداء، فقد جاع الضيوف ولا شك!

وكنتُ أفكر بالذين ذهبوا ويذهبون. بالأحياء وبالأحبة الراحلين وبما آل إليه

Twitter: @ketab_n

أمر صبلاخ. هذه البلدة الطيبة، من كان يصدق أن محنتها ستنتهي بها إلى أن تصبح وكرًا لأكلة لحوم البشر؟! وسقطت صخرة ثقيلة أخرى فوق أكداس الصخور الرابضة على كاهلي. ليتني استطعت أن أُطعم كل هؤلاء الجياع...! ليتني استطعت أن أمنع هذا الموت الأشد دمامة، لكن مخازن الطعام في بيتي أخذت تتضاءل مذ أضحت صبلاخ قمقمًا، منغلق صمامه على ما يشيب له شعر الرُضّع، ما أثقل العبء! إن أفواهًا كثيرة تأكل مما يحتويه هذا البيت من طعام! ولو نفد قبل نهاية هذه الحرب اللعينة، فسنفقد رأس المالَيْن. النقود والطعام. نفد المال، لو تعرفين يا أسمر! وتذكرتُ أفواهًا ثلاثة ثَكَلْتُهَا فما عادت تشاركنا طعامنا هذا، وبرزت أمامي سحنة شيطان رهيبة تكشف عن أنيابها. وسمعتُ صوته يقول لي «قد أرحتك من مؤونة ثلاثة فاشكرني!» وانتفضت مفزوعًا ولعنته «أُخزيك يا إبليس! أُخزيك يا شيطان!» ولعنت الروس والعثمانيين والألمان والشاه والإنكليز، وأشرار العالم. وكان السماط قد نشر وعمر بالأطعمة، من كل صنف ولون. ودعوت ضيوفي مير علي وأهله. وتكوّم أبناء بيتي حول السفرة، وإذا بصوت خافت لكنه مهدّد يتناهى من السطح،

– إرفعوا أيديكم عن الطعام. ومن يمد يده إليه فسأقتله بهذا المسدس.

إنسحبت الأيدي وارتفعت الأنظار إلى أعلى. حسن بوزورك الفتى، كان هناك، شاكي المسدس، لا تكاد أصابعه تقوى على حمله، يحاول تصويبه فيتراقص بين يديه، وهو ينازع ويتأرجح كسكير قد شرب قرّابة خمر كاملة، ونحن جميعًا قد أُصبنا بالخرس في لحظة المفاجأة، ومرت هذه اللحظة فهتفت،

– إنزل يا بني والطعام كله أمامك!

هبط الدرج يتساند ويلهث ويتأرجح. وكلما اقترب كلما خشيتُ ألاّ يصل إلى الطعام. تهامس الجميع بإشفاق حزين. حسن بوزورك الفتى المدلل، نحيف هزيل ويتمايل ضعفًا وإعياء، يحمل على وجهه شحوب الموت. كان المسدس ما عتم بيده، ويتأرجح معه. لم يكن هذا إنسانًا حيًا. كان يبدو بعيدًا جدًا عن الحياة، وقريبًا جدًا من الموت. ولعنتُ نفسي والأحداث. كيف لم أفطن إلى جيراني الأقربين؟!

Twitter: @ketab_n

- كل يا بني!

فقال بصوت يعاني من نصف إغماء،

- لن آكل حتى يسترد أهلي الرمق. سآخذ هذا الطعام كله إلى بيتنا.

حاول أن يحتوي السماط. فجأة ترنح. سقط المسدس من يده. عدت ولعنت كل شيء. سقط حسن بوزورك المدلل الغَنج..! سقط مبحلق العينين، أمسكت بيده. كانت شديدة البرودة، صحت،

- سأُطعمك يا بني، وأعدك بأن أهلك سيأكلون حتى تزول المحنة!

أخذتُ لقمة ووضعتها في فمه. لاكها بآخر أرماقه، حاول أن يزدردها.. لم يستطع. توقف الطعام في بلعومه.. وذرف أنفاسه الأخيرة.. هززته.. لم يشعر.. أنصتُ إلى صدره.. لم يخفق قلبه.. لم يتنفس. مات الصبي المسكين! حسن بوزورك المدلل لفظ أنفاسه جوعًا! ولعنتُ نفسي للمرة الألف. إستعرتُ صوته من الآخرة وقلتُ للجميع،

- اتركوا الطعام! أقسمتُ ألاّ يمد أحدنا يده إلى هذا الطعام!

لم يكن ثمة حاجة لطلبك وقسمك. كان الذهول قد جمدهم جميعًا. ثم حين حرّرهم من إساره. ساد ذعر ولغط الأطفال، وبكاء النسوة، وصعقة الرجال. أنت، كما قلت، قد «اندبغ» قلبك فلم تبك.

فججت لجج الموت وعدت إلى نفسك. نهضت، حملت صينية مطنبة. وقشنك حملت الصينية الثانية. لم تضيّع وقتًا. إخترت طعامًا خفيفًا قدر الإمكان. إستبعدت الأطعمة الضارة بالمعدات الخاوية. قلتُ لقشنك،

- اتبعيني!

حدقني الجميع بنظرة متسائلة، فقلتُ،

- منذ الآن ستشاركنا عائلة بوزورك الطعام، حتى يفرجها الله.

سألت أسمر،

- وجثة ابنهم المطروحة أمامنا؟!

فقلت بحزم،

- علينا أن ننقذهم من الموت أولاً.

ومضيت تتبعني قشنك:

* * *

Twitter: @ketab_n

كان باب آل بوزورك مواربًا . إستأذنت من ورائه، فجاء صوت الأب الخائر يقول «تفضل»، ولما شاهد الطعام حاول أن يغضب. أطفأ الوهن غضبه بسرعة فاكتفى بالقول بصوت عيّي،

– فعلها الولد اللعين إذن. سيكون حسابك عسيرًا يا حسن!

فقلتُ معتذرًا،

– الجار للجار وأنتم جيراني وأهلي، وضيوفي منذ الآن وحتى يفرجها الله!

ووضعنا الطعام، أنا وقشنك ثم خرجنا دون انتظار. وقلتُ لأسمر،

– حال جيراننا أسوأ حال،

فسألت،

– وابنهم الميت؟!

– لن يبقى أحد من آل بوزورك حيًا لو عرف بموته؟!

فتساءلتْ،

– وما العمل؟

– نودعه بغرفة خالية حتى يقويهم الطعام فيستطيعون الصمود بوجه الفاجعة.

تحسرت أسمر، وقالت كأنها تخاطب نفسها،

– كأن عزرائيل قد أقام في صبلاخ منذ دخلها الغرباء! لم يبق في البلدة بيت إلاّ وزاره. فمتى يرحل الأجانب ليرحل معهم عزرائيل؟!

في المساء عدت وقشنك وحملنا الطعام لبيت بوزورك.

كان هذا طعاما خصيصًا . أوصيت أسمر بإعداده خفيفًا لهم. لاحظتُ فارقًا كبيرًا على صحة الأب. إنحسر الوهن وعاد الغرور يحاول رفع رأسه،

– ما هذا؟ قبلنا طعامكم مرة، لكننا لن نقبل صدقاتك يا شلومو. وإن كنت مصرًا على خدمتنا فحتى متى؟ ثم أن كل شيء بحسابه أيها الجار.

رغم الإهانة التي اخترقت قلبي كخنجر، قلت،

– حاشى لله! فالجار للجار وقد أوصى نبيكم بسابع جار...

قال مقاطعًا،

– ذهب الولد ولم يعد. لا أدري ماذا أقول. لقد أقسمت، لأعاقبنه بمجرد أن

Twitter: @ketab_n

يعود، لكنني الآن بدأت أقلق عليه.

غصة أخرى أفحمتني. أأقول له أن ولدك الوحيد المدلل قد مات وهو مسجى في غرفة ببيتي؟! مسكين أنت وأمه وأخواته. الليلة لا ريب ستعلمون. ولكن دعهم يتعشون أولاً يا أبا سلمان. عدت على أعقابي وقشنك تتبعني كظلي، وتسألني،

- لِمَ لَمْ تخبرهم بموت ابنهم يا سيدي؟!

- هل أنقذناهم من الجوع لنقتلهم بالخبر المفجع؟

- ولكن...

فقلت مقاطعًا،

- أعرف يا قشنك. لن يبات الليلة عندنا. سأرسله إليهم بعد العشاء.

كيف؟! سقط هذا العبء الجديد فوق تلال الأعباء المتراكمة على كاهلي. سأكون من أنذل خلق الله لو أطعمتهم بيمناي وصوبتُ إليهم بيسراي الضربة القاتلة النجلاء.

وقلت لمير،

- مير! إحمل جثمان حسن إلى أهله وأخبرهم بما حدث!

ألقى إلي نظرة مستنكرة كادت تفترسني. قال،

- أنت تحمل لهم الطعام، وأنا أحمل لهم ولدهم الميت؟! يا لك من نذل حقير.!

صحتُ،

- تعرف يا مير إني لست كذلك! وتعرف كم حمل كاهلي هذا مؤخرًا من جثث الأحبة والأصدقاء. حتى رضا شقيقك جئت به ميتًا على كاهلي!

فصاح محتجًا،

- لا تذكره أمامي، عليه لعنة الله!

- وفلذات كبدي يا مير؟! ألم تكن شاهدًا على ذلك بنفسك؟! أولا تذكرك لحيتي التي ماعتمت مطلقة بأني ما زلت في حداد عليهم؟!

أُفحم شريكي. بدا ساهمًا، غائم الطلعة، وأخيرًا عرفت من خلال تساؤله، أنه اقتنع،

- وهل أنت متأكد من أنهم سيصمدون بوجه الفاجعة؟

Twitter: @ketab_n

فقلتُ،

- بعد العشاء بساعة، وليكن الله في عونهم، ولا تنس أن تحذرهم من دفنه في المقبرة. فليحفروا له قبرًا مؤقتًا في مكان آمن، ليصونوا جثته من أكلة لحوم البشر، إلى حين يفرجها الله!

فغمغم مخاطبًا نفسه وصبلاخ،

- ماذا فعلوا بك يا صبلاخ! ما عاد بيت من بيوتك يخلو من محنة وفوق ذلك، قد صيروا أهلك رغمًا عن أنفهم وحوشًا تأكل جثث موتاها. أما فضلك علينا يا شريكي فلن يُنْسَى! سأحمل هذا الفتى المسكين إلى أهله مكتسبًا بفضلك أيضًا أجرًا عظيمًا.

فهتفت بأسى،

- بعد الطعام، قل لهم أنه ضحى بنفسه من أجلهم وليصونوا جثمانه من أكلة لحوم البشر في صبلاخ!

* * *

أحست بأن شيئًا من ذاتها قد ضاع. شيئين. لكن هذا الأخير غض طازج وهي تبحث عنه في مجاهل العتمة.. إن شيئًا قد ضاع.. كبير كأبيها، كقلبها، كروحها. لماذا لم يأت؟ أين أنت يا حبيب الروح؟ كانت تعرف موعده. بالساعة، بالدقيقة.. بالثانية! كل ليلة. بعد أن تتناول طعامها المنتظر في مكانه المعهود يأتي حسن! يضيء عالمها الدامس في قلب هذه العتمة، حشود الظلام تنقشع، تنهزم، هي، لم تفقد عقلها. في هذه اللحظات تصبح أعقل إنسان في العالم. حتى قبل أن تفرض على نفسها احتباسها في أعماق ذهولها وفزعها هذا، لم تكن عاقلة بزهوها وخيلائها. إنها في لحظات لقائهما تخرج من «برجها العاجي» هذا، وتحيا بمواجهة الدنيا بأسرها وتعود لعقل لم تكن تمتلكه يومًا في حياتها، وهذا ابنه في أحشائها قد بدأ يشعرها بوجوده. كل هذه الأحاسيس الغريبة المتناهبتها حتى وهي معتصمة ببرجها هذا. ولكن لماذا لم يأت الأب الحبيب في موعده؟ اضطربت، فهل ستفقده هو الآخر؟! لم تشأ أن تصدق. بيد أن الرد لم يلبث أن طرق أذنيها كتلك القذيفة سارقة أبيها ومهدمة بيتها وجاعلة الناس يظنون بها

Twitter: @ketab_n

الجنون. جاءتها الزعقة المروعة من بيت بوزورك كالقصف المعتلج في الهواء. «حسن! حسن!» صراخ الشؤم هذا! إذن، فقدت قلبها مع.. لا، عقلها لم تفقده. إنها إنما تحتمي من بشاعة هذا العالم الذي لا يعرف إلاّ القتل والموت. بكت مع الباكيات هناك! تمتمت باسمه. مسحت على بطنها. هناك تكمن ثمرة الحب، في قوقعتها آمنة مطمئنة، الجنين الذي طالما أوصاها به خيرًا. ذلك الأب العزيز، كأنما أحس بأن ابنه سيولد يتيمًا فظل يوصيها بالمجاهرة بأبيه.

حسن! تتعالى الصرخات من هناك وتقوى في داخلها. وتهتاج. تنتف شعرها. تخمش وجهها. تضرب صدرها. تروح وتجيء.. تبكي! حتى يدهمها القيء، فيكاد يقتلع جوفها بما فيه، وتكاد هي تبحث في داخل البركة المغثية عن ذلك الجنين الصغير الصغير، النائم داخل رحمها. بل هي تبحث هناك في الظلام، أين الثقاب وأين الشمعة؟ كان يأتي بهما ثم يشعل الفانوس. هي ذي! هو ذا الثقاب! أفلحت في إيقاد الفانوس، والقيء تحت أقدامها بدلاً عنه. ودبيب يسري في كل أرجائها. تمسح على ذراعيها، على ثدييها، على بطنها، تهبط بكفها إلى أسفل. تعود وترتفع، ها هنا، ها هنا ابنها. إبنه. لقد حدثها عنه! أتراه سقط مع القيء؟ ولم هذا الغثيان؟! جرعة ماء! جرعة ماء! والزعيق هناك لا يتوقف. وحسن، حسن! أحقا لن يأتي إليها بعد؟ من ذا سيعانقها؟ من ذا سيُسكت هذا الدبيب الرهيب في رأسها وبدنها.. هذه العاصفة الهوجاء؟! من ذا سيسميها «يا حبيبتي» وأين ولده، أتراه ماعتم راقدًا هناك، أم أكلته مع الطعام، أم هبط مع بركة القيء؟ لماذا لا تعرف شيئًا؟ لماذا تختلط عليها الأمور؟ مطر في الخارج! مطر! السماء تبكي، وهي تبكي. برد؟ لماذا يتضبب كل شيء ثانية؟ لماذا تشعر بأن حزنها قد ازداد؟ وغضبها وحرمانها؟ لماذا تشعر بأشياء غريبة تستيقظ في جسمها كأنما من سبات؟! حسن! حسن! الزعقات في كل مكان. والمطر. والمدافع تدوي. هذه التي هدمت بيتها وقتلت أباها. ولعلها قتلت حبيبها. قتلتها هي. قتلت كبرياءها. عقلها. شخصيتها. غرورها، ثم بركة قيء أخرى! وخوف، وحزن. وبحثت عن جنينها. إشربي..! إبتلعيه من جديد! إحتضنيه في أحشائك حتى يولد! ابق هناك! وأمسكت ببطنها بقوة! لا تذهب. لا تمض كما مضى أبوك. لا ترحل كما رحل

Twitter: @ketab_n

جدك! لكن أظافر البرد حادة وتنشب في العظام، لن أتركها تمتد إليك. سأغطيك.! سأغطيك.! وتلفعت بفروة صوف. ووضعت فوقها بطانية. قاومت الحزن والخوف والغثيان وكل شيء. كل هذا الظلام بداخلها. ألن تأتي بعد يا حبيبي؟! لماذا يبكون وينادون باسمك؟ تعال غداً وعانقني. تعال لنغسل الثياب ونستحم! تعال.. وتثاءبت، وأنقذها الموت الأصغر فاستسلمت له راضخة، وأنقذها من وجودها المروع إلى حين.

في الأيام التالية، إشتد البرد. شيدت الماس لبرجها العاجي جدرانًا وأسوارًا، مضاعفة، واعتصمت بداخلها، بيد أن سواعد البرد طويلة وامتدت إليها. وأصوات المناحة في بيت بوزورك أطول. صمت أذنيها الزعقة المنادية باسمه. في أعماق أعماقها أدركت أنها فقدته. لم يأت بعد ولن يأتي. إلا أن أقوى الأشياء كان التغيير الطارئ على بدنها وبمشاعرها المبهمة، كل حواسها البليدة استيقظت. كل شيء مرهف ويخترقها كالإبرة، غثيان، واضطراب، وروائح تقتحم هذه الحواس المستيقظة. من خلال بلبلتها تتشهى أشياءً. تحفر في الجدران وتلتهم ما يتساقط من قشورها. أهو جنونها قد استفحل؟ لا. لا. فرغم اختلاط الأشياء عليها، ما زال بوسعها، حين تريد، أن تفكر، مسحت على بطنها. إبن المفقود الحبيب؟! إن ولده ما زال يرقد هناك، لم تتقيأه. أوصاها بالمحافظة عليه وبأن تلده سليمًا معافى، وتجاهر بأبيه وهي تشتهي أشياء، وتشعر بالوقت ذاته بأنها تريد أن تتقيأ أحشاءها. وجاء يوم السبت وتناهت إليها من بيت الجيران رائحة طبيخ فتحت شهيتها. من أطياف الأطياف عرفت الرائحة. إنها رائحة «تبيت التنوري» الدجاج المحشو بالأرز وقطع القوانص والطماطم والهيل والمبيَّتِ مُضمَّخٍ بالسمن والافاويه منذ يوم الجمعة على نار هادئة ليؤكل ظهر السبت.

هذا يوم السبت بالتأكيد. ثارت حواسها. كلها شهية لدجاجة محمرة محشوة بكل تلك الأشياء اللذيذة، وهي تقطر سمنًا أحمر. دافع أقوى منها جرّها إلى هناك. إلى بيت شلومو أبي سلمان. وجدت الباب مواربًا. تنصتت. بهدوء عاقل، وبعقل راجح تصرفت. على مهل وحذر شديدين فتحت الباب وتنصتت لم يكن ثمة أحد قريب. دخلت على عجل وبسرعة تهديها رائحة الطبيخ. رأت ثلاثة قدور على

Twitter: @ketab_n

كوانين في جانب مسقوف من صحن الدار. هرعت إليها معجلة، وبحواشي ثوبها رفعت إحدى القدور وعادت أدراجها كنمرة شرسة تتضور جوعًا. وسرعان ما تداعت مع القدر على ركام، بجانب بيتها المهدوم. وتلمظت. وسال لعابها. وافتضت غطاء القدر المختوم بالعجين، فلطمها البخار الممزوج بضوع عبير لم تستطع الصمود أمامه. ورغم حرارة الطعام الشديدة، دست يدها في القدر، ومضت تأكل بشراهة المشرفين على الموت جوعًا.

ويبتسم أبو سلمان بسمته الحقيقية الساخرة ويقول،

جاءت أسمر إليّ محرجة مرتبكة، مضرجة الوجه حياءً. حتى لتكاد تقول للأرض «إنشقي وابتلعيني!» وهمست في أذني،

– فديتك يا أبا سلمان، ماذا سنقول للضيوف؟ قدور «التبيت» ناقصة قدرًا!

لم أستح من الضيوف مثلها. يمكن أن يفهم مير وأهله، يأكلون هم «التنوري»، ونأكل نحن ما تأتّى من طعام غير مطبوخ. من جبن وعسل أو أي شيء آخر. لكنني استغربت وثار فضولي، آل بوزورك يشاركوننا الطعام والماس تحظى بقوتها في موعده ولن يجرؤ أحد على الدخول.

– أكان الباب مفتوحًا؟

– وما زال.

فتساءلتُ،

– هل أخذتم الطعام للمسكينة؟

فقالت أسمر مرتبكة،

– انتظرت أن أصب الطعام، فأرسل لها وجبتها...

شيء ما وجه أفكاري إليها. خرجتُ من البيت مسرعًا نحو شبه خرابتها. عندما اقتربتُ رأيتها فأخفيت نفسي عن أنظارها. كانت جالسة على ركام الغرفة المهدومة. القدر أمامها وهي تلتهم الدجاج بشراهة. دهشتْ. فسلوك ألماس يوحي وكأنها لم تأكل شهرًا كاملاً. عدتُ مسرعًا دون أن تشعر بي. أخذت أفكار غريبة تعتلج بدماغي. رعشة البرد نبشت في رأسي حقائق وافتراضات شغلتني عنها الأعباء الباهظة. لماذا تفعل ألماس هذا، وأنا حريص على أن تشبع كل يوم؟

Twitter: @ketab_n

ولماذا تأكل هذا الطعام بنهم من لم يذق الطعام؟ وهل أقوم بواجبي كاملاً إزاء المسكينة؟ هل الطعام وحده يحميها من البرد والثلج والغرباء؟! الغرباء! توقفت عند الغرباء. من يضمن أنّ الغرباء لم يقتحموا عليها خرابتها المفتوحة أمام كل إنسان؟! لا باب يوصد هنا ويحميها! راودتني مخاوف وشكوك كثيرة، فاتحت بها أسمر بمجرد أن دخلت إلى البيت،

– الفتاة تتصرف، تصرفات غريبة.

سكتت أسمر فأردفت،

– صحيح أنها مصعوقة وذاهلة منذ قُتل والدها، لكنها ليست مجنونة.. إنما وضعها هذا يجعلها عرضة...

– عرضة لماذا يا أبا سلمان؟

– للإعتداء على عفتها يا أسمر.. وأخشى..

فتساءلت بذعر،

– مم يا أبا الأولاد؟

– من انها تتوحم.

– أتقصد أنها حامل؟

– المكان الذي تعيش فيه، لا يحميها من الغرباء، جندي، عابر سبيل أو حتى واحد من الجيران.

فقالت بصوت مرهف هلع،

– أخبرتني قشنك بأنها رأتها وهي تضع لها الطعام تتقيأ، ورأتها أيضا تقشر الحيطان وتأكل قشورها. وكل هذا في الآونة الأخيرة. فقط.. وتذكرت. قالت قشنك، أنها رأت جارنا الذي مات، يتسكع قرب بيتها. رأته مرارًا وكأنه يهم بالدخول على ألماس.

غضبي تصاعد. فار دمي، فهتفت،

– لماذا لم تخبريني بهذا يا أسمر؟

إصطبغت لهجتها بنبرة اعتذار عميقة وقالت،

– لم أرد أن أشغلك بأمر ألماس ولديك ألف شاغل ومشكلة.

Twitter: @ketab_n

تحفّزت. عدتُ وغضبت. كان غضبي على نفسي، أكبر من غضبي على الدنيا. من الجائز جدًا أن مخاوفي في محلها. وأن المسكينة قد اغتُصبت. وإذن، فكرتُ بأن أحل مشكلتها بالطعام وحسب. هذا الطعام الذي أصبح هوسي الأكبر مذ أضحيت أُبشر له وأدعو لشرائه..

– لقد كان يجب أن نحمي الفتاة يا أسمر. كان يجب أن نصر على الإتيان بها إلى هنا. لكننا تركناها، بعد رحيل والدها، تعيش في الشارع، فارتكبنا بذلك خطيئة لا تغفر.

فقالت بحنان وعتاب،

– أنت تحمل نفسك فوق طاقتها يا أبا سلمان.

قلت غاضبًا وجازمًا،

– الحق أني حملّت نفسي إثمًا فوق طاقتي إذ تركتُ هذه البنت المسكينة تحيا تحت رحمة الشارع ومخاطره الجمة.

فتساءلت،

– وماذا تنوي أن تفعل الآن؟

– سآتي بها حتى لو تشبثت هذه المرة بحائط المبكى.

* * *

Twitter: @ketab_n

(خاتمة المطاف)

بكر الشتاء والمطر فتساقط مع القذائف المجنونة. وخلال أسابيع قليلة تبادل الطرفان المتحاربان البلدة مرارًا عديدة، فأصبحت كحذاء خلق يخلعه الروس فينتعله العثمانيون، ثم يخلعونه فيعود الروس ويضعونه في أقدامهم وهكذا دواليك. إستمر هذا حتى بدا أن الجيش العثماني قد اندحر وطُرد بعيدًا وأن الأخطبوط قد بترت سيقانه وتقلص فلم يبق منه غير جسمه. وبقي الروس في صبلاخ، وقال لي مير،

– يبدو أن الأمور قد هدأت ولم يعد الروس يقتلون المسلمين وقد حان الأوان لترميم بيتنا وتنظيفه والعودة إليه. لقد كلفناكم عبئًا ثقيلاً يا شريكي.

فابتسمتُ وقلتُ،

– تمهل ولا تتعجل الأمور يا مير. لم تنته الحرب بعد، أما المذابح المتبادلة فحتى إن كانت الآن لا تشمل صبلاخ، فإنها في أماكن أخرى على أشدها. والجوع يفتك بالملايين. ألا تسمع الأخبار يا أبا محمد؟!

سكت مير، وانداح بطن ألماس المسكينة رويدًا رويدًا. وكان من الواضح أنها حامل. وأنها تكتم سرًا لا يعرفه إلاّ الزمن الشاهد، وهي والرجل الذي اقترف الجريمة. أصرّت على الصمت وهي تحتضن بطنها المنداح هذا، بحب وحنان. وفي يوم من أيام أكتوبر هاج الروس وماجوا في أرجاء صبلاخ. غنى جنودهم ورقصوا وشربوا ما تيسر من الخمر، فثمل بعضهم، ثم حطموا أبواب كل دكاكين ومتاجر البلدة وأشاعوا محتوياتها لأهالي صبلاخ. حزن مير وقال لي،

– مخازننا يتناهبها الناس ومن بينهم زبائننا. ألا لعنة الله على الروس! لم يكتفوا بالمذابح فاستباحوا أموالنا أيضًا!

فقلت له،

– أنا لم يبق لي غير البستان وهذا البيت ومحتوياته و... من حسن الحظ أنك أنقذت أموالك وستستطيع البدء من جديد حين يُشفى العالم من جنونه.

Twitter: @ketab_n

عانقني وقال بلهجة الشاكر،

- أنا مدين لك بمالي وحياتي، فلولاك لما كان لي مال ولا حياة. كم أتمنى أن تنتهي هذه الحرب لنبدأ معًا ثانية من حيث توقفنا؟.

هذه البسمة الملعونة! إنها لا تفارقني وهي تفضحني أحيانًا. عادت إلى وجهي شاحبة مستهزئة.

- تريث يا أبا محمد، تريث! ثم من أين نبدأ لو كتب علينا أن نشهد نهاية هذه الحرب؟ لقد تغير كل شيء يا مير. الناس في كل مكان فقراء وجياع. الدول العظمى جائعة بذاتها. روسيا بولشفية والإمبراطورية العثمانية تلفظ أنفاسها وتعاني سكرات الموت، ثم أني ما زلت أرى أكثر من عاصفة ستهب. ألم أقل لك تريث يا مير؟

تساءل مندهشاً،

- ماذا تعني يا شريكي؟ إنك تخيفني وأنا لا أفهمك، رغم أنك لا تقول شيئًا إلا وتحقق وكأنك نبي عالم بالغيب.

قلتُ جازمًا،

- صدقني. إني لا أعرف غير ما يعرفه الجميع. لكنني ما زلت أوجس بزوابع قادمة. غامضة الكنه، فتريث يا أبا محمد ريثما تجتازنا العاصفة فتكشف لنا عن وجهها.

إن أحداثًا جسامًا تقع من حولنا، معارك ضارية ومذابح مروعة في الأفق البعيد القريب. وجليد كثير يهطل على صبلاخ بيد أن النار واقدة في قلوب أهلها- نار الثكل ونار الحقد ونار اللوعة والغضب وأشياء كثيرة أخرى.. وستظل هذه النار تشتعل في ذاكرة كثيرين لا تخبو حتى تخبو الذاكرة نفسها في غياهب الموت. وكانت نار الأمل تستعر في رأس وقلب حسن جاقماق فتملأهما همة ونشاطًا، ولا يكف عن اتصالاته برفاقه الأقربين والأبعدين. البولشفيون أقاموا سوفييتًا في تبريز. بيد أن الأحداث الخطيرة الجارية من حوله جعلته وأصحابه في حيرة شديدة. تتوالى هذه الأحداث بسرعة مدوخة، وتتناهى إلى الأسماع أخبار عن مذابح مروعة يرتكبها العثمانيون والروس على حد سواء وتنتشر

Twitter: @ketab_n

المجاعات في كل مكان كوباء فتّاك. تروى الأحداث الجارية كالأساطير المخيفة. وقال من قال «حتى لو كان المسلم بلشفيًا فهو مسلم قبل كل شيء» تحفظ جاقماق وأعوانه من هذه المقولة، بيد أن ميل مسلمي أذربيجان إلى العثمانيين وتزايد المشاعر القومية الإسلامية فيها كان يبررها. أُسقط في يد جاقماق. قال «لن أتخلى عن مبادئي بسبب مشاعر قومية رخيصة» وقال أيضًا ككثير من أكراد صبلاخ إننا أكراد ولسنا آذريين رغم أن القدر شاء أن يضع بلدتنا في هذا الموقع ليحملنا أهوال هذه الحرب القذرة، لكن نار الحقد كانت، رغم الأحداث المهولة، تضطرم في قلبي الأخوين حاجي زادة. أحقاد شخصية أخوية، كجروح فاغرة شبيهة بفوهة بركان.. تتلاطم بداخلها حمم ملتهبة على وشك أن يتقيأها هذا البركان. كان هذا حقدًا أكبر من كل ما يحدث من حولهما. أكبر حتى من ملايين قتلى هذه الحرب. ومن آلاف الأبرياء الذين ذُبحوا. نساءً وشيوخًا وأطفالاً ولم يقترفوا ذنبًا. وأكبر من المجاعات الفتاكة. في هذه الحرب انكشفت عورات الناس. وسقط القناع عن وجه الإنسان وبان على حقيقته البشعة، وظلّ مرتضى حاجي زادة يتساءل على مر الأيام والشهور، لا ينسى أبدًا، «أأنا منْ يُرغم على السير على أربع؟! أأنا يصنع مني حمار مدار وتُعصب عيني وأدور حول رحاء الطاحونة ويُجلد ظهري وأُطعم من علف الحيوانات؟!، أأنا حمار أبله يا وغد الأوغاد، يا ولي حاجي زادة؟!» وظل ولي يتساءل «أأنامن تُحرق له أمواله في غرة من أمره والمال جزء من الروح؟ والمال قوة؟ والمال حظوة ونفوذ؟!» «أأنا؟!» و«أنا!» مفتاح هذا العالم! صراع هذا العالم. صراع الحمقى. صراع مجانين مصابين بهوس الإجرام. والمفتاح أيضًا مجرد حجة. وهو ذريعة أوهى من نسج عناكب لكن نتائجها نيران ودماء ودمار.

يتراكم الثلج في الطرقات، بيد أن النار تحرق قلوب الناس. مدافيء تبث في الأعطاف الأحزان واللوعة. وكانت كول تعرف أن زوجها لم يفتأ محترقًا في حرب أخوة مصدرها الأول شهوة محرومة إلى السلطة، لكن السلطة في صبلاخ كانت بيد الغرباء والموت والجوع. كانوا يأتون إليه الآن في وضح النور. قتلة وقطّاع طرق ورعاع، من خارج صبلاخ. وكانت أصواتهم تبلغ أذنيها وهي تجاهر

Twitter: @ketab_n

بالحرب والحرق والنهب والقتل. ولم يكن مرتضى بعد يطمح بالسيطرة على مصير البلدة المنكوبة. كانت الفوضى قد حسمت الأمر. كان يتذكر فتغيم عيناه. ويلمس أعلى ظهره فيغيب عقله. كان مهووسًا بالثأر وفي أعماقه شيطان يجأر ويطالب بمزيد من آلام ولي ومن إتلاف أملاكه. بل ويريده هو بالذات. لا يشبع ما لن يقطع دابر الأخ الملعون.. وفي هدأة الليل تقول كول لمرتضى وهما على فراش الزوجية،

- حتى متى تحارب حربك الشخصية هذه يا أبا أولادي؟! أفلا يكفي أن الدنيا من حولنا بحر من دم يتلاطم ونحن يتهددنا الجوع؟!

يأخذ مرتضى بيد زوجته ويمر بها على ظهره ويقول بألم،

- حتى تزول هذه الندبات يا كول!

تتحسر كول ألمًا وتقول،

- ليس مثلي من يفهم ألمك ومعاناتك، لكن الدائرة مفرغة لا نهاية لها.. وقد تبتلعنا كلنا بداخلها.

- لن يغمض لي جفن حتى يزول ولي عن هذا الوجود.

- هو الآخر يقول هذا عنك، وكلاكما ينوي إبادة الآخر.

- إذن نموت معًا، ونُدفن معًا، ياكول.

فجلست كول على الفراش وهمست بتوسل،

- وأولادك، وأنا، وأصحابك وأقاربك، وأهل صبلاخ المحتاجون إليك؟ انظر إلى أين تدهورنا يا أبا أولادي.. مع من تتعامل ومن أصبح يأتي بيتك. وأعوانه مثل أعوانك والكل لا يتورّع عن إحراق وعن قتل أو سلب الآخر. أفلا يكفي ما يفعله بنا الغرباء؟

أولى مرتضى، كول ظهره وشخر بعد لحظة. لكن أهالي صبلاخ بدؤوا الآن يعانون من لعنة أخرى انضمت إلى باقي اللعنات، فقد دارت حرب الأخوين حاجي زادة في أطراف البلدة وبداخلها، واحترقت حقول وبساتين الناس، وازداد دمار صبلاخ، إذ دارت معارك أعوان ولي وأعوان مرتضى في شوارع البلدة وأزقتها. حتى قالت أسمر لي،

Twitter: @ketab_n

- لم أعد آمن خروجك بالصباح الباكر يا أبا سلمان، فابق بالبيت ولا تتركني فاقدة العقل منذ ذهابك وحتى إيابك.

فرسمْت على وجهك بسمتك الشاحبة هذه، وكانت في الأرجح شديدة المرارة وتنضح ألمًا، حاولتَ إخفاءه وغمغمتَ،

- لقد حملوني مسؤولية كبيرة وسأظل أحملها حتى ألفظ آخر أنفاسي. ثم أن لي مهمة مقدسة تعرفينها جيدًا يا أم البنين. لا بد من تلاوة «القديش» على أرواح الأحياء صباحًا وعصرًا وعشاءً حتى انقضاء العام.

كنتَ تحمل الفانوس وتخوض بحر الجليد المتراكم. تغطس فيه ساقاك إلى ما فوق الركبة. ومنذ تجمدت قدماك وأنقذك روث البهائم في «الطولة» ضاعفت من حماية قدميك بطبقات من جوارب صوفية طويلة. وبغطاء لحذائك، لكنك تصل الكنيس مقرورًا. تنفض رذاذ الجليد عن ثيابك وتوقد المدفأة وتضعها بين ساقيك كما تفعل الآن. وأنت تعود أدراجك نحو نصف قرن لكن القلب لا يدفأ. وهو يضخ دمًا لا حرارة فيه. الأحزان كثيرة. وجروح القلب كثيرة. وأسمر لا تعرف أشياء كثيرة. حتى الكنيس هذا الذي كان يفعمه رواده ويغص بمصليه، فلم يكن ثمة حاجة لمدفأة آنذاك، أخذ الآن يفرغ من رواده، وغدا مجيء الرجال العشرة اللازمين لصلاة الجماعة وتلاوة القديش أمرًا لا يتحقق إلا بدعاءاتك، وإذ يكتمل النصاب وينضم إليه مصلٍ واحد أو مصليان، تحمد ربك، وتعتبر ذلك لطفا منه بك بالذات، وبأحبائك الموتى. كلا. لم يكن سبب قلة المصلين تخلي يهود صبلاخ عن ديانتهم، بل لأن صبلاخ أخذت تخلو منهم. وحتى إخوتك الثلاثة هزمتهم ظروف مسقط الرأس، فاعتزموا النزوح منه إلى أخوالهم في اصفهان. وعلى الفراش في الليل، رأتك أسمر قلقًا تتقلب في مرقدك وكأنه غدا أنصالاً من تحتك. حزنت أسمر، إذ لا شيء يفوت أسمر من أمرك، وكما تقول أنت دائمًا، أن الله يحرسك من فوق وهي تحرسك من أسفل.

- ماذا يشغلك يا أبا سلمان؟!

فتنهدتُ وقلتُ،

- أشياء كثيرة يا أسمر! أشياء كثيرة يا أم البنين!

Twitter: @ketab_n

فتوسلتْ كعادتها،

- إفتح لي قلبك يا أبا سلمان وأرقْ همومك في قلبي، فكلي آذان صاغية إليك.

ماذا أقول وماذا لا أقول، وقد تعودت على كتمان همومي؟

كانت الأشياء في داخلي كالنهر الطافح، ليس بالماء بل بشجون مسمومة قتالة، قلتُ لها،

- صبلاخ تفرغ من يهودها، معظم من نجا من يهود البلدة يرحل عنها.

فقالت وكأنها تطرح بديهة،

- هذا عين العقل يا أبا سلمان.

فأضفت متجاهلاً قولها،

- حتى إخوتي الثلاثة قرروا النزوح مع عوائلهم إلى أخوالي في أصفهان.

قالت متحمسة، ومتوسلة في آن،

- لنذهب نحن أيضاً إلى حيث أهلي في العراق.

وتجاهلتها مرة أخرى وواصلتُ قذف همومي من جوفي وكأنني أقذف من معدتي طعاماً فاسداً،

- والطعام ينفد، والمال ينفد معه يا أسمر.

نسيت أسمر حماسها الطارىء وهمست متشكية،

- ضيوفنا أكثر منا، وفوقهم عائلة بوزورك وغيرهم كثيرون.

فعاتبتها،

- أأنت تقولين هذا يا أسمر؟! أياك حتى أن تفكري بهذا! لقد أوصانا ربنا بإقراء الضيف وإغاثة الجائع، وما نفعله شيمة من شيم الإنسان وطوبى لمن أنقذ نفساً، وألف طوبى لمن أنقذ كل ما يستطيع من أنفس!

- لكن الطعام ينفد وما من طعام حتى في تبريز..

فقلت بإصرار،

- حتى لو بقي عندنا رغيف واحد، فستتقاسمه كل هذه الأنفس يا أسمر.

فقالت بخوف،

- وماذا لو نفد الرغيفُ الأخير؟

Twitter: @ketab_n

جاد الروس على المواطنين بسلع المواطنين أنفسهم. إنهم يجاهرون بالإشتراكية، فليهتموا بتوفير الطعام للناس في «مناطقهم المحتلة.» لكن الواضح أنهم بأنفسهم لا يملكون طعامًا. وكل هذا وما زالت الأطراف المتحاربة مصرة على القتال وارتكاب المذابح وجلب الدمار على الجميع. ولم أر في هذا الظلام الدامس غير نور الله، فهمستُ،

– الرب سبحانه يفعل ما يشاء. فنامي يا أسمر واتركي الأمر للسماء!

ورغم هذا سمعت عقلي يطلق صرخة متذمرة، متضرعة، صامتة «تعبتُ! تعبتُ!»

* * *

مساحات شاسعة صبغتها عيون السماء الباكية بدموع باردة ناصعة البياض. مساحات شاسعة ناصعة البياض، لكنها ملطخة بأنهار من دماء الأطفال والشيوخ والنساء، آلاف من البشر يذبحون في بيوتهم كالسوام. يد البغضاء عالية منتصرة. رجفة الرعب زوبعة تعصف بالملايين. ومشاعر كثيرة تستْعر، وثورات تقوم، وأحزاب من كل صنف ونوع، حتى في صبلاخ المسكينة لا تستكين المشاعر. وعواطف شتى تلهب شبانها المراهقين. وكثيرون يجاهرون بالتعب، تعب تهمس به أفكار شلومو له سرًا، فلا يحاول أن يُكذّبها أو ينكر، لكنه يحتفظ بالسر لنفسه ولا يبوح. لقد حمل الدنيا على كتفيه. في الماضي قرأ المستقبل ككتاب مفتوح وينتهي الكتاب، لكن النهاية لم تكن فيه. كان أبو سلمان واثقًا من أنه سيصمد في كل المحن حتى نهايتها، ثم يعود إلى بناء المستقبل. هنا في مسقط الرأس، صبلاخ. وها قد هل عام ١٩١٨ وما زالت المعمعة محتدمة، والكتاب مسدود لكن الحكاية لم تنته بعد.

بلشفية، مانشبيكية، مثبِّتون، حماة، عدالت، اشتراكية، شيوعية، إسلاميون، منحازون للروس، متعاطفون مع العثمانيين، والحرب، والمخاوف، والمجاعة، والمجازر، والفرار، وصبلاخ ينزح عنها أهلها وحتى الأخوة قد ذهبوا. وهو على عهده، يترأس النخبة الباقية من يهود البلدة ومازال يفتح الكنيس كل صباح، فلا يلتقي إلا بعدد قليل من يهود البلدة ما زالوا متشبثين بتراب أرض الجدود والأباء

Twitter: @ketab_n

والطفولة والبلوغ. صبلاخ الحبيبة المبتلية رغمًا عن أنفها، وفي البيت العائلة والضيوف، والطعام أخذ نقصه يبدو ملموسًا، إذ لا شيء يدوم غير الحي القيوم. أوصى أسمر بالإقتصاد. وأتخذت أحاديثه مع مير مجرى الأحداث. كان مير يميل دائمًا للعثمانيين، وحتى المذابح البشعة المرتكبة على يد الجيش العثماني وجد لها ما يبررها، وفضلاً عن ذلك فإن النظام الروسي الشيوعي افتتح حكمه بمذابح أشد فظاعة. لكن أبا سلمان لم ير من حوله سوى الفوضى. فوضى سيعجز المؤرخون فيما بعد عن إماطة ضبابها عنها، والتحدث عما وقع فعلاً.

إنهم سيختلفون حتى في تحديد وقائع تلك الفترة وتواريخها وأسبابها وسيفشلون في تحديد ذلك تحديدًا دقيقًا.

حتى مكث الحديث عما وقع في سنوات الحرب أو شهورها الأخيرة في هذه المنطقة بالذات مصطبغًا بآثار هذه الفوضى وباختلاف في التوثيق وتباين شديدين.

وفي آذار وصلت أخبار عن أن الرعب ساور مسلمي باخو وعن فرارهم الجماعي من عاصمة أذربيجان. وبينما كان هذا الرعب في أوجه، تناهت داخل بيت أبي سلمان صرخات رعب من نوع آخر، صادرة عن غرفة ألماس. كانت المسكينة طوال الشهور الأخيرة تحنو على بطنها بعاطفة جياشة وبحب عرم. نظرت أسمر إلى فاطمة نظرة حنان وهمست،

– يبدو أن المخاض قد داهم ألماس.

دخلتا عليها فوجدتاها ممسكة ببطنها المنداح، تتلوى، وعلى وجهها سمات الفزع الشديد. هرعت قشنك إلى تسخين الماء، ومن خارج الباب المغلق إنبعث الصراخ، صراخ ذكّرني، أنا الزمن، بصراخ ألماس يوم سقطت القذيفة في بيتها. يوم دُفن والدها تحت الأنقاض. يوم استحالت، من فتاة متشامخة بغرورها إلى شبه إنسان أو إلى إنسان مهزوم خائف. وفي داخل الغرفة، خاضت المرأتان، أسمر وفاطمة، معركة طاحنة من أجل الحياة، وإذ دخلت قشنك بالماء الساخن للغرفة إنضمت للمرأتين في هذه المعركة الخيّرة. كان لا بد من تثبيت ألماس الهائجة، كان لابد من إنقاذ حياتها وحياة الجنين... ألماس! ما أفظع الحرب!

Twitter: @ketab_n

كانوا يقولونها في كل مكان، ولكل ألم ولكل مأساة وفاجعة وشيجة بها لا تنفصم. حتى ولادة ألماس، هذه العجيبة، ولادة لم يعرف أحد بعد من كان مسببها. كانت الحرب شريكة مباشرة لها ولهذا المسبب، ألماس! إهدئي يا حبيبتي، يا مسكينتي! يا...

من كان يتخيل أن هذا ما سيحدث!

دخلتُ البيت فاستقبلني الأولاد بالبشرى،

– ألماس تلد! الماس تلد!

سبقهم إليّ صراخها المميز. صراخ الألم. صراخ المخاض. صراخ الخوف من شيء مجهول.

كان مير جالسًا في الطرف الآخر من الحوش يحدق بالفضاء. بدا لي أنه يكلم نفسه في صمت. لم أستغرب. مر زمن مذ شرع الناس يكلمون أنفسهم في هذه البلدة. يضربون أخماسًا بأسداس. ويشرعون أيديهم وكأنهم يجادلون شخصًا غير منظور. أحيانًا يشمّرون عن أردانهم، ويتشادّون مع أشباح خافية عن العيون. قلتُ له متنهدًا،

– إنها تلد أخيرًا، هذه المسكينة.

كأنه لم يسمعني فسأل،

– ما الأخبار في الخارج يا شلومو؟

فقلتُ،

– من الخير ألاّ تعرف يا مير. الظلام ما زال يجلِّل الآفاق رغم وضح النهار،

وصمتت أصوات الصراخ الفظيعة القادمة من «غرفة الولادة.» صمتت تمامًا حتى خفتُ من أن تكون ألماس قد لفظت أنفاسها، ولكن أين صوت أسمر وصوت فاطمة؟ لو كانت ألماس قد خمدت إلى الأبد، لتعالى صوت زوجة شريكي وصوت زوجتي. لا. لم تمت ألماس. فأنا الزمن الشاهد كنت في كل مكان، أحتوي الكون. في كل موضع لي عين، وفي تلك الغرفة الموصدة كانت لي عين كذلك. لم تمت ألماس بل وضعت طفلاً ثم خفت صوتها إعياءً. كان الطفل ذكرًا، فرحت المرأتان ثم هلعتا. كل منهما أنجبت «ثلاثة بطون.» فما بال الطفل لا يصرخ، ضربته أسمر

Twitter: @ketab_n

على ظهره، ورفعته فاطمة، قدماه بيديها ورأسه نحو الأرض. باتجاه المشيمة، وبحركة عنيفة أعادته إلى وضع طبيعي. وحينئذ ارتفع صراخه مؤذنًا بقدومه إلى هذه الدنيا. كادت تزغرد المرأتان. إلاّ أن الحزن كان لا زال يعم البيت، يعم الحي، يعم البلدة كلها، يعم جزءًا كبيرًا من العالم، كانت الفرحة مكتومة، مخنوقة، يحل محلها شغل شاغل وهمة. يُنظّف الجنين. يُقمّط. المكان كله يُنظَّف. ألماس تستفيق من إعيائها، يداها تجوسان. البطن المنداح قد هبط. أين بطني؟ أين جنيني؟ خذي يا عزيزتي! هذا ولدك يا عزيزتي! إنها تجسُّه بيديها. تأخذه، بحركة غريزية إلى ثديها «سبحان الله!» تقول فاطمة «فعلت هذا رغم ارتباكها وبلبلتها!» أسمر ترد عليها «انظري، بلا تشبيه، إلى الحيوانات في الزريبة. هذه حكمة الله» فتظل فاطمة تردد «سبحان الله! سبحان الله!»

ألماس تربت على وليدها! الماس تغمغم من خلال نصف غيبوبة «حسن! حسن!» كلمة ملهوفة، تثقب الصمت وتُخرس الكلام، حسن! حسن! حسن!

حسن؟! من هذا الذي تناديه ألماس، هذا الذي تلهج بذكره بكل هذا الحب المنبثق عن الإعياء والذهول؟!

في الليل حدثتني أسمر عن ذلك مستغربة. كنتُ قلقًا. التعب أخذ يتغلغل إلى كل خلايا جسمي وروحي. هذا عبء آخر جثم على كاهلي. إن كلام أسمر قد أيقظ في نفسي شكًا عارمًا.. لعل الماس كانت تعرف الأب، وإنه لم يكن مغتصبًا عابرًا. وأنا، كم كنتُ أريد أن أتبنى هذا الطفل، وأعتني بأمه وأسميّهُ «ناحوم؟!»

قلت لأسمر،

– سأختنه في يومه الثامن، ككل طفل يهودي!

فعادت تقول،

– من هو حسن هذا؟ وهل عرفت ألماس أحدًا اسمه حسن، فلا تكف عن ترديد اسمه مذ وضعت؟!

تنهدت متعب الجسم والروح وقلت لها،

– قد سمعنا أشياء من قشنك، وسأقررها فلعلها تخفي أشياء أخرى.

كان الختان متواضعًا. أرجأت تسمية الجنين، وفي الواقع فإن ألماس كانت

Twitter: @ketab_n

وهبته اسمه منذ أول لحظة. أما «ناحوم» فلم يغرب عن بالي لحظة.

إن لدينا اليوم بعد مضيٍّ نحو أربعين عاما على هذه الاحداث أكثر من «ناحوم» واحد و«يهودا» أبي أيضًا. أبناء مريم وصيون. يومئذ تجاذبتني أشياء مؤلمة. إستدعيت قشنك وقرّرتها أمام الجميع. أعرف أنك ذكرت حسن بوزورك مرارًا. قلت إنك كنت تشاهدينه يحوّم حول «خرابة» ألماس قبل أن يموت. كان ذلك يحدث في الليل، عندما كنت تأخذين لها العشاء. تقول أسمر، إنك كنت تغيبين طويلاً حين تذهبين لإعادة الصحون الفارغة. فاصدقيني القول يا قشنك. ماذا تعرفين؟ واعلمي بأن الكذب في أمر، شديد الحساسية، كهذا جريمة. إنها مسألة حياة أو موت. إن وجهك يا قشنك يصطبغ بلونين، شحوب الخوف وحمرة الحياء.

أنا، شلومو كتاني، أفتتوهمين أن بوسعك دفعي إلى اليمين حين يتوجب أن أتوجه يسارًا لأعرف الحقيقة؟ إنها تلعلع كالقرد. إنقطع لسان الملعونة. خرست لتُخلي ساحة جسمها لارتباك يتسم بالرهبة والخجل. هيا تكلمي ولا تخافي يا ابنتي!

تخافين؟! وتستحين أيضًا؟! جمسك قال هذا من قبل أن ينطقه لسانك. إني أعدك بالأمان، أما حياؤك فمن الخير أن تتخلي عنه لصالح الحقيقة، شجعتها. أخفتها. هددتها بالفلقة إنْ لم تقل الحقيقة. حذرتها من الكذب. إياك يا قشنك أن تُنقصي أو تزيدي حرفًا. قولي ماذا رأيت؟.. إتضح أن الملعونة كانت تخرج كل ليلة. ذريعتها بيدها دائمًا. الصحون. كانت غالبًا ما تتسلل دون علم أحد. في ساعات القصف المروعة. ثم تعود ومعها صحون عشاء ألماس الفارغة. تغيب ساعة أحيانًا. كانت تقف خارج غرفة ألماس المطلة على الشارع. من داخل الغرفة ينبعث نور وهي تكتسي بالظلام. كان حسن بوزورك يلتقي بألماس كل ليلة. لم تكن ألماس تنفر من حسن. كانت تستقبله بالعناق ثم... وارتبكت قشنك طويلاً وتلكأت.

الذي كان يحدث يخجلني. أستحيي من روايته! أحقًا يا ملعونة؟! تستحيين من الكلام ولا تستحيين من المشاهدة؟ تستحيين، وقد كنت تذهبين كل ليلة لتشاهدي ما يحدث؟! الفضول يا سيدي. الفضول. وإذن. تكلمي يا ابنة الكلب!

Twitter: @ketab_n

كان ينزعها ثيابها وينزع ثيابه. كان الطقس صيفيًا يومئذ. كانا ينامان معًا. أحيانًا يستحمان معًا. كانا يفعلان أشياء أخجل من ذكرها. كل ليلة نفس الشيء. كل ليلة ياسيدي.!

– وفضولك لم يشبع يا ملعونة؟!

فطأطأت رأسها، فأردفتُ،

– أتقسمين على أنك رأيت كل هذا؟

– أُقسم برأس والدي.

– بل بالمصحف يا قشنك.

– أُقسم يا سيدي وعلى رقبتي هذه.

ارتحت وتمزقت في آن. اتضح السر وانبلجت الحقيقة في الأرجح. كان المرحوم حسن بوزورك معروفًا بميله للنساء فكيف لا يستغل فتاة لا حول لها ولا قوة؟ أما قشنك فيجب أن تتزوج في أول فرصة، قبل أن ينتفخ بطنها هي الأخرى بدون زواج!

* * *

يا لهمومك المتراكمة! تحاول أن تخفيها فتفضحك، في غياب نومك، في شتات أفكارك، في اضطراب سكناتك، وهذا الهم الجديد، كيف تتخلص منه؟ ماذا ستفعل؟

تتفرس بالطفل. قسماته لم تتبلور بعد. لكنك ثاقب النظرة، تتخيله كيف سينمو، تسمع ألماس تلهج بحب جارف باسم «حسن.» تقسم قشنك بأغلظ الإيمان على أنها رأتهما، قبل موته، يتحدان كل ليلة. اليقين يرجح على الشك ولكن ضيفك الصغير الجديد، يمكن أن ينضم إلى أولادك، ويتربى بين كنفيك، ومع ذلك، فبجوارك بيت حل به الحزن، كما حل ببيتك نزيلا ولن يغادره حتى يوم القيامة، منذ خرّ في صحن دارك صريعًا، حسن بوزورك. هذا الشاب الغنج، المعروف في أرجاء صبلاخ كلها بأنه زير نساء، ولم يكن له هم سواهن. وألماس لا تكف عن الإبتهال لاسمه عوض الله، وهو لن يعود أبدًا. إن بمقدورك أن تطرد الحزن المقيم في بيت

Twitter: @ketab_n

بوزورك وأن تطعنه طعنة مفاجئة نجلاء. فتجبر قلوبًا قد إنكسرت وتعيد إليها بعض طراوتها. وتقول لك أسمر، وهي الساهرة على راحتك،

– افتح لي قلبك يا أبا سلمان، فحالك يزداد سوءًا وهمومك ما عادت تخفى على أحد.

– من ذا يستطيع الفرار منها في هذه الظروف اللعينة يا أسمر؟! إنها كثيرة ومتنوعة. وهذا الهم الأخير يقض مضجعي، بيد أنني اتخذت قرارًا. سيؤلمنا هذا القرار يا أسمر، وقد لا أغتفره لنفسي مدى الحياة. لكنني مع العدل يا أسمر. وثمة من سينتشله هذا العدل من حضيض الكارثة المروعة.

* * *

نعم يا أبا حسن. بوسعك اليوم أن تشتري الطعام بالمال، لكن هذا الحزن المقيم في بيتك..؟! إنَّ في بيتي وقع المكروه. افتداكم حسن بروحه يا كلَّ أهله. أراد أن يأتيكم بالطعام. مات وعشتم. نعم. ما أفظع المناقضة! تقولون إن الحياة قد أَفَلَتْ معه. وحزنكم المقيم هذا على الإبن الوحيد يفتت القلوب ولكن حسن لم يذهب يا أهله! قد أنجب حسن الذريّة والخلف!

أيها الأب المفجوع! أجل. ترك حسن حفيدًا لك، وإن كان قد لفظ في بيتي أنفاسه فإن حفيدك فتح عينيه في بيتي كذلك. من منزلي وصلتك بشرى أيوب ومنه نزف بشرى الحياة إليك.

أعرف أنك لا تفهم. لن تصدّق. تستغرب. ترتبك. تظنني أهذي.

فهل عرفت أن شلومو كتاني تخلى يومًا عن رصانته وجديته في مثل هذا الموقف؟! أسألتم، إلى أين كان يمضي المرحوم كل ليلة؟

قشنك خادمتي شاهدة، وستروي القصة، وليس قبل أن تضع يدها على المصحف وبه تقسم. هيا! أعيدي الحكاية يا قشنك ولا تحذفي منها كلمة. ومرة أخرى يتضرج وجه قشنك بحمرة مصدرها حياء جارف وتتلكأ. إنطقي، فشهادتك سوف تحيي هذه القلوب الهامدة المكلومة.

أما الأم فتتذكر اسمه دون هوادة. حسن صلاة في فمها. والطفل معبود

Twitter: @ketab_n

كأبيه. أُدخلي بهما يا قشنك. واحرسي حسن الصغير واحميه. كانت صورة حسن مجلَّلة بالسواد ومعلقة على جدار الغرفة الكبيرة. عدَتْ ألماس نحو الصورة. لثمتها بجنون. تبكي ألماس وتصرخ «حسن! حسن! جئت لك بابنك يا حسن! لم أنس وصيتك لي يا حسن! هو ذا حسن ابنك يا حسن!» وفي الغرفة ذهول. وفيها استغراب. والدهشة تطفح. ونظرات تتفرس في وجه الطفل الصغير، ودموع خرساء تتحدر على الوجنات.

قالت أسمر، بعد أن أرحت ضميري وسقط عبء واحد عن قلبي،

- خسرنا ألماس يا أبا سلمان، وخسرنا ابنها أيضًا.

فقلت وقد نبشتْ بي ألمًا آخر،

- خسرنا ألماس مذ خسرنا والدها، أما الابن، فلا شك لدي في أن حسن بوزورك أبوه، وقد عاد إلى أهله يا أسمر.

* * *

ما هذا، ومن يقف وراءه، وماذا سيكون؟ حتى حسن جاقماق إنقسم على نفسه، هل يتعاون؟ أيؤيدهم؟ أعلى الحياد يقف أم يعارضهم؟ الثامن و العشرون من آيار، أصوات من باخو تتصادى في العالم كله. «أذربيجان دولة ديمقراطية مستقلة بشطريها، الشمالي والجنوبي»، من يقف وراء هذا؟ الإنكليز؟ السوفيات؟ العثمانيون؟ الآذريون أنفسهم؟ لم يعرف، معرفة اليقين أحد. لكن أسماءً ذُكرتْ. واستيقظت البلدة المفجوعة على شعارات وراية وحتى عملة جديدة. فضل حسن جاقماق أن ينتظر. لكنه قال لأعوانه «إننا اشتراكيون بولشفيون وأكراد إيرانيون. وسننتظر حتى ينقشع الضباب.» بيد أن أهالي صبلاخ صبّحوا محتجين، العملة الأذربيجانية الجديدة من ورق وكيف يستبدلون الماس بالفحم؟!

قال لي مير

- مهما كانوا فإن سيماءهم تفضحهم، إنهم مزيفون ويريدون ذهبنا مقابل كاغدهم.

حمدتُ الله على أنه لمْ يبق ذهب لي، إنه لم يُبق لي ذهبًا ولا ورقًا. شكوت

Twitter: @ketab_n

لمير، على غير عادتي،

- أتتصور يا شريكي أن التعب لم يترك لي إلا اللهاث. وما عاد يهمني شروق الشمس أو غروبها؟.!

لكنه كان مصطاداً في شرك العملة فقال،

- وكيف سنتاجر غداً بهذا الورق؟ وهل سنحمل منه عدلاً كاملاً مقابل كل صرة صغيرة من الذهب؟

كان كل شيء أمامي ملبداً بالغيوم، فهمستُ،

- ترى كيف سيكون هذا الغد يا أبا محمد، وهل ستنجلي الضبابة لنتلمس أولاً دربنا في الحياة التي لم تعد حياة؟

تعبتُ! تعبتُ! أقولها لنفسي. لن تَنتناهى إلى سمع أحد وأمل أن هيأتي لا تفضحني. سحنتي لا تشي بي. والكنيس بلقع أو يكاد. أفتحه وأجلس منتظراً. أتخيل أرواح موتانا تنتظر منا تلاوة «القدّيش.» أتألم. لم يجتمع عشرة رجال منذ زمن. الكل يمضي. يهرب من صبلاخ. عانوا وعانيت أكثر منهم. أفحقّاً أن من يترك وطنه جبان؟! أفحقّاً أن من يترك مسقط رأسه خائن؟! ما أشد عنادي! ما زلت أتشبث بتراب صبلاخ وبمقبرة صبلاخ، مثوى أحبائي. وأنت يا حاخام ميخائيل، ماذا تنتظر؟ تقول لي «ما دمت يا أبا سلمان هنا، فأنا معك!» أفتح الهيكل. أفتح أدراج التوراة القديمة! النبوءات في أحشائها، وفي أحشائك، فهلا أنبأتنا بما سيحدث؟ حتى شفافية روحي، أصابها الصدأ. مرآتي تضبّبت. ما عدتُ أعرف ماذا تخفيه الساعة القادمة. العالم كله لا يعرف ماذا ستكشفه تلك الساعة. لماذا؟ لماذا؟ ماذا جنت هذه البلدة المسكينة يا ربِّي فضربتها هذه الضربة النجلاء؟!

«حتى متى ستنتظر؟!» يعيد علي السؤال، الحاخام ميخائيل، ومن تبقى من المصلين: لا جدوى، لن يكتمل عشرة رجال، وكلٌ في النهاية يصلي لوحده، صلاة الفرد، بلا «قديش»، بلا «آمين» بلا بهجة. بل بشيء من

Twitter: @ketab_n

الحزن. إننا نفقد جلبة صلاة الجماعة وكثيرًا من الفرائض. أسفًا. أين الآن سنلبي لأمواتنا ما يريدون، فنتلو على أرواحهم صلوات تبعدهم عن النار وتقربهم من الجنة؟ وأنت يا فلذة كبدي ناحوم، ويا صغيرتي إستير، أحقًا ارتكبتما إثمًا تستحقان عليه أن تُعذبا بنار الجحيم؟ كنتما نبعًا للطهر يبث السعادة في قلوب مقفرة. وعلى هذا وحده تستحقان الجنة. تعبت. تعبت! ولكن لا تقل هذا لأحد. فقد عرفك الجميع صلبًا لا تتعب. كالجوزة. كالبلوطة. كالسنديانة. كانت أفكاري وأنا أصلي، تشذ عن الكلمة في سفر الصلوات. اللهم عفوك! اللهم إن همومي تقتلني. والناس في هذه الأيام لا يهتمون إلاّ بالعملة. الورق مقابل الذهب. ويخيل لي أن الريح الغربية تحمل أصوات ضرب بعيدة. لكنها يقينًا ستقترب بعد أيام.. أما قتال مرتضى وولي حاجي زادة فغدا يكتسح كل شيء. تلك البعيدة، نيران العثمانيين موجهة إلى الجيش «الأحمر.» وليواصل العثمانيون قتل النصارى واليهود، أما الروس فأصبحوا الآن «حماة البشرية!» تعبتُ. تعبتُ! لا أقولها إلاّ لك يا ربي.

وأيقظني الحاخام ميخائيل من شرودي فإذا بالنهار يمضي حثيثا نحو الضُحى. واستعرضت الكنيس الخالي من حولي، وعدت فتوجهت إلى الهيكل فقبلتُ أدراج التوراة وأغلقت باب الكنيس ومضيت.

في الحوش كانت أسمر وفاطمة جالستين تتحدثان، وقشنك في المطبخ، في الأرجح عما قليل لن يبقى ما تطهينه يا قشنك فالنقود على وشك النفاد، ومخزن الطعام كذلك ولحسن الحظ لم نعد بحاجة إلى مد بيت بوزورك بالطعام، فالأب أصبح يأتي به من بعيد. مير كان يقطع الجهة الأخرى من الحوش جيئة وذهابًا. والعجوزان يتشمسان ويتهامسان. لاحظت التذمر على وجه شريكي. توجهتُ إليه فبادرني معاتبًا،

– أصبحت تتأخر يا شلومو وتتركني وحدي مع النساء!

فقُلتُ،

– ليس هذا ما يشغلك يا مير بل أشياء أهم بكثير!

Twitter: @ketab_n

فتنهد بضيق وهو يعبث بمسبحته،

- ماذا سيحدث يا أبا سلمان؟

- سمعتُ في طريقي أن العثمانيين عادوا وفتحوا جبهة باتجاهنا وهم يتقدمون نحو تبريز.

فقال،

- ليتهم يأتون على عجل!

فقلت،

- لن يتركوا هذه المرة يهوديًا أو نصرانيًا على قيد الحياة. أيديهم لم تجف بعد من دم آلاف الأرمن. والمذبحة مستمرة في كل مكان. ولن يستبدلوا الأوراق النقدية بالذهب، فخزينتهم في اسطانبول خاوية من كل شيء،

فهتف بتذمر،

- لعنة الله على الجميع إذن، ولتأت جيوش الشاه وتخلصنا! ما نحن؟ أكراد أم آذريون أم روس أم عثمانيون؟ لا بل إيرانيون نحن، فليستيقظ القجاري من نومه وليحم مواطنيه!

إننا صبلاخيون أكراد يا مير. هذا بيتنا. هنا وُلدنا يا شريكي. ويومًا وأنا في طهران أشتري الطعام، راودتني خاطرة «لماذا آخذ الطعام إلى صبلاخ عوض عن أن آتي بأهلي إلى طهران الآمنة من كل سوء؟!» وسرعان ما بدا لي أني أخون نفسي. عنيد أنا يا مير، كردي أنا، لكنني تعبت، ولم يبق لي حتى ما أعول به عيالي. ويهود صبلاخ ينزحون عنها. اليوم، لم أجد في الكنيس غير نفسي وثلاثة رجال، ولعلني أبحث الآن عن ذريعة لأترك بيتي هذا الذي بدت لي فكرة تركه يومذاك خيانة. العثمانيون يتقدمون ويقتلون في طريقهم كل من لا يعجبهم، ونحن لا نعجبهم يا أبا محمد، أفهو يوم آخر.. يومان.. ثلاثة أيام، حتى يُتخذ القرار؟ القرار «الخائن» يا مير! القرار البائس يا أبا سلمان! تعبت! تعبت! تعبت يا إلهي، فلا تزدني تعبًا!

Twitter: @ketab_n

وجاءت قشنك إلي راكضة تهتف،

- سيدي! سيدي! رجل على الباب يسأل عنك ويقول إنه جاء خصيصًا من طهران ليقابلك!

وهل بقي أحد في طهران يتذكرني وقد أصبحت صبلاخ كلها نسيًا منسيًا؟

قطع الفضول أفكاري وهمومي. هرعت إلى الباب. رأيت الرجل. في جزء من لحظة، التبس شكله علي، ثم سرعان ما انحسرت أربعة أعوام. من الهول.. الشاه.. المائة جلدة.. الزنزانة.. الخلاص. نعم.. عرفته إنه هو.

- أنسيتني؟

- وكيف أنسى من أنقذني من الموت؟! تفضل. تفضل يا سيد جلال، يا رافضي!

فقال،

- قد جئت سرًا في أمر مهم، لذا لم آت بسيارتي بل تسللت من طهران على حصاني.

دعوت قشنك، فأدخلت الحصان إلى الإصطبل ودعوت الرجل إلى غرفة الضيوف وأنا أقول،

- أنت ضيفي قدر ما تمكث في صبلاخ.

فقال،

- بل سأبلغك ما جئت من أجله وأعود قافلاً إلى طهران وليبق الأمر سرًا بيننا.

- إذن، إغسل وجهك وقدميك وتغد واسترح ثم نسمع ما لديك.

فقال جازمًا،

- ليتم ذلك بسرعة إذ لا وقت لي ولكم على السواء.

لا وقت لنا؟! وخزني قلبي. هل يقصد العثمانيين المقتربين؟! أمن أجل هذا جاء سرًا وتجشَّمَ عناء السفر من طهران؟! تريث! فالمصيدة تضيق علينا الخناق كما يبدو، ولكن أكرِمْ ضيفك الكبير القادم من طهران مفعمًا

Twitter: @ketab_n

بالغموض. الفضول شديد والخوف كذلك، ويتزاحمان على مشاعري. إن الرجل يبدو مضطربًا والسر الذي يحمله، خطير دون ريب. أكل على عجل ثم طلب الإذن بالاختلاء بي. مكثنا وحدنا في غرفة الضيوف والباب أمامنا مغلق. وإذ تأكد الضيف من أن أحدًا لا يسمعنا قال هامسًا،

– عليك يا شلومو كتاني أن تترك مع أهلك ويهود صبلاخ كلهم البلدة بسرعة.. في غضون يومين في الأكثر وإلاّ...

حدقته متسائلاً بذهول،

– أقلقتني يا سيدي، فما الأمر يا سيد جلال؟

وخفض صوته أكثر،

– الشاه يتهمك ويهود صبلاخ بالتعاون مع الغرباء، وقد حكم عليكم بالإعدام. وهو يعد مجموعة تصفية ستصل قريبًا إلى هنا لتنفيذ الحكم فيكم، وأنت وأهلك على رأس القائمة.

أُفحمت ودار رأسي فأردف،

– ما أن نما هذا إلي حتى أسرعت إليك سرًا لأحذرك، وأطلب منك الهرب مع يهود صبلاخ. والوقت ضيق يا شلومو.

إذن، ظلمت في حينه هذا الرجل الذي داواني وجلب لي الطعام الحلال وهربني من زنزانتي، قبل أربعة أعوام. سهمت فواصل جلال رافضي همسه محذرًا،

– إنس لقاءنا هذا يا شلومو، وانس أني حذرتك. إن أحدًا لا يعرف بمجيئي ولو عرف شخص بذلك فستتعرض حياتي وحياة أسرتي للخطر!

فقلت ببديهة آلية،

– ولماذا تجازف بنفسك يا سيدي من أجل مجموعة بائسة من يهود صبلاخ؟! أفلم تفي بعد «معروف أبي» إزاءكم؟

فهمس بصوت شديد الخفوت،

– سأبوح لك بسر آخر يا شلومو. أنا في الحقيقة ابن لعائلة يهودية طهرانية كبيرة. وقد أحببتُ في صغري فتاة تنتمي إلى العائلة المالكة.

Twitter: @ketab_n

والهوى ياشلومو أقوى من الدين والعقيدة. أسلمتُ ودعوت اسمي «جلال رافضي.» لكن العرق دساس كما ترى...

فجأة إرتبكت الأمور كلها. بماذا أفكر وماذا أقول؟ لم أعرف، إلا أنه عاد وسبقني قائلاً،

– إذن، عليكم مغادرة صبلاخ خلال يومين، وأن تسبقوا أحمد القجاري في تنفيذ مأربه. فأرجوك مرة أخرى: إنس لقاءنا هذا وامحه من ذاكرتك، عدني!

مد يده فضغطت عليها بحرارة وعرفان وقلت،

– أعدك، ولن أنسى أبداً أنك انقذت حياتي مرة وأنقذتها مع سائر أهلي وأبناء طائفتنا في صبلاخ مرة أخرى. وسندين أنا وأهلي ويهود صبلاخ لك بهذه الحياة.

فنهض وقال،

– والآن بعد أن أكلتُ واسترحت وأكل حصاني، يجب أن أعجل بالعودة. لقد قطعتُ كل هذه المسافة لأحذرك، فلا تتريث وأعدّ أهلك وأصحابك للرحيل، غداً أو بعد غد، وأستودعك الله وأتمنى لكم جميعا السلامة.

* * *

لإشباع فضول من في البيت قلتُ إن الرجل صديق مرّ بالبلدة فتذكرني وجاء ليراني ويطمئن. قلتُ هذا ثم ختمت على فمي بالشمع الأحمر، بيد أن الوقت يمر والخطر يقترب. كيف سأبرّر ضرورة النزوح والتعجيل به؟ النزوح! كلمة كحلم لا معقول. ولكن ها بوقت افتتاح الكنيس قد حان رغم خلوه من المصلين. ماذا سأقول لهذه القلة الباقية من يهود صبلاخ؟ طريقي من البيت إلى الكنيس وفّر لي السبب. عرف الجميع أن العثمانيين يقتربون من تبريز كالعاصفة، ويسحقون في طريقهم كل «كافر.» كانت مذبحة الأرمن ما انفكت تسمّر الشعر في الأبدان وتثير القشعريرة في كل جسم حي. أخبرت الحاخام ميخائيل بضرورة التأهب للرحيل، أخبرت أيضاً حماي متتياهو جونه، وطلبت من أغاسي وزوجته أن يستعدا مع

Twitter: @ketab_n

نعيم باريزات للسفر. وعهدت بكل من لقيته بأخبار جماعة معينة ممن أثر من أبناء الطائفة. ثم عدتُ إلى البيت.

عرفوا أن علينا أن نرحل قبل وصول العثمانيين، فهذه المرة تعني فناء الطائفة الصغيرة في صبلاخ، لم أضف شيئًا، رغم كثرة الأسئلة. لمَ كل هذه العجلة؟ إلى أين سنرحل؟ وما أشد ثرثرة الفضول! كنتُ متعبًا، كاد يقعدني الإرهاق والإحباط. أفمن السهل أن أُفارق بيتي وشريكي وبلدتي وكل ما في صبلاخ؟ تجولت في الزرائب والمخازن. لم يبق فيها الكثير. تركتها إلى شريكي. سامرته دون هوادة ولأول مرة اكتشفت جمال فاطمة الصاعق وشرفها العنيد. خصلتان قلما يجتمعان في امرأة. يقينًا أن شريكي محظوظ. المال والزوجة والبنون.. وأنا فقدت المال وسأفقد الوطن، لكني ما زلت محظوظًا بأسمر وبأولادي الثلاثة، فماذا تخفي لنا الأيام القادمة؟

عندما خلدت إلى مضجعي هاجمني السهاد من جبهات شتى، تقاذفتني أفكار ضربت جنبات رأسي كجمار.

أجل يا أبا سلمان. في غبش الأشياء وجدت الذريعة. وفي غمرة الإعياء عثرت على الحجة. اهرب من المصير المجهول! نداء مكتوم كان يهمس في أعماقك منذ انتابك التعب، ولكن أحقًا هي ذريعة أو حجة واهية؟ أوليس من العار أن تصر على عنادك الكردي الأصيل، حتى والخطر الحقيقي يحيق بك وبأهلك وبيهود هذه البلدة المسكينة؟ كانوا أعقل منك وأكثر حكمة، معظم يهود صبلاخ وحتى اخوتك. شاهدوا ما لم تشاهده يا رائي الغد والمستقبل. ولماذا رأوا هذا الخطر الداهم ولم تره أنت؟ ألأنك أوحيت لنفسك بأن الفرار من مسقط الرأس خيانة وجبن؟ إنهم هم الذين يخونونك الآن. وهذا هو القدر أيها الكردي العنيد. هم أرادوا لك أن ترحل. حكامك والغرباء! كأنهم تآمروا عليك معًا لتغادر مسقط الرأس الحبيب. الشاهنشاه والعثمانيون والروس. كلهم. كلهم. أرادوا لهذه البلدة المسكينة أن تُفجع ولك أن تذهب؟! إذ ماذا تفعل إذ يحاصرك الموت

Twitter: @ketab_n

ويحاصر أحبّائك من كل جانب؟! ها بالقذائف تتناهى واضحة من صوب تبريز. العثمانيون قادمون من الشمال يا أبا سلمان وفريق القتلة سيأتي هو الآخر من طهران ليقتلك ويقتل أهلك وأصحابك. بهدوء وسرّية سيأتون لتتم المذبحة من الجانبين. كلا! هي ليست ذريعة ولا حجة واهية! إنها إرادتهم هم. إرادة حكامك وإرادة العثمانيين. هم حكموا عليك وعلى كل يهود صبلاخ بالرحيل. وإلى أين ستمضي والحريق من حولك يتأجج بكل وقوده البشرية، وبالحقد والبغضاء؟! أبشري يا أسمر يا أم البنين، اذ أنهم لن يتركوا لنا خيارًا إلا العراق! أبشري إذ سنمضي إلى المكان الآمن الوحيد القريب منا، وسنمضي مهاجرين لاجئين أذلاء معدمين! سنمضي ومن يدري، فربما نلتقي بأهلك الذين انقطعت عنا أخبارهم منذ زمن طويل. سنمضي رغم أنفسنا. تاركين بيتنا هذا، بعد ان رافقنا ورافقناه مدى حياتنا. سنترك المناظر المنقوشة في الفكر، المطبوعة في العين. وأصحابنا الذين ألفناهم وألفونا منذ الطفولة. وأحببناهم وأحبونا. وسنترك آثارنا، وقبور أحبائنا. البالية منها والحديثة العهد. عزاؤنا أن حفنة من أبناء جلدتنا سترحل معنا وإنهم سيشاركوننا مصيرنا المجهول. إن مصيرنا القادم، مهما استغلق واستعصى، سيكون مصيرهم. مصير لا مرئي مهما حاولنا إزاحة الغبار عنه، إننا راحلون يا أسمر. راحلون يا سلمان وصيون ومريم! راحلون يا مير ويا فاطمة ويا أولاد شريكي ويا أمه وأباه. راحلون رغمًا عنا يا صبلاخ وأهلها. راحلون يا كل إيران. راحلون يا أعزاءنا الموتى. يا أبي ويا أمي ويا حاخام ناحوم ويا فلذة كبدي ناحوم وإستير الصغيرين، ويا أُمهما إستير، ويا عزريا الصائغ ويا كل موتى صبلاخ! حتم انوفنا سنمضي، وحتم أنوفنا، لو اجتزنا الحدود سالمين، سنضحى حثالة من اللاحئين وأما أنت أيها الليل المبرح الطويل، فأنقضِ لينبلج يوم المصير المهول، وما أكثر أعباء يوم المصير!

* * *

Twitter: @ketab_n

لم تنمْ ولم تدع أسمر تنام. رأتك المسكينة تنهض قبل الطير، قبل خيط الفجر، فتنهدتْ وهمستْ

– قلبي عليك يا أبا سلمان، تقلبت على فراشك طول الليل، وقمت قبل انقضائه.

حمل سكون الليل أصوات جلبة وضرب مكتومين، إختلطت بصياح الديكة. قلت بهدوء،

– الوقت قصير والمشاغل كثيرة. وهذا آخر يوم لنا في صبلاخ!

ترى أسيحالفكم الحظ فترتمون في أحضان المجهول فرارًا من الموت المحتوم؟

وتفكهت بـ«سيحالفكم الحظ» هذه. وبدت لك كنكتة سمجة، ففررت منها إلى الأعباء الجسام، وقلت لأسمر،

– لن نأخذ غير صندوق الثياب وحليك يا أسمر.

وعجلت إلى الكنيس. ما هذا اللغط الذي يغمر صبلاخ؟ لم يصل العثمانيون بعد ولا جماعة الشاه القاصدة اغتيالك وأهلك وأبناء جلدتك. وهذه آخر مرة ترى فيها هيكل الرب هذا، وقد نشأت على مناجاة ربك فيه. فمتع نظرك منه وأشبع من رؤية كل ما يربطك بصبلاخ الحبيبة وصليت لوحدك. ولما فرغت جاء الحاخام ميخائيل، وعمك متتياهو جونه. قالا إنهما شاهدا حسن جاقماق وعددًا من صحبه يغادرون البلدة. القيامة قريبة إذن، والعثمانيون قادمون. وسيفر جاقماق وأصحابه مع الجيش الروسي. وقتلة الشاه القجاري المجرم، أهم أيضًا سيصلون اليوم كذلك؟ لا بد من التعجيل! لا بد من الإسراع! لا بد من أن نقتلع جذورنا فورًا ونهرب. وفتحت الهيكل وأخرجت أدراج التوراة الثلاثة. أدراج التوراة هذه ستصاحبنا في مصيرنا المستغلق. أما الباقي فسيظل حبيس جدران الكنيس إلى ما شاء الله.

وسألت الحاضرين،

– أكل من بقي من أبناء الطائفة جاهز للرحيل؟

Twitter: @ketab_n

فوعدوا بإشعارهم مرة أخرى ووعدت بإبلاغهم بموعد المغادرة. وعندما بدأ النور يكشف عن ماهيات الأشياء كان كل منا يحمل درج توراة إلى بيته وكان باب الكنيس يقفل بمفتاح ظل معي ورافقني طوال عقود من العمر.

وقفت أمام باب الكنيس المغلق وأنا أحمل درج التوراة. خفق قلبي خفقات حزن الفراق. أما عيناي فمكثتا مجدبتين. كان كل شيء غامضاً إلا البعد الموعود وهذا الفراق.

* * *

جثتْ على قدميها، ومضت تلثم قدميّ وتبكي وتتوسل، أرجوك يا سيدي، لا تأخذني إلى أهلي، إني معكم حيثما تذهبون.. كيف يطاوعك قلبك يا سيدي بحرماني من الأولاد ومنكم؟! أنتم أهلي فهل تظنني أقدر على فراقكم؟ قولي له أنت يا سيدتي! تشفعي لي. لا تحرمني منكم يا سيدي! وكنت ضيق الصدر، عصبي المزاج. استعذتُ بربي. أجننت يا قشنك؟ إن لك أهلاً يطالبون بك، ونحن سنمضي ولا نعرف ماذا سيحدث. مرغمون نحن ياقشنك، وأنا مسؤول عنك أمام أهلك. ولو قدّر لنا أن ننجو ونصل إلى حيث نريد، فالبعد شاسع ولن نرى صبلاخ بعد، حتى يأذن الله. وهي تزداد تضرعًا وبكاءً وتهدد «سأقتل نفسي لو تركتموني وذهبتم.» ونظرت إلى أسمر، إلى الأولاد، نظراتهم متعاطفة معها. ومعها يتوسلون في شبه كتمان. حتى مير وفاطمة وأولادها وقفوا مشدوهين. وأنا أُسابق الزمن والموت، واللعينة تكاد، بسلوكها هذا، تحبط علينا كل شيء. ثم أخيرًا توصلنا لقرار. أن آخذها لذويها، والقول الفصل، يكون قول أبيها، وعلى مضض سارت وإياي. ووصلنا إلى بيت أهلها. بيت أهلها؟ قل زريبة، أو مذود أو مزبلة. خرابة لو نقلت إليها بهائمي لعافتها ولماتت خلال يومين. وعوض البهائم أولاد شبه عراة يدبون على الأرض، كالدود في كثرتهم، نجوا من الموت بفضل قشنك ذاتها. أكلوا الطعام عوض البشر. رأتها أُمها ورآها أبوها، فدَهمهما ذعر طاريء. الملعونان!

Twitter: @ketab_n

كأنما تآمرا معها. الأم تقول «هذه بمثابة ابنتكم يا ولدي، فكيف تتركها لهذا المصير، وأنت تراه بعينيك فتتألم وتنتفض؟!» والأب يقول «خذها يا سيد شلومو، خذها! بفضلها بقينا على قيد الحياة، إبان الجوع الكبير، وبالكاد نعرف الآن طعم الدنيا، وكيف سنعيش لو رميتنا بها وذهبت؟!» وأنا ماذا أفعل؟! عدت بقشنك إلينا. وبكاؤها انقلب فرحًا. وجاء أبوها وأخوتها معنا، فأخذوا من البيت ما يمكن أخذه. فرح الأولاد برؤيتها. وانشرح صدر أسمر. وأعترفُ لك، أن وقرًا زال عن قلبي. الملعونة! كانت واحدة من أهل البيت فعلاً. لكنها كانت مسؤولية ثقيلة في عنقنا، خلال رحلتنا القادمة المجهولة المحفوفة بمخاطر لا يعرف كنهها غير الله.

هل قلتُ لك، إنني في أيام الضنك والحرمان الأولى ببغداد، سلمتها لتاجر بغدادي معروف، استخدمها ثم زوجها من سائقه الخاص؟ لكن قشنك لم تكن تترك يومًا يمضي دون زيارتنا وقضاء بعض الوقت مع سلمان وصيون ومريم.

مكثتْ على عهدها هذا، حتى بعد أن تزوج الأولاد وأنجبوا أولادًا، ولم تنقطع لقاءاتنا حتى رُحِّلنا عن بغداد.

كان وفاء قشنك وفاءً يمكن أن يُتخذ قدوة ومثالا! إيه!

* * *

يا أصحاب الأجداث! من يدري، لعلنا نلحق بكم قبل أن نراكم مرة أخرى! كانت القبور آلافًا مؤلفة ويهود صبلاخ حفنة ستتلاشى بعد الوداع الأخير. وأنت وأصحابك تتجولون بين الأحبة الراحلين. قبور مندرسة، وأخرى حديثة العهد. والحزن والحنين ماردان لا يكفان عن التوقيع على أوتار حساسة في الروح.

وأنت على رأس مجموعة رجال يكملون العشرة ويتيحون لكم الصلاة، وتلاوة «القديش.»

الوقت ضيق. الوقت يتجه بخطاً حثيثة إلى الخطر الداهم. بل هما خطران، خطر قادم من طهران، من «الأهل»، من السلطة، من الشاه بذاته.

Twitter: @ketab_n

وخطر يزحف من الشمال. تبريز توشك أن تسقط بيد العثمانيين المجتاحين وهم في سكرات الموت. الأرض و«الكفّار» الرّوس، أبي وأُمي، وجدودي! لترقد عظامكم في مضاجعها آمنة. أما أرواحكم فلتشرف علينا من عليائها وتطلب لنا السلامة في دربنا المجهول. ناحوم وناحوم. إستير وإستير. لقد قضى الغرباء منكم وطرهم فناموا أنتم بهدوء!

كانت مشاعره تتجامح، بيد أن عينيه ظلتا مجدبتين. وقد تجاوز النهار الظهيرة، وموعدنا الثالثة عصرًا عند المخرج الجنوبي من صبلاخ..

* * *

عانقتُ مير. عانقتْ أسمر، فاطمة. بكت المرأتان. أما الأولاد فبدوا مشدوهين، لا يفهمون. طال العناق، عناق أسمر وفاطمة تخلله النشيج. عناقي ومير تخلله حوار جمع خلاصة السنين. كأننا حين فتحنا أعيننا على الحياة فتحها أحدنا على الآخر، مثل أولادنا. وسنفترق الآن رغمًا عنا. فراق متعسف ظالم، حرمان من كل ما عرفنا ووعينا، فراق يبدأ بأيران، ويتقلص بصبلاخ. صبلاخ بكل ما فيها. وبكل من فيها.. إنه فراق من الحياة ذاتها. وقال مير وكان يخيل إليّ أنه يذرف دمعة.

– لم أتصور أنك ستنهزم في النهاية!

بقيت عيناي مجدبتين. كان الدمع دمًا ينزف من قلبي، قلت،

– لا تهمني نفسي يا مير. لكنني لا أريد أن أرى أسمر ومن تبقى من أولادي يتمرغون بدمائهم، كما حدث لأولئك.

فقال،

– تتكلم يا شلومو وكأن العثمانيين سيبحثون عن يهود صبلاخ بالشمعة كي يصفّوهم بالجملة.

قد يحدث هذا فعلاً ولكن ليتك يا صاحبي تعرف ماذا أعد لنا حكّام بلدنا أنفسهم. أجل. سأحذّر شريكي في آخر الأمر.. لابد، أفليس من الجائز أن يعتقد مجرمو الشاه، أنه شلومو كتاني وأن أهله، أهلي، فيمضون جميعًا إلى خيث كان يجب أن نمضي نحن؟! وقلت،

Twitter: @ketab_n

- مير، وهل تظنني كنتُ سأخوض غمار المجهول وأعرّض أولادي وأسمر وحتى قشنك للخطر لو لم يكن بقاؤنا هنا يعني الموت المحتم الأكيد؟!

أفحمته وأثرتُ استغرابه، حدجني مستقصيا مصدر ثقتي هذه الراسخة بما ينتظرنا في صبلاخ. لعن العثمانيين لأنهم السبب في فراقنا. ترقرقت في عينيه دمعة أخرى، مسحها بيديه واختنق صوته إذ قال،

- الحق أن فراقكم سيكون علينا شديد الوطأة كالحرب تماماً. سيما بعد أن سكنا في بيتكم واتحدت أسرتينا في أسرة واحدة.

فقلت،

- وستبقون به يا مير، فبيتك ما عاد صالحًا للسكن.

- خذ هذا المال يا شلومو!

أشحت عنه بوجهي وأنا أدفع صرتَهُ المقدمة لي بيدي، كلا يا مير. إني سأترك لك بيتي وكل ما فيه مع بستاني في صبلاخ. وسأترك بيدك قلبي وديعة، أما مالك فلن أقبله يا شريكي العزيز. صحيح أنك لا تعرف، ولا يعرف أحد إلى أي حضيض من الإفلاس بلغت، هي ليرتان فقط قد أثرتا ومعهما حلي أسمر. قد طلبت منها أن تربطها على بطنها، والباقي صندوق واحد يتضمن ثياباً وغيارات لنا وللأولاد وقشنك. عدت من شرودي بسرعة وهمست،

- كثرة المال لا تليق باللاجئين، وقد لا يُقبل طلب لجوئنا لو رأت سلطات الحدود في الدولة التي نقصدها كل هذا الثراء.. ولا تنس يا صاحبي، إن قطاع الطرق قد كثروا مذ نشبت الحرب. فأعد مالك إلى جيبك يا شريكي، وقد يجمعنا لقاء في يوم ما.

كل شيء جاهز الآن. إنفصال الروح عن الجسد على وشك أن يتم. العربة. درج التوراة. صندوق الثياب. الطريق المجهولة. ونحن على عتبة الباب حاولتُ أن أذرف دمعة، لا جدوى. العينان غائمتان بسحب لا تمطر، تذكّرتُ أن علي أن أحذّر مير. ركب الأولاد وقشنك وأسمر. عائلة مير كلها تقف على عتبة الباب.. الجيران يطلون من الشبابيك ولا يفهمون. أتمهل قليلاً. أعود أدراجي. أحتضن مير وأهمس في أذنه،

Twitter: @ketab_n

– ادخل يا مير مع أهلك واحكم إغلاق الباب وراءك. ولا تفتحه لأحد في الأيام القادمة. فلو جاء قتلة الشاه إلى هنا، وسيأتون قريبًا، فستضيعون يا أخي في غمضة عين.

لم يفهم فقال،

– افصح يا أبا سلمان فأنت تقول أشياء غريبة.

قلت، وشيء في أعماقي يحثني على الإسراع والرحيل،

– سيرسل الشاه مجموعة من القتلة لتصفيتنا وكل يهود صبلاخ. سيتم هذا قريبًا جدًا. لا تسألني يا مير كيف عرفت. المهم أن تحذر، بعد انقضاء هذه الليلة، وآمل أن تمر بسلام، يجب أن يعرف كل أهالي صبلاخ أن يهود صبلاخ قد رحلوا إلى مكان مجهول، لتعود عصابة الشاه على أعقابها خائبة.

واتخذت مكاني في صدر العربة ثم سطت جواديها، فانطلقت تعدو!

وداعًا لك يا صبلاخ!

* * *

الخطر قادم من الشرق، الخطر قادم من الشمال.

وقافلة من العربات تمضي جنوبًا وتنحرف نحو الغرب، صخور ملونة تشقها شعاب تعلو تارة وتنخفض تارة. وأشجار كبيرة خضراء وأعشاب تكثر أو تنزر، من عاد يتذكر الربيع؟! الربيع عيد المطمئنين، وما أبعدنا نحن عن الطمأنينة، لكننا في هذه اللحظات نبتعد أيضًا عن أخطار معلومة قادمة. نتوغل عميقًا في غياهب المجهول في يوم مشهود. يوم اقتُلعت فيه جذورنا من ترابها. كنا جماعة قد صمدت في كل الأهوال. فجّت تيارات النار والموت. وظننا أنّا أخيرًا نبلغ شبه نهاية البحر العاصف. نرتمي، ثمَّ، كي نلتقط الأنفاس. لكن شبحًا مسخًا اقترب منا. داهمنا ففررنا منه فزعين.

تمضي القافلة في درب ستغرب شمسه بعد قليل. عربات ستبتلعها العتمة واللامعروف. تحلم بشراء حياتها في بلد آخر. مجموعة لم يحمها حكامها من أنفسهم، وما درؤوا عنها ظلم الغرباء، ففرّتْ، مصطحبة معها سقط متاع.. سقط متاع يا صبلاخ المبتعدة المحبوبة. إننا نحن أصبحنا،

Twitter: @ketab_n

يا صبلاخ، سقط متاع، وها بالليل يلقي على الدنيا لون غراب، وعربات الفارين تسرع في العتمة قدمًا نحو حدود غربية. مجموعة قد فقدت هويتها.. تطوي أرض الآباء حثيثًا، يبتلعها الليل.. وعما قليل ستبتلعها أراضي دولة أخرى غريبة لتغدو، مجموعة مهاجرين، لاجئين، مساكين!

(تمت)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ketab.me
Best Books

هذا الكتاب

تمضي القافلة في درب ستغرب شمسه بعد قليل. عربات ستبتلعها العتمة واللامعروف. تحلم بشراء حياتها في بلد آخر. مجموعة لم يحمها حكامها من أنفسهم، وما درؤوا عنها ظلم الغرباء، ففرَّتْ، مصطحبة معها سقط متاع... سقط متاع يا صبلاخ المبتعدة المحبوبة. إننا نحن أصبحنا، يا صبلاخ، سقط متاع، وها بالليل يلقي على الدنيا لون غراب، وعربات الفارين تسرع في العتمة قدماً نحو حدود غربية. مجموعة قد فقدت هويتها... تطوي أرض الآباء حثيثًا، يبتلعها الليل... وعما قليل ستبتلعها أراضي دولة أخرى غريبة لتغدو، مجموعة مهاجرين، لاجئين، مساكين!